الطريق بدءاً من الرمادي

التمرد الخاص

للرقيب الأول كاميلو ميخيا

كاميلو ميخيا

نقله إلى العربية

أسعد كامل إلياس

العبيكان
Obeikan

obeikandl.com

صفحة الحقوق

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

obeikandl.com

المحتوى

أولاً 9
ثانياً 33
ثالثاً 59
رابعاً 91
خامساً 121
سادساً 149
سابعاً 179
ثامناً 217
تاسعاً 245
عاشراً 277
الحادي عشر 303
الثاني عشر 335
المحاكمة 363
مذكرة رئيس التحرير 411
اعترافات بالجميل 415
خاتمة: بقلم: كريس هدجز 417

obeikandi.com

obeikandl.com

سيكون هناك نحيب في الشوارع كافة وصرخات ألم مبرح في
كل ساحة عامة

عاموس (16/5)[1]

إهداء

إلى الشعب العراقي الباسل، مع أصدق اعتذاري، وأخلص احترامي، وأكرم إعجابي وأعمق مشاعري القلبية.

(١) هذا الكلام ورد في العهد القديم بالشكل الآتي: في جميع الساحات يكون نحيب وفي جميع الشوارع يقال: ويل ويل ـ المترجم).

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandi.com

أولاً

انقضى زمن طويل منذ أن غادرت نيكاراغوا في أواخر عام 1991. وعقب خريف العام السابق للحكومة الساندنستية، قررت أمي، التي كانت آنذاك وحيدة منذ انفصالها عن والدي بعد أن ولدتني مباشرة في عام 1975، أن تعود مع ابنيها إلى موطنها الأصلي كوستاريكا.

كنت آنذاك في السادسة عشرة من عمري، أي في مثل عمر والدتي عام 1971، عندما كان لقاؤها الأول مع والدي الذي كان مشهوراً في المجال الإذاعي وكان يكبرها بأحد عشر عاماً. إن والدي، إضافة إلى الاحتفاء به بفضل ذيوع صيته وجاذبية حديثه الذي يستهوي عامة الناس عبر الإذاعة، فقد ارتفعت مكانته بعد الإعلان عن غرامة كبيرة فرضتها عليه دكتاتورية سوموزا؛ لأنه كان ينتقد الفساد الذي يمارسه النظام دون خجل. لقد كانت البرامج الإذاعية التي يقدمها والدي بأسلوب الدعابة التي اشتهر بها العامة، تسخر من فساد الحكومة عن طريق السخرية بالشرطة العسكرية المعروفة باسم الحرس الوطني. لقد كان التناول التهكمي للأحداث يتم في الإذاعة عن طريق تصوير مشاهد مألوفة كثيراً لدى الناس يظهر فيها الحراس، وهم يتلقون الرشوة من المواطنين من أجل التنازل عن مخالفاتهم المرورية أو في صورة تلقي المعونات المالية الدولية من أجل انتفاخ جيوب الدكتاتور والأشخاص المقربين إليه.

ذات يوم زارت والدتي محطة الإذاعة، حيث يعمل والدي، وهي لم تكن امرأة سياسية، ولا كانت شديدة الإعجاب بنجومية والدي في الإذاعة، فقد قامت بالزيارة من أجل بث خبر إذاعي يتضمن رسالة إلى بعض أقاربها، وبما أن الاتصال الهاتفي كان نوعاً من البذخ، وكثيرون لا يستطيعون دفع أجره، كان الناس يكثرون من الاستماع إلى الإذاعة وكثيراً ما استخدموا الموجات الإذاعية للاتصال بذويهم في سائر أنحاء البلد.

كانت إحدى شقيقات والدتي لها قريب أجريت له جراحة لإزالة المياه الزرقاء في عينه، وكان مضمون الرسالة المطلوب بثها أن كل شيء على ما يرام، وأن ذلك القريب سيصل إلى منزله في يوم معين، وأن المطلوب أن يأتي أحد الأشخاص ومعه مركبة يقف بها عند مدخل المزرعة؛ لينقله إلى المنزل الرئيس.

أعجب والدي بوالدتي بمجرد أن شاهدها، فاستخدم كل طاقته في محطة الإذاعة؛ للتأكد من أن الخبر المطلوب بثُّه قد أرسل مباشرة. لقاء ذلك أهدته والدتي تذكرة لحضور حفل كانت هي ستحضره. في أمسية ذلك الحفل سارع في العودة من حفل غنائي كان يقدمه على مسافة من مدينة ماناغوا؛ ليضمن لقاءه مع والدتي. وهكذا كانت بداية علاقته معها في ذلك المساء.

شعر والدا أمي بسرور بالغ؛ لأن ابنتهما كانت تخرج مع شخص وثيق الانتماء إلى المقاومة السياسية في نيكاراغوا. ومع أن والدتي قد وجدت في والدي شخصاً فاتناً بهيّ الطلعة، فقد كان السبب الأول لإقامة لقاءات أتاحت لها فرصة الخروج من المنزل؛ للقاء أناس آخرين بصحبة شخص

كانت معجبة به فعلاً. ومع أنها لم تكن تقابل أي شخص كان، فإنها سرعان ما تعرفت على كبار شخصيات المقاومة الساندنستية بها، وكانت المقاومة آنذاك خليطاً من الطلبة والعمال، والطبقة الوسطى، إضافة إلى الفقراء ورجال الدين والملحدين، والأميين والشعراء، وأصحاب النظريات والمقاتلين في حرب العصابات. ولم يمضِ وقت طويل حتى كانت والدتي قد تزوجت وصارت ثورية نشطة، منخرطة في تجنيد أعضاء حملات أبناء الريف والحركات السرية ضد دكتاتورية سوموزا. إن والدتي، التي كان قد رزقت بولد وحملت بي، وقد كانت تعمل بكل قوتها لتنظيم عصيان مسلح في المناطق المجاورة لنيكاراغوا.

كان والدي قد استخدم على مدى زمن طويل العرض الإذاعي «كوربوريتد» لتصعيد انتقاد دكتاتورية سوموزا. كان كوربوريتد شخصية في عروض إذاعية، مثّل والدي شخصيته في العمل الإذاعي مباشرة، ساخراً من الدكتاتورية ومن الحرس الوطني المرهوب الجانب والكلي الوجود، في «أغاريد» أو أغنيات.

في أول الأمر اعتبرت الحكومة والدي شخصاً لا يعدو كونه إزعاجاً لا ضرر منه، وحصرت ردودها عليه بفرض غرامات وتهديده من حين إلى آخر بالسجن، ووالدي بدوره أعلن عن هذه الردود، وهذا ما أبهج جموعاً من الناس وزاد من شعبيته، ولكنه قبل مضي وقت على لقائه مع والدتي صار انخراطه في الكفاح السري توجهاً أكثر مباشرة واستعداداً للقتال. لقد أخفى عن والدتي هذا الانخراط السري مدة طويلة، إلى أن اعترف لها ذات يوم بانضمامه إلى الجبهة الساندنستية للتحرر الوطني التي كانت المنظمة الثورية الرئيسة لمكافحة دكتاتورية سوموزا.

استمدت المنظمة اسمها من الجنرال ساندينو (Sandino)، الذي كان قد قاوم احتلال المارينز الأمريكيين لجمهورية نيكاراغوا في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي والذي اغتيل من قبل الجنرال أناستازيو سوموزا (Anestasio Somoza)، رئيس الحرس الثوري في عام 1930، وقد صار سوموزا ذاته رئيساً للجمهورية فيما بعد، فتولى رئاسة نظام فاسد فرض حكمه على نيكاراغوا بوحشية شديدة وبمباركة حكومة الولايات المتحدة على مدى قرابة أربعين عاماً. لقد كان إيجاد الجبهة الساندنستية للجبهة الوطنية رداً على تلك الدكتاتورية العسكرية.

أمي أبلغت والدي أنها أيضاً صارت عضواً نشطاً في الكفاح المسلح، غير أن والدي أبدى معارضته لانخراطها في الثورة، زاعماً أن إقدامهما معاً على مجازفات من هذا القبيل أشد خطورة عليهما. ولكن أمي لم تأبه، فهي في مقتبل العمر ومفعمة بالحماس، وليس عزمها على المتابعة أمراً هامشيّاً، فالثورة تشغل أمامها.

في نحو ذلك الزمن وقع أَمْرٌ جَلَلٌ في القيادة الساندنستية، إذ في العام 1974 اقتحم مكافحون حفلاً منزلياً أقامه أحد أقرب الأصدقاء إلى سوموزا، حيث استولى مسلحون، وجوههم ملثمة بعلم الساندنستا بلونيه الأحمر والأسود، استولوا على المنزل بالقوة، وقتلوا المضيف صاحب المنزل وأخذوا جميع الذين كانوا في المنزل رهائن، وكانت مطالبهم تشمل الحصول على المال، والحرية لكثيرين من رجال العصابات الذين احتجزهم نظام الحكم، وتشمل أيضاً حرية المرور للذين قبضوا على ضيوف الحفل، وكذلك إعلان نداء موجهٍ إلى شعب نيكاراغوا للانتقضاض المسلح على الدكتاتورية.

استجاب نظام الحكم للطلبات كلها، ولكنه بعد ذلك شنّ أعمال قمعٍ شرسة في سائر أنحاء البلد، في محاولة لسحق الدعم المقدَّم للثورة. كان الناس يسجنون لمجرد الاشتباه بأنهم ساعدوا الثوار، وصار التعذيب واختفاء الناس من الأمور الشائعة، إن هذا الضغط أوجد توترات داخلية في الجبهة الساندنستية للتحرر الوطني، مصحوبة بدفع بعض أعضاء المنظمة إلى مزيد من الوضع المتوتر داخل المدن، ونادى آخرون بمزيد من النظرة المعتدلة المتعقلة. فنشأت فئات ونجم عن ذلك انقسام عميق في القيادة.

خلال هذه المدة القمعية، وبينما كانت القيادة الساندنستية تعيد تكوين نفسها، وبينما توصل سائر القادة والمفكرين إلى التوجهات والأساليب التي أرادوا تبنيها، تُرك أناس كثيرون وشأنهم دون توجيه، فكان مصيرهم إما الذهاب إلى المنفى، أو أن يستسلموا للسبات. أما والدتي، التي كانت تنظم أبناء الريف، منذ كانت أحد الناس الذين أُهملوا دون توجيه، فقد تخلت عن النشاط آنذاك وزادت تركيزها على حياتها الشخصية وعلى أسرتها.

الأمر كان مختلفاً عند والدي، إذ كان معظم عمله خارج الإشراف المباشر لقادة الساندنستا فلم ينخرط في العمليات المسلحة ولم يهتم كثيراً بأن يكون العقل الموجه للحركة ـ لذلك تابع أداء أغنياته الهدامة في تجمعات سرية، وأحياناً في الأوبرا، وفي المراكز الاجتماعية، والكنائس، وجامعة ماناغوا المتمتعة بالحكم الذاتي، حيث كان الطلاب يتابعون تجنيد الناس بقوة، ومن أغنياته في تلك المدة أغنية «قبر أعضاء العصابات» (La Tumba del Guerrillero) التي تروي قصة اختفاء مقاتلي رجال العصابات الذين واجهوا الموت وأخفى حرس سوموزا جثثهم، دون أن يراهم أحد من بعد،

ثمة أغنية أخرى عنوانها (Las Mujeres del Cua) أي «نساء كوا»، وهي أغنية تروي سيرة النساء الفلاحات في المناطق الجبلية في نيكاراغوا، اللاتي تعرضن للاغتصاب من قبل أعضاء الحرس الوطني؛ لأنهن كن يرفضن الكشف عن أماكن وجود المقاتلين الثوريين.

في ليلة ممطرة، حين كنت لا أزال في رحم أمي، صعد حظ والدي إلى الحد الأقصى، لقد ذهب مع والدتي إلى حفلٍ موسيقي في حي فقير من أحياء ماناغوا، حيث أقام السكان مسرحاً في حقل مكشوف؛ ليعرض والدي أداءَه. اكتظ المكان بالناس الذين أبدوا استياءهم من الدكتاتورية، عندما أنشد والدي أغنيته المسماة «الأخ الجندي» (Soldado Hermano).

كانت أشعار الأغنيات الشعبية موجهة إلى أعضاء الحرس الوطني ومن ضمنها شطر يقول: «من حقك أن تفكر مع أن أولئك (يقصد الحكومة)، قرود الغوريلا عديمو الإنسانية، يضعون في أيديكم آلات للقتل. كان ضمن الحضور ملازم من الحرس الوطني أصدر أمره بالقبض فوراً على والدي، فحدث هياج كبير لدى تحرك الحرس لاعتقاله، لكن الحرس لم يتمكنوا من اختراق الجمهور بسرعة كافية للوصول إلى المسرح فاختفى والدي. بعد ذلك بدقائق تسلّمت والدتي أكورديون والدي من شخص غريب أبلغها أن والدي نُقل إلى مكان سري؛ لحمايته من الاعتقال، والمطلوب منها أن تعود إلى المنزل دونه.

في أثناء عودة والدتي إلى المنزل أوقفتها إلى جانب الطريق مواكب عسكرية، كان برفقتها أحد أصدقاء والدتي، ومعه أيضاً شقيقي كارلوس، الذي كان آنذاك في السنة الثانية من عمره. أمر رجال الحرس الوطني والدتي بالخروج من السيارة في ذلك الليل الممطرة.

obeikandi.com

تتذكر والدتي أن واحداً من الحرس صرخ قائلاً: «انتزع العاهرة من السيارة». حاول الشاب المرافق لها أن يقنع الحارس بترك المرأة الحامل وطفلها الصغير في السيارة، مخبراً الحارس بأن والدي ليس معهم في السيارة وأنهم يجهلون مكان وجوده، وأنه ليس مسموحاً ببقائهم في السيارة، وهكذا انتزعوها من السيارة، مكررين بصراخهم الإهانات لها وعاملوها بخشونة، مطالبين إياها بإعلامهم بمكان وجود والدي. في نهاية الأمر، سمحوا لها بالذهاب، أما والدي فقد عاد إلى منزله بعد ذلك بثلاثة أيام.

وبينما استمر والدي في أداء موسيقاه الهدامة كلما أمكنه ذلك، وفي أي مكان فقد تخلَّت والدتي إلى حد كبير عن النشاط الثوري، أما أنا فقد ولدت خلال تلك المدة الهادئة نسبياً من حياة أمي، وكانت ولادتي في مدينة ماناغوا بتاريخ 28 آب (أوغسطس) 1975. وكانت تسميتي من قبل والديّ تيمناً بشخصين ثوريين من أمريكا اللاتينية: فصار اسمي كاميلو (Camilo)، نسبة إلى كاميلو توريس (Camilo Torres)، الذي كان كاهناً كاثوليكياً من كولومبيا ومات مقاتلاً، والاسم الثاني أرنستو نسبة إلى أرنستو تشي غيفارا، القائد الأرجنتيني المكافح وأحد قادة الثورة في كوبا، وقد توفي وهو يقاتل في بوليفيا.

تغيرت الأمور تغيراً جذرياً بالنسبة لأسرتي عقب ولادتي، فبعد قمع مفاوضات أسر الرهائن كان كبار المنظرين والقادة في الكفاح الساندنستي المسلح منهمكين في إعادة تكوين الحركة، فقد كانت المشكلة أنهم عندما قرروا وضع إستراتيجيات جديدة للإطاحة بالدكتاتورية غاب عنهم أن ينقلوا معلومات وتوجيهات إلى ثوار من مرتبة أدنى مثل والدتي. وبعد أن

انقطع إلى حد كبير اتصال والدتي بالقيادة الساندنستية، وبعد أن أتعبتها خيانات والدي الأخلاقية، بدأت تشعر أنها معزولة وليست لها غاية، إلى أن قررت ذات يوم أن تترك والدي، وتترك نيكاراغوا والثورة، فأخذتني مع شقيقي إلى مدينة نيويورك؛ للعيش مع جدتي.

كانت هذه الزيارة زيارة والدتي الأولى إلى الولايات المتحدة، وما لبثت أن أدركت أن هارلم الأسبانية التي تعود إلى منتصف السبعينيات من القرن الماضي، لم تكن حتماً ما خطر ببالها لدى مجيئها من أجل تربية ابنيها. كانت جدتي قد هاجرت إلى الولايات المتحدة؛ سعياً وراء مستوى حياة مرتفع، وكانت قد وجدت عملاً في صنع الملابس التي تحمل ملصقات عليها أسماء المصممين وتباع في مخازن، ولكنها لم تكن تحصل إلا على قليل جداً من المال، كذلك فإن شقتها المزدحمة المكونة من غرفتي نوم في جادة لكسنغتون (Lexington Avenue)، تبيّن أنها أصغر، بحيث لا تناسب أُسَرتها الفتيّة.

إن والدتي لم تكن راغبة في العودة إلى نيكاراغوا؛ حيث تبين لها أن عملها مع الساندنستا قد انتهى، ولكنها كانت تعلم أن والدي سيحاول جعلها تتصالح معه، منذ قررت أن تعود إلى موطنها الأصلي كوستاريكا، البلد الذي عاشت فيه حتى سن الثالثة عشرة والذي كانت تعرفه معرفة جيدة.

وآنذاك، وكنت بالكاد في السنة الأولى من عمري، فانتقلت مع والدتي وشقيقي إلى سان خوسيه (San Jose)، عاصمة كوستاريكا، وقد عزمت والدتي على العيش فيها حياة هادئة لتنصرف إلى تربية ابنيها. تبين لها أن الأمور لم تكن تماماً كما حسبت، إذ بمجرد وصولنا تقريباً اتصل بها

obeikandl.com

عاملون ومتعاطفون مع الحركة الساندنستية الذين يعيشون في المنفى، وبعضهم هربوا إلى كوستاريكا من جراء الاضطهاد المتزايد في نيكاراغوا. كانت أولى لقاءاتها من هذا القبيل مع أشخاص كان ارتباطهم بالثورة في معظمه ارتباطاً فكرياً، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم السياسية في منازلهم المريحة لبحث النظريات الماركسية والاشتراكية، ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى كانت قد بدأت تلتقي مع ما يسمى المجموعة الثالثة Tertiery (الثالثة في الظهور) وقد أوجدتها قبل ذلك بأعوام فئات من القيادة الساندنستية التي صعّدت العمل من أجل انتفاضة شعبية فورية في المدن. كانت المجموعة بقيادة الإخوة أورتيغا Ortega ـ دانييل، وهومبيرتو وكاميلو، ضمن آخرين.

وهكذا، وخلال شهر ونصف الشهر من وصولنا إلى كوستاريكا، عادت أمي مرة أخرى شخصية ثورية بكامل المواصفات، فقد عهدت إليها الثورة بمختلف المهمات، من ضمنها تأجير مساكن في أحياء عالية المستوى، حيث كان بوسعها التظاهر بأنها امرأة ميسورة متزوجة. كان زوجها – من المفترض – مكافحاً آخر في الحركة الساندنستية، وكان اختيار هذه الأحياء الأكثر ثروة مفضّلة على الأحياء الأشد فقراً؛ لأنها كانت أكثر خصوصية ويقل فيها عدد الذين يراقبون الحركة المستمرة لثوار الحركة الساندنستية، إذ كانوا يجيئون إلى هذه المنازل ويغادرونها مستفيدين من عتمة الليل لإجراء التدريب السياسي والعسكري والقيام بالعمليات اللوجستية، ولكن الخصوصية النسبية التي توفرها هذه الأحياء ذات المستوى الرفيع لم تفلح في الحيلولة دون التسرب من حين إلى آخر، وقد تعرضت المنازل الآمنة للاقتحام مرتين، ولهذا السبب، كان علينا أن نواصل التنقل، دون أن نبقى إطلاقاً في أي منزل معين لأكثر من شهرين.

في هذه المنازل كانت تُعقد اجتماعات القيادة، التي يحضرها قادة الفئة الثالثة لوضع خطة الإطاحة بنظام حكم سوموزا، وعند الوصول إلى هذا الزمن شرعت والدتي تقدم تقاريرها إلى هومبيرتو أورتيغا مباشرة، وقد صار هذا فيما بعد القائد الأعلى لجيش الساندنستا، أما شقيقه دانييل الذي استمر رئيساً لجمهورية نيكاراغوا، فقد كان يتردد على المنازل الآمنة التي كانت تؤجرها والدتي، بينما الشقيق الأصغر، كاميلو، فقد وصفته لي والدتي بأنه غامض، رفيع القامة، ضعيف البصر، مثالي فاتن حلو التعبير» نشأ بينه وبين أمي حب عميق خلال الكفاح المسلح، وظن كثيرون من الذين علموا بالعلاقة بينهما أنه والدي. ولكني كنت في السنة الأولى من عمري عند لقائهما الأول، وبرغم أنه توفي في الكفاح عام 1978 ظلت والدتي تذرف الدموع كلما تحدثت عنه.

في أثناء ذلك الوقت، كان والدي قد غادر نيكاراغوا لتقديم أغنياته في أوروبا. وقد اكتسب شعبية ملحوظة في أسبانيا، كما في كتلة الدول الشيوعية، حيث كانت النظرة له أنه السفير الثقافي للثورة الساندنستية. إن أحد إنجازاته الأكثر شهرة هو «صلاة قداس الفلاحين» وهي مجموعة من الأناشيد التي تمثل مختلف المراحل الموسيقية في القداس الكاثوليكي، وتلحينها بلغة سكان المناطق الريفية، وبالآلات الموسيقية التقليدية في نيكاراغوا، وبالتعابير الشعبية، وفي الأوضاع اليومية ... إلخ، سارعت الطبقة الأرستوقراطية والكنيسة الكاثوليكية في نيكاراغوا، إلى رفض القداس وانتقدوا والدي لهذا السبب، أما في أوروبا فقد لقي استقبالاً حاراً، ولا سيما من قبل الفئات التقدمية من الكنيسة الكاثوليكية في أسبانيا.

مع اقتراب نهاية العام 1978 أطلقت الحركة الساندنستية افتتاح هجومها النهائي. كانت والدتي أكثر انخراطاً في توفير الدعم اللوجستي للحركة، وهذا ما جعلنا نتنقل عودةً أو تقدماً بين سان خوسيه والحدود الجبلية بين كوستاريكا ونيكاراغوا.

في اليوم التاسع عشر من شهر تموز (يوليو) عام 1979، أعلنت الحركة الساندنستية رسمياً الإطاحة بنظام حكم سوموزا وتحرير شعب نيكاراغوا. إن العرض التلفزيوني للإطاحة بمكانة سوموزا في قلب مدينة ماناغوا بدا شديد الشبه بالإطاحة بصدام حسين في بغداد بعد انقضاء نحو عشرين عاماً.

آنذاك كنت في السنة الرابعة من عمري، ولا أتذكر سوى القليل من الذكريات عن ذلك الزمن، ولكني أتذكر أننا خلال شهرين من عمر الثورة، عدنا إلى نيكاراغوا، حيث عملت والدتي في مهمات مختلفة للحكومة الجديدة، منها العمل في القوات العسكرية والعمليات السرية لدوائر أمن الدولة. إنها بروحها التي لا تتسم بتوقير الآخرين، واعتيادها على مدى العمر أن تتفحص كل شيء وأن تستجوب كل شخص، أدى إلى طردها في أكثر من مناسبة، وهذا بالتأكيد ما لم يساعدها على الترقي في النظام السياسي الذي يتطلب الولاء للقادة دون نقاش.

بالرغم من تكرار لقاءات والدتي مع النخبة في الحركة الساندنستية، فقد عشنا حياة يسرٍ في السنوات التي أعقبت الثورة، ومع أن أسرتي لم تكدّس مبالغ كبيرة من المال، فإن أكثر ما كان يهمها هو النفوذ في نيكاراغوا الجديدة، وهذا ما امتلك والداي الكثير منه. لقد عشنا في

حي من أغنى أحياء ماناغوا، إذ أقمنا في منزل كبير بخمس غرف نوم، ومكتبة صغيرة، وثلاث غرف معيشة، وسطيحتين، ومساحتين واحدة أمامية والأخرى خلفية، وحديقة صغيرة خارج غرفة أمي. استخدمنا فتاة للخدمة وبستانياً.

أما والدي الذي كان في ذلك الحين قد تزوج امرأة أخرى، فقد عاش على بعد مجموعة صغيرة من المباني بالقرب من منزلنا وفي الحي ذاته، إلى جانب استخدامه فتاة للخدمة، وكان عنده سائق للسيارة، ومن باب التهذيب كان يقول إنه: «الرفيق الذي يقود السيارة عوضاً عني». وكانت المدرسة التي انتسبنا إليها شقيقي وأنا مخصصة حصراً لأبناء المسؤولين في الحكومة، فقد كان رئيس جمهورية نيكاراغوا والعديد من كبار وزرائه، يرسلون أولادهم إلى هذه المدرسة. أما اللغة الأجنبية التي كنا نتعلمها في المدرسة، فهي اللغة الروسية.

في وقت لاحق انتسبنا إلى مدرسة خاصة يسوعية (جزويت) Jesuit في ماناغوا. وكانت شهرة اليسوعيين (الجزويت)، أو على الأقل المقيمين في نيكاراغوا، أنهم تقدميون وعقولهم منفتحة، متفوقون بذلك على الكنيسة الكاثوليكية الأكبر، ومعظم الكهنة اليسوعيين العاملين في المدرسة لم يروا أي تناقض بين الدراسة العلمية والدين، بل إن بعضهم كان يحمل درجات في العلم. وحسب تفسيرهم للإنجيل، إن الله ليس «مستبداً، بل هو أبٌ محبٌ وصديق» وكانوا يعلموننا في الصف عند درس الديانة أن الإيمان وتعاليم المسيح يجب تطبيقها على أسلوب معيشتنا في حياتنا، وألا تقتصر على الذهاب إلى الكنيسة.

obeikandl.com

بالرغم من ذلك، اعتبرت نفسي ملحداً، مع أنني كلما وجدت نفسي في وضع صعب، ألجأ للصلاة إلى الله تعالى؛ طلباً للمغفرة، ولم أدرك إلا في وقت متأخر أن خوف الله يتطلب درجة ما من الإيمان.

خلال ذلك الزمن عمل والدي نائباً في الجمعية الوطنية في نيكاراغوا حيث، كما قال لي: كان له مساعد ينوب عنه في الاقتراع عندما يغرق والدي في النوم أو كان يكتب أغنيته، وعمل والدي كذلك ملحقاً ثقافياً في سفارة نيكاراغوا في مدريد عاصمة أسبانيا. ذكرياتي الأكثر حيويةً عن عمله جاءت من الأعمال العديدة التي أدّاها وحضرتها. في معظم الأحيان متابعاً لعمله من مؤخرة المسرح، وعندما أنظر إلى الوراء، يبدو لي أمراً مدهشاً أنني كنت أشاهد باستمرار آلاف الناس الذين يرفعون أصواتهم بالغناء، مشاركين والدي في أدائه، ولكني آنذاك لم أكن منفعلاً إلى حدٍ مزعجٍ. وفيما يتعلق باهتمامي بوالدي، فلقد كانت له دائماً شهرته.

ولكن الذكريات عن والدي التي اختزنها أكثر من غيرها لم تكن ذكريات عنه كشخصية سياسية صاحب نفوذ أو كشخصية فنيّة، بل كإنسانٍ محبوبٍ من شعبه وبلده. كنت أحياناً أسافر معه إلى أبعد المناطق وأشدها فقراً في نيكاراغوا؛ لكي أشاهده وهو يؤدي أغانيه. وفي أماكن كهذه مازال يتحتّم على الناس أن يذهبوا إلى النهر للحصول إلى الماء، وكانت مساكنهم لا تعدو كونها مصنوعةً من الورق المقوى، ومع ذلك بدا والدي دائماً أنّه يشعر أنه موضع ترحيب. والواقع أن الناس كانوا يحبونه ويرحبون به كأنه فرد من أسرهم. كان من عادة والدي بعد انتهاء حفل موسيقي أن يتناول أنواع الطعام التقليدية التي يقدمونها له بمزيدٍ من الفرح، وكان يحدث في غالب الأحيان إبان رحلة العودة أن نتوقف في أماكن

openkalam.com

بدت لأول وهلة عديمة الأهمية، إلى أن ننتبه إلى أن الشمس تشرق في ساحة خلفية لبيت صغير مصنوع من الخشب على قمة تلٍ، أو كنا نتوقف؛ لكي يتمكن والدي من التقاط صورٍ لزهور «دوار الشمس» أو لتصوير قوس قزح، أو كنّا نخوض في وسط حقلٍ للذرة في أثناء الريّ. ولم يفقد والدي أبداً الشعور بالمهابة والتعجب عن مشاهدة أشياء بسيطة كان يبدو أن معظم الناس يتخلون عنها عندما يكبرون سناً.

وبرغم الفوائد الكبيرة والتحسينات التي طرأت على الحياة التي حققتها الثورة للناس، فقد أخذت شعبية الحكومة الساندنستية بين سكان نيكاراغوا تتدهور بعد مرور بضع سنوات على تسلّم الحكومة السلطة. لقد كانت الثورة قد بدأت بشهرة أعلى صورة لها حصلت عليها أي حركة عدالة اجتماعية في العالم، ومع أنها لم تكن أبداً نظام حكمٍ شيوعي بكامل المواصفات، فقد كانت للثورة روابط وثيقة مع كوبا، وأوروبا الشرقية، والاتحاد السوفيتي. إن صداقاتٍ من هذا النوع، مقرونةً بتخصص الحكومة المال الخاص والموارد للفقراء جعلت من نيكاراغوا هدفاً رئيساً للولايات المتحدة التي سرعان ما بدأت بتسريب دعمٍ كبيرٍ للمعارضة المسلّحة ضد الحركة، كما كانت تقدم هذا الدعم لجيش المرتزقة المعروف باسم «الكونترا».

لقد تطلّب العدوان الذي أقدمت عليه الولايات المتحدة أن تطبق القوات المسلحة في نيكاراغوا الخدمة العسكرية الإلزامية، وأن تأخذ قسطاً أكبر من الموارد الحكومية، وهي أموال كان بالإمكان لولا ذلك إنفاقها على برامج اجتماعية، وكانت الغاية من هذه الأموال خوض الحرب. إن الحظر الاقتصادي الذي فرضته الولايات المتحدة زاد الاقتصاد اختناقاً

وقوّض الجهد الذي تبذله الثورة لمكافحة انتشار الجوع والمرض. ومع ركود الاقتصاد دون أن تبدو في الأفق نهاية للحرب التي حصدت أرواح أكثر من خمسين ألف شخصٍ من سكان نيكاراغوا، أخذ دعم الثورة يتلاشى بصورة ثابتة. وفي نهاية الأمر في عام 1990 خسرت الحركة الساندينستية الانتخابات الرئاسية وتولّت السُّلطة حكومة جديدة من أصحاب المناصب ممن كانوا يتمتعون بعلاقات صداقة مع الولايات المتحدة.

صار جليّاً بعد سقوط الحكومة أن بعض قادة الحركة الساندينستية قد أصبحوا أصحاب ملايين عديدة. لقد كان هؤلاء في وضع يتيح لهم أن يزدهروا في الاقتصاد الجديد في نيكاراغوا، الذي فتح أبوابه أمام الأجندة الرأسمالية للولايات المتحدة. لم يكن والدي من بين هؤلاء الذين حققوا ثروات طائلة، ولكنه ظلّ يجد مودة من جانب شعب نيكاراغوا وتمكن من العيش براحة بفضل نشاطه الموسيقي والفني. أمّا والدتي، من ناحية أخرى، فقد كانت جزءاً من الأرستقراطية السياسية المحطمة والمشرفة على الموت دون أن تبقى لها أي موارد أو نفوذ بعد انهيار الثورة. وبما أن والدتي كانت عاجزة عن إيجاد عملٍ وغير مستعدة للعمل في الحكومة الجديدة، وبعد أن أهملها كثيرون من أصدقائها في الحركة الساندينستية الذين اغتنوا، قررت أن تعود إلى موطنها الأصلي. وبحلول كانون الثاني (يناير) عام 1992 كنت أنا وشقيقي كارلوس قد عدنا للعيش مرة أخرى في سان خوسيه، حيث انضمت إلينا والدتي بعد ذلك ببضعة أشهر.

للوهلة الأولى رأيت في عودتنا إلى كوستاريكا، وكأنها عودة إلى بيتنا الثاني، إلى مكان الذكريات الطفولية الحلوة. ولكن سرعان ما اكتشفتُ

obeikandi.com

أن الأمور في سان خوسيه مختلفة عمّا كانت سابقاً. لقد سبق أن عشت في نيكاراغوا مدة اثني عشر عاماً، حيث كنت أشعر أني واحدٌ من ثقافتها وشعبها، ولكن سكان نيكاراغوا صار ينظر إليهم كثيرون من شعب كوستاريكا نظرة ازدراء؛ ذلك أن كوستاريكا التي كثيراً ما وُصفت بأنها سويسرا أميركا الوسطى، قد تمتعت باقتصادٍ متفوقٍ بسرعة البرق سنوات على أفقر جارة لها في الشمال. ونتيجة لذلك، عَبَر كثيرون من سكان نيكاراغوا الحدود بين البلدين، متطلعين إلى تحسين مستوي معيشتهم، وكانوا مستعدين لقبول أسوأ الأعمال لقاء أدنى أجر. وهذا أدّى إلى تمييزٍ حادٍ ضد الذين جاؤوا من نيكاراغوا.

شقيقي وأنا انتسبنا إلى مدرسة كاثوليكية خاصة يأتي إليها أولادٌ من أبناء العديد من الأسر الرفيعة في كوستاريكا، وهؤلاء لم يكونوا إطلاقاً يرحبون بغرباء أمثالنا. ثمة أمرٌ مؤلمٌ أتذكره ناشىء عن وجودي هناك في المدرسة مما له علاقة بالتراجع الروحي في المناطق الريفية، برعاية كهنة المدرسة. وصلت في وقتٍ متأخر إلى نقطة التجمع، حيث كانت الحافلة تنتظر، وبينما كنت أصعد إلى الحافلة شرع الجميع يسخرون مني، يستهزئون بلهجتي وهي لهجة سكان نيكاراغوا وينعتونني بأسماءٍ رديئة. في أول الأمر حاولت أن أواجه ذلك بالضحك. ولكن الحملة لم تتوقف فاضطررت إلى الجلوس على مقعدي منتظراً أن يهدأ بحر الإهانات.

كانت أعمال التمييز العدوانية من هذا النوع منتشرة في سائر أنحاء مجتمع كوستاريكا، امتداداً من الناس في الشارع ووصولاً إلى أجهزة الإعلام، وحتى إلى السياسيين. كنت أشعر أحياناً أن روح الدعابة بكاملها كانت معادية لأهالي نيكاراغوا. إن كثيرين من الغرباء من أبناء بلدانٍ

أخرى أخذوا بدورهم يشعرون بلدغة الخوف من أهالي كوستاريكا، ولا سيما إذا كان هؤلاء الغرباء من أبناء المكسيك وغواتيمالا الذين يغلب عليهم أن يكونوا أكثر سمرة عن سكان كوستاريكا، ولكن عندما يتعرض الغرباء للتمييز ضدهم وتهميشهم في المجتمع، يكون أبناء نيكاراغوا الأسوأ في ردود فعلهم.

إن المناخ العام لمنزلي الجديد كان له تأثير عميق عليّ شخصياً، وعلى طريقة نظرتي للآخرين. عندما كنت في نيكاراغوا كنت أحد أولاد الثورة أصحاب الحظوة. كان هناك دائماً بالقرب مني شخص يطهو لي الطعام كلما أردت تناول الطعام، وإذا اتفق أن كنت عائداً إلى البيت بملابس متسخة كان هناك من يغسلها، ويجففها ويرتبها بأناقة في خزانة ثيابي قبل يوم خروجي من المنزل. هذا كله انتهى خلال العامين اللذين أمضيناهما في كوستاريكا، وأصبحت أنا مراهقاً منطوياً على نفسي، منعزلاً عن الآخرين.

عندما كنت أبحث في حلقةٍ عن أصدقاء أتعلق بهم، كنت مضطراً أن أتعلم الاعتماد على نفسي، وهذا ما كان صعباً في ذلك الحين، ولكن كان له مردود، إذ شرعت أذهب إلى حفلات موسيقية وإلى المسرح، وبدأت أتلقى بعض الدروس العملية، وبدأت أيضاً أقرأ الكتب الأدبية الكلاسيكية والشعر الكلاسيكي. كان إلهامي مستمداً من إدغار آلان بو Edgar Allan Poe فكتبت بعض قصص الرعب. ومع اقتراب نهاية إقامتي في كوستاريكا تمكنت من التوصل إلى عدد من الأصدقاء الجدد، بعضهم كانوا أيضاً غرباء. إن صداقتي معهم ساعدت على توسيع نظرتي واهتماماتي، وهم لا يزالون حتى الآن الأقرب إلى نفسي.

في بداية العام 1994 علمنا من جدتي أنها حصلت في ذلك الحين على الجنسية الأمريكية، وهذا يعني أنها تمكنت من الحصول على إقامة دائمة لوالدتي في الولايات المتحدة. وبما أن شقيقي وأنا كنا لا نزال صغيري السن، فقد حصلنا على الإقامة الدائمة. وهكذا، فقد انتقلت مرة أخرى، عندما كنت في الثامنة عشرة إلى مدينة ميامي Miami في ولاية فلوريدا.

إن صورتي الذهنية في ذلك الحين للمدارس الأمريكية عالية المستوى كانت مستمدة فقط من هوليوود. واقع الأمر إن الصف الأعلى الأمريكي في ميامي ليكس Miami Lakes الذي انتسبت إليه آنذاك، لم يشبه أبداً المدارس الودودة حسنة التمويل التي كنت قد رأيتها في العروض التلفزيونية ودور السينما، فقد كان مكتظاً، ورجال الشرطة يتجولون في القاعات والساحات، علاوة على ذلك، لم يفهم مديرو المدرسة أنه بالرغم من أنني كنت في الصف الحادي عشر في كوستاريكا، فأنا الآن في نظرهم في الثانوي؛ لذلك أصرّوا على أن أدرس سنتين إضافيتين لكي أتخرج، فأدى ذلك إلى ذهابي إلى مدرسة مسائية في محاولة لإنجاز عامين في عام واحد. لقد كان جانب كبير من طلاب الصفوف المسائية من مثيري المتاعب، وقد طُردوا من المدرسة النهارية لأسباب تأديبية.

كان ينبغي علي أن أعمل لتأمين وسائل معيشتي لأول مرة في حياتي. كانت والدتي قد استأجرت شقة في نيكاراغوا، وكان والدي لا يزال يُرسل بعض المال لتربيتي، ولكن حتى مع هذا الدخل الإضافي لدعم راتب والدتي كمحاسبة في محل سوبر ماركت، لم يكن كافياً لدفع أجرة الشقة وتأمين الطعام لنا. ولذلك حصلت على عملٍ في مطعم لتقديم الوجبات السريعة، حيث كنت أكنس ساحة وقوف السيارات، وأنزل الكراسي عن طاولات

المطعم، وأنظف الحمامات كل صباح قبل الانتقال إلى المطعم لإعداد شطائر اللحم مدة ست ساعات. وبعد العمل كنت أحصل على استراحة مدة ساعتين قبل ذهابي إلى مدرستي المسائية، وهكذا كانت أيامي تبدأ عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً، ولا ينتهي اليوم حتى أعود إلى منزلي من المدرسة عند الساعة العاشرة مساءً.

كان التخرّج أيضاً مختلفاً جداً عمّا كنت أتصوره، ولم أكن أحصل على حفلٍ مسائي، ولم يكن لي أصدقاء أحتفل وإياهم. كنت فقط أتجه إلى مكتب مدير المدرسة، كي يسلمني شهادتي. وأظن أنه قال: «تهانيّ وحظاً سعيداً يابنيّ». وعندها ذهبت إلى السوبرماركت المحلي وجلست على مقعدٍ خارج المكان، وأخذت أحدق في شهادتي، متسائلاً: هل هذا هو كل مايحدث عندما يتخرج الإنسان؟!

في العام القادم، بعد أن درست في كلية أهلية مدة فصلين، أنهت الحكومة المساعدة المالية التي كانت تقدمها لي الحكومة الاتحادية، بذريعة أنني حصلت على ما يكفي من المال عند انتهاء عملي؛ لكي أدفع رسم تعلمي، وقد ألفيت نفسي دون أي إمكانيات حقيقية بالنسبة للمستقبل. وبدا كأني كنت أعمل عملاً هزيلاً لتأمين معيشتي دون أن تعود عليّ بأي شيء.

لقد كانت هذه الظروف هي التي حملتني على الالتحاق بالجيش الأميركي في مدينة ميامي، وكنت في التاسعة عشرة من عمري. الشخص الذي يقوم بتجنيد الملتحقين بالجيش لم يكن في الواقع يعمل عملاً شاقاً؛ لجعلي أوقّع العقد الخبيث. لقد وفّر لي الجيش الاستقرار المالي والتعليم في الكلية، وهما فائدتان بدا لي أنهما من العسير أن أجد مثيلاً لهما في

أي مكان آخر. ولكن الجيش، إضافة إلى الاستقرار المالي والتعليم أتاح لي الوعد بمساعدتي من أجل تأمين مكان في العالم، بل لم يكن ما كنت أريده أن أصبح مواطناً في الولايات المتحدة، كل ما كنت أبغيه هو أن أكون مع مجموعة من الناس أشاطرهم شيئاً ما، وأحصل على شعور بالانتماء. إن زيارتي لمكتب المسؤولين عن التجنيد لم يكن لكي أتخذ القرار بأني راغبٌ في الالتحاق بالجيش، وإنما لاتخاذ القرار لتحديد أيّ فرعٍ عسكريّ وأيّ اختصاصٍ أريد اختيارهما، وتبين أن ما أرغب الالتحاق به هو قوة مشاة الجيش.

كان والدي ووالدتي كلاهما معارضين لتوقيعي العقد، ولم يكن ذلك لأسباب سياسية فقط، وإنما لخوفهما من الحرب واعتقادهما أنني لست من الطراز المناسب للقتال. وكانت حجة والدتي الرئيسة هي أن القوات العسكرية الأميركية تغزو دائماً أحد البلدان أو تنخرط في نوعٍ ما من أنواع النزاعات المسلّحة، وكانت حجتها تقول أيضاً: حتى لو لم تنشب حرب، فمن المحتم أن ينتهي الأمر بالقوات المسلحة إلى القتال في أحد الأيام. لقد توسلَتْ إليّ بعدم الانضمام إلى الجيش وأخذت تبكي في يوم مغادرتي إلى فورت بنينغ Fort Benning، ولاية جورجيا، حيث أصبحت جندياً مقاتلاً.

مرّت سنوات عملي الحقيقي في الجيش بسرعة كبيرة، إذ أمضيت معظم وقتي في فورت هود Fort Hood، ولاية تكساس، حيث مقر الوحدة التي كنت ضمنها، وهي تابعة لفرقة المشاة الرابعة. إن سجل أدائي الجيّد وحسن انتظامي وفرّ لي العديد من الأوسمة وشهادات التقدير. كنت أحياناً يُتاح لي أن أحصل على الأفضل، وقد أحرزت شهرة بأني شخص متمرّد

ذو شخصية انتقادية حادّة، ولكن ذلك كلّه لم يتحوّل إلى مسألة مهمة، إذ كنت دائماً أؤدي العمل، فاستمرّ حصولي على شهادات وترقيات جيدة.

لقد انضممت إلى القوات العسكرية؛ لأنني كنت أعرف أنني راغب بالنتيجة في الحصول على تعليمٍ أعلى، وبعد ثلاثة أعوامٍ ونصف العام من الخدمة الفعلية تعلمت خلالها كل شيء عن المشاة، فقد كنت جاهزاً لمحاولة الانتساب إلى الكليّة مرة أخرى.

قبل أن أغادر فورت هود للعودة إلى المنزل، ولأول مرة منذ التحاقي بالخدمة العسكرية، أوضحت لي بالكامل فتاة في مكتب التجنيد برتبة رقيب الأمور الضمنية لا لتحاقي بالجيش . وشرحت لي أن كل شخص يدخل في الخدمة العسكرية يتحوّل دخوله إلى التزامٍ بالخدمة العسكرية مدة لا تقل عن ثماني سنوات. وحتى إذا قام شخص مثلي بتوقيع عقد مدة ثلاث سنوات فقط كان أمامه خمس سنواتٍ أخرى من الخدمة العسكرية لتأمين انتهاء العقد، وخلال هذه المدة يمكن إمّا تمديد الخدمة بوجوده في الجيش النظامي، أو بالانضمام إلى القوة الاحتياطية الجاهزة غير العاملة Inactive Ready Reserve (IRR)، وبعبارة أخرى بالحرس الوطني، الذي يتطلب تدريباً في نهاية أحد الأسابيع مدة شهر وأسبوعين خلال فصل الصيف. وأياً كانت الحالة، فإن الجنود معرضون دائماً لاستدعائهم للعودة إلى الخدمة الفعليّة إلى أن ينتهي مفعول الالتزام مدة ثمانية أعوام. والمسؤولون عن التجنيد يغضون عادة الطرف عن هذه الحقيقة المزعجة، منبهين الذين ينتبهون إلى هذه الحقيقة، على أنها تفصيل بسيط، ويؤكدون أن أيّ هجوم مدمّر تتعرض له الولايات المتحدة

يتطلب استدعاء الجنود غير العاملين في الخدمة الفعلية لترك حياتهم المدنية والعودة إلى الخدمة العسكرية.

لقد شَرَحت الفتاة الرقيب العاملة في مكتب التجنيد أن الجنود الحراس موجودون للرد على أي كوارث طبيعية تقع في ولايتهم، وهذا يعني في ولاية فلوريدا المساعدة في تقديم الإغاثة عند حدوث أي إعصار. وكان تقديرهم لاحتمال الذهاب إلى الحرب مع إحدى وحدات الحرس يكاد أن يكون أمراً شبه مستحيل. لقد وزنت هذه المعلومات مع واقع أن الحرس الوطني في فلوريدا كان يوفر لي التعليم الجامعي مجاناً، فقررت أن أنهي العقد الذي وقعته مع الحرس، وانتسبت إلى الكلية بصفتي جندياً في وقت إضافي.

وهكذا عدت إلى فلوريدا في عام 1998 وعدت إلى الكلية الأهلية التي كنت قد درست فيها بعد المدرسة الثانوية، وهي تُسمى الآن كلية ميامي ديد Miami Dade College. بعد أن أمضيت عامين هناك نُقلت إلى جامعة ميامي. ولم أكتشف إلاّ بعد انضمامي إليها أن الحرس الوطني لا يدفع رسوم الدراسة في المدارس الخاصة. ولحسن الحظ، كانت درجاتي جيدة، تعني أنني مؤهل لمنحة دراسية تتكفل بنصف رسوم الدراسة، ولقد حصلت على قروضٍ تُقدم للطلاب لدفع بقية المطلوب منّي.

وُلدت ابنتي سامانثا Samantha في عام 2000. والعلاقة بين والدتها وبيني لم تدم طويلاً، ولكنّي كنت مغرماً كثيراً جداً بابنتي، وكنت أبذل قصارى جهدي لأن أشكل الجانب الفاعل في حياتها، وسرعان ما اكتشفت أن كوني أباً وطالباً لا ينسجم مع سيرتي العسكرية، ولو بوقتٍ جزئيّ. إن برنامج التدريب كثير التطلب، وبدأت أقصّر في نهائي نصف السنة، وأسوأ من ذلك بدأت أخسر وقتاً ثميناً مع ابنتي سامانثا.

مشاعري عن الخدمة العسكرية تبدلت تبدلاً جذرياً مع نهاية العام 2002. شعرت أني مقرّب لأصدقائي في الخدمة وكنت لا أزال من وجوه عدّة أعدّ الخدمة العسكرية بمنزلة كوني في أسرة. على أي حال كنت جندياً في الخدمة الفعلية وفي الحرس مدة تقرب من ثمانية أعوام. عرفت أسلوب الحياة، والطعام، والعقلية، والنظام والتكوين، واللغة، وحتى روح الدعابة. ولكن خاب أملي في النظام. ذلك أن النظام كان يستند إلى تعرض الناس لإمكانية الفشل، ويستغل افتقارهم إلى خيارات مما يجعلهم يوقعون العقود، ومن ثم يرتبطون بالخدمة العسكرية مع الوعد المستمر بفوائد لم تكن تنتظرهم، حيث لا يدرون.

مع بداية العام 2003 كنت مستعداً للتوقف نهائياً عن ممارسة الرياضة. كنت أقوم ببحثٍ في قسم العلم النفسي في الجامعة، وكنت أعمل متطوعاً مستشاراً في منظمة لا تطلب فائدة مالية وكنت أعمل في برنامج لتقديم الغذاء للذين أُصيبوا بمرض الإيدز وللأهالي الذين ليست لهم منازل في منطقة ميامي. وكنت أيضاً عضواً في ثلاث جميعات شرفية في الجامعة. إن تعاقدي مع النظام العسكري لمدة ثمانية أعوام كان على وشك انتهائه في شهر أيار (مايو)، فإذا سارت الأمور كما هو منتظر، كنت سأحصل على شهادة البكالوريوس في ذلك الشهر. وكنت قد قررت أن أتقدم بطلب للانضمام إلى برنامج الدكتوراه في قسم علم النفس، كما كنت أتطلع إلى أن أكون أباً ومرشحاً للدكتوراه مع حلول نهاية ذلك العام.

ثمّ، في 14 كانون الثاني (يناير) 2003 أبلغ قائد سرية الحرس الوطني في فلوريدا جميع العاملين في هذا التشكيل بأن الوحدة التي ينتسبون إليها قد تمّ تنشيطها؛ دعماً لعملية تحرير العراق. إن الذين

كانوا على وشك إنهاء عملهم في الخدمة العسكرية في وقتٍ وشيكٍ قد مُدّدت خدماتهم حتى العام 2031 نتيجة لما سُمي «أمر التوقف عن الخسارة» «Stop-Loss Order» بقرار اعتمده الكونغرس. بعد شهرين ونصف الشهر ألفيت نفسي في الشرق الأوسط مشاركاً في غزو العراق.

opeikandl.com

ثانياً

في الليلة التي سبقت المغادرة إلى الشرق الأوسط كانت لدى سريّتنا خطة لتفتيش المعدات برئاسة قائد السرية النقيب وارفل (Captain Warfel). كان النقيب طويل القامة نحيلاً، في أواخر الثلاثينيات من عمره، وشعره مائل إلى الشقرة وعيناه زرقاوان، وبزته نقية معدّة للعمل في الصحراء، فهذه الصفات جعلته يبدو، وكأنه خارج لتوّه جندياً من صندوق ألعاب للصبيان (GI Joe Box). عند مروره أمام معداتي سألته: هل أستطيع أن أحضر معي إنجيلي (كتابي المقدس) فوافق على طلبي، ولكن لا يجوز أن أحضر معي جهاز الكمبيوتر المحمول الذي أصطحبه معي، والذي كان في نيتي استخدامه في الكتابة، وكان مطلوباً مني أيضاً أن أترك كتباً عديدة رغبت في قراءتها.

كان يفترض بموجب خطة التفتيش أن ينشر الجنود معداتهم في منطقة معينة ـ إما على أسرّتهم أو على الأرض ـ بنظام مقرر مسبقاً. وعمليات التفتيش هذه كانت عامة، ولا سيما عندما تكون وحدة عسكرية ما على وشك تعبئتها، ولكن التفتيش في تلك الليلة يكون في أغلب الأحيان صادراً عن أمر من الكتيبة من أجل الحدّ بصورة صارمة من كمية الأمتعة الشخصية التي نستطيع جلبها معنا. وكان علينا أن نحمل مؤن وحدتنا الخاصة، بما في ذلك الطعام، والماء، والأسلحة، والذخيرة، وكان علينا أيضاً مع كل حمولتنا، إضافة إلى وزن الوقود، أن نهتم بألا تحمل الطائرة حملاً ضخماً للرحلة الطويلة.

ولكن حتى مع التقييد الصارم للوزن، ما كان باستطاعة الطائرة أن تقطع كامل المسافة وخزانها مملوء بالوقود، ولذلك كان علينا أن نتوقف للتزود بالوقود مجدداً في نيويورك، وكندا، وأسكتلندا، وإيطاليا قبل أن نصل إلى الأردن التي هي مقصدنا النهائي. وبرغم الطيران الطويل وتوقفنا المتعدد، فقد كانت الطائرة الكبيرة المستأجرة مريحة بالنسبة لأكثر من مئة وثلاثين جندياً على متن الطائرة، ومعظمنا كان يستسلم للنوم طوال رحلة الطيران.

كان الليل قد حلّ عند وصولنا إلى الحدود الأردنية مع العراق، ولدى خروجنا من الطائرة لم أشاهد سوى حظيرة كبيرة عند مهبط مطار عسكري مقفر وسط صحراء معتمة. وفي داخل الحظيرة، التي زارها بعضنا فور وصولنا، واجهنا أول تباين ثقافي مهم هو شكل المراحيض التي كانت هناك عبارة عن فتحات في أرض الحظيرة ولكل واحدة صنبور ماء. أخذ بعض أفراد الفصيلة يدققون النظر في هذه المراحيض ذات الطراز العربي وكانت الشكوى: «إننا لا بد منذ ذلك الحين من أن نقضي حاجتنا مثل الكلاب». إن الموقف العنصري من التباينات الثقافية كان منتشراً طوال انتشارنا في الشرق الأوسط.

بعد وصولنا مباشرة شعرت بحسّ اليقظة والحذر. كنا قد سافرنا نصف مسافة الطيران حول العالم مع علمنا أن غزو العراق كان احتمالاً واضحاً. وكان انطباعي الأول عن بيئتنا الجديدة هو عن مكان مقفر لا يرحب بالقادمين إليه. ولعلي كنت أتهيأ نفسياً للعمل العسكري الذي سيتبع وصولنا، ولكن خطر لي أن عين العدو بدأت ترصدنا منذ ذلك الحين. كان أملي من أعماق قلبي ألا تحدث حرب، ولكني كنت أعلم أيضاً أن من واجبي الاستعداد ذهنياً لإمكانية أن أكون مشاركاً في حرب.

هذا الانطباع الأول ازداد بسرعة صباح اليوم اللاحق عندما فُتحت أمامنا عند شروق الشمس نافذة مطلة على الوجه الحديث للحرب الإمبريالية في القرن الحديث. وعندما استيقظت من نومي رأيت أن الخيم التي تعثرنا بها خلال الليل قد نُصبت على قواعد خشبية، وجُهزت بالكهرباء والتكييف الهوائي. لقد كنا في وسط مدينة خيم عسكرية ضخمة تتضمن منشأتين كبيرتين لتناول الطعام ويُقدم لنا فيها كل شيء ابتداءً من الخبز والزبدة، وحتى المثلجات والفواكه الاستوائية الطازجة، وفيها أيضاً سوبر ماركت لتبادل الرسائل البريدية، إلى جانب قاعة كبيرة لبيع مختلف الأشياء من ضمنها الوجبات السريعة، والسجائر، والأقراص المدمجة، والملابس وحتى الكراسي التي تصلح للجلوس عند الشاطئ. إن القاعدة التي كانت معروفة باسم (H.5) كان فيها منشأة لرفع المعنويات والترفيه والتسلية Moral-Welfare-Recreation (MWR) Facility مع طاولات لكرة الطاولة، والكتب، وشاشة تلفزيونية كبيرة للأفلام السينمائية. وكان هناك العديد من الهواتف جرى تركيبها تماماً خارج قاعة منتصف الليل، بحيث نستطيع أن نأتي لوجبة سريعة في وقتٍ متأخر من الليل، بعد أن نتحدّث بالهاتف مع عائلاتنا في أوطاننا.

وإذا أخذنا في الحسبان أن هدفنا القادم تماماً هو العراق، وأن طبول الحرب كانت تُقرع بلا توقف في الساحة الخلفية، فقد كان المكان ممتعاً لنا. ولكن مستوى معيشتنا ازداد تحسناً بعد إعادة نشرنا في قاعدةٍ لمدفعية الدفاع الجوي التابعة للجيش الأميركي في الجبال المغطاة بالضباب التي تُحيط بمدينة عمّان، عاصمة الأردن. وقد كانت مهمتنا هي حماية محيط القاعدة التي تقع على قمة تلّ مشرفٍ على المدينة. كان أذان المسلمين

بمنزلة نداء للصلاة، وكان صداه يتردد في سائر أنحاء عمّان خمس مرّات كل يوم، مضفياً على المكان جواً من القداسة العريقة، ولا سيما في ساعات الصباح الباكر، عندما تتكشف المدينة أمام أبصارنا، إذ يتراجع الضباب الذي يلفّها.

هنالك في القاعدة المحاطة بكل أنواع وحدات الجيش الأردني، منصات لإطلاق صواريخ باتريوت Patriot. وهي جاهزة للتصدّي لصواريخ سكود Scud. كان الاعتقاد السائد أننا كنا ضيوف الملك، وأننا وُجدنا هناك لحماية عمّان من أخطاء صدام حسين للوصول إلى حدود إسرائيل. لقد قيل: إن صدام حسين أطلق صواريخ سكود على إسرائيل؛ آملاً منها أن تردّ مما يجعل دولاً عربية أخرى تنضم إلى القتال. إن العديد من صواريخ سكود هذه لم تبلغ أهدافها في إسرائيل، بل سقطت في عمّان بدلاً من ذلك. وفي المقابل ولتمكين القوات العسكرية الأمريكية من استخدام قاعدة (H.5) لشن هجوم على العراق، أقامت الولايات المتحدة قواعد دفاع جوي من أجل حماية الأردن.

ولأننا ضيوف الملك، فقد كانت لنا مكافآت، فخدمة الإطعام قدمت لنا الفطور، ووجبة الغداء، ووجبة العشاء كل يوم، وخدمة تنظيف الملابس كانت تعمل أيام الثلاثاء والخميس. أما المراحيض، وإن كانت محمولة، فقد كانت من النوع الغربي ويمكن الجلوس عليها، وكان يوجد عدد وافر من أنابيب للاستحمام رشاً بالماء والماء الجاري متوافر. كانت هناك أيضاً خيمة مشاة لرفع المعنويات، والترفيه والتسلية (MWR) إضافة إلى جهازي تلفزيون، كل منهما يتيح النقل من مئة قناة تلفزيونية، وملعب عند الشاطئ؛ لممارسة لعبة الكرة الطائرة.

وأحسن الأمور في مدة وجودنا في الأردن هو، على الأقل ما يخصني، أننا كنا لا نزال في حالة سلام. كنت سعيداً وحدي ضمن رفاقي من الجنود، باعتناقي هذه النظرة للأمور. معظم أفراد الفصيلة كانوا يميلون للذهاب إلى الحرب، وكانوا حريصين على وضع مهاراتهم القتالية موضع الاختبار. الرقيب المسؤول عن فصيلتي، وهو الرقيب من الرتبة الأولى واسمه بالانغو Palango كان يتقلد كل أشكال أوسمة التدريب وحصل على مختلف أنواع المكافآت، نالها منذ أن كان حارساً أمريكياً في مقتبل العمر في غرينادا Grenada. ذات يوم سمعته يقول مازحاً: «أعطِ الحرب فرصة». تساءلت مرة: ما مقدار العمل الفعلي الذي رآه في تلك الغزوة الأقصر؟

أعود إلى الخلف مرة أخرى، إنني دون أن أمتلك أي خبرة قتالية، كنت مدركاً أن القتال ليس تلك الصورة الجميلة النظيفة التي غرستها هوليوود في أذهان الشباب، إذ ينطلق الرصاص معظم الأحيان في اتجاه واحد، والأشخاص الأصدقاء الذين يصابون بالرصاص هم لا عيب فيهم، ولا أضرار، وهم قلة وبطوليون. وأظن أنه لا حاجة لأن يكون المرء قد امتلك بنفسه خبرة في الحرب لكي يتمكن من فهم الثمن البشري للحرب، وربما ما كنت أتمنى حدوث وضع يموت خلاله أناس تهمني أمورهم. ولكن كرهي الشديد للحرب هو حصراً كرهي للحرب في العراق، وهذا الكره كان يعود أولاً إلى أسباب سياسية.

خلال إقامتنا في الأردن تمكنا من متابعة الأخبار، بل إن وسائط الإعلام الرئيسة كانت تنقل للناس المعارضة الشديدة لإمكانية حدوث غزو، والمعارضة لم يكن مصدرها سائر أنحاء العالم فقط، بل كانت تنطلق

أيضاً من داخل بلدنا، إن بعض أكبر المظاهرات المعادية للحرب التي كنا نشاهدها في الولايات المتحدة إنما كانت تحدث قبل الغزو، ولم يكن بوسعي أن أساعد المتعاطفين مع المتظاهرين. ولم أشعر أن حكومتنا تقدمت للعالم بقضية فيها أساس قوي للعمل العسكري. كنت أعلم أن كبار المفتشين عن الأسلحة التابعين للأمم المتحدة كانوا يطلبون أن يتاح لهم مزيد من الوقت لمحاولة العثور على أسلحة دمار شامل، وكان بعض أقوى حلفاء الولايات المتحدة يقولون: «لا» للحرب. وحقيقة كون معظم الذين قاموا بخطف الطائرات في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) كانوا مواطنين سعوديين دون أي صلة ثانية بالعراق أو بصدام حسين، جعلني أشد تشككاً، وشعرت أني متأكد أن دوافع الحرب تتعلق بالنفط والسلطة الجغرافية السياسية، أكثر مما تتعلق بالدفاع عن الولايات المتحدة.

عندما كنت في الولايات المتحدة، قبل انتشارنا خارجها، لم أكن أمتلك الشجاعة، ولا الوضوح للتعبير علناً عن الشكوك التي تساورني بشأن الاشتراك في حرب اعتقدت أنها غير عادلة، إلى جانب ذلك، لم أكن أريد أن أُوصَم بأني جبان، وكنت أعلم أن تعبيري علناً عن تحفظاتي يمكن أن تؤوّل بعدم الشعور الوطني وبالخيانة، وقد تؤدي إلى محاكمة عسكرية وزجّي في السجن.

وعندما صار احتمال الغزو أكثر واقعية، حاولت أن أجد راحة في الأعذار التي يستخدمها الجنود عندما يشاركون في قتال لا يؤمنون به. قلت لنفسي: إنني جندي ولست مكلفاً بأن أبدي قراري إزاء الأسباب الكامنة وراء قرارات من هم أعلى مني في سلم القيادة. كنت قد وقعت عقداً، وصرت ألبس اللباس العسكري، وكان عليّ أن أقوم بواجبي مدة من الزمن. إلى جانب ذلك كنت قائد فرقة من المشاة الذين كانوا بحاجة إليّ.

ومع ذلك، فقد أُرسلت إلى الشرق الأوسط؛ لدعم جهد عسكري كنت أُدينه إدانة قوية أعدّه عملاً إجرامياً. خشيت ألاّ تتاح لي إطلاقاً العودة إلى البيت لإبلاغ ابنتي أنني بالرغم من مشاركتي في الحرب كنت ضد الحرب. وإذا توفيتُ، كان ذلك جزءاً من تركه أخلفها لها. ولذلك، في ليلة شديدة البرودة، شعرت أن ما كنت موشكاً على فعله سيُعدّ حتماً خيانة للولاء. وبصورة سرية كتبت رسالة إلى ابنتي، مستعيناً بضوء باهت من مشعل ضوء عسكري على صفحة من الورق طويتها إلى نصفين ووضعت الكلمات الآتية: أعطِ السلام فرصة (give peace a chance).

في تلك الليلة وقع اختياري على واحد من فرقة المشاة، كنت أثق به فعلاً؛ لكي يقوم بواجب الحراسة معي. وفي تلك الليلة كدنا نتجمد من البرد، بينما كنت أنا والاختصاصي غيفارا واقفين نراقب من البرج المطل على عاصمة الأردن الغارقة في النوم. كنا كلانا نرتدي لباس المعركة والسترة؛ للحد من رياح الشتاء القارسة. نزعت قفازي من يدي وطلبت من صديقي الابتعاد خطوة عن مدفع الرشاش مدة دقيقة. أعطيته آلة التصوير التي أحملها، ثم وكأني على وشك أن أرتكب جريمة خيانة سحبت من جيبي الإشارة الهدّامة وطويتها بالقرب من صدري، وأتلفت الورقة بعد أخذ الصورة، ولكن ليس قبل أن أطلب من غيفارا الذي التقط الصورة، وهو يرسم ابتسامة على وجهه ألاّ يقول شيئاً عن الحادث إلى أحد في الفصيلة أو حتى في الغرفة.

إن معارضتي السرية للحرب كانت إحدى مشكلاتي مع الجهات العسكرية، فلم تكن أموري تسير سيراً جيداً في علاقتي مع قائد الفصيلة الملازم دومينغز Lieutenant Dominguez. لقد كان شخصاً لا يؤتمن،

وكانت فكرته ضئيلة عن كيفية إدارة فصيلة مشاة. كان يُخفي افتقاره للثقة بالنفس وراء قناع من الثقة المصطنعة، التي بدورها تبدت في قيادة عاجزة. وفي إحدى الفرص خلال التدريب، أصدر أمره إلى واحد من رماة القذائف للاشتباك مع سيارة مصفحة كانت على بعد ألف متر. كان عليّ أن أنبهه بلطف إلى أن الهدف خارج المرمى. وفي مرة أخرى كاد يسبب حروقاً لجندي بواسطة رميه قنبلة يدوية ملتهبة من موقع كان واضحاً أنه موقع خطأ. حاولت بشكل عام أن أحتفظ بانتقاداتي لنفسي، ولكني أحياناً لم أتمالك الامتناع عن وصفه بالغباء. إن الاحتكاك بين الملازم وبيني تبدى في نوع من العلاقة المهينة التي كان يستغلها في كل مناسبة لتوبيخي علناً.

لكن إذا كانت لدي صعوبات مع طريقة قيادة من هم أرفع مني مرتبة، فقد كان واضحاً أن لديهم هم أيضاً مشكلات مع طريقتي الخاصة للقيادة. وبصورة خاصة، كانت هنالك مخاوف جدية من جراء قراري بإقامة نوع مختلف من العلاقة مع الجنود في زمرتي، يختلف عمّا هو معتاد في الجيش. أردت فهم أن يتبعوني ليس بسبب العواقب التي ستواجههم إذا لم يفعلوا ما أردت، وإنما لأنهم كانوا يحترمونني ويثقون بي. لم يكن هذا الأسلوب النموذجي في القوات المسلحة، حيث أحد الأساليب المستخدمة على أوسع نطاق لجعل الجنود يلتزمون بالأوامر، وخاصة مشكلات تأديبية تسمى «التدريب التصحيحي». إن التدريب التصحيحي ليس أكثر من عقوبة جسدية، بعضهم يقول: إنه ممنوع في الجيش، ولكنه لا يزال مطبقاً على نطاق واسع. باللغة العامية يسمونه «التدخين» «Smoking». وشكله الأوسع انتشاراً هو جعل الجندي يقوم بتمارين الضغط. وإصدار الأمر إلى الجندي

بارتماء على الأرض، لكي يبدأ هذه العقوبة يسمى «الإسقاط» «Dropping» ويفترض في الوضع الذي يسبق القيام بهذه الحركات أن يسمى «الانحناء» الأمامي بوضعية الراحة «Front Leaning-rest position». يمكنني أن أتذكر بوضوح واحدة من المناسبات الأخيرة عندما أسقطت جندياً ولست فخوراً إلى أي مدى كنت انتقامياً عندما فعلت ذلك. كان ذلك في فورت ستيورات، ولاية جورجيا Fort Stewart, Georgia، عندما كان الجندي من الصف الأول واسمه توماس، الذي كان سميناً نوعاً ما، فكنت أراقبه وهو يأكل قطعاً من البيتزا، وبطاطا مقلية، وقطعاً من الشوكولاته ويمضغ التبغ ويشرب البيرة والصودا. يفعل هذا كله دون تنظيم نفسه، ومحافظاً على بدانته، وكل ما فعله أنه ازدراني، أما الآن فإنني أنظر إلى الولاء لأعرف كيف كان من عادتي أن أكون وأحياناً أن أشعر بالخجل. ولكن الحقيقة هي أنني كنت في الواقع منزعجاً عندما أرى الجندي الشاب البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، ولا يوثق به، وبغيض الشكل وبديناً في فرقتي. حاولت معظم الوقت أن أساعده قدر استطاعتي، ولكني لم أتمكن من وقت إلى آخر أن أتفادى احتقاره، فقد كنت في الواقع شديداً عليه.

كانت الفرقة بعد ظهر أحد الأيام تؤدي التدريب البدني، فرأيت توماس نفسه متخلفاً عن الآخرين كلهم خلال مرحلة الركض في التمرين، وبدأ الجنود الأسرع يتجاوزونه للمرة الثانية، ثم المرة الثالثة. استبدّ بي الغضب وقررت أن أشق طريقي وسط حقل التدريب؛ لكي أركض بجانبه. وعندما لم يعد صراخي عليه يجدي أمرته بالتوقف وأخرجته من المسار. عندئذ بدأت بمعاقبته إلى حد أنه بلغ مرحلة إخفاق عضلاته، لقد رفع الجزء الأعلى من وضع الانحناء إلى الأمام للراحة، ووقف على ركبتيه وبدأ يبكي.

إن شفته العليا بللتها الدموع والمخاط، فأخذ يمسحها بذراعه الأيمن المتسخ والمغبّر والمبلل بعرق جسده.

لم يسبق قط أن اعتذرت لهذا الجندي توماس على عفويته، مع أني تمنيت أن أعتذر له. كان ذلك اليوم في فورت ستيوارت Fort Stewart آخر مرة عمدت فيها إلى إسقاط جندي أو معاقبته. أحب أن أظن أن احتقار جندي أدنى مني رتبة هو خارج طبيعتي، وأنه ناجم عن التوتر بين الملازم وبيني، ولكني كنت أعلم أيضاً أن غضبي كان ناجماً عن شعوري بأني اضطررت للقيام بواجب عسكري أعارضه.

وعندما قلت لقائد الفرقة الأكبر سناً، والأوفر خبرة في فصيلتي، الرقيب الأول دوكت Ducket : إن قراري هو عدم إسقاط أو معاقبة الجنود التابعين لي منذ ذلك الحين، قال لي: إن تصرفاً من هذا القبيل مع القيادة يمكن أن ترتدّ على مكانتي، بوصفي قائد زمرة في الفصيلة، مسببة لي عواقب سلبية خطيرة «قلت له: إن إسقاط الجنود إلى مستوى قدميّ يخفض رتبهم ويذلهم، وإن معاملة من هذا القبيل هي أبعد ما تكون عن الاحترام والتزام النظام، ولا تؤدي إلا إلى الحقد، لقد أردت من جنودي أن يحترموني ويثقوا بي، وليس أن يخافوني. وقلت له أيضاً: إنني شخصياً لم أعد أنحني من أجل أي جندي، مهما كانت رتبته. لقد تفاجأ بهذا الخبر، وكان جوابه أنه ضمّ شفتيه وأومأ برأسه.

ذات مرةٍ كنا في الأردن، وبدأت مقاربتي المميزة نحو القيادة، تثير في الواقع استغراب أفراد سلسلة القيادة. بعد ظهر أحد الأيام، بينما كنا نحصّن محيط مكاننا بأسلاك شائكة، طلب الرقيب الأول في الفصيلة، بالانغو Palango أن ننتحي جانباً.

Obeikandi.com

سألني بأسلوبه المرح: «ما الأمر أيها الرقيب؟».

أجبته: «لا تشغل بالك أيها الرقيب» وتساءلت: تُرى ماذا كان يريد؟ فقلت: «ما الأمر؟».

سرت أنا وإياه مبتعدين عن مكان الجنود الآخرين الذين كانوا يعملون، وكان هذا نموذجاً لطبيعة بالانغو الذي كان يفضّل أن يقوم بعمل بدني؛ لكي يراه الآخرون.

قال: «لاحظت أنك لا تُسقط جنودك».

«كلامك صحيح».

تابع كلامه قائلاً: «نعم، تحدثت مع دوكيت، فقال لي: إنك لا تريد معاقبة رجالك».

«نعم أيها الرقيب».

«إذاً، أنت ترى قادة الفصيلة الآخرين، وهم يحسنون التعامل مع رجالهم، ولكنهم أيضاً حازمون ويشددون على تطبيق النظام».

قلت: «أجل أيها الرقيب، أعرف أنهم يعاقبون جنودهم ويصرخون في وجوههم، أمّا أنت فلا تفعل ذلك، ولا أظن أنني رأيتك في أيّ وقتٍ تصرخ في وجه أحدٍ منهم أو تعاقب أياً منهم. أنت تبدو في نظري إنساناً هادئاً حبيباً».

قال: «نعم، أيها الرقيب، أنت في الواقع لا تستطيع المقارنة. لقد أمضيت أنا وقتاً أطول في الخدمة العسكرية، وخضت حرباً وأطلقت النار على السيئين، وأنا رقيبٌ من المرتبة الأولى. وهكذا أحرزت الاحترام».

obeikandl.com

خطر في بالي: هل يتحدث عن السيئين؟ من أين جاء هذا الجندي؟ أعرف أنني أحرزت احترام فصيلتي، ولكن ليس احترام فصيلته.

«أحظى باحترام رجالي، أيها الرقيب».

«إذاً، الأمر لا يتعلق فقط بالاحترام، بل يتناول أيضاً النظام، وكون الواحد قائد فصيلة مشاة يُفترض به أن يكون هكذا».

وصلنا في حديثنا إلى عمق المسالة. والمسألة ليست مسألة فاعليتي بصفتي قائد فصيلة، بل يتعلق الأمر بكيفية توقعهم أن يكون سلوكي.

سألت، وأنا أنقل بصري بينه وبين الأرض التي كنت أقذف إليها حجارة صغيرة بحذائي: «هل هنالك أيّ شيء تفعله الفصائل الأخرى لا تفعله فصيلتي؟»

قال لي متوقفاً لحظة، مما جعلني أركّز نظري عليه، وهو يتحدث: «كلا، أيها الرقيب، جنود فصيلتك يعملون عملاً جيداً، وعندك في الفصيلة قائدا فريق متميزان. كلّ ما أريده منك أن تضع مزيداً قليلاً من التستوسترون(*) Testosterone في أسلوب قيادتك، هذا كل ما في الأمر».

سألته، وأنا أفكّر في هذا الفظ الذي أحادثه: «قلت مزيداً قليلاً من التستوسترون؟».

قال: «أنت تعرف أنني أريد أن أراك أكثر تمكناً في القيادة. نعم، مزيدٌ من التستوسترون، مزيدٌ من العمل في المشاة». قلت وأنا أنظر إليه بابتسامة مفتعلة: «حسناً أيها الرقيب، أظن أنني أعرف ماذا تعني».

(*) هو الهرمون الذكري، ويقصد بهذا التعبير إظهار مزيد من الشدة (المُرَاجِع).

obeikandl.com

كنت أعرف بالضبط ماذا كان يعني، ولكن لم تكن عندي النية لتغيير أي شيء في قيادتي وأسلوبي، ولم أفعل ذلك.

مشكلتي الرئيسة مع بالانغو لا علاقة لها بطريقة قيادتي لفرقتي، بل كانت تتعلق بمجمل مقاربتي للقيادة والعلاقات الإنسانية. لقد واجهت وقتاً عسيراً في التعامل مع كل عناصر النفاق والطعن في الظهر التي كانت ماثلة داخل الفصيلة. على سبيل المثال، كان ثمة صراع قوي كبير بين بالانغو ودومينغيز، وهو صراع بلغ في أحد الأيام مرحلة محرجة. لقد حدث ذلك عندما كنّا في اجتماعٍ للقيادة في خيمة لتناول الطعام، وخلال ذلك شرع «الكلبان الكبيران» يصرخ أحدهما على الآخر.

قال بالانغو صارخاً أمام الملازم: «إنك تتحدّث كثيراً عن الحرب والمعركة، وعن كل هذه الأمور ياسيدي، ولكن هل سبق لك أن رأيت حرباً في أيّ وقتٍ؟».

كان ردّ فعل دومينغيز على سؤال بالانغو رداً حانقاً. سمعناه جميعنا يتحدث عن الحرب، وكأنه هو والقتال صديقان سابقان، غير أننا كنّا نعلم أنه لم يسبق قط أن أطلق رصاصة خارج ساحة الرمي بالرصاص، مع أنه كان قد أمضى في الخدمة العسكرية زهاء عشرين عاماً.

ردّ دومينغيز، وهو يحاول أن يظلّ متماسكاً، فقال «أيها الرقيب بالانغو، لم أكن بحاجة إلى أن أكون قد شاركت في حرب؛ لكي أستعد للحرب أو للتحدث عن الحرب، ولا يمكن أن أصدّق أنك أطلقت تلك الطلقة الرخيصة عليَّ. أنا الملازم هنا وأنا قائد الفصيلة، هل يمثل ذلك مشكلة لك؟».

Obeikandl.com

قال بالانغو: «كلا، أنت الملازم وأنا أحترمك ولكن مشكلتي معك هي أن محاضراتك لي دائماً تدور حول المعركة، في حين أنني الوحيد هنا الذي قاتل فعلاً. كنت في القتال، وتعرضت لإطلاق النار عليَّ وأنا الوحيد الذي أطلق الرصاص على السيئين».

الجدل الذي جرى بصوتٍ صاخبٍ انتهى بعيد تبادل هذا الكلام، ولكن الاحتكاك بين الرقيب والملازم ظلّ مستمراً، وكلاهما استغلّ كل فرصةٍ لطعن الآخر في الظهر. وعندما جاء دوري للحديث مع بالانغو مرة أُخرى، كانت المشكلة مرة ثانية تتعلّق بممارسة معاقبة الرجال.

إن مصادر الخلاف الجديد كان يتركز على الجندي ليونارد. سبق أن كنت أنا وليونارد صديقين مدّة طويلة، مع أنني تفوقت عليه رتبة، ولم نكن كلانا في الفصيلة نفسها إلى أن تمّ إرسالنا إلى الشرق الأوسط. كان هو شاباً ذكياً، ولاعباً قوياً في الشطرنج، وكان جيداً في الرياضيات وكانت له اهتماماتٌ بالمسائل الفلسفية. ولكنه لم يكن عملياً، وكثيراً ما كان يجد مشقةً في إغلاق فمه، حتى عندما يورطه فمه في مشكلة. علاوة على ذلك، لم يكن أنيقاً ولم يكن كذلك في أحسن الأحوال الصحيّة شخصياً. هذه مجموعة صفات كان من المؤكّد تقريباً أن تسبب له مشكلات في وحدة للمشاة.

وبما أن ليونارد كان إلى حدّ ما عديم التنظيم، فقد كان يحتفظ بمعداته الشخصية في الكيس ذاته الذي يضع فيه معداته الخاصة بالحماية الكيميائية. أحد هذه الأشياء الخاصة به كان قارئ قرصه المدمج. في أحد الأيام، بينما كان ليونارد يؤدي وظيفة الحراسة في برج الحراسة، رأى طبيب الفصيلة، الذي عُرِف بأنه يتدخل في كل شيء، القارئ الموجود في

obeikandi.com

داخل كيس ليونارد في أثناء قيامه بجولاته. توجّه الطبيب مباشرة نحو بالانغو، وأخبره أن ليونارد يصغي إلى موسيقا في أثناء قيامه بمهمة الحراسة. عقب ذلك مباشرة صودر قارئ القرص المدمج.

بعد ذلك بنحو أسبوع كنت أنا وليونارد نتبادل حديثاً عرضياً حول حالة حذائه، وهذا الحذاء كان يتركه خارج مكان إقامته بناءً على طلب زملائه في الخيمة، فكان يترك الحذاء كل ليلة قبل أن يذهب إلى سريره. كان يودّ أن يعرف إذا كنت أنا قد عرفت طريقة للتخلص من هذه الرائحة الكريهة. قلت له مداعباً: إن الحل الحديث يتمثل في سكب بعض الوقود في الحذاء وإشعال النار فيه، ولعلّي كنت محقاً في ذلك.

فجأة أدرك أن الوقت قد حان وقال: إنه ينبغي له أن يذهب. كنت أعرف أن هذا لم يكن دوره للقيام بمهمة الحراسة، فسألته إلى أين ينوي الذهاب بهذه السرعة. قال وهو يُبدي ابتسامة مصطنعة: «عليّ أن أذهب لأُعاقب».

سألته وأنا أقطّب جبيني «ماذا يعني؟»

«كل يوم في الساعة الثامنة مساءً، يعاقبني الرقيب إغليزياس Iglesias مدة ساعةٍ».

لم يكن ليونارد في فرقة إغليزياس نفسها ولكنّه كان يقدّم تقريره له مباشرة لغايات الأمن المحيطة حول مكانهما.

قلت: « يا رجل، لعلّك تسخر منّي».

«كلا، أنا جادّ. ولكن لا يُفترض أن أقول أيّ شيء. إضافة إلى ذلك، هناك برودة. إن الرقيب إغليزياس هو الوحيد الذي يعاقبني عندما يكون هناك أشخاص حولنا. عندما يذهب الجميع يطلب منّي أن أتعافى».

التعايف يعني الطلب من جندي ما يتعرّض للعقوبة أن ينهض من وضع انحناء الجزء الأمامي من الجسم للراحة.

قلت ذلك وأنا أُمسك بذراعه محاولاً منعه من المغادرة: «ليست هناك برودة يا رجل. هذا التغوط غير شرعي. هل أخبرت دوكيت بذلك؟».

قال: «كلاّ، ولكن الأمر جاء مباشرة من بالانغو، ولذلك لا أظن أن هناك أيّ شيء يمكنه أن يفعله في هذا الشأن».

في وقتٍ لاحقٍ من تلك الليلة جرى حديثٌ طويل بيني وبين ليونارد. علمت بعد مصادرة قارئ قرص ليونارد المدمج أن جميع من في خيمة ليونارد صدرت إليهم الأوامر بعدم مشاركته بقارئ أقراصه المدمّجة أو بألعابه الأخرى. جرى تأديبه بسبب سلوكه غير المسؤول خلال مهمة الحراسة. ولكن تبيّن أن الرقيب إغليزياس وافق على السماح للرقيب ليونارد باستعمال القارئ الخاص به بشرط أنه في حالة القبض عليه مع القارئ الخاص به، سيتحمل هو المسؤولية. في أحد الأيام، سمع أحدهم في الخيمة صوت موسيقا يصدر من كيس النوم الخاص بليونارد.

لقد وجدوا قارئ القرص المدمج الخاص بإغليزياس الذي نسي ليونارد أن يقفله قبل ذهابه لأداء مهمة الحراسة. ولكن ليونارد بدلاً من أن يعيده إلى إغليزياس قال: إنه قد سرق القارئ. وعلى سبيل العقوبة صدرت بحقه عقوبة مدة ساعة كل يوم مدة أسبوعين. ولكن حتى مع معرفة الجميع ما الذي حدث فعلاً، فقد وَصَمَ الجميع مع ذلك ليونارد بأنه لص وأرغموه على وضع جميع مقتنياته خارج الخيمة؛ لكي يطمئنوا إلى أنه لا يسرق أيّ شيء للآخرين، وصادروا أيضاً سكاكينه «لحماية الجميع» وهو إجراء سخيف.

obeikandi.com

من الواضح أنه مخصّص فقط للإذلال، آخذين في الحسبان أنهم سمحوا له بالاحتفاظ بسلاحه والذخيرة؛ لكي يستمر في أداء واجب الحراسة.

في مناسبة أُخرى، بعد انتهاء عقوبة الأسبوعين، عدت أنا وليونارد نتحادث مرة أُخرى. قال لي: إنه بعد موافقته على إعادة ألعابه إليه، أبلغه الرقيب الأول بالانغو أنّه كان مضطراً أن يستذكر كل ما هو مكتوبٌ على بطاقة اللغة الخاصة بنا، وتتضمن هذه البطاقة نحو 105 كلمات وعبارات باللغة العربية، وذلك خلال خمسة أيام. ما من أحدٍ في الفصيلة كان يعرف أكثر من خمس كلمات. كان ليونارد يعرف أكثر من عشرين كلمة، وأعرف ذلك لأنني اختبرته. ولكن لأنه لم يتمكن من استذكار كامل عدد الكلمات طلب منه بالانغو أن يمُضي تلك الليلة وهو يكدّس أكثر من مئتي كيس رمل في ملعب الكرة الطائرة. وصدر الأمر إليه بعدم العودة إلى مهمته المعتادة، قبل أن يكدّس آخر كيس رمل.

قال، وكان جلياً أنه مكتئب: «ما من أحد يستطيع مساعدتي، سوف يرسلون الطبيب للإشراف عليّ، وكان يقصد طبيب الفصيلة الذي يتلصص».

قلت شارحاً له الأمر: «إنهم يرسلون الطبيب للإشراف عليك؛ لأنهم يعرفون أنك ستؤذي نفسك بتكديس كل تلك الأكياس بنفسك وحدك خلال الليل هل أبلغت دوكيت؟».

«كلا».

قلت، محاولاً أن أحافظ بصعوبة على برود أعصابي: «لا بأس، استمر في طريقك أيها الرجل، سأذهب لإبلاغ دوكيت بشأن هذا التغوط، وإذا لم يفعل هو شيئاً بهذا الشأن، فسأفعل أنا؛ لأن هذا يتجاوز الحدود».

شكرني ليونارد ومضيت للعثور على دوكيت، الذي كان غارقاً في النوم؛ لعله يستعد لدورنا في الحراسة الذي يبدأ عند منتصف الليل.

قال دوكيت الكثير التشكي: «ما الأمر، أيها الرقيب ميخيا؟» قال ذلك عندما نزع قناعه للنوم، ولاحظت أنه شعر بالانزعاج بسبب إيقاظه ساعات قبل دوره في الحراسة.

«ما الأمر الآن؟».

«ليونارد».

«أوه، هلمّ، أيها الرقيب، ليس الكل مثلك، ألا تعرف؟»

قلت: «كلا، أيها الرجل، هذا التغوط وصل منذ الآن إلى درجة، إذا لم تفعل شيئاً بشأنه، فسأقوم أنا بذلك».

«ماذا تعني؟ ما الذي يحدث؟» وكان آنذاك يخرج من كيس نومه الذي يعلو فرشتين فوق سرير عسكري. كان دوكت فعلاً معجباً بنومه الجميل.

« إنني على وشك أن أذهب لإبلاغ قائد سرية المدفعية والرقيب الأول؛ لأن مايفعلونه بحق ليونارد خطأ وهذا واضح، دعنا عن القول إنه غير شرعي».

صرخ في وجهي بصوت عالٍ: «كفى، أيها الرقيب ميخيا، والآن، أخبرني ماذا يجري؟».

«إنهم يجعلون ليونارد يقوم بتكديس كل أكياس الرمل في ملعب الكرة الطائرة خلال الليل؛ لأنه لم يتمكن من استذكار كل كلمات بطاقة اللغة».

Obeikandi.com

سألني: «من يفعل ذلك؟».

«حسب قول ليونارد جاء الأمر من بالانغو، بل إنهم حملوا الطبيب على مراقبته. لا بد أنهم يعرفون أنه سيلحق الأذى بنفسه إذا لم يقم بذلك العمل وحده خلال الليل. أنا واثق من أن قائد سرية المدفعية لا يوافق على هذه الإجراءات».

قال دوكيت، وقد أخذ ينتعل حذاءه: «لا بأس، أيها الرقيب، دعني أذهب لأتحدث مع بالانغو، سأرى ماذا أستطيع أن أفعل».

خلال ذهاب دوكيت للاجتماع مع بالانغو ذهبت أنا إلى ملعب الكرة الطائرة؛ لأرى ماذا يفعل ليونارد. وقبل أن ألمحه، ركضت نحو الطبيب الذي اتخذ لنفسه كيس رمل مكاناً مريحاً للجلوس، ومن مجلسه هذا كان يستطيع مراقبة ليونارد وهو يكدّس الرمل.

«مرحباً، ما الأمر أيها الرقيب ميخيا؟» قال ذلك وهو يبصق بعض بذور دوار الشمس. قلت مختصراً الكلام: «الأمر ليس كبيراً. أين ليونارد؟».

«أشار بيده في اتجاه أحد الأكوام الكبيرة من أكياس الرمل. قال: «ها هو».

«فهمت».

سرت في اتجاه الكومة دون أن أرى ما يمكن أن يكون ذلك ظل ليونارد. عندما صار بالإمكان رؤية صورته الجانبية في الظلام، رأيت أنه نزع عن جسمه القسم الأعلى من بزته، مع أن المساء كان بارداً جداً. كان يتصبب عرقاً بغزارة وكان يحمل كيس رمل على كلا كتفيه. فالقاهما عن بمجرد أن رآني. وأخذ يبكي بصمتٍ.

obeikandi.com

قال، وهو يبكي دون أن تفارق وجهه ابتسامة: «أنا فاشل».

قلت محاولاً أن أخفي مدى انزعاجي: «كلا، لست هكذا، أيها الرجل». كانوا يحاولون تحطيم هذا الفتى. تابعت كلامي، فقلت: «هؤلاء الناس حفنة من أصحاب الرؤوس اليابسة، وأنت أذكى منهم جميعاً».

قال، وهو ينظر إلى الأرض منكساً رأسه، ولعله كان يحدث نفسه أكثر مما يحدثني: «انظر نحوي. لا أستطيع أن أفعل شيئاً صحيحاً. عمل بسيط بعد عمل آخر، والفشل مستمر».

قلت وأنا أكاد أصرخ: «بهذه البساطة؟! أنت متفوّق على أي واحد من أفراد الفصيلة في معرفة الكلمات العربية، ليس هذا بالأمر البسيط! مهما يكن من أمر. لقد تحدثت مع دوكيت، ولست متأكداً مما سيفعل، ولكنه قال: إنه سيفعل شيئاً ما. أما أنت، فكن متنبهاً خلال وجوده هنا».

عندما بدأت أبتعد عنه كفّ عن البكاء.

قال: «مرحى أيها الرقيب».

التفتّ إلى الوراء؛ لأراه.

«شكراً لك».

افتعلت ابتسامة، وواصلت السير.

في اليوم اللاحق استعاد ليونارد كل معداته.

أخبرني أن بالانغو جاء إلى ملعب الكرة الطائرة بعد وقت قصير من مغادرتي الليلة السابقة. وهو قال في حديث مع ليونارد: إنه لم يقصد أن

يجعله يكدس كل الأكياس، وإنما أراد فقط أن يمنحه قدرته على تنفيذ الأوامر بقدر أقصى استطاعته، وهذا نوع من اختبار لتطبيق النظام. في اليوم ذاته انتقل ليونارد إلى خيمتي.

لم يمضِ وقت طويل على هذا الحادث، حتى بدأ قادة فريقي يسألونني عن نقلي الوشيك. قلت لهم بصدق: إنني ليست لديّ فكرة عما يتحدثون عنه.

ثم، في صباح أحد الأيام، تلقى جندي في فرقتي تهنئة على منصبه الجديد من قائد فرقة آخر. قيل له: إنني على وشك فصلي، وإنه سيتولى مكاني، صارت الشائعات أكثر اتساعاً وتكراراً. بداية، كنت قليل التفكير في الأمر، ولكن مع مرور الزمن أدركت أن الشائعات بدأت تقوّض سلطتي داخل فرقتي، فقررت أن أجابه بالانغو في المسألة.

قال لي صباح أحد الأيام وأنا أقترب منه بعد تناوله فطوره «مرحباً»، ما الأمر، أيها الرقيب الكبير؟ كيف لا تأتي إطلاقاً لتجلس معنا؟».

قلت له: إنني أفضّل الجلوس مع فرقتي، وهذا كان كلاماً صحيحاً، ولكني عادة أجلس في أي مكان في خيمة الطعام ذاتها. والواقع أنني لم أكن أحب الجلوس معه أو مع قادة الفرق الآخرين، والسبب في الغالب هو مؤامرات ونفاق الجالسين حول مائدتهم وهذا ما يصعب علي أن أبلعه مع طعامي.

سألت، وأنا أعلن أن المشكلة لا علاقة لها بأي شكل مع فرقتي، أو حتى مع أدائي بوصفي قائداً للفرقة: «ما رأيكم في عمل زمرتي؟».

قال متمهلاً: «أظن أن جنودكم يعملون عملاً جيداً». كان التوتر واضحاً. سألني: «لماذا تسأل أيها الرقيب»؟ قلت وأنا أنظر إليه دون

أن أبتسم: «ما برحت أسمع الخبر القائل إني سأُفصل، إذا صح الخبر أريد أن أعرف السبب».

«كلا، هذا ليس صحيحاً، ولكن ما قلته فعلاً: إنني سأُفصل أي شخص يحاول أن يتجاوزني».

تابع كلامه مع أنه يعرف تمام المعرفة أن الشخص الذي يتحدث عنه كان يقف أمامه: «حسناً، إن شخصاً ما قال: إنهم عازمون على مقابلة قائد المدفعية؛ لتقديم شكوى عن قيادتي، لماذا، هل أنت من فعل ذلك؟».

«إذا كنت تتحدث عما حدث مع ليونارد، أجل، أنا هو». قال بصوت صارخ: «سأعيدك مباشرة إلى H - 5 إذا حاولت أن تتجاوزني مرة أخرى».

قلت متعمداً الكذب: «حسناً، أنا لم أخطط أبداً لتجاوزك. أنا ذهبت مباشرة إلى دوكيت؛ لأنه لا يزال قائد فرقة ليونارد. ولكنني لم أتجاوزك أيها الرقيب».

«إذاً، هل لديك مشكلة مع طريقة تعاملي مع ليونارد؟ بل إني أرسلت الطبيب؛ لكي أتأكد من أنه لن يؤذي نفسه. كل ما حدث كان تمريناً تصحيحيا».

«أيها الرقيب، كانت لديّ مشكلة في طريقة التعامل مع ليونارد منذ يوم وصولنا إلى هنا. نعم، أقصد أن الرجل غبي إلى حدٍ ما وأمور أخرى، لكن طريقة التعامل معه لا تساعده بأي شكل. هذه الطريقة تحطم معنويات الرجل واحترامه ذاته».

شعرت كأني أتحدث بلغة مختلفة مع إنسان من عالم مختلف، مع أنه في الواقع يشبه أي شخص آخر في الفصيلة. كنت أنا الأجنبي الوحيد

هناك. قال: «مهما تكن مشكلاتك، فاحتفظ بهم في الفصيلة» قلت: «روجر، أيها الرقيب، لهذا السبب ذهبت إلى الرقيب دوكيت. كنت ألتزم بتسلسل القيادة».

تكوّرت شفتاه إلى أعلى في ابتسامة مفتعلة، قائلاً: «وهذا هو كل ما يجب أن تفعله أيها الرقيب. في هذه الأثناء إياك أن تقلق من جراء أي شيء تسمعه. إنك تقوم بعمل جيد، أيها الرقيب».

تبادلنا عبارات المزاح، وفي نهاية الحديث كان كلٌّ منا يربت على كتف الآخر. بدا لي، وكأن كل الأمور ستكون على ما يرام، غير أن شائعات اقتراب فصلي لم تتوقف، وإنما صارت إلى حد ما أكثر تحفظاً.

بعد مرور بضعة أيام على مجابهتي مع بالانغو، بدأ الشعور «بصدمة ورهبة» قصف بغداد. أنا شخصياً كنت أشعر بالصدمة والرهبة، ليس من جراء القصف الشرس بقدر ما هو من جراء تجاهل حكومة الولايات المتحدة للقانون الدولي، ومن ثم فرضت هذه الحرب ليس على العراق فقط بل على العالم بأسره.

بعض الجنود في الفصيلة عبروا عن الأسف بشأن الضربات الخاطئة في سائر العمل العسكري، أما آخرون فقد وجهوا مشاعرهم وجهة أكثر نضجاً ولكن مسايرة للطريق بالقول: إنهم بصفتهم من المشاة يجب أن يقاتلوا إلى جانب أشقائهم. أما أنا، من جهة أخرى، فقد كنت أظن أن التمنيات السعيدة لزملائي الجنود سوف تصدق فعلاً. بما أن شعوري بصورة متزايدة أن القتال قادم لا محالة، فقد بدأت آمل ألا يستمر وقتاً طويلاً، بحيث يكون عملية غزو سريعة، ونعود فوراً إلى الوطن.

إن وحدة المدفعية التي كنا ملحقين بها تلقت أوامر إعادة انتشار، وإن أفراد الوحدة سيعودون إلى الولايات المتحدة. قيل لنا: إنه لا بد من بقائنا مدة قصيرة من أجل توفير الأمن للمتعهدين في شركة كيلوغ براون أند روت Kellog Brown and Root Contractoy ريثما يفككون معسكرنا.

وما إن غادرت الموقع وحدة المدفعية، حتى اقترب موعد عيد الفصح. قرر الملازم دومينغز، الذي أصبح القائد الأعلى للقاعدة، أن يكون ذلك فرصة طيبة لرفع معنويات الجنود، وإقامة مأدبة شواء على امتداد كامل الياردات التسعة، بحيث تقدم فيها أنواع النقانق وكؤوس البيرة.

ذهب دومينغز في جولة لشراء المؤن اللازمة لحفل الشواء. أخذ معه فريقاً من رجال الأمن، كما أنه، خلافاً للأوامر المباشرة، أبلغ الجميع في هذا الفريق أن يرتدوا كامل بزاتهم خلال قيامهم بهذه الرحلة القصيرة. وقد شوهدوا وهم يبتاعون زجاجات البيرة في السوبر ماركت، والذين شاهدوهم بضعة مواطنين أميركيين يرتدون ملابس مدنية، ولعلهم كانوا دبلوماسيين، أو أشخاصاً بمهمة سريّة لغرضٍ ما. توجّه هؤلاء المدنيون مباشرة إلى الجنرال المسؤول عن جميع الجنود الأميركيين في البلد وقام بإبلاغ ما رآه إلى من يعنيهم الأمر.

لم يمضِ وقتٌ طويل على مغادرتنا الموقع، فعُدنا مرة إلى موقع H - 5، وكان دومينغز قد أُعفي من منصبه قائداً للفصيلة. وكانت الشائعة التي انتشرت آنذاك تشي بنهاية مهمته ضابطاً. آخر ما سمعته هو أنّه كُلِّف بقيادة قافلة متوجهة إلى العراق، وأنه سيُعاد بعد ذلك مباشرة إلى الولايات المتحدة. وأصبح الرقيب أول بالانغو نائب قائد لفصيلة ثالثة ليحل محلّه.

فيما يخصني، قال بالانغو: إن القرار يقضي بنقلي من الفصيلة الثالثة لأصبح قائد فرقة في الفصيلة الأولى. قال وهو يتكلم بوجه متجهم: «أكره أن أراك تذهب. لكن الأمر لم يصدر عنّي».

بعد أيام من تسلمي منصبي الجديد قائداً أول للفرقة في الفصيلة الثانية، ودون إشعار مسبق، أُيقظ سائر أفراد السرية من نومهم نحو الساعة الثالثة صباحاً. كانت الأوامر تقضي بأن نعدّ كامل معداتنا للذهاب. إن انتعاشنا بالعودة إلى الوطن لم يستمر إلاّ حتى علمنا أن إعادة انتشارنا ليس بالعودة إلى الولايات المتحدة، بل سيكون وطننا الجديد غير الولايات المتحدة مدة من الزمن غير محدودة: أي كان علينا الذهاب إلى العراق.

obeikandl.com

obeikandl.com

ثالثاً

كان ثمة شيءٌ غريب يتعلّق بانتشار سريّة شارلي في العراق. بدأت كل الأمور متسرّعة ومعقدة. كان علينا أن ننتظر يوماً كاملاً عند مهبط الطائرات؛ لكي نستقل طائرة من طراز C-130 من الأردن إلى مطار بغداد الدولي، الذي لايزال يُسمى مطار صدام الدولي. إن السريات الأخرى في كتيبتنا لم تتمكن من الحصول على رحلةٍ جويّة بهذه الطريقة، ولذلك كان عليها السفر إلى العراق براً.

إن الشائعات القائلة: إن هناك على مستوى الكتيبة مَنْ زوّر وثائق لإرسال وحداتنا للمشاركة في القتال بسرعةٍ أكبر، هذه الشائعات تعززت عندما وصلنا إلى بغداد، وتبين لنا عدم وجود وحدة تنتظرنا، فلا أوامر، ولا مكان للنوم، بل إن الطعام والماء غير متوافرين. كان علينا أنا والملازم أن نخرج صباح اليوم القادم في سيارة مستعارة من نوع مهمقي Humvee؛ لكي نحاول العثور على وحدة أخرى قريبة، لديها فائض من الماء ووجبات جاهزة للأكل.

قبل انطلاقنا إلى العراق كانت وحداتنا جميعها قد عادت من مواقع مختلفة حول الأردن وتجمعت مرة أخرى في موقع H - 5. ظن بعض الناس أنهم يستعدون للتعبئة؛ لكي يعودوا إلى الولايات المتحدة. ولكني كنت أعلم أن هذا الاحتمال ليس ممكناً، فقد كان قائد كتيبتنا المقدم ميرابل يريد أن يرينا العمل. قبل نحو ثلاثة شهور، أي في يوم التقاط صور كتيبتنا في حقلٍ

للاستعراض الموجود في فورت ستيوارت، كان قد أبلغ كل واحد منا أننا لسنا عائدين إلى الولايات المتحدة دون شارة المشاة في القتال (CIB)(*). لقد ردد صدى ملاحظاته قائد سريتنا النقيب وارفل قبيل سفرنا إلى الشرق الأوسط.

إن شارة المشاة (CIB) للقتال تمنح حصريّاً للجنود العاملين في قوات المشاة أو لجنود العمليات الخاصة الذين انخرطوا مباشرة في قتال العدو. وكان كبار ضباطنا الذين سبق لهم أن أمضوا خمسة عشر أو عشرين عاماً في الخدمة العسكرية دون أن تكون لهم خبرة في القتال، يعلمون أن هذا الوسام جوهري بالنسبة لمزيد من تقدمهم في المراتب العليا للضباط. ولذلك فوجئت بإرسالنا إلى بغداد بمثل هذه السرعة. والشعور بأن قادتنا من شأنهم أن يفعلوا أي شيء للحصول على وسام وترقية هو بحد ذاته بذرةٌ لما سينمو لاحقاً في حرارة المعركة ليتحول إلى شعور عميق بالخيانة.

تطلب الأمر نحو أسبوع قبل بدء وصول بقية كتيبتنا في قافلة ضخمة من الأردن. في أثناء ذلك تجولنا حول المطار الذي دُمر مؤخراً. وكان جلياً، حتى في وضعه المدمَّر، أن المنشآت الموجودة هناك كانت ذات يوم تُعدّ فخمة، وفيها طنافس (سجادات) حمراء سميكة ولها سقوف عالية، وأماكن واسعة للتحادث. كان مهبط الطائرات هذا يستخدم من قبل الطائرات العسكرية الأمريكية وطائرات الهليكوبتر الهجومية وطائرات بلاك هوك، التي كانت تنطلق طوال اليوم والنهار للقيام بمهمتها. وكانت جميع رحلات الطيران الدولية قد توقفت وصار المطار خالياً كلياً من الرحلات الجوية التجارية، باستثناء طائرة وحيدة للركاب موجودة على

(*) اختصاراً لـ Combat Infantry Badge.

طرف مهبط الطائرات، وبدت هذه الطائرة، وكأنها شطرت إلى شطرين، وكأن ذلك تم بمدية ضخمة مسننّة.

إن تجوالنا في أنحاء المنشأة المدمرة، دون أي شعور بمهمة ودون أي اتصال مع العالم الخارجي، كان يكفي بحد ذاته أن يصيب أي واحد بالجنون، ولذلك رحبنا بالخبر القائل: إننا أصبحنا أخيراً ملحقين بوحدة أكبر، هي فوج الفرسان المسلّح الثالث، وكلما أسرعنا بالقيام بالمهمة في العراق كان يمكننا الإسراع بالخروج من هناك، أو هذا ما خطر لنا. إن أول مهمة طلبت منا هي السفر إلى الأسد AL- Assad وهي قاعدة جوية عراقية قديمة على بعد مسافة ما من مطار بغداد الدولي.

انطلقنا عبر سلسلة من البلدات الصغيرة، كل واحدة منها أكثر بؤساً من سابقتها. وكان الأولاد الحفاة يقتربون من قافلتنا المؤلفة من شاحنات عسكرية تزن خمسة أطنان وعدد كبير من شاحنات بلون الرمل، بينما قافلتنا مستمرة في شق الطريق. حاول بعض الأطفال أن يبيعونا زجاجات صودا وأكياس من الفستق، ولكن معظمهم كان يكتفي فقط بأن يقول لنا: مرحباً وأن يلقي نظرة عن كثب على آخر الواصلين من الغزاة. كان ذلك هو البداية الفعلية للاحتلال. وفيما كانت بنادقنا مصوبة من جوانب سياراتنا نحو العراقيين مباشرة، لم يكن يبدو على العراقيين أنهم غاضبون منا، إذ إن معظمهم كان يكتفي بالابتسام والتلويح باليد، والضرب على رؤوسهم بلطف كلفتةٍ فهمنا فيما بعد أنها: «شكراً لكم».

إن الرحلة بالسيارات إلى الأسد ما كان يجب أن تستغرق وقتاً طويلاً، ولكن استمر وجودنا على الطريق ما يقرب من ثماني ساعات؛ لأن المسؤولين

عن القافلة لم تكن لديهم إطلاقاً أي فكرة إلى أين نحن ذاهبون. وخلال النهار لم تكن تلك مشكلة كبيرة. في المرحلة الأولى من مراحل الاحتلال كانت الهجمات في ضوء النهار متفرقة، وبشكل عام لم تكن فاعلة. أما عند حلول الليل ودون أن تبدو لنا نهاية لرحلتنا بالسيارات، بدأنا نشعر أننا أشبة ما نكون بسفينة تائهة في الظلام، في بحر معادٍ لنا أكثر من كوننا وحدة مشاة مكلفة بمهمة. لقد جرى إرسال فريق استكشاف للبحث والتعرف على البقعة التي نقصدها. وانتظرنا عودة الفريق زهاء ساعة، وتوقفنا على الطريق وسط مكان لا يعرفه إلاّ اللّه، مترقبين شروق الشمس فوق الصحراء.

أخيراً وصلنا إلى الأسد متأخرين في تلك الليلة. وقد تبين لنا أنها مهبط صغير للطائرات محاط بشبكة من القبب الكبيرة، التي كان يمكن للمرء بسهولة أن يخطىء، فيظن أنها كثبان كبيرة من الرمل. ولكن تمكنا في ضوء الصباح أن نرى أن هذه كانت في السابق منشآت إسمنتية لها فتحات في أسفلها تكفي لدخول طائرة مقاتلة إليها. لقد كانت هذه أماكن لمبيت طائرات سلاح الجو العراقي.

تعرّض الكثير من هذه الأماكن للقصف من الجو، ولكن بدا لنا أن طائرتين فقط قد دُمِّرتا. أمّا بقية الطائرات، ومعظمها طائرات مقاتلة نفاثة، فنُقلت إلى صحراء قريبة من هذا المهبط، بحيث يمكن رؤيتها بالرغم من أنها مخفية عن الناظر إليها من الجو تحت شبكات للتمويه. وكوني جندياً في الجيش الأميركي لم أعرف هل يجب أن أضحك أم أن أشعر أنني محرج؛ لأن الحقيقة هي أن شخصاً ما في سلاح الجو العراقي قد استغفل المخابرات العسكرية الأميركية؛ مما جعلها تعتقد أنها كانت

تدمّر جزءاً كبيراً من سلاح الجو العراقي، مع أنها في الواقع كانت تدمّر مخابئ خالية، كانت مخصصة للطائرات العراقية.

أنشأنا بيتنا الجديد في بناية تحتوي على أربع غرف صغيرة مجاورة لإحدى مخابئ الطائرات التي كانت لا تزال سليمة، على بعد نحو خمسة أميال خارج القاعدة الجوية الفعليّة. انهمكنا مدة قصيرة بتنظيف البناية، وجعلها قابلة للعيش فيها. وبما أن درجة الحرارة جعلت النوم في الداخل مستحيلاً، فإن معظم الجنود أخذ كل منهم حصيرة للنوم في الخارج، وناموا على الأرض المحيطة بالمبنى. ومن هناك كان بإمكاننا أن نرى المعسكر الذي كان مخصصاً ليكون منطقة العمليات خلال الأيام العشرة المقبلة أو نحو ذلك، وهذه المنطقة كانت تقع في المخبأ المجاور لبنايتنا.

كانت مهمتنا أن نساعد في إدارة معسكر أسرى الحرب. والوحدة التي حللنا محلها كانت بقيادة ملازم أول طويل القامة نحيل. فلما نزع قبعته من فوق وجهه النحيل دخل بنايتنا؛ باحثاً عن الملازم سيريكاس قائد فصيلتنا. كان سيريكاس قد انضمّ إلى شارلي قبيل انتشارنا في الشرق الأوسط، وقد جاء هو من الحرس الوطني لولاية أخرى. كان قصيراً نحيلاً، وكان وجهه يوحي بفتىً صغير. في ذلك الحين كان الملازم في فوج الفرسان المسلّح الثالث قد دخل إلى منطقتنا. كان سيريكاس يعلّق للتو جاربيه اللذين غسلهما على عمود الاستحمام (دُشّ) في مرحاضٍ مدمّر. أعلن الملازم في فوج الفرسان المسلح أنه سيقدم إلى سيريكاس عندما يكون جاهزاً، شرحاً لكيفية إدارة تلك المنشأة. سارع الملازم الحافي القدمين لإيجاد جوربين أسودين نظيفين وأسرع بالخروج من المكان.

Obeikandi.com

عند عودة سيريكاس لم يكن ذا مزاجٍ رائق. قال مخاطباً الملازم: «إنهم سيكونون بحاجة إلى قادة فرق؛ لتزويدكم أنتم الجنود بدرس سريع، ولكنكم كما تعلمون هذا لا يبدو صحيحاً».

سأله الرقيب في فصليتنا الرقيب الأول وليامز Williams، وهو يبتسم ابتسامة باهتة ويرفع حاجبيه: «ماذا تعني يا سيدي؟» كان وليامز رجلاً أسود أنيقاً طويل القامة في أواخر العشرينيات من عمره. ظن دائماً أنه على صواب ويكره أن يعارضه أحد، حتى في أتفه الأشياء.

قال سيريكاس، وقد بدأ يظهر عليه ما ينمّ عن انفعاله: «حسناً، ولكن ألا تعرف أنه لا يوجد لديهم حولنا في هذا المكان حمالة ميدانية لنقل مريض إلى سيارة الإسعاف؟».

قال وليامز ذلك، وهو يمطّ الكلمة بلهجة تقرب من الوقاحة.

تابع سيريكاس كلامه، قائلاً: «لا أعتقد أن بإمكانكم أن يوجد عندكم معسكر لأسرى الحرب دون أن يكون على مقربة منكم معدات طبية مناسبة. هل تعرفون ماذا قالوا؟».

«ماذا قالوا، ياسيدي؟» وكان وليامز الآن يجلس مسترخياً على صناديق طعام جاهزة للأكل.

يجب ألا يسمّوا هذا المكان معسكراً لأسرى الحرب، فالأحرى يجب أن يقولوا: معسكر «المحتجزين» فقد نطق كلمة «محتجزين» بلهجة ساخرة.

أصلح وليامز جلسته على الصناديق المصنوعة من الورق المقوى، وضمّ ذراعيه حول صدره. كان ينتظر بدافع الفضول إلى أين سيواصل الملازم خط تفكيره.

قال الملازم، وهو ينفث من رئتيه نفساً عميقاً: «أيها الرقيب ولیامز، هذا المكان غير شرعي. كل ما عندهم للعناية الطبية طبيب واحد رتبته جندي من الصف الأول. يجب أن تكون في هذا المكان منشأة طبية. فأين هي؟ ماذا يحدث إذا أصيب أحد هؤلاء الأسرى بأي أذى؟»، وعندها رفع ذراعيه؛ تعبيراً عن سخطه.

تساءل وليامز، مع أن طبيعة قلق سيريكاس كانت الآن جلية: «إذاً، ما هي نقطتكم، ياسيدي؟».

النقطة هي أنني عازم على الاتصال بالصليب الأحمر، أيها الرقيب؛ لأنه من المفترض عدم وجودنا هنا «هذه مهمة تخص الشرطة العسكرية، أو المخابرات العسكرية» نحن مشاة، نحن نشخر، ولم نتدرب على هذا العمل. وهؤلاء الشباب هم من كشافة الفرسان. ولهذا يريدون منا أن نسمي هذا المكان معسكر المحتجزين؛ لأن المكان لا يحقق المتطلبات الصحيحة لمعسكر أسرى حرب».

قال وليامز، وهو ينهض عن صناديق الوجبات الجاهزة للأكل: «جيد، ولكن هذا في المقام الأول ليس من عملنا أن نقول: مكان شرعي أو غير شرعي، ياسيدي».

ردّ عليه سيريكاس، فقال: «هذا المكان سيُغلق إذا استدعينا الصليب الأحمر».

عندها قال وليامز الذي كان منزعجاً، ولكنه كان يحاول أن يكون مقنعاً بلهجة صوته: «لا ياسيدي، لن يُغلق». كان سيريكاس أرفع منه رتبة، ولكن وليامز كان يملك خبرة عسكرية أكبر وكان ذا شخصيةٍ أقوى. وبشكل أو

بآخر كان وليامز ينوي إقناع الملازم بترك المسألة، وكان عليه أن يفعل ذلك بطريقة تبدو أكثر شبهاً بقرارٍ خاص صادر عن سيريكاس، على الأقل في نظر سيريكاس.

«الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحدث هو فصلك من منصبك، وأن يحلّ شخص آخر ما مكانك في المسؤولية».

بدأ سيريكاس يتماسك، فقال: «ولكن نحن لا يمكننا أن نكون جزءاً من ذلك. أقصد أنني لا أظن أننا يجب أن نكون جزءاً من ذلك. أظن أنه ينبغي لنا أن نبلّغ عنه».

قال وليامز: «علينا أن نؤدي مهمتنا. إذا ما أقدمنا على الإبلاغ عن أي شيء، فإنهم سيكتفون فقط بتصويب إصبعهم إلى ضابطٍ مقدّم، وعندها من سيكون الرابح في رأيك؟ هل تعتقد فعلاً أنهم سيقبلون الاستماع إلى ملازم في الحرس الوطني؟».

عندئذ صار سيريكاس هادئاً وأخذ يصغي إلى وليامز. عرف وليامز أنه استماله إلى صفّه، فقال: « إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحدث هو أنه سيكون نهاية مسيرتك الوظيفية يا سيدي».

قال الملازم المستقيل، وهو يمشي إلى داخل البناية: «لا أعرف أيها الرقيب وليامز». كان يعرف أننا سنمضي في القيام بالمهمّة، أعجبنا ذلك أم لم يعجبنا.

ما إن غادر الملازم سيريكاس وبقي وليامز وحده مع قادة الفصيلة وعددٍ قليلٍ من الجنود الآخرين قال لهم: إنه يحاول أن يكون جاداً ألا يدوس على أصابع قدمي الملازم.

obeikandi.com

قال، وهو يبدو كعادته، متيقناً من صواب رأيه: «أحياناً أريد أن أتدخل، ولكنني أنوي أن أدعه يؤدي واجبه، وإلاّ فلن يتعلم مطلقاً».

كان سيريكاس مثلي جديداً بسريّة ثانية. عندما كنّا في الأردن، كان هناك دائماً كل أنواع الاحتكاك بين قادة الفصائل ورقباء الفصائل في جميع فصائل وحدتنا. أدّى ذلك إلى إعادة تشكيل نحو كامل قيادة كتيبة شارلي. آنذاك بدأ وليامز وسيريكاس العمل معاً.

وراء وليامز كان بالإمكان رؤية نارٍ تشتعل من براز بشري في برميل معدني في وسط بقعة مكشوفة عند مدخل المخبأ المجاور لبنايتنا. والمخبأ الذي يستخدم معسكراً للمحتجزين، كان مسيجاً بأسلاكٍ مزدوجة ذات أشواك حادة.

وكانت هناك نار أخرى خارج المعسكر، على بعد نحو خمسين متراً من سياج الأسلاك ذات الأشواك، ويلي ذلك مباشرة كوخ خشبي يستخدم مرحاضاً، وعلمنا أن النارين كان يصدر عنهما احتراق مزيجٍ سامٍ من الوقود والبراز البشري أي أن النارين إحداهما داخل مجمّع خاص بالمحتجزين، والأخرى في الخارج، للجنود الأمريكيين.

سبق لنا أن سرنا نحو المعسكر، وكنا على وشك أن نتلقى درساً سريعاً عن التعامل مع المحتجزين، فاعترض سيرنا وصول سجينين جديدين إلى المجمّع.

قال الملازم في سرية الفرسان المسلحين الثالثة ذو الوجه النحيل: «آه، حسناً، الآن أيها الشباب، سترون التعامل المباشر مع المحتجزين».

راقبنا أخذ المحتجزين إلى منطقة الحبس داخل سياج الأسلاك، ولكن خارج المخبأ، حيث يتم رصّهم في صف. كان التفتيش الجسدي إجراءً أمنياً إضافياً؛ تحسباً أن يكون آسروهم الأصليون، أو أن يكون الجنود من سرية الفرسان المسلحين الثالثة قد غفلوا عن أي شيء يمكن استخدامه للهرب أو كسلاح. ومجرد تفتيش السجناء يحتفظ بهم في المنطقة ذاتها، مع تقييد أيديهم خلف ظهورهم ووضع أقنعة على رؤوسهم ريثما يكون المحققون (Spooks) جاهزين لإجراء التحقيق الأولي فاستخدام كلمة «Spooks» تستخدم في الجيش للإشارة إلى عملاء يعملون بصورة سرية وانتماؤهم غير معروف. وهم لا يلبسون بزات ولا يضعون شارات تدل على الاسم أو الوحدة أو الهوية، وهم بصورة عامة يستخدمون أسماءً مجهولة. وقد يكونون من القوات العسكرية ـ ربما من قوات خاصة أو من جنود من قوة دلتا Delta، أو عجول البحر في البحرية Navy Seals ـ أو أنهم قد يعملون لوكالة NASA ناسا، أو أي وكالة أخرى لا نعرفها، بل قد يكونون مدنيين، أشخاصاً لوحدات خاصة يعملون الآن كمتعهدين أو كمستشارين أمنيين.

عندما سرنا نحو غرفة التحقيق، حصلنا على أول لمحة عمّا يجري داخل المعسكر. كان هناك جندي نحيل أبله المظهر تترسم على وجهه ابتسامة كبيرة، بدا أنه من النوع الذي ربما كان يسخر منه فتيان آخرون طوال مدة المدرسة الثانوية، كان يقف بالقرب من مجموعة من المحتجين الحفاة الجالسين على أرضية المعسكر الإسمنتية، وقد وضعت أقنعة على رؤوسهم مصنوعة من أكياس الرمل، وأيديهم مقيدة أمام بطونهم. كان هناك جندي آخر ـ قصير القامة، أصلع،

وذراعاه مليئان بالوشم ـ يحمل مطرقة ثقيلة على كتفه الأيمن. وكان يتنقل حول السجناء، وكأنه ملاكم يجول حول الحلبة، متيقظاً، قوياً، دنيئاً، مستعداً أن يضرب. إنه لا يبتسم.

انضممنا إلى المحققين داخل غرفة مظلمة جداً كان في داخلها جنود آخرون من السرية بديلون لغيرهم (أحدهم الملازم)، كبديل لمحقق يبدو أنه عربي. إن مصباحاً خفيفاً لا يوفر إضاءة حقيقية، بل مجرد ظل أخف من الظلمة. كان عملي أن أدوّن محضراً. بالقرب من المنضدة كان هناك محقق آخر يبدو أنه صارم جداً. كان طويلاً وشعر رأسه أشقر اللون قصير. كان يوجّه أسئلة باللغة الإنكليزية إلى المحتجزين، فيبادر المحقق الذي إلى جانبه يترجم الكلام إلى اللغة العربية.

كان قائد آخر من فصيلتي يجلس بعد المحتجزين؛ للتأكد من أنهم لا يقومون بأعمال بطولية وأنهم يفعلون ما يطلب منهم. وعند إحضار كل محتجز إلى الغرفة كان يُؤمر بأن يتعرى للتفتيش، ثم عليه أن يدور وينحني. لاحظت أن محققاً ثالثاً يقف في أقصى مؤخرة الغرفة، مراقباً من هناك كل شيء يجري داخل الغرفة، وبالرغم من العتمة كان يضع نظارات.

بدأ الاستجواب بالأسئلة الأساس، كالاسم، اسم الأب، الولاء لأي قبيلة، الدين، مكان الولادة، مكان الإقامة، المهنة، وهلم جرا....

بعد ذلك يتابع المحقق عمله، فيسأل كل سجين عن سبب وجوده هناك، ولماذا يعتقدون أنه احتجز. إن السجينين اللذين رأيتهما يتعرضان للاستجواب كان لديهما القليل جداً من حيث طريقة الرد على هذا السؤال. كانا يقولان: إنهما كانا مسافرين بحافلة أياماً عدة، وعندما وصلت الحافلة إلى موقفها نزلا منها وبدأ كلاهما بالسير.

obeikandi.com

لسوء حظهما كانت هناك نقطة تفتيش عسكرية أمريكية، وكانت هذه النقطة بعد موقف الحافلة مباشرة. وعندما رأى الجنود الذين يشغلون نقطة التفتيش شخصين ينزلان من الحافلة مباشرة قبل موقع الجنود وبدأ الشخصان يسيران مبتعدين في الاتجاه المعاكس. فتعرضا للاشتباه بهما وسرعان ما أُلقي القبض عليهما.

سأله المحقق طويل القامة الأشقر: «لماذا نزلت من الحافلة؟»

ـ كانت ترجمة جوابه «هنا المكان الذي تقصده الحافلة».

ـ «ولماذا ابتعدتما عن الجنود؟».

كان الجواب لأحدهما: «أنا سرت على الطريق التي يفترض أن أسير عليها». عند هذا الكلام توقفت الترجمة لحظة، ثم إنه نظر إلى السجين الآخر، وقال: «هو أيضاً يريد أن يعرف لماذا ألقي القبض عليه». رد المحقق بصوت هادئ ولكن بطريقة مصممة قل له: إنني أنا الذي أطرح الأسئلة الرذيلة هنا.

كان من الجلي أن السجين الذي طرح السؤال قد أزعجه الجواب، وأشار بيديه المقيدتين إلى أعضائه الجنسية وأخذ يتكلم بسرعة وبصوت عالٍ باللغة العربية.

«إنه يقول.....»

قاطعه المحقق الذي يطرح الأسئلة قائلاً: «أريد أن يعرف ما يقول الآخر».

صرخ أحد جنود مجموعة الفرسان المسلحة الثالثة الذي كان من الواضح أنه يمتلك خبرة كبيرة في عمله «اخرس يا ابن العاهرة. اخرس! اخرس!

اخرس يا ابن العاهرة. اخرس، اخرس أيها الحجي» كان يكرر هذه الكلمات في مواجهة الرجل العاري.

إن كلمة «الحجي» كلمة جديدة للإهانة، يستخدمها العسكريون الأمريكيون عندما يتحدثون عن العدو في العراق، تشبه إلى حد كبير كلمة مماثلة في فيتنام هي «gook» وتعبير «الرأس العفن» في أفغانستان. كانت كلمة الحجي تستعمل على نطاق واسع لتشمل العديد من كل ما هو عراقي مثل «طعام حجي» «Hajji Food» أو «بيوت الحجي Hajji Homes» وموسيقا الحجي Hajji Music» والاستخدام الحقيقي في العربية هو أبعد ما يكون عن الإهانة، إنها تستخدم إشارة إلى الذين يذهبون للحج في مكّة، فيقال عن الواحد منهم: إنه حاج، والحج إلى مكّة مطلوب من المسلمين مرة على الأقل خلال عمر الواحد منهم.

أخيراً التزم المحتجز الهدوء، وبدأ ينظر إلى السقف، كان تعبيره ينقل إلى من يراه الغضب، والسخط وشدة العجز.

تابع المحقق أسئلته: «ماذا قال لك الجنود؟ هل ذكروا ما سبب احتجازك؟»

واصل المترجم كلامه، إنه يقول: إنه ليس هناك واحد من الجنود تحدث اللغة العربية وهم لا يتكلمون اللغة الإنكليزية».

سأل الرجل الشبح: «هل كانت أي أسلحة ضمن أمتعتهم؟» طرح هذا السؤال وهو يوجّه نظرة إلى الجندي الذي كان قبل لحظة على وشك الاعتداء على الشخص المحتجز.

obeikandi.com

كان الجواب: «لا أعرف الرجال الذين أسقطوا الأشياء لم يعطونا أي شيء، لا أمتعة، ولا عملاً ورقياً، وحتى لا تفسير». إنهم طمروا الأشياء وذهبوا».

سأله المحقق وهو ينظر إلى شريكه العربي الذي ببساطة هز كتفيه علامة عدم تيقنه ما سبب وجود الرجال هنا؟.

انتهى التحقيق في معظمه عند ذلك الحد، ومضى الأشباح. وقبل إخراج المحتجزين من الغرفة قيل لهم: إنه عليهم أن يرتدوا ملابسهم مرة أخرى وإنهم سيخلى سبيلهم في أقرب وقت ممكن. لم يكن هناك ما يقال على سبيل الاعتذار. عند ذلك جرى تصنيف المحتجزين بأنهم غير مقاتلين وجرى وضعهم في منطقة احتجاز داخل المعسكر، حيث تم فك قيود أيديهم ولو أن رؤوسهم ظلت مغطاة بالأقنعة. وما إن تصل أعدادهم إلى مستوى معين يؤخذون إلى مدينة البغدادي Baghdadi القريبة للإفراج عنهم.

قيل لنا: الآن حان الوقت لنتعلم كيفية التعامل مع المحتجزين الذين كان تصنيفهم أنهم مقاتلون. غادرنا الغرفة المظلمة، وكنا بحاجة إلى لحظة للتعافي من العمى الذي سبّبه الدفق المفاجئ لضوء النهار. ولكن من مكان بعيد عنا كنا نسمع صياحاً عالياً يصدر عن إحدى مناطق المحتجزين الموقوفين: «ذراعاك إلى أعلى، يا ابن العاهرة، الذراعان إلى أعلى، قلت إلى تحت، تحت، تحت، اذهب إلى هناك. الذراعان إلى أعلى، الآن استدر، الذراعان إلى تحت، يا ابن العاهرة، إلى أعلى، إلى أعلى، إلى أعلى».

تدريجياً استعدنا بصر العينين، وأمكننا أن نرى جنديين سبق أن التقيناهما يذهبان إلى غرفة التحقيق ـ الفتى الذي يظهر عليه البله والرجل القصير ذو العضلات، والذي تبيّن لنا أنه رقيب أول. كان يقف

في أنحاء المكان بعض الجنود الآخرين، ولكن كان هذان الرجلان هما بوضوح اللاعبين الرئيسين داخل المجمّع، والرجل النحيل ـ قيل لنا: إنه اختصاصي ـ هو الذي يصدر عنه كل الصراخ.

قال الملازم في كتيبة الفرسان المسلحة الثالثة، وهو يشير بيده إلى مجموعة من المحتجزين ذوي الأقنعة، وبدا أنهم مضطربون ومترددون في مواجهة الصرخات الوحشية التي تستهدفهم: «هنا المكان الذي نحتفظ فيه بالمقاتلين الأعداء».

ضمن مجموعتنا من المراقبين كان ديمارست Demarest الرقيب من الصف الأول، وهو رجل أبيض طويل القامة، نحيل في أواسط الأربعينيات من عمره، وهو أيضاً أعلى ضابط لم تثبت رتبته (Nco) في فصيلتنا.. وهو كان في مكانة أدنى من مكانة وليامز؛ لأنه كان جديداً في مجموعة شارلي، وهذا يعني أنه كان أقل ميلاً إلى قيادة السرية. كان هو المسؤول عن زمرة المدافع الرشاشة في الفصيلة.

طرح ديمارست السؤال: «ما الذي يجعلهم مقاتلين؟».

قال الملازم: «الأشباح يقررون».

«نعم، ولكن ما نوع الأشياء التي قاموا بها؟».

كنا قد سرنا وصرنا الآن نقف أقرب كثيراً إلى العمل. بدا صراخ الاختصاصي النحيل يزداد ارتفاعاً كلما اقتربنا. كان انطباعي أنه هو الذي يزداد دناءَة مع المحتجزين، لمجرد تظاهره ببأسه أمامنا. تساءلت بيني وبين نفسي: هل يوجد على الأرض مكان آخر مثل هذا الشاب التافه الذي يمكنه أن يبلغ مبلغ نصف هذه الدناءَة نحو أي شخص.

obeikandl.com

تابع الملازم كلامه خلال متابعتنا جولة الدرس، فقال: «هناك أشياء مختلفة. على سبيل المثال، هؤلاء الثلاثة هنا، هؤلاء تم القبض عليهم ومعهم صناديق خشبية تحتوي على متفجرات». قال هذا الكلام وهو يمد ذراعه فوق حاجز الأسلاك؛ لكي يشير إلى السجناء الثلاثة الجالسين داخل منطقة المقاتلين.

سألني ديمارست، الذي كانت عيناه الزرقاوان فيهما حَوَلٌ مما جعلني أحياناً أعتقد أنه يكلمني عندما لم يكن يكلمني: «ما نوع المتفجرات؟».

قال الملازم: «لا نعرف، الصناديق كانت فارغة. كان ادعاؤهم أنهم وجدوها في مكان ما، وأنهم كانوا عازمين على تقطيع الصناديق لاستعمالها خشباً للوقود».

تطلع ديمارست نحوي. كلانا كان يبدو أنه يتساءل التساؤل ذاته.

عندها سأل ديمارست، موجهاً مرةً أخرى انتباهه إلى الملازم: «ما دام الأمر كذلك، لماذا احتجزوا؟».

قال الملازم بأسلوب منهجي مقصود، كاشفاً عن أثر للانزعاج: «لأنهم كانت معهم صناديق خشبية تحتوي على متفجرات».

قال ديمارست، وهو يشير إلى محتجز، مظهره يدل على أنه نحيف ولا يسبب أذى: «وماذا عن الرجل الذي هناك؟».

تمهل الملازم في الكلام، ثم تابع بلهجة تدل على الفخر: «آه، هذا الرجل، اعتقل ومعه بندقية قنص»

«بندقية للقنص؟!» لم أتمكن من إخفاء عدم تصديقي كلامه.

«أجل، بطبيعة الحال، إنه يزعم أنه راعٍ، وأنه بحاجة إلى بندقية؛ لحماية خرافه من اللصوص. وهو يقول: إنه يحبّ أمريكا، لكن تعرف أنهم جميعاً لديهم قصة ما، وجميعهم يكرهون أمريكا».

في وقت لاحق من انتشارنا علمنا أن معظم العراقيين يحملون بنادق ومسدسات، في الأغلب منذ الحرب مع إيران التي امتدت عقداً من الأعوام. والأسلحة منتشرة إلى حد أن الحكومة العراقية الجديدة التي عينتها الولايات المتحدة قررت السماح لكل صاحب منزل بالاحتفاظ ببندقيتين بقصد حماية العائلات من اللصوص والمهاجمين ومن القبائل المنافسة. إن النزاعات المسلحة بين القبائل يقال: إنها منتشرة في بعض قطاعات المجتمع العراقي، وخاصة في البلدان الزراعية، حيث الأرض تمثل سبباً لخلاف عام ولكن مرت مدة من الزمن قبل توقف السلطة العسكرية الأمريكية عن النظر إلى كل عراقي يمتلك سلاحاً بأنه متمرد مسلح.

تابعنا السير حول مجموعة الذين اعتبروا مقاتلين، وكنا نستوعب بهدوء ما يجري. كانت تمر فترات من الصمت، وكأن الحراس قرروا ترك السجناء وشأنهم، ولكن الصعق يتجدد مرة أخرى، في مدة من الهدوء كهذه، بينما كنا نستمع إلى شرح الملازم لبعض تفاصيل ما يحدث، حدث ضجيج ضخم جعلنا جميعاً نقفز من أماكننا. حدث في المكان بكامله صدى كصوت الرعد «اعتقدت لأول وهلة أنه لا بد أن يكون انفجاراً» لكن جميع أفراد مجموعة الفرسان المسلحة الثالثة بدا أنهم غير منزعجين وتابعوا بهدوء ما بين أيديهم من أعمال. قبل أن يتاح لنا أن نسأل: ماذا حدث؟ استفاد الملازم من انتباهنا المشترك.

«مهمتنا هنا، التي ستكون مهمتكم منذ يوم غدٍ عدم الانخراط في البتّ في مسألة من هو ومن ليس هنا المقاتل العدو. مهمتكم هي فقط إطعام السجناء حتى يغادروا، وإبقاء الذين يُعدون أعداء مقاتلين يقظين».

تابع كلامه وهو يشير إلى منطقة أخرى: «أولئك هم غير المقاتلين» يُقدم لهم الطعام مرتين كل يوم، ويحصلون على الماء ما داموا يطلبون ماء.

سأل أحد الأشخاص: «وماذا عن المقاتلين؟».

«هؤلاء يحصلون على الماء قدر ما يريدون ماء، ولكن يقدم لهم الطعام مرة واحدة في اليوم».

اطلعنا على عدة وجبات موضوعة في علبٍ تشبه كثيراً «وجبات الطعام الجاهزة للأكل» (MRE>S) ولكنها موضوعة في علب صفراء بدلاً من البيضاء المعتادة. هذه هي وجبات تستخدم لإغاثة الناس في سائر أنحاء العالم. معظم الوجبات من الخضراوات ولا يحتوي أي منها لحم خنزير. قبل إعطاء الوجبات إلى السجناء كان يطلب منا أن نفتح الوجبات ونأخذ منها السكاكين والشوك البلاستيكية. ولأسبابٍ تتعلق بسلامة السجناء كان يسمح لهم فقط باستعمال ملاعق بلاستيكية لتناول الطعام.

سال ديمارست: «إذاً تبقيهم يقظين؟».

قال الملازم، ونحن نقف عقب مكان حجز المقاتلين: «نعم، نطبق عليهم الحرمان من النوم».

صرخ الاختصاصي موجهاً كلامه إلى السجناء: «انهضوا يا أبناء العاهرة، كلكم انهضوا، الآن!».

obeikandl.com

أحد الجنود، وكان يقف هادئاً في المكان، قفز على أحد المحتجزين الذي كان بطيئاً إلى حد ما في تحركه قائلاً له:

«انهض، لعنة الله عليك أيها الحاجي، ألا تسمع ما يقوله لك؟ انهض، أيها السافل، قف،قف،قف».

أخذ خفقان قلبي يتسارع، وأنا أشاهد ذلك. وجدت أن ذلك خطأ وصدمة لي. ولكن لم أرغب في الظهور بمظهر المضطرب أمام الجنود الآخرين، الذين بدا أنهم مرتاحون لكل ما كان يجري. تابعت المحافظة على اطمئناني إلى حقيقة أن المحتجزين لا يتعرضون للضرب، مع أن المرء يمكنه، بسبب اهتزازهم، أن يدرك أنهم يعانون من التعاسة والإرهاق، مما يرهقهم جسدياً بقدر إرهاقهم نفسانياً.

سألتُ الملازم: «كيف يفهمون؟».

«عندما تصرخ في وجوههم مدة ثمانٍ وأربعين ساعة يفهمون المقصود».

«ثمانٍ وأربعون ساعة؟».

أجاب وكأن المعاناة ليست كبيرة: «نعم، بهذه الطريقة يجعل الأشباح (أي المحققون) هؤلاء الرجال يفشون السر. إنهم يُحرمون من النوم، ثم يبدأ استجوابهم.

كان الاختصاصي حتى ذلك الحين يتساءل بينه وبين نفسه.

«إنك تصرخ في وجوه أبناء العاهرات، طالباً منهم النهوض بضع مئات المرات، وصدقني إنهم يعرفون ما معنى بذاءَتكم».

obeikandi.com

كلمني بحميمية زميل قديم، مبتسماً بطريقة تجعلني أن أرغب في صفعه. ضممت شفتيَّ مطبقاً إياهما اعترافاً بالجميل.

كان واضحاً أن المحتجزين، برغم كل الصراخ عليهم واللفتات العدوانية ما زالوا ممتنعين عن الإجابة بسرعة كافية، كثيرون منهم كانوا يتحركون ببطءٍ شديد، وهم يتعثرون قياماً وقعوداً.

قال الرقيب الذي امتلأ جسمه بالوشوم: «انظر إليهم. إنهم لا يصغون إلى الكلام». وكان بذلك يشير إلى بعض المحتجزين الذين ما زالوا يحاولون النهوض، بينما كان الآخرون قد نهضوا واقفين.

لا براز، حسب ظني إنهم قد تعبوا. كرهت هذا الرجل منذ البداية، وتصورته ذهنياً يشبه كلباً إلى حدّ أنني دُهشت؛ لأنه لم يتمكن من الكلام.

قال مزمجراً وهو ينظر إليّ، ولعلّه يظنّ أنني موافق على أعماله: «أحياناً تصير مبدعاً مع أبناء الكلبات هؤلاء».

تابع الاختصاصي الشاب صراخه، بينما ذهب الرقيب إلى خارج سياج الأسلاك واتجه نحو جدار مجاور للمحتجزين. رأيته يلتقط مطرقة ضخمة، عند هذا الحد شعرت فعلاً بالرعب. تساءلت بيني وبين نفسي: «ماذا ينوي هذا المصروع أن يفعل الآن؟» وكأنني أحمل في داخلي سراً معتماً. كان بإمكاني أن أتقبل الفكرة أن العراقيين المحتجزين يمكن أن يكونوا أعداء خطرين، وأنا بالتأكيد لم أثق فيهم. خطر في بالي أيضاً أن من المعقول إبقاء أيديهم مقيدة وبقاء الأقنعة على رؤوسهم، وذلك لأنه لم يكن لدينا أقبية لوضعهم فيها، ومن ثم يمكنهم أن يهبّوا واقفين وأن يهاجموا شخصاً ما. ولكن «ماذا ينوي هذا الشخص المجنون أن يفعل

بتلك المطرقة الضخمة؟» عرفت خبرة الاضطراب المرعب، دون أن أعرف ما إذا كنت خائفاً على المحتجزين أم خائفاً مما سيحدث لي أنا شخصياً إذا لم أفعل أيّ شيء لمساعدتهم. كنت أعرف أن إفشاء الانزعاج العميق الذي أشعر به جرّاء ما يحدث في المعسكر من شأنه أن يؤدي فقط إلى الاضطراب، ومن ثم ما الذي سأفعله حيال الرجل الذي يحمل المطرقة الضخمة؟ لعلّي لن أفعل شيئاً، هذا ما اعترفت به بيني وبين نفسي، ولكنّي لم أشعر بالارتياح إزاء ذلك.

«أنتم أيها الأرذال، لا تريدون النهوض للوقوف!».

كان الرقيب الأول واقفاً إلى جانب الجدار، بينما بدأت المطرقة الضخمة، وكأنها مضرب كرة البيسبول على كتفه.

«أنت تنوي فعل شيء ما، لا تريد أيها السافل فعله، إياك أن تفعله يا ابن العاهرة!».

كان الملازم يتجوّل في المجمّع بدافع الفضول؛ ليرى ما الذي سيحدث أصلاً، بينما الاختصاصي النحيل كان يبصبص بعينيه. كنت مندهشاً لسهولة حمل الرقيب المطرقة الضخمة وتلويحه بها.

«حسنا، أنتم يا أبناء العاهرة...».

عندها سمعت هذا الكلام. المكان بكامله كان يهتز بصوت الصدى، الذي كان أشبه كثيراً بصوت انفجار كبير. قفز كل واحد من المحتجزين واقفاً على قدميه». «أنتم تشبهون ذلك البراز، أليس كذلك، يا أبناء العاهرة؟».

تفجّر الضجيج مرة أُخرى، ولكن الآن بصوتٍ أعلى. وكل مرة عندما يضرب الرقيب الجدار بالمطرقة الضخمة، بدا صوت ذلك، وكأنه

قنبلة قد انفجرت بالقرب من المحتجزين الذين كانوا يهتزون عند كل صوت مماثل للرعد.

قال الملازم: «عليكم بعد برهة من الزمن أن تتوصلوا لطرق جديدة لإبقاء هؤلاء الرجال دون نوم». نظر الملازم إلى الرقيب الذي أعاد المطرقة الضخمة إلى مكانها عند الجدار. ولكنه قال: «لن تتمكنوا من المبالغة في ذلك، وإلاّ فإنهم سيعتادونه».

سأل ديمارست: «كم من الوقت تستمر في حرمانهم من النوم؟».

«معظم هؤلاء الرجال وجودهم هنا منذ يوم ونصف اليوم، وبعضهم مضى على وجوده هنا ثمانٍ وأربعون ساعة».

كان هناك نحو ثمانية محتجزين مأسورين ضمن مجموعة المقاتلين، كلهم الآن واقفون. أحدهم كان يمكن سماعه، وهو يبكي من تحت كيس الرمل الذي يحمله. إن تذمره بصوتٍ منخفض لفت انتباه الملازم.

بدا الملازم كأنه إنسان لطيف وسأل: «ماالأمر؟ هل تعبتم؟» اذهبوا فوراً واسمحوا لهم أن يحصلوا على شيء من النوم» وجه كلامه هذا إلى الحرس الذين ابتسموا رداً على كلامه.

كان ديماريست وقائدان آخران من المفرزة، وأنا أيضاً نتبادل النظر إلى بعضنا.

قال الاختصاصي متسرعاً في كلامه، وكأنه على وشك الذهاب إلى مكان ما: «لا بأس، اهدؤوا، اهدؤوا، يا أبناء العاهرة. أنتم تعرفون أمَا كنت أقول: اهدؤوا».

جلس جميع المحتجزين على أرضية المكان، وكان هناك سكوت تام. أمّا الحرّاس فلم يجلس أحدٌ منهم ولا غادروا المجمّع. نظر الملازم إلى ساعة يده، وهو يهز طوال الوقت حذاء رجله اليمنى ويومىء برأسه إلى أعلى وإلى أسفل، وكأنه يحافظ على لحن أغنية.

قال بعد مدة قصيرة: «حسناً، يكفي الآن من النوم اجعلهم يستيقظون مرة أخرى».

صرخ الاختصاصي والحرّاس الآخرون بنظرة من الحقد: «انهضوا يا أبناء العاهرة، انهضوا، انهضوا».

قال الملازم شارحاً لنا كلامه، متحدّثاً إلينا وكأننا من السياح وكأنه هو دليلنا في الجولة: «هأنتم ترون، عندما تسمح لهم بالنوم ثلاثين أو خمساً وأربعين ثانية» بعد أن ظلّوا مستيقظين مدّة طويلة، وكأنكم تفعلون بهم فعل اللواطة نفسانياً. الآن تماماً ترون أن هؤلاء الذين يطلق على الواحد منهم الحاجي قد ناموا خمساً وأربعين ثانية تماماً، لا يعرفون إن كانوا قد ناموا يوماً، أو ساعة، أو خمس دقائق».

إن المحتجز الذي قد لفت انتباه الملازم في أول الأمر لا يزال يئن بهدوء. نظر إليه الملازم منزعجاً ولكنّه واصل كلامه، شارحاً أن المحتجزين المقنعين ازداد عدم معرفتهم بتوجههم، إذ صار أصعب لهم أن يميّزوا بين النهار والليل. عند ذلك يجد الأشباح أن عملهم يصير أسهل عليهم، حسب شرحه، ما إن ينهار السجناء نفسانياً، وعاطفياً، وجسدياً.

قال الملازم، الذي توجّه نحو السجين الباكي، بينما الملازم يتكلم، وكأنه يقترب منه مدّة كافية ليقبل وجهه من خلال كيس الرمل: «يستطيع

المرء دائماً أن يبتكر طرقاً جديدةً لترويضهم وحرمانهم من النوم من أجل استجوابهم» توّقف النشيج لحظة «إذ أدرك السجين أن شخصاً ما صار قريباً جداً منه، ثم بدأت العملية مرة ثانية».

طلب الملازم الهدوء بلفظة «أوش، ush» أي السكوت، وكان طلبه يبدو لطيفاً على نحوٍ مزعج. في هذه الأثناء كان الرقيب الأول قد سار باتجاه المحتجز.

سحب الملازم علبةً من سجائر مارلبورو Marlboro الحمراء وأشعل سيجارةً بقداحةٍ. صار صوت السجين أعلى. الآن أخرج الرقيب الأول مسدساً من عيار 9 مليمترات أعطاه إياه الجيش، وبينما كان الملازم يدقق في السجين، ضغط الرقيب بالمسدس على صدغ الرجل المقنع.

قال الملازم: «سكوت» وهي كلمة باللغة العربية تعني «هدوء» أو معنى مماثلاً. كان صوته أدنى، وبدا كأنه إنسان لطيف.

ولكن الرجل، الذي لعله ظن أنه على وشك إعدامه، تابع نشيجه وعذابه مدة طويلة وأخذ جسده يرتجف إلى حد أنه لم يعد يستطيع السيطرة على ارتجافه. إن الرقيب الأول، دون أن يكف عن تجديد الضغط بالمسدس على رأس الرجل، سحب مهماز المسدس إلى الوراء، وكأنه يضع رصاصة في حجرة المسدس.

«سكوت» كرّر الملازم هذه الكلمة.

بدأ السجين يتنفس تنفساً سريعاً، فقد كان آنذاك في حالة رعب شديد، ولكن نحيبه توقف في حين كان المسدس يبتعد ببطء عن صدغه. سحب

الملازم نفساً عميقاً من سيجارته ورفع كيس الرمل عن رأس السجين الذي كان الكيس هو قناعه إلى حدٍ يكفي لظهور شفتيه.

قال: «جيد» وهو يمط هذه الكلمة. بعد ذلك نظر إلينا وقال: «هل تستطيعون التواصل معهم؟ يتطلب الأمر منكم أن تعرفوا كيف». نفخ دخان السيجارة في وجه الرجل وبلطف وضع السيجارة في فمه. سحب السجين نفساً عميقاً من دخان السيجارة.

قال الملازم بينما كان السجين الآن صامتاً: «جيد، يا صديقي، جيد جداً». ابتسم الملازم نحونا، معبراً عن ارتياحه الواضح.

في اليوم المقبل تسلمت فصيلتي العمل من وحدة مجموعة الفرسان المسلحة الثالثة وكان منتظراً منّا أن نواصل عملية حرمان السجناء الأعداء الذين يعدون مقاتلين، من النوم.

بصفتي قائد فرقة حاولت دائماً أن أشارك في العمل الذي توقعت من رجالي أن يقوموا به. ولكن في هذه الحالة كنت أستفيد من رتبتي واكتفيت بمراقبة الآخرين، وهم يسيئون إلى المحتجزين. لم أكن أشعر أنني بحالة جيدة، ولكني لم أعرف كيف أتعامل مع الوضع. وقد سمحت مدة من الوقت باستعمال المطرقة الضخمة، ولكني طلبت بعد ذلك من الجنود أن يرفضوا؛ لأنه، حسب ادّعائي، كان الضجيج يزعجني. لقد كان أمراً مريحاً أننا لم نكن نحمل مسدسات؛ لذلك لم تنشأ أبداً إمكانية أعمال إعدام خيالية. أمضيت أطول مدةٍ ممكنة داخل المخبأ، حيث كنت ألعب بأوراق اللعب التي معظمها من أوراق البَسْتوني والأص.

obeikandi.com

كان علينا فقط أن نستمر في حرمان الأشخاص الذين عددناهم مقاتلين من النوم يوماً واحداً، إذ إن السجناء نُقلوا صباح اليوم المقبل إلى منشأة أكثر ديمومة، منشأة كنت آمل أن تبيّن شروط وجود معسكر لأسرى الحرب.

كان العمل في الأسد Assad عملاً من أشق المهمات التي أخذتها على عاتقي خلال وجودي في العراق، إن لم أقل خلال كامل وجودي في الخدمة العسكرية. كنت من ناحية معارضاً بالكامل لطريقة معاملة السجناء في المعسكر، من ناحية أخرى كنت أخاف أن أدافع عنهم؛ لئلا أبدو مسايراً وضعيفاً بوصفي قائد فرقة، بل كنت أخشى أن أُتهم بعدم التزام الطاعة فأُحاكم عسكرياً. كانت هناك طرق متعارف عليها لتسويغ نوع الأشياء التي كنا نفعلها، والتي جربتها كافة. قلت بيني وبين نفسي: «عندما وقعت العقد وافقت على اتباع الأوامر، وأنا أفعل ذلك من أجل الجنود القريبين مني». ولكني لا أستطيع حتى الآن أن أجد جواباً واحداً مقبولاً عن سبب وقوفي موقف الكسل خلال الإساءة إلى هؤلاء السجناء ما عدا، بطبيعة الحال بسبب جُبني.

واصلنا إدارة المعسكر والتعامل مع المحتجزين الذين لم يُعدُّوا من المقاتلين مدة أسبوع آخر أو نحوه إلى أن وصلت وحدةٌ من الشرطة العسكريّة للقيام بالعمل بدلاً منّا. آنذاك توجهنا بالسيارات مسافة عشرة أميال على الطريق المؤدية إلى أمكنة لتوفير الإقامة لضباط القاعدة الجويّة، وهي منشأة تشمل جامعاً، ومكاناً للتمارين الرياضيّة، وبركة كبيرة للسباحة، وأماكن إقامة مكيفة ومجهزة بغرفٍ للنوم من الطراز العسكري، وأماكن للاستحمام، ومراحيض. كان من المستحسن لو أقمنا هناك مدةً أطول،

obeikandi.com

ولكن الوحدة التي انتسبت إليها كُلّفت خلال يومين بمهمة لاحقة، هذه المهمة كانت هذه المرّة في مكان يسمى الحديثة.

والحديثة بها واحد من أكبر السدود في العراق، ولا بد أن صدّام حسين كان فخوراً جداً بإقامة هذا السد، إذ كان لا يزال بالإمكان رؤية صورته على أوراق النقد العراقية القديمة. أقيم هذا السد عالياً فوق نهر الفرات. ومن قمة السد كنّا نستطيع أن نرى على بعد أميال عبر السد خلال الليل، وكان بإمكاننا أيضاً أن نرى أضواء بلدةٍ قريبة من السد، وهي مكانٌ كبيرٌ يبلغ عدد سكانه نحو مئة ألف.

وبسبب الأضرار الكبيرة التي عانى منها المكان خلال القتال الكثيف، وبسبب الافتقار إلى قطع الغيار اللازمة للإصلاحات، فإن المهندسين العراقيين الذين جرى استخدامهم للعمل في السد قبل الغزو، لم يعد لديهم الكثير من العمل للقيام به. ولكن بالرغم من ذلك، وحتى إنه لم يكن يُدفع لهم أجر للقيام بأي عمل، فإن هؤلاء الأشخاص المخلصين للعمل في مجال الطاقة جاؤوا للعمل كل يوم. كنّا هناك لحراستهم في منطقة السد خلال بضع مناسبات وجدوا خلالها عملاً للقيام به. ليست لديّ أي فكرة ما الذي كانوا يفعلونه مما له فائدة، ولكن من المؤكد أنهم كانوا فخورين بعملهم. قالوا لنا ذات مرّة أن السد وفّر في وقتٍ ما طاقة تبلغ 70 بالمئة لبغداد.

إن أهمية السد إستراتيجياً تأكدّت من قبل جنود الفرقة رقم (101) المحمولة جوياً الذين حللنا مكانهم، وقالوا لنا: إن الجنود الجوالة Rangers شاركوا في قتال عنيف ضدّ الحرس الجمهوري لصدام حسين من أجل الاستيلاء على المكان.

قيل لنا بعد أن فاز الجنود الجوالة في معركة الاستيلاء على السد: إنهم دفنوا رفات الجنود العراقيين الذين قتلوا خلال المعركة في قبورٍ ضحلة خارج أراضي السد مباشرة. بعد مرور بضعة أيام على عملية الدفن السريعة، عمدت الكلاب الضالة إلى نبش القبور وبدأت بالتهام الأشلاء. أخيراً قرر سكان الحديثة أن الوقت قد حان لدفن الجنود الذين ماتوا، بطريقة لائقة، وكان هذا أمراً بالغ الأهمية حسب التقليد الإسلامي. ذهبنا إلى الخارج في وقت الاستراحة، فأخذنا جولة مشي للتحرّر من واجباتنا الجديدة كان بإمكاننا أن نرى الحفر التي كانت قبوراً، أعمق تلك الحفر لم يزد عن نصف المتر.

كان العمّال العراقيون سعداء عندما حلّت في النهاية الوحدة التي أنتمي إليها محلّ جنود الفرقة رقم (101) المحمولة جواً، وكان العمّال يتهمون هؤلاء الجنود بالقسوة وانعدام الإنسانية. كان جزءٌ من المشكلة بين العراقيين والفرقة (101) شريطاً سينمائياً ألقي القبض على العمّال وهم يتفرجون عليه. في أحد الأيام الكثيرة عندما لم يكن إطلاقاً وجود أيّ عملٍ لهم، كانت لدى واحدٍ منهم فكرة باهرة هي عرض شريط لهجمات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر). عندما سَمِع الجنود أصوات الهتاف والتصفيق، أرسلوا فريقاً للتحقيق، فاكتشفوا ما بدا وكأنه حفلٌ. وعندما أدرك الجنود أن الاحتفال كان استجابة للعرض السينمائي لانهيار البرجين، وهذا العرض لم يكف العمّال عن التفرّج عليه مرة تلو المرة، فصادر الجنود تلفزيون العمّال، وبذلك حولوا العلاقة المتوترة أصلاً إلى عداء.

واقع الأمر، إن هتاف العمال لانهيار البرجين لم يصب في مصلحة العلاقة مع وحدتي أيضاً، وذلك ربما لأن الجنود الاحتياطيين والحراس

هم أنفسهم مدنيون وعملهم الأول هو الإسعاف في حالة الكوارث، وهذا ما جعل شعورنا بالتعاطف مع العراقيين أسهل. وخلال بضعة أيام من إشرافنا على الموقع تحسنت علاقتنا مع العمال، وفي أحيان صارت علاقة صداقة.

كانت فصيلتي مكلفة بالعمل داخل منطقة السد. وكما هو الحال في معسكر أسرى الحرب، كانت كل فرقة من الفرق الأربع تقوم بالعمل في مناوبات، مدة كل منها ست ساعات. وخلال هذه الساعات أتيحت لنا الفرصة للإلتقاء بعدد من المهندسين الذين كانوا جميعاً يتقنون التحدث باللغة الإنكليزية فأخبرونا بأن ذلك أمر عام بين العراقيين الذين أنجزوا الدراسة الجامعية. وقد لاحظت أن لهم علاقة مع العمال الأقل حصولاً على التعليم، من مثل الحطابين وعمال الصيانة، وبذلك فإن علاقة المهندسين معهم مماثلة لعلاقتهم مع المهنيين. إن الطبقة الاجتماعية ومكانة أفرادها بدا أنها أقل أهمية مما كان الحال في أمريكا. وعند مناوباتهم الليلية كانوا جميعاً ينامون في الغرفة نفسها التي هي عبارة عن «منامة» في الخلاء ليلاً». كانوا يحضرون صناديق لعزف ألحان موسيقية عربية ويحضرون أيضاً وجبات شهية من إعداد منزلي كانوا يتقاسمونها معنا. كنا جميعاً نتناول الطعام بأيدينا، فنستعمل بدلاً من الملاعق شرائح الخبز ونغسل أيدينا من الطعام بواسطة زجاجات الصودا التي كانت تبدو أنها انتشرت في الثمانينيات من القرن الماضي بواسطة التلفزيون التجاري. وبعد كل وجبة طعام، كنا ننهمك في محادثات طويلة، وندخن السجائر، ونشرب الشاي الغامق المحلى في الشرق الأوسط الذي كان العراقيون يسمونه «شاي».

في إحدى تلك الليالي، كنا نتحدث مع مهندس كردي، فسألته: «إذاً أنت لست مسلماً؟».

قال، وهو ينظر إلى بقية العراقيين الجالسين حول الطاولة معنا: «أنا مسلم بطبيعة الحال، نحن جميعاً مسلمون.... ولكننا عراقيون، أما هؤلاء الأشخاص فإنهم عرب، بينما أنا كردي». قال هذا الكلام وهو ينفث دخان السيجارة.

قلت خشية أن أبدو عنصرياً: «ولكنكم جميعاً في نظري متماثلون».

قال مصراً على كلامه: «ليس الأمر كذلك، أنا كردي وهم عرب» وهنا بدأ يترجم كلام العمال الآخرين الذين لا يتحدثون اللغة الإنكليزية، ولعله بذلك كان يعلق على رؤيته كم أنا جاهل!

سألت أحد العمال الذي كان قد سمع للتو الترجمة: «هل يمكنك أن تشرح لي الفرق؟». تطلع إلى المهندس الذي بدوره ترجم سؤالي.

أجاب العامل: «نام.نام» ومعناها بالكردية: «نعم نعم».

ابتسم العمال الآخرون صامتين، وهم يدخنون سجائرهم، عندما لاحظوا أنني أتفهم المعلومات، وتسهيلاً لفهم الكلام بالنسبة لي، شرح لي المهندس الكردي أن ذلك يشبه كثيراً ما نجده في إيران، حيث الناس مسلمون، ولكنهم ليسوا عرباً. وقال موضحاً: «إنهم من الفرس».

تحدثنا كيف أن بعض أفراد المجموعة كانوا في الأصل يؤيدون الغزو، ولا سيما الأكراد والشيعة، ولكن معظم الناس، إن لم يكن الجميع، أصابهم التعب من جراء انتظارهم عودة فرص العمل، وعودة توصيل الكهرباء وتوصيل المياه، وفتح المدارس، باختصار كانوا ينتظرون أن يستعيد بلدهم الوضع الطبيعي. كانوا جميعاً يوافقون على أن هذا لا يتحقق إلاّ بعد

مغادرة القوات العسكرية بغداد. قلت لهم: إننا سنغادر العراق عمّا قريب، وستكون الأمور أفضل مما كانت سابقاً. إن ما صدمني أن أتذكر الآن أنني لم أقل هذه الكلمات فقط، بل كنت أؤمن بها إيماناً راسخاً. بل إنني قلت للمهندسين: إننا إذا أخذنا في الحسبان طلاقتهم في اللغة الإنكليزية ومؤهلاتهم المهنية، يجب أن يتوقعوا الحصول على رواتب ومبالغ كبيرة من المال في المستقبل القريب.

تذكرت أنني قلت لهم: «المهندسون أمثالكم في الولايات المتحدة يعملون في منشآت كبيرة كهذه المنشأة تدر أطناناً من المال. صدقوني إنكم ستكونون بخير».

وجهوا أبصارهم إليّ بعدم تصديقهم كلامي، وهذا كان أمراً جلياً، دون مجادلة، ولكن بلطف، وابتسامات تدل على التشكك. تذكرت تلك الابتسامات بعد شهور عندما كنت أتحدث مع أحد العمال في الرمادي الذي طلب مني بعض الماء البارد في يوم قائظٍ من أيام شهر آب «أغسطس». كانت ملابسه رثة وكان ينتعل بقايا ما كان سابقاً حذاء. كان يتصبب عرقاً بغزارة من جسمه المتسخ ووجهه الذي لوحته الشمس، وهو يضع الإسمنت لتثبيت إطارات بعض النوافذ في مجمعنا. لقاء ذلك كان العمال يحصلون على ثلاثة دولارات في اليوم. لقد كان خبيراً بالجيولوجيا.

مازلت أحب ذاكرة الزمن الذي أمضيناه في موقع سد الحديثة، ليس فقط لأننا كنا في مكان يُعد آمناً نسبياً من الهجمات، ولا لأننا كنا كثيراً ما نسبح في مياه نهر الفرات التوراتي، وإنما الأرجح لأن الحديثة كانت أول ما فتح الباب أمامي لأتعرف على ثراء الثقافة العراقية. بيد أن مهمتنا

هناك لم توفر لنا طبيعة الخبرة القتالية التي كانت قيادتنا حريصة على التعرف عليها، وفي أواسط شهر أيار «مايو» عدنا إلى الأسد؛ استعداداً لمهمة أخرى. هذه المهمة المقبلة كان من شأنها أن تأخذنا إلى الرمادي، وهي مدينة في قلب المثلث السني. لم أكن أعرف إلا القليل آنذاك، ولكني الآن على وشك أن أتعلم درساً جديداً عن العراق وشعبه وإصراره على مقاومة الاحتلال الأجنبي والكفاح من أجل حق تقرير المصير. لا بد أن أقول: إنني تعلمت هذا الدرس بطريقة شاقّة.

openkandil.com

رابعاً

لم تكن الحياة بهذا السوء بالنسبة لوحدتي، وهي وحدة الحرس الوطني من ولاية فلوريدا. لدى وصولنا أول الأمر إلى الرمادي كانت أماكن إقامتنا عبارة عن حجرة للصيانة موبوءَة بالبراغيث، سبق أن استعملها الحرس الجمهوري، وكانت قذرة وحارة الطقس إلى حدود لا توصف، ولكننا تدربنا على تحمل أوضاع أسوأ، إذ إننا ما كنا نستطيع أن نبالغ في الشكوى. إضافة إلى ذلك كانت الإصابات لدى وحدة الفرسان المسلحة الثالثة التي حللنا محلها قد اقتصرت على حالة واحدة هي إصابة جندي أطلق قاذفة قنابل يدوية في اتجاه جدار مقابله شخصياً، فارتدت شظايا القنبلة عن الجدار وأصابت الجندي في وجهه. ولدى نقله جواً إلى مستشفى ميداني لم يتوقع له الأطباء أملاً كبيراً للنجاة. كان هذا حدثاً حظه بالغ السوء ولكنه لم يكن يمثل أي شيء مهم بالنسبة للمرء في الرمادي.

كانت غرفنا صغيرة ومزدحمة، وكانت القنابل اليدوية، والبنادق وألغام الكلمور Claymore mines وقاذفات الأسلحة المضادة للمصفحات مبعثرة في كل مكان أُسندت إلى جدران ملأها الرصاص بالثقوب، وكانت مكدسة في أكواخ للجيش. كانت الشباك ضرورية لمكافحة البعوض، ولكن البق كان يتسلل عبر ثقوب الشبكات. بحلول الليلة الثالثة في القاعدة حملتني لدغات الحشرات والحرارة الشديدة والطقس القاسي على نقل سريري إلى أعلى سقف بناية مؤلفة من ثلاثة طوابق كنا نحتلها، حيث كان السطح مكشوفاً

بما يكفي لإشعال وقود بمقدار علبة بيبسي كولا لإبعاد الحشرات وحماية أنفسنا من التسمم بلدغات الحشرات. نومنا على السطح كان أحياناً يتخلله صوت إطلاق النار، هذا الصوت الذي جاء من مجموعة هجمات متفرقة على الجنود الأمريكيين والنار الاحتفالية المحلية. أحياناً كنا نضطجع يقظين ونراقب الخطوط الحمراء للرصاص الذي يدل على الأماكن خلال الليل، مما كان يذكرنا بأننا في العراق الذي تمزقه الحرب. ولكن في معظم الوقت، حين نأخذ في الحسبان أننا في منطقة قتالية تبدو حياتنا بخير.

في 29 أيار «مايو» 2003 لأسباب لم أتمكن من سبر غورها كنت أشعر شعوراً غريباً طوال اليوم، فقد كان الجو بعد ظهر ذلك اليوم ذا لون برتقالي وكان قاسياً وكانت المدينة يلفها ضباب من الرمل القادم من الصحراء الجنوبية. كنت آنذاك قد تلقيت للتو رزمة من والدتي، ولكن قبل أن أتمكن من فتحها جاء الرقيب وليامز لإبلاغي أننا مقبلون على مهمة.

قال لي: «ميخيا، يجب أن تستعد فرقتك، فإن جنود الفرقة خارجون مع القائد xo».

كان بذلك يشير إلى الضابط التنفيذي للكتيبة، الملازم غرين Green، وهو رجلٌ قصير القامة هادئٌ، بدا أنه يفتح فمه فقط ليبصق منه التبغ.

سألت وليامز «هل تعرف ماذا نفعل؟».

«أنتم أيها الرجال، عليكم أن توفروا مرافقة أمنية لجنود مدافع الهاون نحو القصر الشمالي. والظاهر أنهم كانوا يتعرضون لهجوم، وأن جنودهم لم يعد لديهم كُتلٌ مضيئة». قال هذا وهو يسير مبتعداً، وكأن ما قاله لي ليس ذا أهمية كافية يتطلب وقفة قصيرة.

سألته: «هل يتعرضون لهجوم؟».

عند هذه النقطة مضى على وجودنا في الرمادي نحو عشرة أيام، وفي معظم الوقت كنّا فقط نراقب عمل وحدة الفرسان المسلّحة الثالثة. جنودها كانوا وحدة مدرعة تستخدم في عملياتها سيارات، ومدافع كبيرة وصواريخ، بينما نحن كنّا من المشاة سلاحنا خفيف، نعمل مشياً، ومن ثم لم تكن هناك طريقة تمكنهم من تدريبنا. اكتفينا فقط بمراقبة ما يفعلون دون أن نكثر من الكلام. كنّا نعلم أنهم يعدون أنفسهم جنوداً أفضل منّا؛ لأنهم كانوا يمارسون العمل الفعلي، بينما كنّا نحن مجرد حرس وطني. ونحن، من جانبٍ آخر كنّا مشاةً، والمشاة دائماً يعدون أنفسهم أشدّ صلابة. على أي حال، كانت تلك المهمة الأولى المكلفة بها فرقتي في الرمادي، ولأن المهمة اشتملت على «هجوم» فذلك جعل المهمة بالغة الأهمية.

قال وليامز متوقفاً ولكن دون أن يلتفت نحوي إلاّ بالإيماء برأسه: «حسناً، مرحى لكم يجب أن تسألوا القائد. أنا حقيقة لا أملك الكثير من المعلومات. لقد أبلغني الملازم سيريكاس لتوّه بتجهيز فرقة لتوفير المرافقة لمدافع الهاون، وأنتم هذا المساء أيها الجنود، قد حصلتم على هذه المرافقة».

كان الأمر الصادر للمهمة قد جاء من الملازم غرين Green قائد سرّية شارلي، الذي على ما يبدو كان قادماً معنا. إن طريقة وليامز المرتجلة بالتغاضي عن تفاصيل الأمر الصادر كانت طريقة نموذجية. ولو كان قد تلقى توجيهاً بالقيام هو شخصياً بعمل ما لأبدى نشاطاً لمعرفة ما ينطوي عليه التوجيه، ولولا ذلك لطبّق عدم المشاركة في الأمر إذا كان فيه خطأ ما. وهو لم يكن من طراز من يجب أن يقترن اسمه بمهمات نُفذت بطريقة

obeikandi.com

خاطئة. لقد تراجع إلى الحجرة التي يشاطرها سيريكاس والاختصاصي شانكس shanks، وهو مسؤول تشغيل الهاتف اللاسلكي.

عندما أبلغني وليامز عن المهمة لا بد أن الساعة كانت نحو السادسة مساءً. فتحت الرزمة التي وصلتني لمجرد أن أرى إن كان في داخلها رسالة قبل أن أعيدها خارج الغرفة المظلمة والحارّة في الطابق الثاني. وعندما نهضت لأرى القائد تساءلت: هل ستتاح لي الفرصة لقراءة تلك الرسالة. إن شعوري بأن شيئاً سيئاً على وشك أن يحدث كان من العسير أن أتخلص منه.

قادة الفرق في المشاة مسؤولون عن فريقين، كل واحد منهما مؤلف من أربعة رجال، هما فريقا ألفا Alpha وبراڤو Bravo، وبدورهما لكل منهما رئيس فريق. وقبل الذهاب في المهمة، أجريت حديثاً سريعاً مع قائد فريق براڤو الرقيب روزادو Rosado الذي لم يكن سعيداً بالمهمة المكلف بها.

«يا رجل، أنا لا أحب هذا الشيء، فثمة عاصفة رملية، وفرقة براڤو صارت الآن في وسط القتال. ما الذي سنفعله هناك؟ لن نتمكن من رؤية شيء بسبب كل هذا الرمل».

إن العواصف الرمليّة التي تصورتها في ذهني قبل إرسالنا إلى العراق كانت تشتمل على موجات محتدمة من الرمال التي تهب من الصحراء، وتبتلع كل شيءٍ في طريقها. هذا الذي يحدث الآن لا يشبه ذلك. بالأحرى الموجات الآن كثيفة، بنّية اللون، ضبابية في الهواء وحدّت مدى الرؤية بنحو متر واحد أمام الإنسان.

Obeikandi.com

قلت مخاطباً روزادو، وقد أغمضت عينيّ نصف إغماضة، محاولاً أن أمنع امتلاءَهما بسحب الرمل البطيئة الحركة: «أعرف أيها الرجل، ولكن علينا أن نقوم بالمهمّة».

في هذه المرحلة المبكرّة من انتشارنا في العراق، كنت لا أزال ألتزم كثيراً بالقواعد، محاولاً أن أكون جندياً جيداً وقائد فرقة، وهذا يعني للجيش الأميركي أن يبقى فمي مغلقاً وأن أفعل ما أُمرت بأن أفعله. قبل الوصول إلى العراق كاد تساؤلي عن «حكمة القيادة» أن يؤدي إلى فصلي من مركزي، بصفتي قائد فرقة، ولذلك فإن كل ما أردته في الواقع آنذاك هو أن أؤدي عملي وأن أتفادى الجحيم.

إن الصحون المعدنية الموجودة في مؤخرة شاحنتنا، التي تلوّنت بلون الرمل، لم توفر أيّ حماية حقيقية، ولكنها مع ذلك وفّرت لنا شعوراً بالأمن، وذلك بالجلوس وراءها. كنت في مؤخرة الجنود، مستخدماً الباب الخلفي للشاحنة درعاً لحماية نفسي. وأنا والجنود الذين معهم أسلحتهم في مواجهة كلا الجانبين، حيث كان فريقا (ألفا) و(برافو) التابعان لي. وينقص رجل واحد في ذلك الوقت، كان مجموع الفرقة الأولى ثمانية جنود.

تطلعت إلى فونيز Funez، قاذف القنابل اليدوية لدى روزادو، إن هكتور فونيز، وهو طويل القامة وحسن المظهر، كانت له طريقة تأملية عن نفسه، وانسجمت أنا وهو منذ أول لحظة توليت فيها منصبي قائداً للفرقة. كانت له شعبية بين الجنود الآخرين في السرية، بعضهم كان يسميه شيتو chito وقد كان الوحيد في الفرقة الذي يدخن مثلي.

«مرحباً شيتو أعطني قداحة يارجل».

نظر إليّ بعينين حادتين وشفتين مطبقتين، لعله كان الوحيد من أفراد الفرقة الذي كان باستطاعته دائماً أن يعرف عندما ينتابني شعور سيئ. رمى القداحة نحوي دون أن يقول كلمة واحدة، وبسرعة عاد لاستعراض قطاعه، ولو أنه لم يترك بعد قاعدتنا، التي كانت تُعرف باسم «عش النسر Eagle's nest».

مضى نحو عشر دقائق حتى عرفنا مكان وجهتنا، ولدى وصولنا إلى المكان كان كل شيء يبدو في حالة سلام. خرج الجنود إلى مدخل المكان بسرعة من وراء الحواجز الإسمنتية؛ لكي يقوموا بإزالة الأسلاك الشائكة الممتدة التي كانت تشكل بوابة. دخلنا المجمّع وأوقفنا السيارات خارج القصر الذي يبعد مئتي متر عن المدخل الرئيس.

خرج جنود مدافع الهاون من شاحنتهم، وبدؤوا يركزون مدافعهم. فجأة حدث انفجار جعل أرض القصر ترتجّ. إن أصوات الصراخ وأصوات نيران البنادق تبعت الانفجار، إذ كان قد حدث قتال بالأسلحة عند المدخل الرئيس.

قال الرقيب كاليغوس Calligos، وهو قائد فريق (ألفا) الذي أنتمي إليه: «أيها الرقيب ميخيا، نحن نتعرض لهجوم، هل تريد منا أن نذهب إلى الخارج لاتخاذ مواقع؟».

قلت له: «كلا، لعل من حولنا هم أصدقاء، وهم يقومون بتغطية البقعة برمتها. يكفيك فقط أن تستلقي على الأرض، حسب اعتقادي!».

بدا الجميع سعداء بقراري، هذا القرار الذي لم يناقشه القائد. بدا نوعاً عبثياً الاستلقاء على الأرض، والتحديق في سماء الرمادي الجميلة،

بينما كانت طلقات بنـادق «M- 16» و «AK 47» تتطاير فوق رؤوسنا، ولكن لم يكن باستطاعتنا أن نفعل أي شيء قد يساعدنا أو أن نكون على أقل تقدير بهذه الطريقة آمنين نسبياً.

عندما توقف القتال، استأنف جنود مدافع الهاون أعمالهم، مطلقين الكريات المضيئة، وهي كريات صغيرة ذات لون أبيض تظهر في الليل، ثم تنفجر، فتضيء سماء الموقع. وبطبيعة الحال كان بإمكان العدو أن يستخدم أضواءه لتحديد مواقع الجنود الأمريكيين، وقتلهم بقدر ما نستطيع نحن أن نفعل بالمثل، ولكن في هذه الليلة انتهى القتال دون معرفة أي شيء من الإصابات في كلا الجانبين. صدرت إلينا الأوامر بالعودة إلى «عش النسر» مع جنود مدافع الهاون والملازم غرين Green.

عدنا إلى «عش النسر» وكنت لتوي أفتح لوح «غرانولا» الذي أرسلته لي أمي في الرزمة التي وصلت عندما استدعيت للتأهب مرة أخرى. لم أكن قد قرأت رسالة والدتي التي كتبتها بخط يدها وكانت الرسالة في يدي اليمني ولوح «الغرانولا» كان في يدي اليسرى. ذهبت للبحث عن مكان وليامز.

سألته بقدر ما استطعت من هدوء، في حين كنت أفكر فيما هنالك بشأن الفرق الأخرى؟ «نحن مرة أخرى»؟.

قال مشيراً إلى قادة الفرق الثلاث الأخرى في كتيبتنا «أجل،إن هذا دور جنودكم. سيقوم بذلك مانتيلا، وديمارست ومليفان، عندما يأتي دورهم للقيام بالمرافقة الأمنية».

بدا من غير العدل، ونحن قد عدنا لتونا من القتال، أن يُطلب منا الخروج للقتال مرة أخرى بعد عشرين دقيقة. أعدت الرسالة إلى صندوقها. قلت

لنفسي: لم ينته الأمر. كان عليّ أن أذهب إلى موقع القتال، حيث يوجد القائد، وحيث يوجد أيضاً الرقيب الأول. وكان هناك الملازم غرين منتظراً لأن يزودني بما هو مطلوب من مهمتنا المقبلة، وقبل الذهاب إلى موقع القتال ألقيت نظرة على الممر، حيث تشاركت مع قائد فريق (ألفا) الذي هو فريقي.

صرخت بأعلى صوتي: «هلمّ، يا غاليغوس، على الجنود أن يستعدوا، نحن ذاهبون مرة أخرى».

قال بعد صمتٍ قصير بلهجة استسلام للواقع: «لا بأس، أيها الرقيب».

جرت إعادتنا إلى المنطقة التي حدث فيها القتال السابق، على بعد نحو مئتي متر من مدخل القصر الشمالي، وصلنا هناك عند منتصف الليل تقريباً. زال الرمل من الهواء وصار جو الليل مقمراً وجميلاً. ولكن الشعور الظاهري بالسلام إنما عزز حذرنا، وكان الليل الهادئ يحجب الأسرار عنا، وكلنا كنا نعرف ذلك.

شعرت قيادة كتيبتنا، بحكمتها اللامتناهية، أن ثمة ضرورة لإقامة نقطة السيطرة على حركة المرور في جوار القتال، تحسباً «للرجال السيئين» ـ أو العلي بابات Ali Babas كما يسميهم العراقيون والأمريكيون على حد سواء ـ ومن ثم قد قررت المكوث في المنطقة. كانت مهمتنا أن نحتجز ونفتش أي سيارة تدور حول المكان في ذلك الحين.

إن الاختصاصي، واسمه بيان إيم Bien aime وهو أحد جنديين من هاييتي في فرقة، كما أنه المسؤول عن المدفع الرشاش، قد اتخذ مكانه عند الجانب الجنوبي في الدائرة مقابل نهر الفرات. ولدى سماعه خطواتي التفت إليّ من موقع ركوعه.

obeikandi.com

قال لي وهو ينـزع عن وجهه نظارات الرؤية الليلية بيده اليمني، إذ إنه كان لا يزال مضطراً للرؤية الليلية: «الآن أيها الرقيب، أتظن فعلاً أن هؤلاء الأشخاص يعتزمون البقاء في أنحاء المنطقة بعد كل ما حدث؟ أنا أقصد أنني لا أعني أن أكون حماراً ذكياً، أو أي شيء، ولكن هذا نوع من الغباء، ألا تظن ذلك؟».

قلت بابتسامة لم أقاومها: «لا أظن، أيها الرجل، إنك حمار ذكي، أظن أنك على حق، ولكننا نحن الذين نستدعي المشكلات، إني آمل فقط ألا نبقى هنا مدة أطول من اللازم.

كان هذا أملاً عقيماً، فبعد نحو نصف ساعة من دخولنا إلى موقع القتال، احتجزنا السيارة الوحيدة التي تنتقل من مكان إلى آخر تلك الليلة. كان الراكبان فيها شخصين رجُلَيّ أعمال أردنيين في طريقهما إلى عمّان بعد أن باعا بعض السلع في العراق. كانا يحملان كيسين كبيرين مملوءين بالدنانير، وهذه النقود تساوي أقل من ألفي دولار. كان الرجلان قد احتجزتهما سابقاً الوحدة الثالثة للفرسان المسلحة، التي كان اسمها الرمزي «البنادق» Rifles، وكانت تحت قيادة كتيبتنا، بعد أن أفرجت عنهم وحدة «البنادق» اضطر الأردنيان لتأخير عودتهما إلى الأردن؛ بسبب العاصفة الرملية. استوثقت سريتنا صحة المعلومات من جنود «البنادق» لكنهم برغم ذلك منعونا من السماح لهما بالذهاب.

«قتال شعاع سيني Combat X-ray هذا قتال اثنان، واحد، حوّل».

قتال يعني هوية سريتنا، واثنان يعني ركز الفصيلة الثانية.

obeikandi.com

وواحد يعني رمز الفرقة الأولى، أنا كنت «قتال» اثنان واحد. وكنت أنادي عامل الإرسال اللاسلكي في سرّيتنا».

«هذا قتال الشعاع السيني، تابع أيها الرقم اثنان واحد».

قلت: «روجر، جنود «البنادق» قد أفرجوا عن هذين الرجلين. ما سبب التأخير؟ هل بإمكاننا السماح لهما بالذهاب؟ حوّل».

«الجواب سلبي» قال الرقيب شيزم Chism الذي كان عامل الاتصال اللاسلكي لدى النقيب وارفل Captain Warfel وعامل اللاسلكي الرئيس في سرّيتنا. تابع جوابه قائلاً: «القتال سبعة Combat seven يريد التأكد من الكتيبة، كن على استعداد، حوّل».

كان القتال سبعة الاسم الرمزي للرقيب الأول في سريتنا، وهو رجل طويل القامة، حسن المظهر في الأربعينيات من عمره. اسمه العائلي نوغل Naugle، ولكن كان يحب الجنود في وحدتنا أن يطلقوا عليه اسم: «ذا نوغوليتور Naugulator» على الأقل خفيةً عنه. قوة «ذا رافلز ـ البنادق» التي أعطت الإذن لنا بالسماح للأردنيين بالذهاب، كانت لها رتبة أعلى من الكتيبة، لكن «ذا نوغوليتور» كان من الجلي أنه قرر أن بإمكانه إحراز بعض النقاط من خلال الحبوب البنية بإظهار المزيد من الغيرية.

قال روزايدو، وهو يقترب مني، مطلاً من سيارة الهمفي التي كانت متوقفة على النصف التابع له من محيط الموقع: «أيها الرقيب ميخيا، ماذا يجري؟».

«نحن ننتظر الحصول من الكتيبة على إذن لهذين الرجلين بالذهاب».

obeikandi.com

كان الرجلان موضوع الحديث تحت الحراسة، حيث كانا يجلسان على حافة الممر الجانبي. كانا هادئين ومتعاونين ولم يوضع قناع على رأسيهما ولم تُقيد أيديهما. وكانا من حين إلى آخر يقومان بلفتات للسؤال عما يجري.

«ماذا؟ اعتقدت أنك قلت: إنهما حصلا على الإذن بالذهاب».

أجبت: «نعم، ولكن قوة (ذا رافلز البنادق) تريد الآن من الكتيبة أيضاً إعطاء الإذن لهما».

«يا رجل، هذا ازدراء، مضى على وجودنا هنا ثلاث ساعات، وهؤلاء الناس يمزحون. هذا ما قاله، دلالة على السخط بشكل عام. لم أعترض عندما كان روزاردو يشتكي». كان دائماً محقاً عندما يفعل ذلك، وهو، في معظم الوقت، كان يشكو أمامي وأمام كاليغوس، فقد كانت المشكلات تبرز فقط عندما يشكو أمام الرجال. أومأت برأسي دلالة الموافقة.

عندما حان الوقت لإبلاغي السماح للأردنيين بالذهاب كانت الساعة نحو الثالثة. كنت لا أزال أشعر بالانزعاج، ولم أتخلص من هذا الشعور. فقد انقضى على وجودنا في المكان ذاته مدة طويلة جداً تكفي لكي يقوم العدو بالإعداد لكمين. قبل مغادرتنا مباشرة ذهبت إلى السيارة الأمامية من موكبنا المؤلف من سيارتي همفي، وتحدثت مع السائق وهو الاختصاصي ستريت Street، الذي لم يكن في الواقع من فرقتنا.

كان هو الاختصاصي مادسن Madsen في فرقة المدفعية، ولكن الرقيب وليامز أرسلهما معي؛ لأننا نتقن الاختزال.

كان مادسن يتولى الإشراف على المدفع الرشاش الذي نُصب على سيارة الهمفي التي في المقدمة.

قلت: «ستريت، اسمعني، لقد سبق لي أن تكلمت مع الرقيب كاليغوس». إن فريق ألفا والرقيب كاليغوس كانا يركبان في سيارة الهمفي التي في المقدمة. قلت: «لدي شعور بأننا على وشك أن نقع في كمين؛ لأنه مضى علينا وقت طويل جداً هنا. إذا حدث شيءٌ ما، فلا تحاول التشبث هنا، بل عُدّ بنا إلى القاعدة، هل فهمت؟».

قال ستريت، بعبارات تدل على الغرور الذي كان من طبيعته: «موافق». فمعظم الناس ظنوا أنه عبارة عن حمار ذكي، ولكني حاولت منعه من نقل موقفه إليّ.

بدأنا العودة إلى عش النسر، وكنت أجلس على الكرسي الأمامي في سيارة الهمفي الثانية وكان معي روزادو، لاحظت أنه يقود السيارة ويضع في حضنه مسدساً من عيار 9 ملم، وكان يبدو متوتراً. كنت قلقاً؛ خشية أن يطلق النار على نفسه مصادفة، فيضرب بالرصاص ساقه، ولكني لم أقل أي شيء.

كنت قد أوضحت للفرقة كلها إمكانية وقوعنا في كمين. إن الأسلوب المعتاد للعمل Standard Operating Procedure (SOP) بالنسبة لكمين متحرك، على حد ما أتذكر، هو أسلوب الرد على النار ومواصلة التحرك. وهذا بالضبط ما قلته لكل فرد في الفرقة الأولى.

إن سيارتينا من نوع الهمفي لم يكونا على وشك تصفيحهما بطريقة صحيحة، بل إنهما كانتا دون أبواب، والاتصالات بدورها كانت مشكلة. لم يكن لدينا اتصال لاسلكي بين السيارتين؛ لأن كل السماعات الصغيرة من طراز (I - 26) تستعمل من قبل الحرس خلفنا في القاعدة، أسوأ من ذلك، إن سيارة واحدة من السيارتين كان فيها جهاز لاسلكي لا يمكنه التواصل

إلا مع القاعدة، وأنا ارتكبت خطأ ساذجاً، إلا أنني بوصفي قائد الفرقة فقد ركبت بالسيارة الأخرى، وهكذا لم تكن لدي وسيلة لإصدار أو تلقي الأوامر أو الاتصال مع القاعدة.

كان قد مضى على مسيرتنا على الطريق الرئيسة نحو ميلين باتجاه الشرق وهذه الطريق هي الطريق رقم عشرة التي تقسم مدينة الرمادي بين الشمال والجنوب، وكنا على وشك أن نصل إلى منعطف على الطريق عندما سمعت صوت صفارة. عرفت على الفور ماذا تعني الصفارة فرتعش جسمي كله. أحدهم كامن عند المنعطف كان يعطي إشارة للآخرين بالهجوم.

عندئذ رأينا شيئاً بحجم علبة حذاء في منتصف الطريق موصولاً بسلك يمتد في منحدر صغير. كنا نستطيع أن نراه بوضوح، حتى من كانوا منا في السيارة الخلفية كانوا يرون ذلك. والغريب في الأمر، أنه ما من أحد منا قال أي شيء، مع أننا كنا نعرف أن العلبة كانت قنبلة.

سيارتا الهمفي كلتاهما كانتا تسيران بسرعة تقرب من خمسين ميلاً في الساعة، ما يعني أنها أقصى سرعة يستطيعان السير بها، وكل ذلك كان يحدث في غضون جزء من ألف من الثانية «المليثانية»، بينما علبة الحذاء الصغيرة كانت تزحف نحونا بشكل فجائي، بحيث لم يعد هناك ما يكفي لعمل شيء من قِبلنا سوى الانتظار. بدا هذا كله يشبه مجموعة من المؤشرات في فيلم لأمور من العلم الخيالي يحاول كل واحد أن يعمل جاهداً لفهمها. بعد ذلك وقع الانفجار.

أول شيء أتذكر أنني رأيته هو انهيار مادسن واختفاؤه عن بصرنا عندما غمر الانفجار الناجم عن القنبلة مقدمة سيارته. عندما أبطأ

بسيارته خطرت لي فكرة: هل ماتوا كلهم؟ كان احتمالاً فظيعاً، مع ذلك لم أشعر بأي شيء، كنت أراقب كل شيء وكأنني إنسان موجود هناك بالروح. كنت أرى الشيء قادماً، وسمّيته، وأوجزت ما رأيت لفرقتي، مع ذلك كان عقلي يرفض قبوله. هذا ببساطة غير ممكن.

كنت مازال في حالة إغماء، بينما كنت أنظر إلى الطريق، فرأيت شرارات تتطاير من حولنا. انقضت لحظات قبل أن أدرك أن الشرارات ناجمة عن رصاصات تصيب الإسمنت. تحسست صدريتي؛ لأتاكد أنها لا تحمينا من رصاص (7.56) مليمتر ورصاص بندقية (AK - 47). كانت المباني إلى جانب الطريق هي هياكل وهمية لمبانٍ كشفت، تصلح لشن هجمات؛ لأنها وفرت أرضاً عالية ثمينة لإطلاق النار على الطريق الواقع تحتها. تمكنت من رؤية النوافذ المعتمة الخالية التي كانت تضيء بما لا بد أن يكون ومضات من فوهات بنادق. تساءلت ما يمكن أن يكون شعوري إذا ما اخترقت رصاصة يدي، أو اخترقت صدري ونفذت إلى قلبي. كان مخزون الذخائر لدى مهاجمينا وافراً بلا نهاية. إن كاليغوس قال فيما بعد مازحاً، وواصفاً ما حدث بأنه: «مطر من النار كان ينهمر على فرقتنا الأولى». كانت يقظتي من نوبتي مفاجئة وعالية، مصدرها كان من المدفع الرشاش المنصوب في أعلى سيارة الهمفي الذي كان يتولاه شيتو Chito. منحني الهدير شعوراً بالأمن، وجعلني أدرك أين كنت. اللعنة، حسب ظني، هذه القذارة حدثت فعلاً. إن فوهة بندقيتي من نوع (M - 16) كانت جاهزة طوال الوقت، ولكن حدث ذلك فقط بعد أن سمعت المدفع الرشاش يطلق جحيماً من الرصاص من فوقي، فبدأت عندها أطلق النار نحو الاتجاه العام للمهاجمين. «لم يبدُ ما أفعل وكأني أنجز شيئاً ما، ومع ذلك تابعت الضغط على مقداح البندقية».

عندما بدأت أخيراً سيارة الهمفي الأمامية تزيد السرعة، ورأيت مادسن يعود للظهور من سقفها، ويبدأ بإطلاق الرصاص، شعرت بموجة من الارتياح.

قال روزادو، ومسدس التسعة مليمترات لا يزال في حضنه: «أظن أن وضعهم جيد. إن ستريت يزيد السرعة، أظن أنهم بخير».

عدنا إلى عش النسر خلال نحو خمس دقائق. استمر الهجوم نحو خُمس تلك المدة، ولكن عندما تبدو دقيقة واحدة كأنها الأخيرة في حياتك، فإن الأبدية تتناسب معها، ثم إن تلك الدقيقة، وحتى هذا اليوم، تبدو وكأنها أطول دقيقة عشتها.

لدى العودة إلى القاعدة خرجنا جميعاً من سيارة الهمفي قفزاً.

صرخ مادسن Madsen: «يا أولاد العاهرة، لم يكن بإمكانهم أن ينالوا منا».

سأل روزادو، وهو يتطلع نحوي: «هل أصيب أحد بأذى؟».

أجبت: لا، مع أني في الحقيقة لم تكن عندي أي فكرة: «لا أظن أن أحداً أصابه أذى» ثم قلت بصوت عالٍ: «هل كلهم بخير؟».

صرخ كاليغوس: «أولئك الأغبياء لم يصيبوا سيارتي الهمفي».

قال فونيز بصوت خفيض: «نعم، أظن أنهم جميعاً بخير».

قال الجندي إستيم Estime، وهو الجندي الآخر من جمهورية هاييتي: «أنت، يا كلب، هل يمكنك أن تصدق هذه القذارة؟ وكان يوجه كلامه إلى بيان إميه Bienaime.

أجابه الكلب: «يا رجل، هذه القذارة حقيقة».

قال الرقيب كاليغوس: «إن فريق (ألفا) سيُحاسب على ذلك».

أجبت، وأنا أنظر إلى روزادو منتظراً تقريره، مع أني كنت أعرف حتى ذلك الحين أن الجميع كانوا بخير: «كمية كبيرة».

قال هو: «نعم ستكون هناك محاسبة لفريق (برافو).

قال كاليغوس، وكان لا يزال بالقرب من سيارة الهمفي وجهاز اللاسلكي في السيارة: «أيها الرقيب ميخيا، إن الرقيب وارفل يريد منا أن نذهب إلى القائد لاطلاعه على ما حدث للتو».

صعدنا كاليغوس وروزادو وأنا الدرج ببطء إلى الطابق الثاني. كانت هناك عتمة ولم يكن للدرج درابزين، وإنما توجد هناك قضبان حديدية صدئة مغروسة في طبقة من الإسمنت المهشم. كان موقع القائد في البناية الرئيسة مكان المجمع التي كانت تضم معظم أفراد سرية تشارلي. كان القائد وأركان حرب فصيلة يشغلون الطابق الثاني بالمرور عبر فصيلتي. وفي المرور سيراً من غرفة القائد توجد غرفة أخرى تحتوي على الأسلحة التي كانت قد صودرت خلال الغارات. في إحدى المرات شملت هذه الأسلحة بندقية مطلية بمادة الكروم من نوع (AK - 47)، ولكن كان هناك كلام مفاده أن قائد كتيبتنا، أو ضابط آخر رفيع الرتبة قد أحبا هذه البندقية، وبعد يوم أو يومين من مصادرتها لم يعد أحد يراها.

كان القائد جالساً في الخارج في ممر النسيم، حيث كان عامل الاتصال اللاسلكي يقوم بنوبته، مشرفاً على الاتصالات اللاسلكية التي تؤديها السرية والكتيبة. لقد كان لا يزال مبكراً في الاحتلال، كما أن المتعهدين لم يقوموا بعد

obeikandl.com

بالدخول إلى البناء لتركيب المولدات ومكيفات الهواء، ولذلك أمضى الجنود الكثير من وقتهم خارج البناء، حيث إن النسيم المحمّل بالرمل جعل الحياة في الجحيم يسهل تحمله، بالرغم من إصابة الرصاص الأرض بالقرب من البناء بين الحين والآخر. كان الرقيب الأول والقائد مع النقيب.

قال ذا نوغوليتور: «وصل الرقيب ميخيا ياسيدي».

سألني النقيب وارفل، وهو ينظر إليّ وكأننا كلينا مسروران ومندهشان أننا قد نجونا من الكمين، دون أن نصاب بأي أذى: «ماذا حدث يا رقيب ميخيا؟».

شرحت لهم كل ما حدث، وكانوا يعرفون أن الكمين كان مرتقباً، وكان بالإمكان تجنبه لو أننا لم نستمر في البقعة نفسها ثلاث ساعات. ولكنني قررت أن أحتفظ بآرائي لنفسي، وأن أقصر الحديث على الأحداث، عما وقع منها فعلاً، وفي اعتقادي أن ذلك من شأنه أن يكون إيجازاً سريعاً ينتهي ربما بطلب لتقديم تقرير خطي.

سألني النقيب الذي كان يحدق فيَّ بعينيه الزرقاوين بصوت خفيض: «مادام الأمر كذلك فلماذا لم تبقَ فرقتك أيها الرقيب؟» أجبته بلهجة سؤال وأنا أوجه بصري إلى قائد فريقي، وأقطب جبيني: «عفواً ياسيدي؟».

أعاد النقيب كلامه: «لماذا لم تقاتل فرقتك؟».

أجبت، وقد شعرت أن شيئاً ما كان فيه خطأ في صيغة الأسئلة: «حسناً، ذلك من شأنه أن يكون النداء الذي صدر عني ياسيدي. كان عندي شعور بأننا على وشك الوقوع في كمين، ولذلك شرحت الأمر للفرقة، طالباً منهم الرد على النار، ومتابعة العودة إلى القاعدة».

قال ذا نوغوليتور، الذي كان يطأطئ رأسه، ولكنه كان مستقيم الجسد: «نعم نعلم أنك وجهت النداء أيها الرقيب ميخيا». كان عندها ينظر إليّ بترفع من خلال نظارة سميكة حصل عليها من الجيش. هذا النوع من النظارات يُعرف باسم BGS، التي تمثل نظارة للرقابة؛ لأنه كما يُقال: ما من امرأة تقبل النوم مع رجل يضع هذه النظارة. ثم إن ذا نوغوليتور، وهو متزوج وضابط رفيع المرتبة، ولكن لم يُثبَّت في رتبته ويعمل في منطقة قتال، ولم يهتم كثيراً باحتمال أن يكذب في العراق، وبافتخار وضع نظارة BGS، فوق عينيه.

أخذ روزادو نفساً عميقاً، وهو يصغي إلى قيادتنا في أثناء أسئلتها عن أول كمين ناجح نُفِّذ ضد سريتنا، بينما كان وجه كاليغوس جامداً، دون تعبير.

تابع الرقيب الأول كلامه، فقال: «مانريد معرفته هو لماذا أصدرت الأمر بترك مكان المشهد بدلاً من القتال».

نظرت إليه غير مصدّق، تُرى هل يمزح؟ السؤال لم ينطوِ على أي معنى. كانت شفتاه مرفوعتين قليلاً، بينما الشفة السفلى تضغط على الشفة العليا، كان ينتظر جوابي، بينما هو كان مقطباً بشكل عجيب، وكنت خلال لحظة أتساءل: هل كان يحاول أن يبدو شبيهاً بـ «بيلي المحبوب» Billy Idol؟ وهذا ما فعله، ولكن المحبوب الأحمق والبشع.

قلت أخيراً: «خطر لي أن أسلوب العمل النموذجي تجاه كمين متحرك أن نرد على النار، وأن نستمر في التحرك». كان صوت خفقان قلبي أعلى من المعتاد، وبدأ وجهي يزداد سخونة.

قال القائد: «أنت أرسلت الرسالة الخطأ إلى العدو».

قلت بلهجة السؤال نصف مندهش، ونصف عارف أن الجواب سيأتي: «عفواً سيدي».

تابع القائد كلامه، وكأنه يقاطعني: «أعني، يجب ألا تفهم كلامي خطأ، أيها الرقيب. نحن مسرورون بأن رجالك حافظوا على حياتهم ولم يلحق الأذى بأحد منهم، ولكن نظن أنه كان بوسعك الخروج من منطقة القتل، والرد على النار، واستدعاء «QRF».

إن هذه الحروف تعني قوة رد الفعل السريع Quick reaction force، وهو تعبير عسكري خيالي يعني الدعم والحصول على تعزيزات. كانت العادة أن تعمل إحدى الفصائل الثلاث في سريتنا بصفة «قوة رد الفعل السريع» بينما تقوم الفصيلتان الأخريان بمهمات مختلفة. كانت قوة الرد السريع تستخدم أحياناً، وكانت تتطلب ما بين عشرين وثلاثين دقيقة للرد على حادث فعلي، وكانت الحوادث في تلك الحالات ثانوية. أما الخط الأدنى فكان قوة ردعنا عندنا تمتصّ الحادث.

قلت دفاعاً عن نفسي، ظناً مني أنني وقعت في الفخ في إحدى روايات كافكا Kafka، أو في نوع من مناطق الشفق: «لم نكن نعلم أي شيء آخر كانوا ينتظرونه لنا. كان بالإمكان أن يكونوا أعدوا لنا سيارة مفخخة، أو ربما قنابل صاروخية كانت لهم الميزة الأكبر؛ لأنهم في الأرض الأعلى» بل كان عندهم الإنذار المسبق، وكان عددهم يفوق عددنا، لقد كان كميناً متقن الإعداد.

سألني النقيب وارفل: «كيف تعرف أنهم متفوقون عدداً؟».

نظرت إلى كاليغوس وروزادو، منتظراً منهما مساندتي، فأنا لم أعرف أنهم متفوقون علينا عدداً، لكن من المؤكد كان شعوري هكذا. قلت: أطلقوا النار علينا من المباني الواقعة على كلا جانبي الطريق لنحو كتلتين أو ثلاث كتل من المباني».

قال روزادو: «كلا، لا بد أن العدد كان نحو أربع كتل، وهؤلاء واصلوا إطلاق النار».

تابع ذا نوغوليتور كلامه: «نعم، ولكن كم العدد؟»

قلت: «من الصعب أن أعرف، أيها الرقيب الأول كان الظلام مخيماً، وكانوا يطلقون النار من كلا جانبي الطريق ونحن كنا كالحمار».

قال الرقيب الأول مصراً على كلامه: «نحن بحاجة لإرسال تقرير إلى الكتيبة، وأن نقدم لها العدد».

قال روزادو: «أقول: إن العدد يتراوح بين خمسة عشر وعشرين».

بدا أن الرقمين خمسة عشر وعشرين يتجاوزان حدود التناسب، ولكن بدا الرقمان أنهما محاولة مني للاعتذار عن بقائنا أحياء، إن أسلوب العمل المتبع حيال كمين متحرك كان الرد على النار ومتابعة التحرك، وهذا بالضبط ما فعلناه. إن بقاءَنا لنقاتل عدواً شبحاً نجهل قدرته، ولكنه يتمتع بميزة جليّة، بينما نأمل أن تقوم قوتنا للرد السريع، وهي بطيئة، بالرد بسرعة. كان هذا الأمل من شأنه أن يكون انتحارياً. ومع ذلك بدا القيام بالعمل الصحيح من شأنه أن يورطني في مشكلة مع قيادتي.

أخيراً قلت: «سأقول: إن العدد نحو خمسة عشر».

obeikandi.com

سأل ذا نيغوليتور: «هل هذا هو الرقم النهائي؟».

قال روزادو: «أيها الرقيب ميخيا، كان العدد أكثر من ذلك».

قال كاليغوس، وهو يتطلع نحوي: «لا أعرف كم كان العدد» ثم تطلع إلى النقيب، فقال: « كل ما أعرفه أنهم استمروا في إطلاق النار مدة ما».

قال النقيب وارفل عندما بدأ السير ببطء عائداً إلى داخل البناية، واضعاً نهاية للإيجاز: «أيها الرقيب ميخيا، أظن أن المشكلة هنا هي أنك فقط أرسلت رسالة خطأ إلى العدو».

قلت بلهجة السؤال: «أنا آسف يا سيدي؟».

قال متابعاً كلامه: «كان بإمكانك أن تسحب فرقتك من منطقة القتل، وأن تحدد مواقع أولئك الرجال. كان بإمكانك أن تستخدم فرقتك ليثبت أولئك الرجال في مكانهم، بينما كان باستطاعة قوة الرد السريع الوصول إليهم وقتلهم».

أضاف الرقيب أول نوغل: «بابتعادكم سمحت لهم أن يعرفوا أننا خائفون. كان ذلك انتصاراً لهم».

بدأنا غاليغوس، وروزادو، وأنا ينظر أحدنا للآخر، دون أن ننطق كلمة واحدة، قبل ذلك بقليل، كنا قد احتفلنا بخروجنا من الكمين، دون أن نصاب بأذى. أما الآن، فقد كنا نتعامل مع القيادة التي طلبت منا أن نعرض أنفسنا دون لزوم لخطر فادح من أجل «إرسال الرسالة الصحيحة». كانوا يعرفون أننا تصرفنا وفقاً للأنظمة، تماماً كما كنا نحن نعرف أن حميرنا كانت على الخط، مع أنهم آنذاك قد عادوا بسلام إلى القاعدة. غادرت

obeikandl.com

موقع القيادة مع اثنين من قادة فريقي، متسائلاً بيني وبين نفسي: من هو العدو الحقيقي في العراق، وإلى أي مدى نحن غافلون عنه؟

علبة العناية كانت تحتوي على برينغلز «Pringles» وألواح غرانولا، وفواكه مجففة، وعدد قليل من زجاجات الماء. بعد أن تناولنا بعض الشيبسي، ونحن جالسون على الدرجات القذرة التي تقود إلى السطح، ذهبت إلى غرفتي وبحثت في كيسي للعثور على المصباح الكهربائي الذي كنت أستعمله لقراءة الرسالة.

كانت أمي تتوسل إليّ أن أعود إلى الوطن بأسرع ما يمكن، وهي تخبرني مقدار حاجة سامانثا إليّ. وقالت في رسالتها: «لا تحاول أن تكون بطلاً. لا تتطوع من أجل أي شيء. لا تعرض نفسك للخطر دون ضرورة، لا تخرج أبداً دون أن تلبس صدريتك الحامية من الرصاص، حتى ولو كانت ثقيلة». في الواقع إن الأمر لم يكن عائداً إليّ، ومن هذه الناحية لم تكن الصدرية واقية من الرصاص. لقد كان من الممتع أن أتلقى هذه الرزم من والدتي. فمن ناحية كنت أحصل على أخبار عن سامانثا والعائلة، ومن ناحية أخرى تجعلني أتذكر عالماً لم أعد أشعر أنني أنتمي إليه. لقد كانت حياتي تبدو خارج منطقة الحرب بعيدة عني مليون عام، واحتمالات العودة إلى الوطن، لم أكن أشعر أنها احتمالات واعدة جداً.

كان هناك في مكان ما اجتماع، في مكتب خيالي ما، حيث كانت مجموعة منفصلة من الناس تدرس خطة كبرى. وكانت تلك الخطة تتطلب فقدان أرواح عديدة من أجل بلوغ الأهداف، ولكنها كلها مقبولة. كانت حياتي وحيوات أولئك الذين في وحدتي هي كلها جزء من تلك الخسارة المقبولة،

ولم يكن هناك أي شيء يمكن عمله حيال ذلك. لقد سبق لنا أن وقعنا عقدنا، ولم نعد نسيطر على مصائرنا.

رسالة والدتي جعلتني أشعر أنني مذنب بسبب مشاركتي في حرب لا تستحق القتل والتدمير. شعرت أنني ضعيف؛ لأنني لم أملك القوة لضمان بقائي حياً من أجل ابنتي ومن أجل الذين أحبهم والذين يحتاجونني. ولكن مايتعبني لم تكن إمكانية أن أتعرض للقتل، بل إمكانية أن أُقتل هنا، في العراق. ثمة فكرة تتكرر في خاطري والفكرة هي «لا حق لنا بأن نكون هنا». ولكن كنت أعرف أنه ينبغي لي أن أكف عن التفكير بهذه الطريقة، لقد كنت قائداً لفرقة مشاة ورجالي بحاجة لي.

بسط الاختصاصيان فونيز وهودجز حصيرتيهما عند منتصف السطح، وأنا بدوري وضعت حصيرتي هناك أيضاً، في وقت لاحق من نشر الرجال سينضم هودجز إلى فرقتي ومعه مساعده المشرف على المدفع، الاختصاصي أيبو. إن هودجز وأيبو كانا في فرقة المدفع وكانا مسؤولين عن أحد المواقع الرشاشة لدى مجموعة (برافو) (M-240)، طلبت من فونيز قداحة، مما جعله يبدي نظرة انزعاج نحوي، تذكرت أنه سبق أن طلب مني مرات عديدة عندما كنت على وشك أن أجلب قداحتي، على أقل تقدير توقفت عن التوسل إليه لإعطائي سجائر. كان هو قد توصل إلى الكثير من المواد المنهوبة من مطار بغداد الدولي: من ضمنها أطنان من سجائر مارلبورو، حمراء وخفيفة، إضافة إلى زجاجات جوني ووكر، من نوع (لصيقة حمراء) و(لصيقة سوداء) Red and Black Label. وقد كان فونيز يتمتع بصلات جيدة في سرية شارلي. كل جندي في السرية كان يحب فونيز وهودجز. كان هودجز أو «ذا هودج» «The Hodge» قصيراً

وله شكل عادي، وكان لا يزال يحتفظ ببقايا ما يمكن أن يكون حباً للبيرة. لكن «ذا هودج» كان رجلاً جميلاً وذكياً مع تمتعه بحسّ الدعابة، وكان أيضاً ذا شعبية».

منذ أن تسلمت رزمتي، كان لديّ شعور بأن شيئاً ما سيحصل وسيمنعني من فتح الرزمة، أما الآن وقد فتحت الرزمة وقرأت رسالة والدتي فتصورت أنني، على الرغم من كون اليوم يوماً سيئاً، فقد تمكنت على الأقل من تجاوز ذلك اليوم، ونجوت من كمين بعد ثلاث ساعات من المعاناة والعيش في مكان مكشوف كأني أبله. كنت مضطجعاً ومرّ اليوم بسلام.

ما زلت أستطيع حتى هذا اليوم بالذات أن أسمع الصوت المدوي لقنبلة صاروخية أطلقت من قاذفتها، حتى سقوطها في مكانٍ ما من قاعدتنا. سبق للناس أن قالوا لي مراراً: إن القنابل الصاروخية لا تُحدِث أي ضجة حتى أصابتها شيئاً ما وانفجارها ناشرة الشظايا القاتلة. ولكني ما زلت أسمع صوت القنابل الصاروخية تزعق في مجتمعنا بعد مرور نصف ساعة فقط على ذهابي أنا وفرقتي للنوم.

«النهوض، النهوض، النهوض»

لا أتذكر أنني انتعلت فردة حذائي الأولى، كل ما أتذكره أنني رأيت قدمي داخل فردة الحذاء وأنا أضع رجلي في الأخرى. إنني الآن أدرك أن ثمة معنى في تمارين التدرب الأساسي عندما يطلب الرقباء مدربو التمارين من المجندين في منتصف الليل النزول إلى تحت هبوطاً على الدرج، كان الأمر: «الآن أيها الشجعان» فيقفز مئتا مجند، واحد فوق الآخر، زاحفين دائسين بأقدامهم على الرؤوس والظهور، فيما هم مسرعون لإطاعة

الأوامر. ولكن التدريب الأساس كان من الماضي، انقضى مليون ونصف مليون سنة على هذا التدريب، وهذه حقيقة. كان السقف يهتز بعنف.

«قنبلة صاروخية، قنبلة صاروخية، انزلوا جميعاً عن السطح».

صرختُ بأعلى صوتي، ملتفتاً إلى الوراء: «فونيز! هودجز! هلمّوا يا رجال». كان أيبو أول من تحرك، لم ينزع حذاءَه من قدميه، بل إنه لمدة لم ينزع سنادة ركبتيه، كان الناس يهزؤون به من جراء ذلك، ولكن الأمر يناسبه حتى الآن.

هودجز وفونيز سارا ورائي، كان يجب علينا عندما ننام أن تكون معداتنا بالقرب منا. هكذا كان أسلوب العملية المتّبع. وبصفتي قائد الفرقة كان يفترض فيّ أن أطبّق ذلك، ولكني لم أفعل، فاضطررنا للركض إلى غرفنا في الطابق الثاني لأخذ معداتنا التي من ضمنها الأسلحة. كنت بينما أركض إلى تحت أشعر أن رأسي يركض في سباق بسرعة لا تُصدَّق، كنت من ناحية أحاول عدم ترك أحدٍ خلفي، وكنت من ناحية أخرى أحاول الوصول إلى سلاحي لأخذه. وكنت من ناحية ثالثة أحاول أن أتبيّن إلى أين أذهب لتلقي مزيد من التعليمات، ربما كان عقلي شديد الاهتياج مما يمنعني من الشعور بالخوف، أما جسدي فلم يكن مهتاجاً، نظرت إلى أسفل فرأيت بقعة رطبة مستديرة على بنطالي للصحراء، «غائط. كنت أتوسخ بالغائط» ركبتاي ترتجفان ولا يمكن التحكم في حركتهما. اللعنة، أنا خائف، ولكني ما زلت في القتال.

ثم إن قنبلة صاروخية أخرى أصابت عش النسر، وبعدها قنبلة صاروخية لاحقة، فأخذت أسس البناية تهتز، بدا لي وكأن المتمردين العصاة اتخذوا

قرارهم بمتابعة هذا الهجوم، فخطرت لي فكرة رهيبة، مفادها أننا على وشك أن تلحق بنا هزيمة كاملة، على طراز حرب فيتنام.

أخيراً حملت معداتي ونزلت إلى الطابق الأول، حيث كان وليامز ينتظر ويطلب من قادة الفرق أن يقدموا تقارير عن المساءَلة.

سألني: «هل رجالك جاهزون؟».

نظرت إلى روزادو ورأيت أن زملاءَه معه، ثم نظرت نحو كاليغوس.

صرخت: «كاليغوس في أي جحيم نجد أستيم Estime؟».

قال أستيم من ورائي، وهو يبتسم ابتسامة نصف ذكية: «أنا هنا أيها الرقيب» « نحن جاهزون أيها الرقيب».

عند ذلك تطلع وليامز نحو ميليغان Milligan، الذي كان قائد الفرقة الثانية. إن ميليغان، وهو رجل صُلب قصير القامة من أصل فيلبيني كان يبدو دائماً هادئاً، بل يتحسب دائماً للظروف القاسية. وكان ينظر وراءه بحركة تكاد تكون بطيئة، مستكشفاً في المنطقة المظلمة قائدي فريقه، وهما: ماشياس Macias، وهو من الأكوادور، ومور Moore، وهو أمريكي من أصل أفريقي. لقد كان مور قائد الفصيلة في قوة المارينز، ولكن التزامه بشكل ما بالعمل في حرسه الوطني، وأعماله الورقية، حالت دون حصوله على تثبيته في الجيش برتبة، ولذلك عينوه رقيباً. وخلال التمرين وفي انتظار الموافقة على منحه الرتبة، أسندوا إليه عمل ملازم ثانٍ. وبما أنه قائد فصيلتي كان الشخص الذي رشحني لمنصب قائد فرقة قبل إرسالنا إلى الشرق الأوسط. ومن دواعي السخرية أن الجيش لم يسمح له أن يكون قائد فصيلة

obeikandi.com

برتبة رقيب، وهكذا فقد أرسلوه إلى الشرق الأوسط في آخر لحظة بصفة رقيب نظامي، وكان مدة من الزمن قائد فريق تحت قيادتي.

سأل ميليغان بهدوء: «هل أنتم يا رجال جاهزون؟».

كلاهما أومأ بالإيجاب.

حالياً كان وليامز يبحث عن الرقيب خوان كاميلو مانتيلا Juan Camilo Mantilla وهو أمريكي من كولومبيا، قبل أن يكون مظَلِّياً في الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً وقناصاً ماهراً، وقائد فرقة ثالثة، فسأله وليامز: « مانتيلا، إلى أين أنت ذاهب؟». إن الرقيب مانتيلا كان شاباً نموذجياً من رجال الجيش، قوياً، يقظاً، حسن المظهر، يتمتع بالكفاءة، وكان جندياً يلتزم بالأوامر دون أن يبدي أي سؤال.

«أنا هنا يا وليامز، أحضرت جميع زملائي».

قال الرقيب ديمرست، الذي كان أول من قدم تقريره إلى وليامز: «نعم أيها الرقيب وليامز: أين سريكاس Cerecas؟».

«الأطباء أخذوه، يبدو أنه سقط خلال نزوله على الدرج».

سأل ديمرست الذي كان وجهه يبدو متعكراً: «هل سيكون على ما يرام؟».

قال وليامز، وهو يحدق في شيء غير محدد: «لا أظن سنراه مرة أخرى». منذ ذلك اليوم كانت الأمور تتبدل جذرياً في السرية الثانية، إذ إن الرقيب من الصف الأول فيرنون وليامز Vernon Williams صار أول قائد لسريتنا الميدانية.

في وقت لاحق ذلك اليوم، شرع أطباء السرية يروجون لشائعة، مفادها أن سريكاس سقط وأنه عن قصد وقع على كاحله، فانكسر كاحله بعنف بسبب السقوط. وكان عمله المزعوم يتوافق مع سلوكه السابق عند انتشار السرية الثانية. ذات يوم، خلال تمرين على هجوم بصواريخ سكود، ظناً من سريكاس أن الهجوم حقيقي، فقد السيطرة على نفسه وركض في حالة يأس، باحثاً عن مخبأ، تاركاً الفصيلة بكاملها خلفه دون أن يقول: على الأقل «حظاً سعيداً»، بل أقل من أن يحاول تولي القيادة وإصدار الأوامر.

في مهمة مختلفة، عقب إطلاق النار عليه من قبل عناصر معادية خلال قيامه بدورية ليلية سيراً على قدميه، أخذ سريكاس يعاني من الرعب من احتمال هجوم وتوقف عن الدوريات في تلك الليلة، وكان هذا قراراً لم يشتكِ أحدٌ منه. بعد انصرافه، لم يتحدث أحد في الواقع عن هذا الرجل، باستثناء إطلاق النكات عن أوقات شعوره بالرعب.

بعد نحو ثلاثين دقيقة من الهجوم بالقنابل الصاروخية صدر أمر للقيام ببحث خارج منطقة القاعدة. وسرعان ما انتشرت الفصيلة الثانية، متخذة تشكيلة إسفين على اتساع حقل مكشوف إلى الشرق من القاعدة، امتداداً إلى شبكة قديمة من المخازن التي تعرضت للقصف الجوي، ثم الدوران شمالاً نحو ملعب كرة قدم، حيث كان الأولاد العراقيون كثيراً ما يمارسون اللعب، ثم الدوران حول الجانب الغربي لقاعدتنا عبر منطقة مجاورة سكانها من الطبقة الوسطى. بحثنا وقمنا بأعمال دورية مدة تقارب الساعتين، حتى رأينا الشمس وهي تشرف من أسطحة بلدة صغيرة، مكانها بين عش النسر والصحراء المجاورة.

بعد فراغنا من البحث، الذي ثبت أنه بحث عقيم، تراجعت الفصيلة ثانية إلى الوراء عبر البوابة. كنا جميعاً نشعر بالإجهاد جسدياً وعاطفياً. إن هذا الوضع الباعث على الكآبة، من جراء تعرضنا لهجوم من قبل مقاومة لا يمكننا أبداً أن نحدد موقعها ـ إن هذا الوضع سرعان ما صار أمراً معتاداً، فالعدو الذي نواجهه ليس له وجه، بمعنى ليست له وحدات قتال، وليست له ألبسة معروفة ـ ولذلك ما كان بإمكاننا أن نراهم ولكننا كنا نعرف أنهم موجودون في كل مكان، في المنازل، وخلف أشجار النخيل، بل هم كانوا يراقبوننا من خلال الضباب والرمل وعبر النوافذ المعتمة. لقد كانوا في الأزقة والشوارع وفي السوق وكذلك في الجوامع. إنهم أبناء العراق وبناته وهم يقاتلون من أجل وطنهم.

إنه بعد مرافقة مدافع الهاون عبر عاصفة رملية في اتجاه قصر محاصر، ركضنا بلا معنى؛ بحثاً عن قيادة، فنجونا من كمين (وتعرضنا للتوبيخ بسبب ذلك) تعرضنا لهجوم بالقنابل الصاروخية، مع أننا كنا نقوم ببحث لا غبار عليه عبر الظلال في الصباح الباكر في مدينة الرمادي، وقد كان ذلك أمراً جميلاً لو أمكننا الحصول على بعض النوم وبعض الوقت للاسترخاء. لم يحالفنا حظ كهذا، إذ إن الفصيلة الثانية كانت مكلفة بأعمال الدورية ذلك اليوم.

ولكن قبل مغادرتنا للقيام بسلسلة مهماتنا المقبلة عبر شوارع المدينة وأزقتها، طلب الرقيب وليامز أن يتحدث معي ولو دقيقة. كان الكلام عن الكمين الذي تعرضنا له والحديث الذي أجراه، بصفته قائد فصيلة رُقِّي حديثاً مع النقيب وارفل. ويبدو أن النقيب، أزعجته حقيقة أن الفرقة احتفلت ببقائها على قيد الحياة لدى وصولها إلى القاعدة. كان هو،

بوصفه القائد، والرقيب الأول في مجرى النسيم فوق المكان الذي أوقفنا فيه سيارات الهمفي. إننا لم نكتفِ بإرسال الرسالة الخطأ إلى العدو وابتعادنا عن موقع الكمين، بل إننا فور وصولنا إلى القاعدة، احتفلنا علناً بنجاتنا، وبذلك وجهنا الرسالة الخطأ إلى جنود آخرين في وحدتنا. أصغيت بصمت شديد عندما قال لنا وليامز: إنه يتفق في الرأي مع النقيب.

obeikandl.com

خامساً

عندما انطلقنا للقيام بأعمال الدوريات، كان ذلك اليوم صافياً، وحاراً، ومشرقاً. كان مقصدنا الأول بعد تناول طعام الفطور، المكان الذي تعرضت فيه الفرقة الأولى لكمين قبل ساعات. كان علينا القيام ببحث تفصيلي في منطقة الكمين للعثور على أي مؤشرات قد تساعدنا في فهم كيفية تنفيذ العدو هجومه، ثم نعود إلى دورياتنا المنتظمة، وبما أننا كنا مرهقين من جراء أحداث الليلة السابقة، كنا جميعاً أقل شعوراً بالإثارة من جراء ذلك الاحتمال. مع ذلك، انطلقنا صوب عش النسر في شاحنتين.

كانت الشمس في كبد السماء، وكان السطح المعدني للشاحنة شديد الحرارة. مضينا بالشاحنتين عبر الشوارع مروراً بالمساجد، والمدارس والسوق، حيث كانت الماعز المذبوحة معلقة من أعلاها إلى أسفلها، بينما الدم لا يزال يقطر من رقابها. المنطقة داخل المدينة كانت تعج بالحياة، كان الأطفال يجوبون الشوارع، يبيعون كل شيء، بدءاً من الفستق وزجاجات الصودا، وحتى الحراب الروسية القديمة. معظم النساء كنّ متدثرات بملابس سوداء، أما الأصغر منهن سناً فكنّ يغطين وجوههن بالحجاب. كثيرون من الرجال كانوا يرتدون ملابس عربية تقليدية، ولكن بعضهم كانوا ينتعلون صنادل، ويلبسون سراويل فضفاضة، وقمصاناً ذات أكمام طويلة، في مظهر أنيق يشبهون فيه الغربيين. شاهدنا بعضهم ممسكين

بأيديهم خلال تجوالهم في الشوارع وتساءَلنا هل كان ذلك مجرد عادة صداقة مألوفة، أم أنها دلالة على صلة مودة وحب.

كنت مفتوناً بكيفية اختلاف الحياة العراقية عن حياتنا عندما كنت في بلدي ورغبت في معرفة المزيد، وكانت الاختلافات الثقافية كثيرة، بدءاً من اللغة والدين، مما يبدو أنه مسيطر على الحياة، ولكنّ ثمة اختلافاً آخر يتمثل في علاقة أحدهم بالآخر، عبر القبائل والعشائر، وعبر أشكال الإسلام، كما يمارسونه. وإذا كانت هذه هي الحالة، فلم أشعر أنني سعيد جداً بشأن إسهام ذلك في وحدتهم، التي بدت تدعي أن معظم طاقتها مستمد من مقاومتهم لاحتلالنا.

كنت مأخوذاً بثقافة شعب العراق، وبرغم أني كنت أكره إطلاق النار علينا، فلم أكن صادقاً إذا قلت: إنني أوجه اللوم إليهم. والأغرب من ذلك، أنني لم أستطع القول، وسط كل العنف والمقاومة: إنني شعرت فعلاً بالكره من جانب شعب العراق. وإذا كان هناك ما يقال، فإنني أسفت؛ لكوني جندياً من الولايات المتحدة قد حال دون التعامل مع الثقافة بأي طريقة ذات أهمية. إن التفاعلات المحدودة التي جرت بيني وبين السكان المحليين، قد عززت اعتقادي بأن احتلالي لهم كان خاطئاً. وفي العديد من المحادثات التي أجريتها، أخبرني علناً الشيعة والسنة على قدم المساواة أن العراقيين قادرون على أكمل وجه على حكم بلادهم دون مساعدة من الجيوش الأجنبية. وحتى أولئك الذين كانوا في أول الأمر سعداء برؤية وصول القوات العسكرية الأمريكية والذين احتقروا صدام صاروا الآن يقولون: إن الوقت قد حان لمغادرة الأمريكيين العراق.

obeikandl.com

كان الغضب من قبل القوات المتحالفة قاسياً، حيث كنا قد وقعنا في كمين قبل ذلك بساعات. لقد تسلقنا المباني التي تعرضنا فيها لإطلاق النار، بعضها على ارتفاع طابقين أو ثلاثة، وجميعها ليست سوى بقايا هياكل لأماكن إقامة. لقد وضع المتمردون خطة جيدة لمهمتهم، متخذين مواقعهم على الأراضي الأعلى على كلا جانبي الطريق، بحيث بإمكانهم إطلاق النار علينا من الجانبين دون أن يطلق بعضهم النار على الجانب الآخر، إن مكان الهجوم لم يكن مأهولاً وكان مظلماً خاصة في الليل، موفراً لهم إمكانية إخفاء الظلال وتوفير الحماية لسكان البلدة النائمين في منازلهم. لقد أعدوا كمينهم بإتقان، وأخفقوا فقط في وضع شيء كبير في وسط الطريق لإبطائنا في وصولنا قبل الانفجار. الحمد لله أنهم ارتكبوا ذلك الخطأ. عثرنا على مزيد من الأسلاك وكبسولات التفجير، مما جعلنا نعتقد أنهم قد أعدوا مزيداً من المتفجرات الموصولة بالأسلاك.

إن القنبلة التي فجروها أحدثت حفرة صغيرة على الطريق، ولكن ما لبثنا أن أدركنا أن هناك حفراً أخرى مماثلة بالقرب من الأولى، وهذا كان دليلاً إلى أن هجمات أخرى في المنطقة كانت مناسبة تماماً لمثل هذا النوع من أسلوب: «اضرب واهرب».

إن البيوت والأزقة الواقعة مباشرة خلف المباني التي أطلقوا النار منها علينا وفرت طرقاً للهرب السريع للمهاجمين. وكل ما كان عليهم أن يفعلوه هو الركض عبر المنازل إلى سياراتهم، التي ربما كانت موقوفة على طريق موازٍ، بعيداً عن الرؤية وخارج نطاق أسلحتنا، أو ربما كانوا مختبئين في منازل قريبة لهم، بموافقة سكان المنازل. إن هذه السلسلة من المنازل كانت تقع مباشرة جنوب الطريق، تمتد على مسافة نحو ميل قبل الوصول إلى

أقرب قاعدة صديقة. وكلما أكثرت من التفكير في الهجوم، كانت مفاجأتي أكبر بأننا لم نتعرض للأذى، وأنني كنت أكثر سعادة؛ لأنني اخترت ترك المنطقة بدلاً من الانتظار حتى إطلاق القذائف الصاروخية.

إن الدورية حول منطقة الهجوم انتهت بغارة من مبنى قريب للمكاتب مؤلف من سبعة طوابق، وهو الأعلى في ذلك الجزء من البلدة. كانت المكاتب كلها قد دمرت بعنف، ربما بمجموعة من القصف الأمريكي ـ إذ إن مسؤولي الحكومة العراقية الذين كانوا يعملون في تلك المكاتب حرصوا على عدم ترك وثائق رسمية خلفهم، ودون شك فإن الذين مارسوا أعمال النهب أكملوا العمل.

عندما اقتحمنا الأبواب وأطلقنا النار على الأقفال، فتشنا كل طابق ووضعنا مجموعة أمن صغيرة أمام مداخل البناء وخلفها، ثم توجهنا إلى السطح، ومنه كان بالإمكان رؤية كامل منطقة قلب مدينة الرمادي. إن عدداً لا يحصى من المنشآت المنخفضة المؤلفة من القرميد الأصفر كانت تطل عليها جوامع طويلة لها لون الرمل، ومآذنها تدعو المسلمين إلى الصلاة خمس مرات كل يوم. وكانت الأرض الزراعية الخصبة الواقعة قرب النار تمتد نحو الشمال. أما الصحراء الواسعة، فكانت تمتد نحو الجنوب، حيث كان بالإمكان من حين إلى آخر رؤية مجموعات صغيرة من النقاط المتحركة، ولعل هذه النقاط هي عبارة عن رعاة يبحثون في الرمال القاحلة عن قطع صغيرة معشوشبة لإطعام ماشيتهم.

عندما أبصرت هذه الفسحة الطبيعية الرائعة، فكرت في التضاد بين جمال البلد والعنف المتفجر الذي نواجهه يومياً. وهذا ما أحزنني. وشعرت،

obeikandl.com

ليس للمرة الأولى، برابطة عميقة بيني وبين الشعب العراقي، كنت قد رأيت الألم والمعاناة في أعينهم في أكثر المرات سعياً وراء المواساة. أردت أن أساعدهم في إعادة بناء دولتهم العريقة المتهالكة، من جراء قصف ما تبقى من أرضهم التوراتية، تمنيت لو تمكنا من إعادة السلام إلى هؤلاء الناس، ليس بصفتنا جنوداً أجانب، بل كبشرٍ رفاقٍ لهم، كمواطنين دون حدود فاصلة.

إن نشوتي سرعان ما اضمحلت بسبب إدراكي أنني قد أتعرض لهجوم في أي لحظة بسبب اضطراري للبقاء متيقظاً، وذلك جعلني أشعر بأني أفقد كل شعور بإنسانيتي، فكيف بإمكاني أن أعانق العراقيين، بينما أنا أحمل بندقية، وأحمل قنابل في جيوب حزامي؟! أردت أن أكون شقيقهم، فلم أتمكن. لقد كنت جندي احتلال.

نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً غادرنا البناء المؤلف من سبعة طوابق غرب موقع الكمين، ووجدت نفسي أقود أول فرقة على الطريق الرئيسة في الرمادي. شعرت أن ذلك سوريالي، في لحظة ما أمعنت في جمال اللحظة، وبعد دقائق كنت في مواجهة خطر مميت. كنا جميعاً نرتدي صدرياتنا السميكة عديمة الفائدة ونضع الخوذ على رؤوسنا. كنا أيضاً نحمل ما لا يقل عن 210 رصاصات لكل جندي، إضافة إلى متاعنا، وأسلحتنا. وكل ذلك تحت شمس لا ترحم تجعل الماء في أوعيتنا ساخناً إلى حد أنه يحرق أفواهنا عندما نحاول أن نأخذ جرعة ماء. كنا نتجه شرقاً نحو مقر رئيس البلدية، وهو بناء من ثلاثة طوابق. وكان صدام حسين، كما يتبيّن من شريط فيديو عرضه رجال الشرطة العراقية أمام روزادو، يخاطب جماهير السنة من هذا البناء، والبندقية في يده.

مقر رئيس البلدية كان البناء الحكومي الرئيس في المدينة، ومعظم مكاتب البناء تشغلها الآن الحكومة الجديدة، ومسؤولو الشرطة. إن رئيس بلدية المدينة وقائد الشرطة جرى تعيينهما من قبل ضباط الجيش الأمريكي خلال اجتماع، كانت تحرسه جزئياً فرقتي قبل ذلك ببضعة أيام، أجزاء أخرى من خلية رئيس البلدية كان يشغلها بعض سرية برافو، بينما كنا نحن نستخدم واحداً من مكاتب طابقه الثاني التي زودت بالسجاد الأحمر، وجعلنا من هذا المكتب قاعدة للدورية.

لدى اقترابنا من البناية، سمعنا نداءً لاسلكياً يأمرنا بالإسراع في خطواتنا.

قال وليامز الذي كان يقف خلفي: «اسمع أيها الرقيب ميخيا، ثمة شيء يجري في مقر رئيس البلدية، أمامنا مهمة».

سألت، محاولاً إخفاء خيبة أملي: «ماذا، ما الذي يجري؟» بعد حرماننا من النوم مدة يوم ونصف اليوم، أردت في الواقع أن أستلقي على السجادة الحمراء في قاعدة الدورية، مهما كانت السجادة قذرة، وذلك لأخذ قسط من النوم، فقد كنت مرهقاً إلى درجة الانهيار. أردت أن أقول: «المهمة إلى جهنم، أريد أن أنام». لا يهم أين أحصل على النوم، سواء في الشارع، أو تحت ظل شجرة نخيل، أو في أي مكان، لا يهمني. ولكنني بذلت قصارى جهدي للمحافظة على هدوئي. تابعت السير محافظاً على رونق وجهي وحافظت على خطواتي الثابتة، وكأن كل شيء على ما يرام، بوصفي قائد فرقة مشاة جيدة.

صرخ الرقيب وليامز، بعد أن انتزع سلك المذياع من خلف ظهر الاختصاصي شانكس Shanks وأمسك بالمايكروفون عند أذنه: «ثمة

احتجاج خارج مقر رئيس البلدية». في ذلك الحين لم يكن لدينا مذياع، ولذلك كانت الاتصالات الداخلية بواسطة رفع أصواتنا من بعضنا لبعضنا الآخر.

كان بالإمكان رؤية جمع من الناس على بعد نحو نصف ميل إلى الغرب من خلية رئيس البلدية. سرنا متجاوزين بناية تعرضت للقصف على مقربة من مدرسة. كان هناك تمثال نصفي، دون رأس، لصدام حسين، على قمة نُصُب عمودي عند مدخل البناية، وعلى جدران المدخل رسوم لنساءٍ يلبسن ملابس سوداء ويحملن بنادق (AK - 47)، وخارج المدرسة كان هناك تمثال لولد صغير يلبس الزي المدرسي ويضع رزمة من الكتب تحت ذراعه الأيسر. لا أذكر إطلاقاً أنني شاهدت أولاداً حقيقيين هناك.

كان علينا أن نفتح لأنفسنا درباً عبر جمهور المحتجين الغاضبين، الذين كان يبدو أنهم غير مهتمين كثيراً بأسلحتنا، ثمة رجل كان يحمل لافتة كتب عليها، «نرفض بوش، نعم لصدام» No Bush Yes Saddam، وأتذكر أنه خطر ببالي أن الأمر لا يتطلب الكثير من العقل للاحتجاج بهذه الطريقة، ولكني لم أكن معنياً كثيراً بمضمون لافتته. ثم إن الرئيس بوش لم يكن لي أيضاً الشخص المفضل.

ما إن دخلنا مقر رئيس البلدية طلبوا منّا أن نجلس محشورين في الممر. يبدو أن سرية برافو كانت تسيطر على كل شيء، وكان موقعها في الحديقة الأمامية في مواجهة الجمهور من داخل الجدران المحيطة بالبناء. قيل لنا: أنه يجب أن نسرع إذا ساءت الأمور. وكانت العبارة الأشهر والأكثر استعمالاً في أوامر الجيش هي: «أسرعوا وانتظروا» ولكن الانتظار لم يكن مشكلة في

ذلك اليوم. كنت أشعر بتعب شديد ولم أعبأ بالجلوس على السطح الوسخ للطابق الثاني في البناء. أخبرني غاليغوس أنه سيكون على شرفة على مقربة مني، وأخذ إلى جانبه بيريز Perez وهو المشرف على رشاشه.

كانت للاختصاصي بيريز طريقة لطيفة جداً في الحديث إلى الناس، عراقيين وغيرهم، ولكن الطبيعة الهادئة لرجل كهذا، وهو من جمهورية الدومينيكان لم تكن عقبة على طريق كفاءته القتالية. كان هناك نقاش يجري داخل السرية حول من هو الأفضل في استخدام الأسلحة الأتوماتيكية في الفرقة Squad automatic weapon (SAW) هل هو بيريز أم بيان إيم؟

قبل انقضاء وقت طويل كان جميع أفراد الفرقة تقريباً على الشرفة، استعرضتهم مدة قصيرة، ثم عدت إلى بقعتي المريحة والقاسية والقذرة في الداخل. كنت أعلم أنني لا أستطيع النوم مع كل ما يجري من حولي، ولكني مع ذلك أغمضت عينيّ، محاولاً أن أستريح في العتمة.

بدأت أسترخي. كان الجنود من فرقتي جميعهم من حولي، يتبادلون النكت، ويأكلون ما وجدوا في جيوب ملابسهم، ويشعلون سجائرهم. شعرت أنني أستطيع أن أسترخي مجرد دقيقة، إذ كنت أعرف أنهم سيستدعونني إذا حدث شيء، مع إغماض عينيّ وتمديد ساقيّ، متمسكاً في الوقت ذاته ببندقيتي وحزامها حول ذراعي بدأت أنام نوماً عميقاً.

لا بد أنني قد فتحت عينيّ بعد ثوانٍ من نومي، وكأنني أشعر بما يحمله المستقبل خلال جزء من ثانية قبل أن يهزّ الانفجار الأول الأرض تحتي، تبعه انفجار ثانٍ، ثم انفجار ثالث. نظرت إلى الجنود الآخرين من حولي وهم يتحركون متذمرين، ويبدو أنهم كانوا يأملون أن تنتهي

obeikandi.com

المشكلة وحدها. بعد ذلك حدث انفجار رابع أكبر هز البناية بكاملها، وقفز الجميع نهوضاً على أقدامهم.

كانت فرقتي قد عادت للتو من الشرفة، منتظرة أن تتلقى التعليمات.

قال غاليغوس: «المحتجون يقذفون قنابل علينا».

جاء الرقيب وليامز عائداً بسرعة من الطابق الأول، ومعه شخص من سرية برافو. كان الرقيب الأول قد طلب من وليامز أن يثبت في مكانه، لأنهم يستعدون لإرسال فريق من الشؤون المدنية سيحاول إقناع الجمهور بالعودة إلى منازلهم بسلام. وضعوا سيارة همفي مع مترجمة امرأة أمريكية، وهي جندية تتكلم اللغة العربية بواسطة بوق مصنوع من قرن ثور، طالبةً من الأمريكيين مغادرة المنطقة. ثم إن قنبلة يدوية انفجرت بالقرب من سيارة الهمفي، التي سمع صوتها مسرعة إلى خارج المنطقة.

قال الرقيب وليامز: «دعنا نذهب أيها الرقيب ميخيا؛ لأننا سنصعد إلى السطح؛ لنؤمن ما فوق رؤوسنا».

جاء معه الرقيب ريتز Ritz وهو ماهر في إطلاق النار، وكان يحمل معه دائماً منظاره الخاص بالقنص. وضعه الرقيب وليامز عند زاوية إستراتيجية يستطيع منها أن يراقب كامل أرض التجمع، أما فرقتي، فقد وُضعت عند الجزء الأمامي من السطح.

كان من السهل أن نعرف، عندما يحاول شخص إلقاء قنبلة، إذْ إن تجمع الناس من شأنه أن يعمد إلى الهدوء فوراً، بحيث يتحرك ذلك الشخص إلى جانب الشارع، وعلى بعدٍ يكفي لتفادي أي أذى من جراء

الانفجار، ولكن على مقربة كافية لكي يرى هؤلاء أين وقع الانفجار، وعندها يصرخون ويهتفون للانفجار. إن جنود سرية برافو، الذين كانوا خارج المجمع، كانوا يصرخون نحو المتظاهرين، محاولين إرهابهم بالأسلحة. وقع كيس بلاستيكي أسود بالقرب من أحدهم وبدأ يصدر منه دخان. ركضوا جميعهم بأسرع ما أمكنهم الركض، ونجوا بصعوبة من أذى انفجار ضخم. وردت لاحقاً أخبار مفادها أن بعض الذين ألقوا المتفجرات كانوا أولاداً.

صدر الأمر بإبعاد جميع العناصر الصديقة من المنطقة السفلى المباشرة، وعلى المرابطين على السطح أن يطلقوا النار على أي شخص يبدو أنه ينوي رمي قنبلة. كان الجمهور لا يزال في وسط الشارع وكان تقديري أنهم رأوا انسحاب جنودنا من الساحة الأمامية انتصاراً لهم. وقد عادوا إلى المنطقة الواقعة مباشرة أمام البوابة الرئيسة، هاتفين بأصوات أعلى ورافعين إلى أعلى لافتاتهم التي كتب عليها: «نرفض بوش، نعم صدام».

عند هذه النقطة هدأ العراقيون مرة أخرى، وانتقلوا جميعاً إلى جانب الشارع. كانوا جميعاً يتطلعون نحو منطقة من الشارع مخفية علينا. أتذكر أن تلك المنطقة كانت زاوية من الشارع، حيث كان هناك دكان من نوع ما، والشرفة فوقها مباشرة، كانت تلك البناية ذاتها، حيث حدث في إحدى الليالي تبادل لإطلاق النار بين المتمردين والفصيل الثالث، وقيل: إن فتاتين صغيرتين قتلتا خلال نومهما تلك الليلة، ولكن سرعان ما نفى مسؤولو الشؤون المدنية هذا الخبر. أما الآن، فأمكن من زاوية البناية ذاتها، رؤية شاب ينبثق من الجمهور الذي يراقب الوضع. كان يرتدي سروالاً رمادياً وقميصاً ذا كمين طويلين من اللون ذاته. كان هذا صغير السن، لعل عمره

openkandi.com

يتراوح بين ستة عشر وسبعة عشر عاماً. لاحقته من خلال فوهة بندقيتي من طراز م (m-16). ترى ماذا تفعل يا رجل؟ تابع السير نحو ساحة المجمع المهجور حالياً، وكانت هذه الساحة محاطة بالجدران. سحب يده اليمنى من جيبه وتمكنت أن أرى أنها تحتوي على شيء أسود صغير. سحب يده من الجيب.

ليس عندي ما يذكرني بضغط زَنْد البندقية في لحظة انهمار عاصفة من الرصاص على ذلك الشاب، مما أودى بحياته على الفور. أتذكر أن القنبلة التي رماها انفجرت بالقرب من مكان وفاته، بعيداً عن جميع الذين أطلقوا النار عليه. وأتذكر أيضاً اثنين من المتقدمين في العمر خرجا من الجمهور بعد توقف إطلاق النار، وقد رفعا أيديهما دلالة على أنهما غير مسلحين، وخفضا رأسيهما. أمسكا جثة الشاب الذي مات من كتفيه وسحباه وسط بركة من دمائه، ثم إنهما عادا بهدوء إلى الخلف إلى أن أحاط بهما الجمهور، هذه المرة بصمت؛ حزناً على ابنهما الفقيد.

بعد ذلك بوقت قصير عاد الجمع، مما جعلنا نطلب طائرات هليكوبتر لتفريق الناس. كان مجموع عدد القتلى في تلك المظاهرة، بإحصاء غير رسمي كالعادة، أربعة قتلى والعديد من الجرحى. جميعهم كانوا عراقيين.

طلب منا أن نعود إلى داخل البناية، بعد أن غادر الجمهور نهائياً. كان علينا أن نستعد لنشر المزيد من الدوريات حول المدينة، فذهبتُ إلى زاوية مظلمة منعزلة في البناء، حيث جلست برهة من الزمن، بعيداً عن الأنظار، وسحبت مخزن الرصاص من بندقيتي، فوجدت أنه تبقى فيه تسع عشرة رصاصة، وهذا يعني أنني أطلقت إحدى عشرة رصاصة على ذلك الشاب.

استؤنفت الدوريات، بعد ذلك مباشرة، وكان على فرقتي تغطية مؤخرة تشكيل مؤلف من فرقتين انتشرتا أمام كتلة ونصف الكتلة من المباني أو نحو ذلك. سبق لنا أن قمنا بممارسة مثل هذا النوع في المنطقة مرات عديدة، ولكن الشوارع والأزقة بدت في ذلك اليوم أكثر إخافة لنا. فلعل ما حدث هو أن كيساً أسود بلاستيكياً قد انفجر داخل المجمع قبل ذلك بمدة غير طويلة، وبدا أن كل شخص آخر في الرمادي كان يحمل مثل هذا الكيس البلاستيكي في ذلك اليوم.

ولكن ما هو الأسوأ من القلق من جراء الخطر المحتمل الناجم عن الأكياس السوداء، هو الخوف من الأولاد. فلأول مرة منذ وجودنا في الرمادي سمعنا أن الأولاد متورطون في العمل العدائي المباشر المتمثل في قذف القنابل، ألفينا أنفسنا لا نثق، حتى في سذاجة نكات الأولاد الذين، كالعادة يحبون أن يلعبوا لعبة الحرب مع الجنود، إن مجموعة من أربعة، أو خمسة أولاد كان من شأنهم الركض إلى جانب التشكيل، مختبئين خلف السيارات المتوقفة ومنتظرين القفز أمام جنود وأيديهم مرفوعة إلى أعلى وكأنهم يحملون بندقية، ثم يصرخون: «را تات تات تات تاه!» «Ra tat tat tat tah»، مع ابتسامة على وجوههم الصغيرة القذرة. كان هذا كله لعبة، ولكنها لعبة تجعل كلاً من إستيم، وبيان إيم وشيتو شديدي التوتر.

إن الاحتجاج على الاحتلال، وما تبع ذلك من دماء، مقترناً بإرهاقنا جسدياً، كان يتلاعب بحكمنا على الأمور. لقد أمسك شيتو بيده التي يغطيها قفاز، فتى في مقتبل العمر من عنقه ورماه نحو جدار، موجهاً له اللعنات باللغة الإنكليزية بصوت عالٍ. اعتقدت أنه على وشك أن يقتله

بالرصاص، وصرخت لمعرفة ما المشكلة. شيتو قال: إن الولد السخيف كان ينظر نحوه، وكأنه على وشك أن يفعل شيئاً ما.

الفتى العراقي كان أصغر حجماً وأصغر سناً من شيتو، الذي كان مسلحاً تسلحاً كاملاً بالرصاص والقنابل اليدوية، مع بندقية وقاذف قنابل. شعرت بالأسف لوضع الفتى، وأردت إلى حدٍ ما أن أطلب من شيتو أن يخلي سبيله، ولكني لم أتمكن. كان غاضباً على كل شخص ومغتاظاً من كل شيء. أردت من شيتو أن يزرع الخوف في قلب الفتى، وأن يفعل ذلك بطريقة تجعل جميع العراقيين في المنطقة المجاورة يعلمون ذلك.

تمكنت من رؤية نظرة الغضب في وجه الشاب العراقي، وخطر لي أن العراقيين الذين وقفوا صامتين ومراقبين ما يحدث قد يكونون فخورين به. بعض الناس كانوا يتطلعون من بعيد، بينما كان آخرون يحدقون في الأرض. ولكن كل واحد منهم كان مدركاً ما يحدث، وشعرت بموافقتهم على تحديه. كان الفتى بحلول هذا الوقت قد أخلى شيتو سبيله، وراقبته من بعد، بينما كنت أمشي عائداً مع التشكيل. حدّق في بعينين متحجرتين، وكان حتماً ينظر نظرة ريبة. التفتّ من حولي ببطء، دارساً الأماكن التي حولي بعناية تامة. ألقيت نظرة عن قرب على كل شيءٍ وعلى كل واحدٍ، رجلاً كان، أو امرأة، أو ولداً وألقيت نظرة على الشوارع والأزقة والحيوانات والمركبات، وبائعي الثلج إلى جانب الطريق، والمساجد والمدارس، ومباني السكن. لقد بدا كل شيءٍ يوحي بالارتياب.

أطلقنا على هذا الحي القذر بصورة خاصة في المدينة اسماً هو اسم «زقاق قاذورات الفراخ»، وهذا الزقاق لم يكن فيه فقط كل مياه الصرف

الصحي والفضلات التي كانت الغالبة في معظم مناطق الرمادي، بل كان فيه أيضاً مخلفات الفراخ التي جاءت من جميع أقفاص الدجاج في المنطقة. كنّا نقترب من نهاية دوريتنا وكنّا على وشك أن نعود إلى مقر رئيس البلدية، عندما تلقينا نداءً من مجموع «الشعاع السيني المقاتل» Combat x-ray.

قال غاليغوس: «مرحباً أيها الرقيب ميخيا، إن الرقيب وليامز طلب أن أبلغكم أن نتوجه مباشرة إلى المصرف في مهمة أخرى».

سألتُ غاليغوس: «هل تعرف ما هذا؟».

قال وليامز: « لا أعرف حتى الآن، سأطلعكم أيها الرجال، على ما أعرف حالما أسمع ما هو الوضع من الشعاع السيني».

قال وليامز كلامه الذي سمع سؤالي الموجه إلى غاليغوس، مع أنه كان يمشي على مسافة منّا.

سألتُ: «أيّ مصرف تلك يا وليامز؟».

إن المصرف الوحيد التي كنت أعرفه كان المصرف القريب من القصر الشمالي، بينما نحن كنّا نمشي في الاتجاه المقابل بعيداً عن المصرف، أجابني قائلاً: «أظن أن المصرف قريب من محطة التزوّد بالوقود داخل المدينة».

وجهتُ بصري نحو غاليغوس، الذي كان لا يزال غير عارف أين يقع المصرف، بيد أنّه تطلّع نحوي محدّقاً في وجهي. لم يكن ذلك يهمّ كثيراً. كنت أعرف أين تقع محطة التزوّد بالوقود داخل المدينة، ولذلك واصلت السير في الاتجاه ذاته، معتقداً أننا بمجرد أن نصل إلى مقربة من المكان سنتمكن من معرفته.

opeikandi.com

مع حلول هذا الوقت شعرت بتعبٍ شديدٍ، فقد كنت أعمل معتمداً على الطاقة الاحتياطية. كان بإمكاني أن أؤدي أعمالاً جسدية، كالمشي والتحدّث، ولكن عقلي كان في نشوةٍ. شعرت وكأنني أنظر إلى الأشياء من جسد شخصٍ آخر، أي بالطريقة ذاتها لشعوري خلال الكمين ولو أني، خلافاً لما حدث سابقاً، كنت الآن مدركاً الأخطاء المحدقة بي. تابعت السير محافظاً على عواطفي، ويعود ذلك جزئياً إلى التركيز على البقاء على قيد الحياة في منطقة خطرة، ومن ناحية أخرى لحماية عواطفي من عذاب معرفة أنني كنت متورطاً في قتل إنسانٍ.

عندما وصلت الأوامر من الفوج تبيّن لنا أنه ينبغي لنا أن نضع أمناً عند مصرف كان يستعد لتلقي مبلغ نقداً يعادل بالدينار 50.000 دولار أميركي. كان هذا المبلغ لدفع رواتب رجال الشرطة المحليّة ومسؤولين آخرين، وهذه كانت أول مرة يتمّ دفع رواتبهم لهم منذ تعيينهم من قِبَل قوات الائتلاف الأميركي. إن شخصاً ما ضمن الشرطة تلقى خبراً يفيد أن مجموعة من المتمردين على وشك أن تهاجم المصرف. ولم يكن واضحاً ما هو الهدف، إذ كان يمكن أن يكون الهدف العاملين في المصرف المتعاونين مع السلطات العسكرية الأميركية، أو أن يكون الهدف المال ذاته، أو ربما أن نكون نحن الهدف.

إن ما كان واضحاً، لدى وصولنا إلى المنطقة، أن مستوىً عالياً من الأمن قد وُضع هناك. ذلك أن عناصر ثلاث سرايا مقاتلة من مشاة (24 Infantry - 1) قد نُشرت هناك. بل كان هناك أيضاً جنودٌ من سرية رئاسة الأركان. كانت ثلاث سيارات من نوع همفي مرابطة أمام المصرف، وكانت سيارات الشرطة ترابط في زقاقٍ صغيرٍ إلى الخلف،

وعلى امتداد الطرق الجانبية كان هناك جنودٌ يختلطون بالمدنيين والشرطة العراقيين.

مضينا إلى داخل المصرف؛ لنعرف ما هي مهمتنا. كان الرقيب الأول ديماريست Demarest، الذي تولّى دور الرقيب في الفرقة منذ الجراح التي أصابت سيريكاس بطريقة غامضة ومفاجئة، والذي كان هناك في الداخل عند وصولنا.

خاطبني قائلاً: «أيها الرقيب ميخيا، وضعنا فرقتكم على سطح المستشفى عبر الشارع».

لم أكن راغباً في أن أعترف أنّه لم تكن عندي أدنى فكرة عن مكان وجود المستشفى التي كان يتحدث عنها. كنت أعرف «مستشفى صدام» ولكن ذلك إلى جانب النهر على بعد نحو مسافة ميل إلى الشمال، عبر المدينة. كنت أعرف الطريق وأنه كان علينا أن نجتاز نصف مركز مدينة الرمادي للوصول هناك. بالتأكيد لم أكن أقصد ذلك المستشفى. كان بإمكاني منذ ذلك الحين رؤيتنا نختلط بأمواج من الناس في سوق المدينة، عبر ما كان يسمى الطريق الملتوي، ثم عبر أماكن مجاورة. لم تكن تلك إمكانية جذابة. قلت: «روجر Roger، ماذا سيكون ذلك المستشفى؟» قال ديمارست، وهو يتطلع نحوي بعينيه الزرقاوين: «مستشفى الأمراض النفسية عبر الشارع. ألا تعرف ما هو؟» « قلت: كلاّ» اعترف ضاحكاً «ولا أنا».

كان حسناً أن تعرف أنني أنا الذي لم أعرف اليمين من اليسار، لم أكن غبيّاً بالكامل. كان ديمارست ذاهباً ليسأل رقيباً أول، شكله مضحك ويقف في الخارج وكان يجب أن يظهر للناس عمله في الحراسة، جلست

على الأرض بالقرب من سريرٍ، كان يا للغرابة! موضوعاً في منتصف ردهة المصرف بالقرب من أحد مناضد الصرافين في المصرف. كان سريراً ليس حسن الصنع، ولكنه يبدو ليناً ومريحاً ومغرياً. كنت أحاول عدم التفكير في النوم عليه عندما رأيت يداً تقلب الفرشة. نظرت إلى أعلى، كانت اليد هي يد شرطي عراقي شاب يلبس ملابس مدنية، ولحيته مشذبة بأناقة، نظر إليّ وأومأ برأسه باتجاه السرير، نظرت إلى أسفل مرة أخرى ورأيت بندقية (AK-47) تحت الفرشة.

قال الشرطي الشاب مبتسماً: «جيد».

تطلعت إلى السلاح الذي كان يربته بلطفٍ، وكأنه كلب كبير أليف، ولكنه كلب غير مهتم كثيراً بسيده، قابلتُ الشاب بابتسامة.

عاد ديمارست سريعاً بالمعلومات، ومشينا معاً في الخارج، متجاوزين الرقيب الأول. وقد أشار هو إلى البناء ودلني إلى مدخل الطابق الأرضي. كانت هناك بعض السيدات كبيرات السن في الخارج جميعهن بألبسة سوداء ودون أحجبة. وكانت هناك أيضاً مجوهرات رخيصة. وعلى مدى ممر المستشفى كانت محلات بيع أقراص مدمجة. كانت الشوارع مزدحمة بالناس، كثيرون منهم رجال يرتدون قمصاناً أشبه بعباءات، بينما هم يدخلون الجامع القريب ويغادرونه.

سألني ديمارست، وهو يشير إلى البناء أمامنا: «هل ترى البناء اللاحق للمصرف؟».

سألته، محاولاً أن أتأكد: «أي بناء، هل ذلك إلى يميننا هنا؟».

قال: «أجل، هذا الذي إلى اليمين، هل ترى ما هنالك؟ إنها بناية مانتيلا، وهؤلاء هم جنود مانتيلا».

قلت: «نعم، فهمت».

كان وليامز قد أخذ فرقة مانتيلا ووضعها في المكان. «سيبقى ميليغان معي داخل المصرف. أما أنت فإنك ستأخذ هودجز Hodges وإيبو Ibaugh معك».

كان يتحدث عن فريق المدفع المؤلف من هودجز الذي يحمل مدفع رشاش برافو (M - 240)، وإيبو مساعده في استخدام المدفع. كان ديمارست قائد فرقة المدفع، وكانت من عادة وحدات المشاة إسناد الإشراف على المواقع الكبيرة إلى أرفع قائد فرقة عالي المقام، مع ذهاب الملازم سيريكاس وتولي وليامز مهمة قائد بالوكالة لفصيلة، أما فرقة المدفع فكانت مناصفة. توليتُ مدفعاً، وتولى ميليغان المدفع الآخر.

قلت: «روجر» وكنت أفكر في وضعي، وفي احتمالات ممكنة لهجمات من الأعداء.

عدت إلى الداخل لإيجاد الفرق فوجدتهم يحيطون بالمكان، وهم مسترخون، وهذا أمر لم يقلقني كثيراً، آخذاً في الحسبان الأمن في الخارج. كان روزادو يحاول أن يجد واحداً من الشرطة العراقيين للذهاب إلى الخارج لشراء بعض زجاجات الصودا. كان بيان إيم جالساً على مقعد خشبي، مصغياً إلى مترجم عراقي طويل القامة كان يتحدّث عن صدّام حسين. وكان هذا المترجم يتحدّث اللغة الإنكليزية بطلاقة بلكنة أميركية واضحة.

«نعم، أيها الرجل، اللعنة عليهم. لقد شرعوا في استهداف العراقيين الذين يساعدون الأميركيين. أنا أعني، أنني أتحدّث اللغة الإنكليزية بطلاقة، ولكنني عراقيّ، هل تعرف ذلك؟ إنهم يلعنون صدّام فهو خلف هذه القذارة».

لم أكن أعرف من هو هذا الرجل، ولست متأكداً أنني أريد أن أعرف. لسبب ما ـ لم يكن باستطاعتي أن أحدّد بالضبط السبب – لم يكن يبدو أنه صادقٌ. كان يبدو أميركياً زيادة عن اللزوم ليكون عراقياً. فضلاً عن ذلك، فقد كان مدنياً جداً وهذا أمرٌ غير مألوف في شخصٍ عراقيٍّ، ومع أنه لم يكن في الجيش الأميركي، فقد كان يرتدي صدرية حصل عليها من الجيش، وهي صدرية من نوع لوحات السيراميك التي فعلاً تصدّ الرصاص.

لعلّي كرهت هذه الصدرية لأننا لا نستطيع نحن الحصول على مثلها في ذلك الوقت، فالصدريات التي نلبسها لا تحمي تماماً من الرصاص. كان تخميني أنّه كان موقعه في المقر العام جالساً مع قائد كتيبتنا، والأرجح أنّه كان يعيش في القصر. إن العمل مع كبار المسؤولين كانت له بوضوح مكافآت، حتى ولو كان الإنسان ليس جندياً.

قلت محاولاً الكف عن التفكه: «والآن يا رجال، علينا أن نضع الأمن في الخارج».

سأل غاليغوس: «ماذا نعمل إذاً أيها الرقيب ميخياً؟».

«نعم أيها الرقيب ميخيا».

قلت وأنا أنقل بصري من روزادو إلى غاليغوس: «اسمعني ثانية يا روزادو، نحن مقدمون على الذهاب إلى سطح البناء في الخارج، وسنضع الأمن عند المصرف».

قال روزادو بابتسامة كبيرة: «طلبت للتو بعض زجاجات الصودا للفرقة».

كنّا جميعاً مرهقين، ولعلنا استهلكنا قليلاً من السكّر لرفع مستويات طاقتنا، ولكن لم يكن بإمكاننا الجلوس والانتظار، وكلنا نعرف ذلك. كل واحد منّا جرّ نفسه جرّاً إلى قدميه، مبتسماً ابتسامة مغتصبة. لم تكن خطيئتي، ولكنّي مع ذلك كنت الشخص السيئ. كان المترجم يراقب كل شيء دون أن يكف عن الصمت، إلى أن بدأنا بالمغادرة.

«انتبهوا هناك أيها الجنود».

كلماته هذه تردّد صداها داخل رأسي. تساءلت بيني وبين نفسي: «ما نوع العراقي الذي يبدو بهذا الشكل؟» لقد ضايقني، فكل ما قاله وفعله كان مسبباً للمضايقة، مع أنّه كان يقصد أن يكون كلامه صحيحاً. ولكنّي كنت مرهقاً وخائفاً، وتساءلت الآن: هل يمكن أن يكون إنساناً لطيفاً فعلاً. لعلنا يمكن أن نصبح صديقين جيدين، أو لعلّه ميت الآن. سرت إلى الخارج للانضمام إلى الفرقة دون أن أنظر إلى الخلف.

بعد دخولنا إلى ردهة مستشفى الأمراض النفسية القذرة والمزدحمة، صعدنا على الدرج إلى سطح الطبقة الرابعة. كان الاختصاصي بيريز، الذي يشرف على مدفع ألفا الرشّاش، قد وضعه عند المدخل؛ لتوفير الأمن لبقية الفرقة. كل شخصٍ آخر كان وضعه حول محيط السطح، ولكن

معظمهم عند الجانب المواجه للمصرف، مشرفين على مشهد الشارع الذي يعج بالحركة تحتهم.

لأول مرة منذ بدء انتشارنا أُسندت إليّ مسؤولية الوضع الإستراتيجي للاختصاصي هودجز Hodges أو كما يسمونه ذا هودج The Hodges، الذي يحمل مدفع برافو الرشاش (M-240) وهو مدفع ثقيل وفاعل جداً. وهذا المدفع يجب دائماً أن يوضع في مكان يستطيع منه المشرف على المدفع أن يسبب أشدّ الضرر، إذ إن هذا المدفع معروف عند المشاة بأنه السلاح الذي يسبب أفدح الإصابات. إن الاختصاصي إيبو، وهو مساعد هودجز المشرف على المدفع الرشاش، كان يجب أن يكون موقعه بجانبه تماماً إذا ما وقع حادثٌ ما لزميله هودجز.

لقد كان مطلوباً من مساعدي المشرفين على المدافع الرشاشة أن يحملوا ما لا يقل عن نصف كمية الذخيرة للمشرفين على المدافع الرشاشة. إن جانباً من مهمتهم هو تغذية المدافع الرشاشة بالذخيرة من خلال وضع رصاص في أحزمة، وتوجيه المشرف على المدفع الرشاش، بحيث رشقات المدفع القتّالة تستطيع قتل العدد الأكبر من الناس. ومنذ سبَّب معدّل إطلاق النار السريع وضخامة المدفع الرشاش (M-240) سخونة إلى درجة الاحمرار، كان على مساعد المدفعي أن يحمل مدفعاً احتياطاً لاستعماله بدلاً من الأول بعد أن يكون عددٌ ما من الرصاص قد أُطلق، وذلك من أجل منع الذوبان.

قال ذا هودج الذي استقرّ خلف مدفعه الرشاش: «ما هذا أيها الرقيب ميخيا؟» إذ كان يبدو دخانٌ في فمه. ثمّ سألته: «هل وضعك سليم؟» تأكدت من سلامة وضعه.

obeikandi.com

قلت بابتسامة صادقة، ولكنها تدلّ على التعب: «إذا كانت الأمور مناسبة لك، فإنها مناسبة لي أيضاً».

في الواقع كنت أحب هودجز. لقد انتسبت أنا وهو إلى سريّة شارلي في الوقت ذاته. وكلانا جئنا من العمل الفعلي وتشاركنا في رتبة اختصاصيّ ترتبت عليها مسؤوليات. وأتذكر كيف أننا خلال تدريبنا في غرفة الصف كنّا كثيراً ما نكلّف بالعمل بوصفنا مدربين. وأتذكر بصورة خاصة عندما كان هو يقوم بتعليم أحد الصفوف كيفية تشغيل الجهاز اللاسلكي. كان يبدو محباً للضحك، ولكنه كان أيضاً غنياً بالمعرفة.

لم يحصل هودجز على المرتبة نفسها التي حصلت عليها، والسبب حسب ما أتذكر، أنه كان شغل وظيفة أبعدته عن التدريب بضعة شهور، ونتيجة لذلك عُدّ متغيباً دون إجازة. هذه العقوبة حالت دون ترقيته لاحقاً، ومع ذلك فقد كان واحداً من أكثر الجنود خبرة في الفصيلة وعمل في كوسوفو عندما كانت الأمور شديدة السخونة هناك.

إن ما كان يفتقر إليه من حيث المرتبة عوّض عنه بالخبرة. لقد حافظ على موقف هادئ فيما يخصّ المعرفة الأرفع، بينما أنا حافظت على موقف هادئ تجاه رتبتي الأرفع. ونتيجة لذلك كان يفعل ما أطلبه منه، دون أن يتردّد أبداً في إعطاء رأيه عندما أعتقد أنني مخطئ.

قلت لهودجز، وأنا أتطلّع إلى جمهور الناس المتحركين: «يا رجل، لا أظن أنهم سيفعلون شيئاً قذراً. إننا مسلّحون تسليحاً كاملاً».

أجابني: «لا أعرف أيها الرقيب، فالمرء لا يعرف أبداً ما سيفعله هؤلاء الأرذال المجانين».

Obeikandi.com

إذا أخذنا في الحسبان مستوى الأمن لدينا، كانت بالفعل تبدو استحالة قيام أيّ شخص بشن هجوم. كان هناك جنودٌ أميركيون ورجال شرطة عراقيون في كل مكان، إضافة إلى ذلك سيارات همفي التي نصبت عليها رشاشات، وكانت فرقة مانتيلا وفرقتي تقومان بالمراقبة في المقدمة. إن أحد الأشياء التي جعلتني أظن حدوث هجومٍ أمر غير محتمل في الواقع، هو رؤيتي الرقيب الأول الذي كان يقف خارجاً المصرف، وهو يتحدث بهدوء مع الرجال الذين حول سيارات الهمفي.

شخص ما ذو مرتبة رفيعة في الشارع، لم يكن يبدو قلقاً ولا حتى متيقظاً، بل كان دليلاً قوياً على أن كبار المسؤولين كانوا يلعبون آمنين. فإمّا ذلك أو أن الرقيب الأول كان غبياً بالفعل. ولكن ذلك لم يكن ممكناً، فقد كان يتمتع بقدرة على الحماية والحراسة.

عندما نقلت بصري من مجموعة الناس التي تحتنا تطلّعت عبر البناية التي احتلها مانتيلا. كان من العسير أن أشاهد رجاله؛ لأن وضعهم كان أعلى من موقعنا. عندما استعرضت بسرعة الأماكن المحيطة بنا، أدركت أن هناك بنايات في كل جانب حولنا. وهذا ما جعلنا عرضة للخطر، إذ كان من المحتمل أن يوجد قناصون على أسطحة المباني، منتظرين وربما مستعدين لإطلاق النار علينا.

كان الشارع الواقع في الجهة الشرقية منا، عمودياً؛ لاتصاله مع الطريق الرئيسة التي يقع فيها المصرف والمستشفى، وكان ذلك الشارع شبه متروك. وقد خطر لي أننا ما كنّا نركز كثيراً على الطريق الرئيسة. وقد كان من العسير الهجوم على المصرف من هناك، ولم يكن الهدف المصرف، بل الجنود الذين يحمون المصرف؟

صرخت: «اسمعوا واصغوا إليّ!» نظر الجميع إليّ من أماكنهم. قلت، وأنا أشير بيدي إلى الشارع المهمل: «تأكدوا أن تنتبهوا إلى تلك الطريق التي تحتنا. فقد يكون من السهل تماماً لشخص سخيف مجنون أن يلقي علينا قنبلة ليقتلنا جميعاً».

ملاحظتي كانت تنطبق فقط على جنديين كانا في وضعٍ يسمح لهما برؤية الطريق التي كنت أتحدّث عنها. ولكني أردت من كل واحد أن يسمع، إذ لم يكن هناك كما يبدو أي تنبّه إلى أننا في وضع يمكن أن نتعرض فيه للهجوم. أومأ كل شخص نصف إيماءة برأسه وعاد الجميع لمراقبة مناطقهم. أمّا فونيز فقد أخذ نفساً طويلاً من سيجارته.

معظم الدكاكين كانت تغلق أبوابها في ذلك اليوم؛ لأن باعة الثلج كانوا يدفعون عرباتهم مع ما بقي عليها من الثلج الذي لم يذب، وتجار الشارع من جميع الأنواع كانوا ينهون أعمالهم على بسطاتهم.

بدأت الشمس تميل إلى الغروب تاركةً ظلاً على خط أمن سيارات الهمفي، والجنود ورجال الشرطة العراقيين. سمعت شبه صدى لضحكٍ، وتبينت أنه صادر عن الرقيب الأول، الذي كان يستخدم ترجمانه المتأمرك للتحدث إلى بعض رجال الشرطة العراقيين الذين كانت بنادقهم من طراز (AK-47) مسندة إلى الممر، حيث ترتج أقدامهم. لم أشاهد أنه يجري تسليم أيّ مالٍ منذ أن صعدت إلى السطح، ولكن كان كل شيء هادئاً، عندئذ سمعت صوت انفجار.

الانفجار كان ناجماً عن قنبلة يدوية، ولكن بدا في هذه اللحظة أن صوته أعلى مما يكون الصوت عند حدوث صمتٍ مخادع. كان الانفجار متبوعاً بنيران

مدفع رشاش من بناية مانتيلا عبر الشارع. كان الناس يركضون كالمجانين على الطريق الرئيسة تحتنا، ولكنهم لم يكونوا مبتعدين كثيراً، وإنما ابتعدوا فقط لتجنب الأذى، ذاهبين إلى مكان يمكنهم من خلاله أن يلاحظوا ما يحدث وهم في أمان. في ذهني أنني كنت أكثر رعباً من السكان المحليين؛ بسبب الهجوم، بعد دقائق صدر خط نار من موقع الرقيب الأول إلى السطح الذي تركّز فوقه مانتيلا. كان ظنّي الأول أن شخصاً ما قد أطلق قنبلة صاروخية من خارج مدخل المصرف، ولكن لم يكن هناك سوى رجال شرطة عراقيين وعدد من جنودنا، وجميعهم لم يكونوا يحملون قاذفات قنابل صاروخية.

قال بيريز وهو يعيد النظر إليّ ويسدّد مدفعه إلى أدنى باتجاه مدخل الدرج: «أيها الرقيب ميخيا، هل تريدني أن أنتقل من هُنا؟».

قال غاليغوس، قائد فريقه: «الجواب سلبي».

قلت له متمهلاً في كلامي مع أنني شديد التوتر: «حافظ فقط على الهدوء فما من أحد يُطلق النار إلا إذا صرت هدفاً واضحاً».

أصغى كل واحد من الجنود من دون أن يتركوا مواقعهم.

قال هودجز: «لا أستطيع أن أرى شيئاً قذراً. هل تستطيع أنت يا رقيب ميخيا، أن ترى أيّ شيء؟».

قلت: «كلاّ، لا أستطيع رؤية أيّ شيء».

بعد ذلك صدرت نيران مدفع رشاش من موقع مانتيلا، متبوعة بصوت صراخ ألم وذعر. نظرت إلى أسفل فرأيت سيّارات الهمفي تنطلق بسرعة. كان الرقيب الأول ومجموعته يفترقون عن المشهد،

وبينما كان هو مغادراً كان يهتف إلى الجنود الذين خلفه قائلاً: «تغيير المهمّة، تغيير المهمّة، تغيير المهمّة»

إن صدور الرصاص من المدفع الرشاش من سطح مانتيلا كان من عمل الاختصاصي مدرانو Medrano الذي كان يجلس خلف جدارٍ منخفض مراقباً الأزقة التي وراء مؤخرة المصرف، وقد شاهد رجلاً يقف وراء نافذة ومعه سلاح يصوّبه نحو موقعهم. أطلق الرجل طلقة عليه، ولكن الرصاصة أخطأت الهدف. ردّ مدرانو على الرصاص، ولكن الرجل الجالس عند النافذة كان قد ترك مخلفاً وراءه ظلّه مدة قصيرة.

بمجرد أن ظهر مدرانو ألقى رجلٌ كان يمشي في الشارع قنبلة يدوية على السطح انفجرت في وسط الهواء. وعند سماع الانفجار أطلق أحد الأشخاص شعلة بعد الظهر، ولكنها أخطأت موقع مانتيلا. وأمّا الرجل الذي ألقى القنبلة فقد انصرف.

ومع أن بعض الناس المحليين كانوا لا يزالون باقين في المنطقة فإنه اختفى رجال الشرطة العراقيون عائدين إلى داخل المصرف دون أن يطلقوا طلقة واحدة. صدر الأمر إلينا أن نعود بدورنا إلى داخل المصرف، وهكذا نزلنا على الدرج بحذر؛ خشية أن يكون المهاجمون قد أعدّوا مصيدة لنا في طريق خروجنا من المبنى.

وصلنا بأمان إلى مستوى الشارع، واجتزنا الشارع إلى المصرف؛ لكي نلتقي مع بقية أفراد الفصيلة. تلقينا الرقيب ديمارست، وميليغان، وأنا أمراً بالعودة إلى مقر رئيس البلدية الذي قررّت قيادة الكتيبة أنه مكانٌ أكثر أمناً؛ لتسلّم المال فيه. بقي الرقيب ليامز خلفنا مع فرقة مانتيلا

للبحث في البيت الذي كان هدف النار عليه، ولكننا علمنا لاحقاً أنهم لم يجدوا شيئاً فيه.

انتهت مهمّة المصرف، ولكن كان لا يزال من واجبنا أن نقوم بعمليات دورية في جميع أنحاء المدينة حتى صباح اليوم اللاحق. كانت هناك ثرثرة عندما غادرنا، في كل مرة ثرثرة في إحدى الفرق. نظرت إلى الخلف لحظة عندما بدأنا السير عبر الجموع التي كانت تتناقص، وبحسب ما علمت لم يمت أحدٌ خلال الهجوم، مع ذلك بدا أن هناك غضباً عميقاً في وجوه البعيدين.

تساءلت بيني وبين نفسي: هل يوجهون اللوم إلينا بسبب ما حدث. لم أرَ شيئاً. كان جو الليل أشبه بالتابوت الذي قد أرخى سدوله على مدينة الرمادي.

Obeikandl.com

obeikandl.com

سادساً

بعد أسبوع أو نحوه عندما تعرضت فرقتي لكمين في الرمادي، وعقب عدد من الهجمات الخطيرة على فرق وفصائل، قررت قيادة سريتنا أن نضع ترتيباً لعمليات في دورة من ثلاث مراحل، على أن تأخذ كل فصيلة دوراً في حضور الدوريات، أي قوة رد الفعل السريع، وذلك ما عُرف باسم «الحارس الحاج «hajji guard».

كان الحارس الحاج، المهمة الأسلم والمرغوبة أكثر من غيرها في دورة المراحل الثلاث في السرية. ومع أنه لا يمكن مشاهدة إلا جزءٍ قليل من الجهد من حيث إعادة بناء مدينة الرمادي المدمرة، فقد بدأ قادة الوحدات يتلقون تمويلاً لتحسين أوضاع معيشة جنودهم. معظم ذلك المال كان يستخدم في إصلاحات قصيرة الأجل، أما النفقة الخاصة فكانت عقودها تصدر لشركات عراقية محلية. وعندما جاء العمال العراقيون إلى قاعدتنا كان يجب تفتيشهم؛ خشية من أن يحملوا أسلحة، ثم تكون لهم مرافقة أمنية حيثما ذهبوا. هذا العمل سميناه «الحارس الحاج». أما الأعمال الأخرى خلال مهمة الحارس الحاج، فكانت تشمل إدارة مختلف أبراج القاعدة التي تحمي المجمّع، الذي كان يتعرض بانتظام لهجمات من القذائف الصاروخية، ومن مدافع الهاون.

أما الأشد خطراً فكانت مهمة قوة رد الفعل السريع. ومع أن معظم الاشتباكات كانت قد انتهت مع حلول زمن قوة رد الفعل السريع، فإنه

استمرت دائماً إمكانية الهجمات المضادة، أو حدوث كمين على الطريق. كانت فصيلة قوة رد الفعل السريع تُستدعى كلما كانت هناك مشكلة، وأحياناً كانت الفصيلة التي تقوم بعمليات الدورية تتمكن من معالجة الوضع دون مساعدة. في أوقات أخرى كانت قوة رد الفعل السريع تُستدعى فقط للمساعدة في توفير الأمن أو نقل السجناء. وحتى في مناسبات أخرى، كان أفراد قوة الرد السريع تُستدعى للمساعدة في تأمين منطقة، وينتهي عملهم بشنّ غارات أو البحث والقتل.

إن إحدى مهمات قوة رد الفعل السريع التي شاركت فيها فصيلتي ظلت ماثلة في ذهني. كانت تلك أول دور لقيام الفصيلة بأعمال الدورية، وكانت وحدها استجابة لنداء من أحد مخبرينا، وهو رجل عاش مع عائلته عند الجانب الآخر للحقل الواقع في الجهة الشرقية منا.

ادعى المخبر أن مجموعة من الرجال اقتحمت منزله، وضربه الرجال واغتصبوا زوجته. لقد أراد من سريتنا أن تعتقل الفاعلين، قائلاً: إنه يعرف مكان إقامتهم. ذهبت الفصيلة الأولى مع الرجل إلى منطقة مجاورة تقع مباشرة تحت الطريق من قاعدتنا، حيث قرعت الفصيلة باب المنزل الذي أرشد الفصيلة إليه. عند ذلك شاهدوا ثلاثة رجال يهربون من المكان. خلع الجنود الباب؛ ليتمكنوا من الدخول إلى المنزل، ثم خرجوا من الباب الخلفي لمطاردة المشبوهين. اتجه جندي آخر، هو الرقيب الأول سياتوني Ciatonni إلى داخل المنزل؛ ليساعد في تأمين المنزل، وهو عملياً صرع رجلاً رابعاً كان يحمل بندقية هجومية من نوع (AK - 47). بدا أن ذلك الرجل كان على وشك أن يحشو البندقية بالرصاص، عندما تحرك وراء الجنود الذين كانوا يطاردون أقاربه.

أطلق سياتوني النار فوراً. رصاصته الأولى أصابت ذراع الرجل بكامله، محدثة فتحة صغيرة في لحم ذراعه على السطح بين الكوع وراحة اليد. ثم سدّد ببندقيته نحو صدر الرجل وأطلق الرصاص مرة أخرى، فقتل الرجل في الحال. أما الرجال الثلاثة الآخرون، فقد ألقى القبض عليهم الجنود الذين طاردوهم.

كان كل شخص في فصيلتي يسترخي في عش النسر عندما جاءَت الدعوة لإرسال قوة رد الفعل السريع. ولمعرفتنا أنه لم تكن هناك إصابات في جانبنا ولم يكن هناك قتال مستمر، لم نسرع إلى النهوض، وحملنا أمتعتنا وتوجهنا إلى شاحنات فصيلتنا التي كانت متوقفة إلى يمين مكان نومنا مباشرة.

لقد كان عملنا بوصفنا قوة رد الفعل السريع أن نوفر الأمن، بينما تابعت الفصيلة الأولى تفتيش المنازل حول المنطقة، من أجل مرافقة الشاحنة التي تنقل جثمان الرجل الميت. وكانت الشاحنة تحمل أيضاً ثلاثة سجناء، اثنان منهم هما ابنا عم الرجل الميت، أما الثالث فكان شقيقه. فريق ألفا وأنا ركبنا خلف الشاحنة التي تحمل السجناء والجثة. أبقيت سلاحي مسدّداً نحو السجناء، الذين كانت رؤوسهم مغطاة بأقنعة وأيديهم مقيدة. أما بقية الفريق، فقد كانوا يقودون سيارة الأمن.

في أثناء تنقل بصري من خلفية الشاحنة ونحن منطلقون، تمكنت من رؤية رجل مسنّ ذي لحية رمادية طويلة كان يراقب رحيلنا. كان راكعاً على ركبتيه وهو يبكي رافعاً يديه إلى السماء في لفتة استعطاف. إن صوت عويله جعلني أشعر بالخجل مما فعلناه. لقد تعرض في ذلك اليوم لخطأ رهيب،

تماماً كالأشياء الخاطئة التي كانت تحدث كل يوم لعدد من العراقيين لا يحصى. إن رجلاً كهذا كان يجب أن يكون بصحبة أولاده وأحفاده في شيخوخته، ولكن بدلاً من ذلك كان يراقبنا ونحن نبتعد بجثة ابنه الميت.

لدى وصولنا إلى عش النسر كان ينبغي علينا أن ننقل الجثمان إلى سيارة همفي؛ لأن بوابات المستشفى، حيث يوجد مخزن الجثث ضيقة، ولا يمكن دخول الشاحنة منها، وما من أحد أراد أن يحمل الجثمان الذي كان مغطى بأغطية بيضاء ملوثة بالدماء، ولذلك سحبنا الجثمان من داخل الشاحنة جراً من قدميه، مما سبّب وقوعه على الأرض، وهذا ما دفع مجموعة جنود من الفصيلة الثالثة أن يضحكوا عالياً، وهم يراقبون المشهد عبر الساحة.

قال أحد الجنود من فرقتي في الفصيلة الثالثة وقد أحاط بذراعه ظهر الجثمان: «التقط صورة لي ولهذا السافل».

انكشف الستار من حول الجثة، مظهراً شاباً لا يرتدي سوى بنطلونه، ثقب الرصاصة التي اخترقت صدره كان صغيراً، أما جرح مخرج الرصاصة من الظهر، فقد كان بحجم تفاحة.

تابع أحد جنودي السابقين وهو يضحك، متحدثاً عن الجثة: «اللعنة، لقد مارسوا اللواط معك، أليس كذلك؟!».

في أثناء ذلك جرى إنزال شقيق الرجل وابنَيّ عمه من الشاحنة. لا أظن أن غطاء رؤوسهم حال دون رؤيتهم ما كان يحدث على الأرض بالقرب منهم، خطر لي كم كان ممضاً لهم أن يروا قريبهم على التراب، شبه عارٍ ومغطى بالدم، ويتعرض للضحك منه وإذلاله، حتى في موته.

تطوّع غاليغوس وروزادو بغسل الدم من مؤخرة الشاحنة، ومرَّ ذلك اليوم بسلامٍ بعد ذلك، عند حلول الغسق، تجمّعت الفصيلة بكاملها عند البوابة؛ لكيٍ تتمكن الفصيلة من الخروج بسرعة وكفاءة إذا ما دُعينا إلى العمل بوصفنا قوة ردّ الفعل السريع، ولكن لم يحدث أيّ شيء تلك الليلة. نحو الساعة الرابعة صباحاً عادت الفصيلة الأولى عبر البوابة، وذهبنا جميعاً للنوم.

إن الدوريات التي كانت حاضرة كانت الأشد خطراً من العمليات الثلاث. تكليف الفصيلة بمثل هذه المهمة كان من شأنه أن يضع نهايةً للشاحنات القديمة التابعة للسريّة بعد تخريب هذه الشاحنات عند موقعٍ ما بالقرب من الرمادي. (لقد كانت الشاحنات تسير مع عنصر الأمن فيها، وما من سيارات سُمِح إليها بأن تغادر المجمّع دون ما لا يقل عن سيارة واحدة أُخرى). عندما وصلت الفصيلة إلى مقصدها، كان الجنود يمشون في منطقة العمليّة، إلى أن يقنعوا أي شخصٍ كان مسؤولاً بأن الدورية سارت سيراً جيداً، وقد كانت مستويات الخطر إزاء هذه المهمات مستويات عالية؛ لأن الجنود المشاة ما كان باستطاعتهم جسدياً أن يحملوا الكثير من حيث حماية الأجساد أو القوة النارية؛ لأن الطرق التي سلكتها المهمات كانت تتكرّر في أكثر الأحيان، ممّا جعل ظهور الدوريات على الطرق عرضة للهجوم عليها.

معظم سياراتنا كانت مجهزة لحمل رشاشات ثقيلة من قياس (M - 50) أو The Mark 19، وهذا الرشاش الثقيل يُطلق قنابل. ولكن السيّارات، وهي قديمة وغير مصفحة جعلت من نفسها أهدافاً كبيرة لأسلحة التفجيرات المرتجلة (improvised explosive devices- I E DS)، كما كانت أهدافاً للقنابل الصاروخية التي يقذفها المتمردون. وعندما بدأنا بخسارة سيّاراتٍ

نتيجة تفجير قنابل عند جانب الطريق، تبين لنا أنه ينبغي لنا أن نهيّىء عدداً أكبر من الجنود في مؤخرات الشاحنات القديمة. لقد كان الركوب في تلك الشاحنات غير مرغوبٍ فيه إلى حدّ كبير.

بالرغم من ذلك اضطررنا للاعتماد أكثر فأكثر على استخدام سيارات الدوريات الجاهزة، وهذا عائد جزئياً إلى المناطق الكبيرة التي كان مطلوباً منّا أن نغطيها، وذلك جعل السير أمراً غير عملي، إضافة إلى أن ذلك بسبب الحرارة، إذ إن درجة الحرارة كانت تصل إلى ما بين 120 و130 درجة فهرنهايت. ممّا أدى دوراً في الإصابات ضمن قوات الائتلاف.

ذات يومٍ كانت الفصيلة الثانية تقوم بأعمال الدورية في المدن الريفية الزراعية في شمال الرمادي. إن الوصول إلى هذه المنطقة كان يتطلب السفر، إمّا على الطريق المسماة طريق النهر River Road، وقد سميت هكذا؛ لأن هذه الطريق محاذية لنهر الفرات، أو أن الوصول إلى المنطقة كان يتطلب سلوك الطريق الرئيسة رقم 10، وهي شريان حركة المرور الرئيس عبر قلب مدينة الرمادي، وهذا الطريق كان يمتد بعد ذلك شرقاً إلى مدينة الفلّوجة المجاورة. إن هذين الطريقين كانا خطرين جداً وعرضة لهجمات بواسطة أسلحة تفجير مرتجلة.

كان ذلك اليوم يوماً هادئاً للدوريات، وهذا ما عددته أنا أمراً حسناً. لسوء الحظ أنه كان جليّاً لبعض الوقت أن قائد فصيلتنا الذي جرى تعيينه حديثاً، الرقيب وليامز، كان منهمكاً في منافسة مع قادة فصائل أخرى لمعرفة من الذي يستطيع قتل أكبر عدد من المتمردين أو يشارك في معظم المعارك الناريّة أو أسر العدد الأكبر من الأسرى. كان ذلك اليوم من وجهة

نظره، مع اقترابه إلى نهايته، يوماً فاشلاً. لقد كان وليامز يتطلّع بشديدٍ من الإصرار إلى الحصول على مكافأة يعود بها إلى بلده.

لم نكن أنا ووليامز في أفضل علاقة في تلك الأيام.

ومنذ بداية وصولنا إلى الرمادي، عندما بدأنا أول الأمر نقوم بأعمال الدوريّة، كنت مدركاً الأخطاء الخطيرة التي كنّا نرتكبها في مهماتنا. وكانت هذه الأخطاء تشمل القيام بأعمال الدورية في وسط الليل عبر الأزقة المعتمة داخل الرمادي، دون أن يعرف أحدٌ منّا أين كنّا نصل بالضبط. إن الوحدة الثالثة لردّ الفعل السريع التي حللنا بدلاً منها كانت تستخدم خطوطاً أو طرقاً مرسومة على خرائط محفوظة في القاعدة؛ لكي يتمكنوا من نقل تقريرٍ عن حركة تنقل دورياتهم ومكانها. كانت هناك مناطق عملية يركزون عليها وكانت طرق دورياتهم يحدد خطوطها ويتبعها أشخاص آخرون في عش النسر. وكانت لديهم أيضاً خطوطٌ لإخلاء أجهزة طبيّة محددّة، كما كانت هناك نقاطٌ لجمع الأشخاص المصابين، أمّا نحن فلم يكن عندنا شيء من ذلك، باستثناء مناطق عملية كل فرقة.

عندما أخبرت مانتيلا بما يشغل بالي، كان واضحاً أنه يشاركني في هذه الأفكار. ولكن عندما قلت: إنني أريد التحدث مع وليامز في شأن ذلك، نصحني مانتيلا بأن أحتفظ بتحفظاتي لنفسي.

قال بلهجة مخلصة: «وليامز رجل عظيم. ولكنني عملت معه منذ أن انتسبت إلى سرّية شارلي. صدّقني يا ميخيا، إنني أعرف الرجل».

«فهمت، أنّك تعرف الرجل، أمّا الآن فماذا تحاول أن تقول؟».

أجابني بعد أن سحب نفساً من سيجارة ميكادو Mikado، وهي نوعٌ محليٌّ من السجائر. « وليامز لا يكون مخطئاً أبداً يا ميخيا. وحتى إذا عرف أنه مخطئ، فإنه لا يعترف بذلك أبداً. وعندما يظن أننا أخطأنا بطريقة قيامنا بأعمال الدورية كان من شأنه أن يقول شيئاً جاهزاً لديه وإلا فلن يصغي إلينا».

«فهمت يا مانتيلا، ولكن أريد أن أقول له ذلك، إنه شخص قذر».

«أوافقك إنه سخيف، ولكنك تبدّد وقتك. صدقني إنني حاولت أن أبلغه رأيي، ولكنه لم يستمع لي إطلاقاً، ولذلك توقفت عن إبداء رأيي له».

«أفهم، ولكن ذلك كان خلال التدريب يا مانتيلا، هذا القذر لا يستحق أكثر مما يجب».

«أعرف أنّه لا يستحق، ولكن صدقني أنك ستبدّد وقتك».

في وقت لاحق من ذلك اليوم أجريت حديثاً مماثلاً مع فونيز الذي كان يتصرف من حينٍ إلى آخر بوصفه قائد فريق، عندما كان روزادو يتمكن بطريقةٍ ما من ليِّ الكاحل أو ابتكار مرضٍ ما.

على غرار مانتيلا، اتفق فونيز معي. فهو أيضاً كان في الفصيلة الثانية كامل وقته في سرية شارلي، وكان يعرف وليامز جيداً. ولكنه ظنّ أنه ينبغي لي أن أُطلعه على الأمور التي تشغل بالي.

قال بصوت فيه شيء من السخرية: «نستطيع، أيها المتأنق، أن نجلس هنا ونتحدث عن القذارة طوال الليل، ويمكننا أن يتفق أحدنا مع الآخر، إلى أن تحولت وجوهنا إلى اللون الأزرق، ولكن ذلك لن يسبب أي اختلاف ما لم تخبرني، أنت عازم على إخبار وليامز».

عندما تحدثت في نهاية الأمر مع وليامز، علمت أن مانتيلا كان محقاً.

فقد قال، وهو يرفع بصره عن الصفحة التي كان يكتب عليها: «ولكن عندنا قطاعات، وعندنا متلقيات وضع الوزن الخفيف عند الجنود، وهو يعني العسكريين أو الأجهزة العالمية لتحديد مكان الأقمار الصناعية، التي تستخدم لأغراض الملاحة البحرية.

أجل وليامز، ولكني أتحدث عن خطوط المراحل، ونقاط التفتيش، وتحديد أي قطاعات ملونة أو مرمزة بالحروف، حسب معرفتك، أي نوع ما اعتاد أن يفعله الفريق الثالث.

«لا بأس، يمكنك أن تعمل في ذلك إذا أردت. بعد ذلك سنتحدث إلى قادة الفرق الآخرين، بحيث نكون جميعاً متفاهمين».

أعاد فتح صفحته وبدأ يكتب مرة أخرى. كان في تخميني أنه كان يكتب أبياتاً من الشعر الحر، وكنت أعرف أنه متمكن من الشعر، فقد كانت الفصيلة تعقد جلسات للشعر الحر عند سدّ الحديثة، ظهر من خلالها أن بيان إيم ووليامز هما أفضل شاعرين. ولكن ذلك كان في الحديثة المسالمة. أما الآن فإننا في الرمادي العنيفة، ومع أنني لم أكن قد انصرفت، فإن هذا الشاعر كان يتجاهلني .

تابعت الكلام لجعل وليامز يعرف أنني مازلت هناك: «هذا سيكون على مستوى السرية. لا يكون الأمر جديراً بذلك، على سبيل المثال، إذا لم تكن قوة رد الفعل السريع مطلعة عليه، أو إذا لم يعرف أطباء السرية طرق الإخلاء. إن مجموعة الشعاع السيني المقاتل سيكون مطلوباً منها أن تدوّن كلما اجتزنا خطوط المراحل، ويتبقى لنا أن نظل في نطاق محدد».

obeikandl.com

«إذاً، لماذا لا نذهب، فتعوي أمام القائد؟»

إن لهجة الغضب، والصوت العالي، ولا سيما استخدام الألفاظ المنحطة، هذه كلها غريبة على وليامز. كان قد أغلق بسرعة دفتر مذكراته وبدأ الآن يحدق في وهو مقطب الجبين.

سألته: «لماذا جُنّ جنونك؟» وكنت أعرف أنه من الصعب عليه أن يعترف بجنونه، إذ قلّما كان بهذه الحالة.

قال بصوت أخفض، ومع ذلك كان معبراً أمام النقيب وارفل: «أنا لا أعوي، أيها الرقيب، كل ما أقوله هو: إنه بإمكاننا أن نفعل الأشياء بشكل أفضل، وبما أنك قائد فصيلة، اعتقدت أنك تستطيع أن تتحدث إلى القائد، وأن تقدم له بعض الاقتراحات.

لا فائدة في ذلك، وكلما حاولت أن أكون منطقياً معه، ازداد اعتبار محاولتي أنها تهجم شخصي. ولكن لم أكن أنا غريباً، بحيث يوضع اسمي على قائمة القذرين لدى رقيب الفصيلة أو قائد الفصيلة، ولذلك واصلت إطلاعه وإطلاع قادة الفرق الآخرين في فصيلتي على الأمور التي تشغل بالي، ومعظم هؤلاء متفقون معي في معظم كلامي، ولكنهم اختاروا عدم قول أي شيء.

تبيّن لي لاحقاً أن وليامز كان ينشر شائعة، مفادها أنه لا يستطيع الاعتماد عليّ بقدر اعتماده على قادة الفرق الآخرين؛ لأنني أخاف من المهمات.

شرع يسند إلى فرقتي مهمة أمن السيارة، عندما كنا نقوم بأعمال الدورية، تاركاً للفرق الأخرى أن تنهمك في مهمات أصعب هي الركض

obeikandl.com

وراء الأشخاص السيئين. إن هذا التوزيع السيئ للمهمات كان مجحفاً للفرق الأخرى، أما من حيث المجد الذي يتحقق مع قتل العدو والإغارة على المنازل، فلم أكن أقل اهتماماً بعدم حصولنا على نصيبنا العادل.

تلك كانت إحدى المهمات، إذ كانت فرقتي مكلفة بتوفير أمن السيارة، وكنا قد مضينا بالسيارة عبر شمال الرمادي دون أن نلقي القبض، أو نشاهد شخصاً واحداً مشبوهاً بأنه متمرد. كنا على وشك أن نعود إلى القاعدة عندما أصدر وليامز الأمر بأن تتجه القافلة إلى مجموعة من المزارع الصغيرة المجاورة لنهر الفرات. عند ذلك أصدر أمره لكل واحد، باستثناء فرقة أمن السيارة، بالخروج من السيارات والبحث عن أسلحة في المزارع.

نجم عن البحث بكامله العثور على بضعة أنوار خافتة، وحزام قديم محشو بالذخيرة، وأجزاء بندقية قديمة صدئة. ومع ذلك، فإن هذه الاكتشافات كانت بحد ذاتها كافية لجعل وليامز يهتاج فعلاً ويرسل الفرق للبحث في كل منزل في منطقة كانت كبيرة، بحيث لا تتمكن فصيلة بمفردها أن تتولى أمرها.

كنت أنا مسؤولاً عن المدافع الرشاشة الثقيلة التي نُصبت على ظهر الشاحنات، وهذا كان يعني أن جزءاً من عملي أن أستخدم المدافع لعمل ستار من النار يعمل على الحماية إذا ما تعرضت الفرق لهجوم من جانب ما غير متوقع. وعندما بدأت الفرق تنتشر مسافات متباعدة عن بعضها بعضاً، وهذا أمر لم يكن منه مفر إذا أخذوا في الحسبان المنطقة الواسعة التي يقومون بالتفتيش فيها، اضطررت لتوسيع المسافات بين السيارات

مرة أخرى؛ لكي يظل الجنود محتمين بالمدافع الرشاشة. بدأنا نفقد قدرتنا على حماية أي شيء إطلاقاً.

أجاب وليامز السعيد: «إلى الأمام، اثنان – واحد».

«روجر، تمدّدُنا خفيف. هل تريد مني أن أستدعي قوة رد الفعل السريع؛ لتساعدنا في الأمن، حوّل؟».

قال وليامز، وبدا كأنه فوجئ باقتراحي: «الجواب سلبي. وصلنا إلى هذا، اثنان – واحد».

كان بإمكان قوة رد الفعل السريع أن توفر لكامل الفصيلة ما هو مطلوب لتغطية المنطقة، ولكن كانت ثمة مشكلتان مع استدعائها. المشكلة الأولى: هي أن كمية الأسلحة التي عثر عليها لا تسوغ البحث على النطاق الذي التزمنا به. المشكلة الثانية: هي أننا إذا وجدنا فعلاً مزيداً من الأسلحة والمتفجرات، فسيكون استدعاؤنا قوة رد الفعل السريع قد أنقص ما يبّرر الإخفاق، لا سيما إذا كنا قد استدعيناها قبل الأوان، بمجرد أن يجدوا بعض المواد. كان وليامز يكره أن يتقاسم جوائزه مع فصائل أخرى.

استمر مرور الزمن مع تناقص الأمن، ومع ذلك لم نعثر على أي شيء جديد. وبالرغم من ذلك تابع وليامز الضغط في إنجاز المهمة. تحت الشاحنة القديمة المستهلكة التي كنت أركبها أنا والاختصاصي بيريز، بدأت مجموعة من الأولاد تتجمع، بدأ اثنان منهم أو ثلاثة، بعد ذلك أربعة أو خمسة. إن بيريز، بما يتصف به من رقة ولطف، جازف بترويد بضع كلمات باللغة العربية، فما كان من الأولاد إلا أن ضحكوا ساخرين من تشويهه الأخرق للغتهم.

كنت بشكل عام أُحب ممازحة الأولاد، ولكن منطقة مسؤوليتي كانت كبيرة جداً، فكنت أكثر اهتماماً بمراقبة الأماكن المحيطة بنا بمزيد من العناية، على بعد نحو خمس مئة متر، حيث كان نهر الفرات خلفنا، وإلى يميننا امتدت الحقول على مدى نحو ثلاث مئة متر قبل أن تنتهي عند جدار عالٍ ربما كان يمثل بداية بلدة أخرى بكاملها، وإلى يساري كان المشهد متماثلاً تقريباً، ما عدا أن خط أشجار كان يفصل بين الشاحنات والجدار، وكانت المنازل مبعثرة دون أسلوب محدد عبر الحقول المحيطة بنا، وأمامنا كانت الطريق تمتد نحو مئتي متر، منحنية إلى اليمين قبل أن تمتزج مع الشارع الذي كنا نقوم فوقه بعمل الدورية.

كان الأولاد قد انتقلوا إلى شجرة قريبة منا ووقفوا خلفها، وبدا أن هناك شيئاً ما، مما يثير الريبة في ذلك، ولكني حاولت أن أحافظ على تركيزي على المناطق المحيطة بنا. إن الطريق التي سلكناها للدخول إلى المنطقة كانت إلى حد كبير الطريق الوحيدة، أما الجدار إلى اليسار ومجموعة من الأشجار إلى اليمين، فقد كانت تجعل رؤية ما يحدث بعد خمسين متراً من امتداد الطريق أمراً مستحيلاً. كان من الممكن أن تكون الهجمات قيد الاستعداد هناك دون أن نعرف أي شيء عن ذلك.

كان الأولاد يسمعون نداءً من يافع يقف وراء فتحة في الجدار إلى يسارنا. بعضهم كانوا قد بدؤوا يغادرون المنطقة.

قلت محدثاً وليامز عن مدى ضعف الرؤية أمامنا: «قتال اثنين ـ ستة، هذا قتال اثنين ـ واحد، أَحِطْ علماً بذلك، نحن لا نرى الطريق الرئيسة بعد الساعة الثانية عشرة».

«روجر اثنان ـ واحد، لماذا لا تنطلق وتستمر إلى الطريق، لكي تستطيع أن ترى ما يحدث؟» كان بطبيعة الحال يعرف ما يمكن أن يحدث إذا لم نتمكن من حماية طريقنا الوحيدة لخروجنا.

«جواب سلبي، لا يمكنني أن أفعل ذلك، وأن أوفر الأمن للفرق. هل نستطيع أن نحرك الفصيلة قليلاً، حوّل؟» كنت أقصد بذلك أنه يجب أن يترك خلفه بعض البيوت وأن يحرّك كامل الفصيلة؛ لتكون أقرب إلى الطريق الرئيسة. بهذه الطريقة كان باستطاعتي أن أحرك السيارات، وأن أوفر الأمن للفرق، مع بقاء عينيّ مفتوحتين على مخرج لنا.

«جواب سلبي، اثنان ـ واحد، ما زلنا نفتش البيوت التي خلفنا هناك».

كان وليامز غير قلق من جراء الافتقار إلى الأمن.

صارت المنطقة هادئة على نحو مقلق، ومن حين إلى آخر كان شابٌّ يبصبص نحونا من خط الأشجار الواقع على الطريق الرئيسة. كنت مدركاً أن غياب أصوات الأولاد وضحكهم تسبب في صمتٍ منذر بالشؤم. كانوا جميعاً قد ذهبوا من وراء الشجرة، وكانوا جميعاً يراقبون بهدوء، ولكن بانتباه شديد من وراء الجدار.

«قتال اثنين – ستة، هذا قتال اثنين ـ واحد، كونوا على علم بذلك، لقد غادر كل واحد من المنطقة، وهناك شيءٌ ما على الطريق الرئيسة وراء الأشجار. حوّل».

أجاب وليامز، وكان متوتراً: «روجر تابع المراقبة، اثنان ـ واحد».

كان بإمكاني أن أعرف أنني أضغط، حتى حدود صبر وليامز، وكنت قلقاً؛ لئلا يعزز ذلك وجهة نظره في موقفي بوصفي شديد الحماسة للمسائل

الأمنية. في أعماق داخلي كان ذلك يسيئ إلى كبريائي؛ خشية أن أوصف بأني «قائد الفرقة الخائف» ولم أكن أرغب في أن يرى بقية فصيلتي أن الفرقة الأولى هي عبارة عن مجموعة من الجبناء. ولكن الموقف كان يتلاءم مع الشكل المعروف أنه يؤدي إلى متاعب. كنا في مكانٍ له مخرج واحد، ولم نكن نتمكن من رؤيته: ففرقتنا كانت متفرقة على نطاق واسع، وكان أمننا قد ضاق أكثر مما ينبغي وبقينا في مكان واحد أطول مدة مما يجب، دون أن نطلب المساندة.

قلت بعد مُهلة من التفكير «روجر». لم أكن أعرف ما يمكن أن أقوله مما يغير الأشياء عند تلك النقطة، سوى التجديد على مكانتي بصفتي قائد فرقة. الطريقة الفُضلى كانت إبقاء فمي مطبقاً، ولكني لم أستطع أن أساعد نفسي.

«... أظن أننا على وشك أن نتعرض لهجوم. إننا بحاجة للذهاب».

«اخرس أيها السافل» كان ذلك الرد الغاضب من خلال اللاسلكي. «عليك فقط أن تفعل ما أطلب منك أن تفعل».

عند تلك اللحظة شعرت أنني عاجز تماماً، وهو عجز يملأ القلب عندما يعرف المرء أن شيئاً ما رهيباً يوشك أن يحدث ولا يمكن أن يفعل أي شيء إزاء ذلك. كنت متأكداً أنه إذا تمكنت الفصيلة من أن تكون مطلعة على ما أعرف، فستكون هي الأخرى مقدرة للخطر الذي نواجهه. ولكن لم تكن هناك طريقة لإبلاغ الجنود بالوضع العام، إذ كانوا يركزون على العمل المباشر الذي يقومون به، سواء كان ذلك حراسة زاوية شارع أو تفتيش خزانة داخل منزل. وإذا استطعت أن أحذرهم، فسيكون من

المستحيل أن أحصل منهم على موافقة عامة على رفض أي أمر يعرّض حياتهم للمجازفة دون لزوم، فقد كنت وحيداً في ذلك.

في نهاية الأمر أصدر وليامز أمره بالعودة إلى الشاحنات لركوبها، وهذا أمر لم يكن له معنى إذا أخذنا في الحسبان أننا نواجه طريقنا للخروج وأننا كنا فوق شارع ضيق. ولكني كنت مرهقاً بأسئلة وليامز في ذلك اليوم. كنت أعرف أنني جعلته يكره الاستماع إلى أي كلمة أريد أن أقولها. اكتفيت فقط بأن أفعل ما هو مطلوب مني.

سأل الاختصاصي مادسن Madsen الذي كان يتحدث همساً: «لماذا نحتجز هؤلاء الأشخاص؟».

تطلعت خلفي، ورأيت أن الفرقة الثالثة قد أحضرت ثلاثة رجال، وضعت أغطية فوق رؤوسهم، وكانت أيديهم مقيدة بأشرطة بلاستيكية. كنت أعلم أنهم وجدوا نوعين من النار المضيئة وبعض الرصاصات، ولكن ذلك كان من الصعب أن يكون سبباً لاحتجاز أي شخص، إضافة إلى ذلك أن هؤلاء عُثر عليهم في وسط حقل، وليس في منزل بعينه. ثمة شيء ما آخر لم أكن أعرفه، ربما أنهم وجدوا بعض الأسلحة الحقيقية، لعلها بعض قذائف مدافع الهاون، أو أنها مواد لصنع أسلحة. سألت قائد الفرقة الثانية: لماذا جئنا بأولئك الأشخاص؟

أجاب، وهو يقطب جبينه ويومئ برأسه: «لا أعرف. كل ما في الأمر أن الرقيب وليامز طلب احتجازهم».

عند تلك النقطة ظهر وليامز خلفنا، وعلى وجهه ابتسامة كبيرة. كان بإمكاني أن أسمعه، وهو يعطي مجموعة قتال الشعاع السيني معلومات عن

موقع «الإخفاق» الذي كان شيئاً مطلوباً منّا أن نفعله، كلما وجدنا شيئاً أو احتجزنا شخصاً. تطلع نحوي ونحو مانتيلا، وكان يبدو سعيداً جداً. ظننت أنه قد تكون هناك بعض كلمات التوبيخ بعد الكلام الذي تبادلناه عبر اللاسلكي، ولكن بدا أن كل شيء طبيعي كالعادة.

سأل مانتيلا: «مرحباً يا وليامز، لماذا احتجزنا هؤلاء الرجال؟».

«بسبب كل ما وجدناه من مواد في الحقل».

تابع مانتيلا كلامه: «تقصد حزام الذخيرة ومواد الانفجار؟».

أجاب وليامز: «صحيح» محاولاً أن يبدو واثقاً من نفسه، قائلاً: «وحتى إذا لم تكن المواد لهم، فصدقني أنهم، يعرفون لمن هذه المواد».

لم أقل شيئاً.

توجهنا نحو الطريق الرئيس، حين كنا نغادر المكان، توقفت فجأة السيارة التي كان يركبها وليامز. وأحد الأشياء التي لا بد لك من إعطائها إلى وليامز، خلافاً للقادة الآخرين في وحدتنا، أن يتولى القيادة من الأمام، وهذا الأمر لم يكن استثناء هذه المرة. كان هناك شيء ما مُلقى إلى جانب الطريق، وخرج الرقيب ماسياس Macias من شاحنته لإجراء تحقيق. تبين أن الشيء كان قذيفة هاون وُضعت على بعد نحو عشرين متراً من كمين، هدفه أن ينسف إحدى سياراتنا عند ابتعادها عن الطريق.

إن ماسياس، وهو من المشاة، لم يكن مؤهلاً لرد قذيفة الهاون، مع ذلك أبدى شجاعة كبيرة، وهذا بالضبط ما فعله، حاملاً المتفجرة بين يديه وكأنها طفل أمامه. بعد ذلك التوقف المفاجئ، تابعنا طريقنا

عائدين إلى عش النسر وكأننا لسنا أبداً أكثر عناية ومتوقعين أن نتعرض لهجوم في أي لحظة.

الأمور في الجيش تسير على نحو مختلف تماماً عن الأمور في العالم الخارجي، حيث توجد طريقة حسنة وأخرى سيئة للقيام بمعظم الأشياء. أما في الجيش فهناك طريقة الجيش فقط. لم نتعرض لتفجير في هذه المهمة، بالرغم من شعوري بأني انتقمت من خلال التعبير عن همومي. كان بإمكانه أن يدعي أنه محق في تجاهلها. ومع أنه ما من أحد إطلاقاً قال كلمة حول الحادث، فإنه صار معلوماً أنني شكوت من فقدان الأمر وطلبت أن نغادر المنطقة. كان رد فعلي زائداً عن الحد في طريقة رؤية الجيش للأمور.

ولكن لم تكن هناك فقط مشكلة إجراءاتنا التي أتعبتني، فإن المهمة بحد ذاتها بدت لي وكأنها نموذج لكل شيء خطأ في أنشطتنا في الرمادي. لقد كنا هناك نقتل الناس الذين في جميع الاحتمالات لم يقدموا على أي شيء خطأ. والسبب ببساطة، كما بدا لي، أن وليامز لم يقبل أن يعود خاوي الوفاض إلى القاعدة. الأمر كله يتعلق بكبريائه وبغروره وليس بالوضع على الأرض. ساورني شعور سيئ إزاء ذلك، ولكني شعرت إلى حد كبير بالراحة؛ لأننا لم نتعرض لأي شيء سيئ.

لم يدم مدة طويلة حصر عمل الفرقة الأولى بأمن السيارة. كان ذلك عملاً سهلاً، على الأقل مقارنة بالإغارة على المنازل والقيام بعملية تفتيش متواصلة، والفرق الأخرى أرادت حصتها في ذلك. وكان وليامز يعرف ذلك، إذا تمكن من أن يتعامل مع تعليقاتي التي كانت أحياناً من شخص أدنى منه مرتبة، كانت عنده فرقة قادرة قدرة كاملة وموضوعة بتصرفه.

ومالبثنا أن عدنا إلى القيام بالأعمال ذاتها، شأننا شأن كل واحد آخر في الفصيلة.

أوصلني الحديث بصورة مستمرة إلى الجانب المخطئ من الناس، ولكن ليس دائماً كنتيجة للشكاوى من الإجراءات، أو عدم هذه الإجراءات، فيما يتعلق بسلامة الجنود وراحتهم في وحدتي، كنت أحياناً أتحدث حول أخلاقية ما كنا نفعله، وبصورة خاصة طريقتنا من حيث سوء معاملة العراقيين. كان ذلك موضوعاً أشد صعوبة عند إثارته. شعرت بصورة عامة أنني محرج من حيث انضمامي علناً إلى جانب العراقيين. معظم الجنود كانوا شديدي الاشتباه بهم، وليس ببعضهم فقط، بل يشتبهون بهم جميعاً. كان بإمكاني أن أعرف أن حديثي منحازاً إلى جانبهم، كان يُعد موقفاً ليناً وساذجاً، وهذا وضع غير مرغوب فيه، بحجة أنه يمثل وضع الجبناء. حاولت أن ألتف حول هذا الأمر بواسطة دعوتي إلى اتباع إستراتيجية «كسب القلوب والعقول»، لدى السكان المحليين باعتبار ذلك جزءاً لا يتجزأ من المهمة. نجح ذلك فقط في مناسبات نادرة.

أستعيد إلى ذاكرتي استخدامي هذه الحجة في محاولة لتغيير الطريقة التي نتبعها عند ردنا على بيع الوقود بصورة غير شرعية في المدينة. وبما أن احتشاد الناس عند محطتَيّ بيع الوقود كان احتشاداً كبيراً، وأن كمية الوقود الذي يباع لكل فرد كان محدداً بشدة، لذلك نشأت سوق سوداء أمام الناس الذين يشترون البترول ويبيعونه. كثيرون من هؤلاء كانوا أولاداً، وكانوا يستخدمون براميل معدنية أو حاويات بلاستيكية بحجم خمسة غالونات لخزنها، ثم بيع البترول.

إن بيع الوقود في الأواني كان محظوراً بصورة صريحة، ولكن ثبت أن من العسير إيقاف هذا النشاط فقط عن طريق إصدار الأوامر والقيام بأعمال الاعتقالات، فقد كانت هناك إجراءات أشد تستخدم في ذلك الحين، وما لبث عدد كبير من الناس أن بدؤوا يفتحون النار على البراميل والعبوات، حتى ولو كانوا في وسط مناطق المرور أو المناطق المجاورة. خلافاً لطريقة حدوث الأشياء في الأفلام، فإن إطلاق النار على الحاويات لم يسبب انفجارها في الهواء. إن رصاصاتنا كانت تسبب فقط ثقوباً يتدفق الوقود من خلالها. عند ذلك كان من شأننا أن نرمي قنبلة حارقة على برك الوقود التي تشكلت، فتشتعل حرائقها. كانت تلك لعبة جيدة من قبل معظم الجنود.

بدا لي أن ذلك كان أمراً مذلاً ومسبباً للغضب بالنسبة للعراقيين، أي أن يكون هناك جيش أجنبي يشعل الحرائق في عبواتهم حيثما وجدت، وهذا كان موجوداً في كل مكان تقريباً في الرمادي. غير أني في المناسبات القليلة التي اعترضت عليها، كان الاعتراض يغرق في بحر الغضب السائد في المدينة.

كان الجواب المثالي: هؤلاء الذين يطلق على الواحد منهم «الحاجي» يجب أن يعرفوا من هو الرئيس. وكان جواب آخر يقول: من المضحك رمي القذارة على هؤلاء. وغيرهم يقول: «من الذي يهتم بهذه الأمهات السخيفات، ينبغي لنا فقط أن نقصف البلد بكامله».

لم أكن أنا الوحيد في الفرقة الأولى الذي حاول أن يحد من تيار العداء العنصري. كان الرقيب روزادو دائماً يعمل لحماية السكان المحليين،

وخاصة الأولاد. في إحدى المهمات، وكان ذلك عند الساعة الرابعة صباحاً، تمسك روزادو بالعودة إلى منزل سبق لنا أن اقتحمناه. في أول الأمر انزعجت؛ لأنه كان يحتجز البقية، ولكني لم أقل شيئاً وأنا أراقبه وهو يقترب من مجموعة من النساء والأولاد الذين كنا قد حشرناهم عند زاوية غرفة واحدة، بينما كنا نفتش في بقية المنزل.

عثر روزادو على ما كان يشبه حرقاً خطيراً لذراع أحد الأطفال. معنى هذا أن الطفل الذي كان يمكن أن يكون أكبر سناً من ثمانية عشر شهراً، كان ينام بأمان بين ذراعي أمه، وكان الجرح الذي حدث في جسدها أمراً وحشياً يؤلم عين الإنسان عندما يراها. من الجلي أن النساء لم يكن لديهن مرهم أو شاش لمعالجة لحم الجسم. ولسوء الحظ لم يكن لدينا نحن أيضاً أدوات طبية، ولكن روزادو، الذي كان يتمتع بقدرة غير عادية على التواصل مع الناس بغض النظر عن اللغات، كان يحرص على إلقاء نظرة على الولد والسؤال عن حالته الصحية. وكان بإمكاني أن أرى أنه ترك انطباعاً جيدا ًجداً لدى الأسرة الخائفة التي التزمت النوم.

في مناسبة أخرى، عندما كانت فرقتنا تفرض الأمن عند بدايات المستشفى الأكبر في الرمادي، شاهدنا شاباً بدا أنه أصيب بجرح من منجل، وقد امتد هذا الجرح من الإبهام والسبابة، في اليد اليمنى حتى كوعه. وكان الجرح قد كُتم بأربطة كبيرة خشنة بدت كأنها مفكوكة، ولم يكن لدى الشاب المسكين شاش أو مرهم لتغطية الجرح. تطلع روزادو إلى كيس مموه في حيازتنا، فأخرج من الكيس بعض رزمات الدهون؛ لمكافحة الجراثيم مع بعض الشاش، وقدمها للشاب.

مثل هذه الأعمال المعبّرة عن التعاطف والإنسانية كانت قليلة ومتباعدة، وقد حاولنا نحن دائماً أن نظهرها جزءاً من إستراتيجية كسب القلوب والعقول. حاولنا أحياناً أن نبقيها سراً. ذات مرة، بعد أن دمّرنا منزلاً خلال غارة وتبيّن أنه لاشيء، انتظرت خروج كل واحد من المنطقة المباشرة قبل أن نقدّم لإحدى سيدات المنزل ورقة من فئة العشرين دولاراً. ولكن هذا التحفظ لم يمنع من وصم الفرقة من قبل بقية الفصيلة بأنها «الفرقة الإنسانية»، ومع أن هذا الوصم، وهو أبعد ما يكون عن كونه أمراً مشرفاً، كان مصدراً دائماً للتهكم والسخرية. هذه الإنسانية في محيط وحدة مشاتنا في الرمادي التي مزقتها الحرب، لم ينظر إليها نظرة تقبّل.

في معظم الأحيان، كنت أنا وروزادو يحتفظ كل واحد منا بأعماله الدالة على الرحمة بشكل منفصل عن عمل الآخر، مع أن كل واحد كان يدرك ما يفعل الآخر، ولكن كنا نشعر بالإحراج عندما أردنا أن نقدم مساعدة، أو حتى أن نعترف بأعمال الرحمة. لم أكن فخوراً بذلك؛ لأني كنت أعلم صعوبة القيام بهذا العمل منفرداً.

في إحدى المناسبات عندما أخفقت في مساندة روزادو، مع معرفتي أنه كان محقاً، كان مع ذلك غير قادر أن يتغلب على خوفنا من السخرية، وذلك عندما قام روزادو بحماية ولد عراقي كان يرمي حجارة على فرقتنا في أثناء قيامنا بعمل الدورية. كان ذلك اليوم حاراً ونحن نركب في مؤخرة الشاحنة التي كانت تسير عند الجانب الخطأ للطريق في محاولة لتفادي احتمال حدوث قذفنا بقنابل. ولم تكن المنطقة التي كنا نتجه نحوها تعدّ منطقة معادية بشكل خاص، ولكننا كنا ندرك أن هجمات المتمردين كثيراً ما تحدث في الأماكن أو في الأوقات التي قلّما نتوقعها. ليس بإمكان المرء أن يتحدث

عن خط أمامي في العراق؛ لأن قنبلة إلى جانب الطريق كان يمكنها انتظار وصول هدفها عند زاوية أي شارع، أو في كيس، أو علبة، أو حاوية زبالة، أو في بطن حيوان نافق. كل شيء هو لعبة في أرض خاضعة للاحتلال.

في بعض الأحيان في هذه المهمات كان قائد الفصيلة ورقيب الفصيلة يقرران أن يعملا معاً. كان يفترض في ذلك أن يسهّل تدريب قادة الفرقة، ولكن كان يعني في الواقع أنهما يتخذان الكثير من القرارات الرئيسة ويقوضان سلطتنا، وكان هذا يعني أيضاً أن على الفرقة أن تؤدي الأشياء وفقاً للمطلوب منها بدقة. هذا يحول دون التسلّل إلى المخازن المحلية، حيث يمكن شراء نراجيل، أو صندوق زجاجات صودا، أو قطع من الثلج بأسعار أدنى من تلك المتوافرة في مخازن داخل القاعدة، التي كان قد استأجرها المترجم النقيب وارفل المحتال. كان يبيع كل شيء من عصير البرتقال إلى حربات روسية وصور عربية لبنات عاريات، ولكننا كنّا نشتري من خارج القاعدة، حيث نحصل على أسعار أفضل وأنواع أحسن من مشروبات الشرق الأوسط الكحولية. كل ذلك كان خارج المقصود في هذه المناسبة؛ لأن وليامز قرّر الانضمام إلى الدورية.

ودون إمكانية أن نتخذ وقفات للترفيه، كرّسنا أنفسنا لمراقبة كل زاوية من المنطقة المجاورة وسكانها من الطبقة الوسطى، كما أن شوارعها هي التي نسلكها. كانت المنازل كلها وراء جدرانٍ عالية، لونها بلون الرمل وكانت تجعل من المستحيل لنا أن نرى ما الذي يحدث في الداخل. كان هذا الطراز من البناء الذي يقلقني خلال دورياتنا الليلية التي لا معنى لها في قلب مدينة الرمادي؛ إذ إن أيّ شخص كان يستطيع أن يلقي قنبلة، أو أن يرميها من وراء أحد الجدران، ومن ثم إطلاق النار علينا من أسطحة البنايات.

لم يكن هناك أيّ مكان للهرب أو للاحتماء به أو خندق على امتداد الطرق الطويلة ذات الجدران العالية التي تزدرينا.

إن حرارة الطقس التي لا تحتمل كان يشعر بها كل واحد منا. وكان الجنود الذين في مؤخرة تشكيل الفرقة منزعجين من جراء مجموعة من الأولاد الصغار الذين يتبعوننا، وكان ذلك أمراً عاماً خلال دورياتنا. ادّعى وليامز أنه أُصيب بحجر رماه أحد الأولاد. وكان أمراً شائعاً أن يقذفنا الأولاد بأشياء. تذكرت خلال أول دورية لي في المدينة أن ولداً قذفني بحبة طماطم عفنة، فتشققت فوق ثيابي وعلى كيس بوصلتي.

عندما نتوقف يواجهنا الأولاد الذين كانوا يركضون كالجحيم، تاركين خلفهم صدى ضحكاتهم الخبيثة وهم يلعبون لعبة خطرة. وبعد الاحتجاج الذي تحوّل إلى العنف عند مقر رئيس البلدية كانت التعليمات بأن نطلق النار على أيّ شخص يرمي أيّ شيء نحونا، ومن ضمنهم الأولاد، سمعنا أن جنوداً من الوحدات الأخرى أطلقوا النار أكثر من مرة على الأولاد الذين كانوا يقذفوننا بالحجارة.

رغبت أن أفكر في أننا لم ننحدر إلى هذا المستوى، وفقاً للقيمة الأعلى للحياة البشرية، ولا سيما إذا كانت حياة ولد. ولكن الحرارة العالية كانت تنال منّا. كنّا نتصبب عرقاً بكثافة، بحيث نضطر إلى مسح أذرعتنا وظهورنا، ولا سيما أعناقنا العارية، إذ كان الملح المتراكم نتيجة العرق الذي يتبخر يسبب حروقاً لجلودنا.

قررنا أن نتخذ وقفة قصيرة في منزلٍ نصف مبنيّ، يمتد في ظل هيكلٍ رطبٍ لبناء لم يكتمل بعد. كانت لدى الاختصاصي فونيز ساعة تبيّن درجة

الحرارة، وقد قال لنا: إنها كانت تبيّن أن درجة الحرارة تصل إلى 120^{0} فهرنهايت في الظل و139^{0} في الشمس. وكان الماء في عبواتنا حاراً، بحيث لم تعد مقبولة للشرب. كنّا مرهقين، ولكننا احتفظنا جميعنا ما عدا وليامز بمعداتنا. بدأ هو يخلع ملابسه ويلقي سلاحه وقذائفه على الأرض.

قال، وهو يخلع صدريته: «أريد أن أعلّم هؤلاء الأولاد درساً، وأعني ذلك الولد الذي يلبس قميصاً أحمر». قال ذلك وهو يشير بأصبعه إلى مجموعة من الأولاد معظمهم حفاة: «هذا هو الولد الذي قذفني بحجرٍ»

كان وليامز آنذاك قد خلع بزّته العسكرية، فاقداً نحو خمسين جنيهاً. لقد كان وليامز شخصاً رياضياً، على نحو ما أظهر عندما انطلق فجأة وراء مجموعة الأولاد الذين سرعان ما تفرقوا في الشوارع الجانبية.

قال روزادو: «هل تعرف، لا أستطيع أن أصدّق أنه يقوم بهذه القذارة؟».

كان وليامز خلال بضع لحظات قد قبض على الولد ذي القميص الأحمر وسحبه مسافة خمسين متراً، عائداً به إلى حيث كنّا نستريح. كان هذا الولد يبدو أنه في عمر ثماني سنوات، وهو يبكي محاولاً أن يتخلص من قبضة وليامز القوية.

قال غاليغوس وهو يشير بأصبعه إلى الولد وضحكة على وجهه: «ويلك. إذاً تحب قذفنا بالحجارة، أليس كذلك؟».

أخذ الصبي يتحدث خلال بكائه مستخدماً بعض الكلمات الإنكليزية التي يعرفها. قال وهو يبكي: «لا يا سيد لست علي بابا».

.«No, Mister, Me, No Ali Baba»

obeikandi.com

هذه عبارة كان يستخدمها كل واحد تقريباً في مدينة الرمادي إذا أراد أن ينكر قيامه بعمل سيئ عندما يواجه الاعتقال، وكانت هذه العبارة تفعل فعلها في مناسبات قليلة. ولكن وليامز لم يقبل بها في ذلك اليوم.

سأله الرقيب روزادو وهو يبدو قلقاً على الولد: «ماذا تنوي أن تفعل به أيها الرقيب وليامز؟».

أجابه وليامز، وهو قد بدأ يستعيد معداته: «أنوي أن آخذ هذا الولد السافل إلى القاعدة وأنوي اعتقاله هناك. هذه هي الطريقة الوحيدة لجعل هؤلاء الأولاد يتعلمون عدم قذفنا بالحجارة».

كان هناك شيء من المنطق في فكرة وليامز عن جعل ذلك الوغد عبرة لغيره. ردّ الفعل الرئيس لمعظم الذين في الفرقة كان التسلّي. أحد هؤلاء الذين لم يكونوا يضحكون، كان روزادو الوحيد الذي لم يقل أيّ شيء.

ملاحظة روزادو قوبلت بالضحك عندما قال: «ولكنه لا ينتعل حذاءً أيها الرقيب».

تابع وليامز كلامه: «لا يهمني. سآخذ هذا الولد معنا».

عاد الأولاد إلى التجمع على مسافة منّا، وكانوا يبصبصون نحونا، ومن الواضح كانوا يتسلون. أحد الأشياء التي لاحظتها في العراقيين هي طريقة تماسكهم بعضهم مع بعض. كان الناس يُحتجزون خلال مهمات الإشراف على المرور، ومن الواضح أنهم لا يعرف أحدهم الآخر، ولكن سرعان ما انخرطوا في حديث وكأنهم أسرة واحدة، أو أصدقاء منذ الطفولة. هؤلاء الأولاد لم يكونوا مختلفين عن الآخرين. إن مجموعتهم الصغيرة

obeikandl.com

استمرت في النمو، بينما كان ينضم إليها بعض الأحداث الغاضبين، وحتى اليافعين.

سأل روزادو دون أن يهتمّ بالضحك: «أيها الرقيب وليامز، هل أنت جاد في القبض على هذا الولد؟».

أجاب قائد الفصيلة وهو ممسك بالولد: «أجل، أنا جاد. دعونا نذهب».

كان هناك رجلٌ أكبر سناً بدأ يسير نحونا من عند بوابة أحد المنازل، ولكن وليامز لم يعبأ به.

قال روزادو، عندما شرعنا نفصل الفرقة إلى شقين؛ لكي نخرج بطريقة مخططة: «أيها الرجل، هذه سخافة، أمام هذا الولد مسافة طويلة للسير دون حذاء».

تابع وليامز التحرك، بينما الولد يمشي أمامه وهو يبكي دون توقف، تُرى من يعرف ماذا يدور في عقل هذا الولد الصغير؟! ولكن كان جلياً أنه غارق في بحر من الذعر. الأولاد الآخرون ساروا وراء الفرقة، ومالبث أن انطلق الرجل الأكبر سناً وتدحرج على درجات منزله؛ لكي ينضم إليهم.

قال الرجل وقد ابتعد عنا نحو عشرة أمتار: «يا سيد، ياسيد، الرجاء، إنه ولد، ياسيد، ولد».

وكان وهو يتكلم يشير إلى قدم الولد الصغير.

قال روزادو: «أيها الرقيب وليامز، هذا والد الصبي. أنا متأكد أنه تعلم الدرس».

قال وليامز، الذي كان يستخدم لغة مبتذلة بصورة مستمرة: «كلا، لا تهتم بذلك» ثم التفت إلى الرجل المسن: «هل أنت والده»؟

أجاب الرجل: «كلا، كلا» محاولاً أن يقول أكثر مما قال، ولكنه لم يتمكن من العثور على كلمات بالإنكليزية. أشار إلى المنزل الذي جاء منه، ثم إلى مجموعة الأولاد. بدا أنه يعرف فقط أن الأولاد من المنطقة المجاورة، ولا يريد أن يؤخذ أحدٌ منهم.

قال وليامز: «هذا الولد قذفني بحجر»، وكان يشير إلى الولد فقال، وهو يلفظ كل كلمة قالها مع ترجمتها بصرياً: «أنا، أنوي، أن أعتقله» وأشار وليامز بيديه إلى يدي الولد اللتين ربطهما برباط من اللدائن.

توسّل إليه الرجل، وقد فهم ما قاله وليامز: «لا، لا، ياسيد، أنا، أنا».

سأله وليامز: «أنت؟ ماذا أنت؟ ماذا ستفعل؟».

رفع الرجل المسن يديه إلى مستوى عينيه، وأفرد أصابعه وهو يشير إلى الأعلى، وفمه مفتوح، عاجز عن الكلام. لم نتمكن من فهم ما حاول أن يقول، ازداد عدد الجمهور.

قال قائد الفصيلة: «دعك من هذا الكلام السخيف. سنغادر».

ولكن قبل أن نغادر، كان الرجل المسن قد سار نحو الولد ووجّه إليه صفعة على وجهه الذي تسيل عليه الدموع. صرخ الولد صرخة قصيرة دون أن يقول أي شيء.

قال روزادو وهو ينظر إلى وليامز: «أيها الرقيب، إنك ذاهب هناك. دع الرجل المسن يهتم به، دع الولد يذهب».

فكر وليامز في ذلك لحظة. لم يكن أحد يضحك منذ ذلك الوقت. فكّرت في الأمر: «دعه يذهب، يا وليامز، دع الولد يذهب». كنت طوال الوقت مع روزاد، و ولكني أبقيت فمي مطبقاً. حدّق الرجل المسن في وليامز مع تعبير عن اليأس انطبع على وجهه.

obeikandi.com

كان الحكم النهائي: «كلا».

تمتم روزادو «يا رجل، هذا نهاية الأمر». ما من أحدٍ قال كلمة.

وجّه الرجل المسن صفعة أخرى شديدة إلى رأس الولد، ثم صفعة ثالثة، هذه المرة بقبضة يده. مع ذلك ظل وليامز غير متأثر.

قال روزادو: «أيها الرقيب وليامز، دعه يذهب، دع الولد يذهب». وبدا روزادو كأنه يقول هذه الكلمات من أجل نفسه أكثر مما هي من أجل الولد.

قال قائد الفصيلة: «لا سبيل إلى ذلك».

إن الرجل المسن وجه هذه المرة ضربات برجله وصفعات بيده إلى الولد، كل ضربة أشد من السابقة. ومع أن الولد كان يبكي بعنف، إلا أنه لم يرفع بصره إلى من اعتدى عليه، الذي بدا وكأنه أكثر إحساساً بالألم مما كان يحس الولد بالألم، مع أن الرجل هو الذي كان يضرب. خلال ذلك كان أهل المنطقة المجاورة جميعاً قد تجمعوا واقفين وصامتين خلال مشاهدتهم الضربات التي تلقاها الولد. حتى أعضاء فرقتنا الذين كانوا يضحكون على روزادو، سادهم الهدوء الآن.

لم يعد الولد يبكي، ولكن الرجل كان يذرف دموعاً عندما حاول أن يتوسل إلى قائدنا.

قال متوسلاً: «أرجوك، ياسيد».

فكر وليامز لحظة.

أخيراً أجاب قائلاً: «لا بأس، اهدأ» استل من جيبه سكيناً، وفك بها قيود الولد». «يمكنك أن تأخذه».

غادرنا المنطقة وأوجدنا نقطة سيطرةٍ على المرور لحظة قبل عودتنا إلى القاعدة. لم يعد أحد قط يتحدث عن الحادث، ولكن عندما عدت إلى التفكير في الأمر تذكرت كيف كان قلبي يتألم من جراء وقوفي إلى جانب روزادو. مع ذلك اخترت أن ألتزم الصمت، وأن أبتلع شخصي الأخلاقي وأن أذهب مع الجمهور، تاركاً إياه يخوض معركة ما كان ينبغي أن يخوضها وحده، وقد شعرت بالعزاء عندما لم يعد الأولاد إلى رمي الحجارة علينا عندما عدنا بعد أسبوع إلى ممارسة الدورية في المكان، بل إن الأولاد لم يعاودوا السير وراءنا. إن ما فعله وليامز قد يكون أنقذ بعض أولئك الأولاد من القتل لسبب بسيط هو رمي حجر على دورية مشاة.

إن حقيقة ما أراه أن الأمر السيئ في حرب يقارن بما هو أسوأ، وإن ذلك، بدوره، يجعل الكثير من الأمور المؤسفة مقبولة. وعندما يحدث ذلك، يبدأ الخط المتخيل بين الصح والخطأ يضمحل في ضباب كثيف، إلى أن يختفي كلياً، بينما توزن القرارات بميزان القيم، مع أن القيم فاسدة إلى حد الأعماق. في ذلك اليوم كنت مخطئاً بإصغائي إلى ما يدعوني له حكمي الأفضل للأمور. إنني بتجاهلي لذلك الحكم، أفشلت ليس فقط مبادئي، بل أيضاً أفشلت الشخص الوحيد الذي كان يتخذ الوقوف إلى ما هو صائب ومحترم.

سابعاً

نحو منتصف شهر حزيران (يونيو) 2003، بعد نحو أربعة أسابيع من بدء سرية شارلي بالقيام بعمليات في الرمادي، جرى تكليف الفصيلة الثانية بمساندة وحدة الهندسة من المجموعة الثالثة خلال عملية عقرب ـ البنادق Operation Rifle-Scorpion، والغاية من هذه العملية التي سُميت هذه التسمية السخيفة هي إعطاء العراقيين فرصة التنازل عن أسلحتهم بواسطة تجمعهم عند نقاط تجمع الجيش الأمريكي، حيث يتم تعويضهم مبالغ بالدولارات الأمريكية لقاء أسلحتهم، وكان يفترض في عملية العقرب ـ البنادق أن تشمل أيضاً عدداً من الغارات من قبل وحدات المشاة والهندسة عند الاشتباه في وجود مخازن أسلحة ومنازل آمنة للمتمردين في سائر أنحاء المدينة. كان على جماعة هندسة أو فصيلة من المجموعة الثالثة أن تنتقل إلى عش النسر؛ لكي توفر المساندة لسرية شارلي في العملية، التي كان متوقعاً أن تكون مدة أسبوعين. وكان على الفصيلة بدورها، أن تنتقل إلى المجموعة الثالثة لنفس مدة الأسبوعين.

في أول الأمر بدت إمكانية الانضمام لهذه الوحدة واعدة. وقد تمتعت المجموعة الثالثة بالفوائد التي يحصل عليها معظم الجنود الذين يعملون وقتاً كاملاً في العراق، ومن جملة هذه الفوائد، غرف مكيفة، ورحلات إلى بغداد لحضور حفلات موسيقية أمريكية، وسهولة الاستفادة من المخازن العسكرية التي تباع فيها الأغراض، ولكن الأمر الأهم – حسب اعتقادي – هو

العمل مع المجموعة الثالثة بشرط حماية السيارات المصفحة خلال القيام بالدوريات مع المهندسين. لقد خابت توقعاتنا بسرعة: فالغرف المكيفة كانت قد أُخذت جميعها، والرحلات الأمريكية وزيارة مخازن البيع كانت فقط للمجموعة الثالثة، وبما أننا كنا نذهب أحياناً للقيام بأعمال الدورية بسيارات مصفحة، وصلنا ذات مرة إلى مقصدنا، حيث كان علينا أن ننزل من السيارات وأن نقوم بأعمال الدورية سيراً. وكان علينا أن ننفذ بالضبط الأعمال ذاتها التي مارسناها في عش النسر، أما الآن فقد كنا إضافة إلى ذلك مكلفين بأعمال الحراسة لحماية قاعدة المهندسين، وكل ذلك فوق ما كان علينا أن ننفذه من غارات بالتعاون مع المجموعة الثالثة.

كنا مسؤولين أيضاً عن حراسة المصرف المحلي، وفي هذه المهمة قسمنا الفرقة إلى قسمين، أحدهما: يقوم بدورة نهارية، لحماية الصرافين في المصرف ومدير المصرف عندما يكون هذا المصرف مفتوحاً، أما القسم الثاني: فيوفر حماية ضباط الشركة العراقيين الذين يحرسون هذا المكان خلال الليل. التحقت بفريق برافو وتولينا المناوبة الليلية. ورجال الشرطة هناك لم يرتدوا بزات رسمية وكأنهم مجموعة أصدقاء مترافقين أكثر من ظهورهم وكأنهم قوة شرطة. وعندما وصلنا إلى المصرف للمرة الأولى، بعد ظهر أحد الأيام، كان الشخص المسؤول عن العراقيين العاملين في المصرف قد ذهب إلى المطبخ؛ لجلب حاوية كبيرة مليئة بالطعام الذي كان مزيجاً من البيض والطماطم وبعض التوابل التي لم أحاول أن أعرفها. ذلك الطعام كان يؤكل مع قطع ساخنة من الخبز الذي يصلنا ملفوفاً بقطعة قماش بيضاء، وكان هذا الطعام لذيذاً جداً. هذه عبارة عن وليمة ختامها كان احتساء الشاي الأسود الحلو وتدخين السجائر.

إن استعداد ضباط الشرطة لكي نشاركهم طعامهم كان أمراً نقدره شديد التقدير، ولكنه لم يكن مفاجأة لنا؛ فقد سبق لي أن تعرفت، في العديد من المناسبات على الضيافة الرائعة التي يوفرها لنا العراقيون مما جعلني أفهم أن ذلك جزء أساسي من الثقافة العربية، ومن ثم تقدَّم الضيافة، حتى لنا نحن قوات الاحتلال.

أول ما تعرفت على الكرم بالكرم العربي في الأردن، عندما يأتي جنود من الجيش الأردني إلى مكان وجودنا كل ليلة؛ ليتشاركوا معنا في احتساء الشاي وتجاذب أطراف الحديث عن ثقافتينا، فقد تحدثنا عن الدفء الذي وفروه لنا خلال الأمسيات شديدة البرودة في فصل الشتاء في عمان، وإني أتذكر بدهشة كيف يخرجون غلَّاية الشاي القديمة التي تبدو، وكأنها شيء من الأزمنة التوراتية، من النار، مستخدمين فقط أيديهم العارية.

معظم الضباط الأردنيين يتحدثون اللغة الإنكليزية، التي تعلموها في الكلية وخلال التدريب مع وحدات خاصة بريطانية وأميركية. بدا أنهم غير معنيين بالناحية الأخلاقية للولايات المتحدة خلال غزوها لبلدهم المجاور العراق، وبدا أن ولاءهم الوحيد محصور فقط في ملكهم الذي بدا أنهم يحبونه ويخشونه في الوقت ذاته.

بيد أني في مناسبات أخرى لم أكن متأكداً أن الكثير من الكرم الذي يقدمونه لنا كان حقيقياً، وإلى أي مدى أيضاً كان يتعمده بعض الناس لتحقيق التحالفات. كان حسن الضيافة في بعض الأحيان يبدو، وكأنه يتجاوز حدود اللطف بحد ذاته. على سبيل المثال، عندما شرعنا في إحدى المناسبات نفتش في منزل كبير في إحدى مناطق الرمادي الأكثر ثراء من

غيرها، عرض مالك المنزل علينا أن ندعو كامل فصيلتي إلى عشاء، وسأل إن كنا نرغب في دخول المنزل للقاء أسرته؟ كنا نسمع دائماً عن دعوات مماثلة توجه إلى آخرين في كتيبتنا. ذات مرة سمعنا أن فرقة من سرية ألفا قبلت مثل هذه الدعوة، وسكنت مدة أسبوع في منزل خيالي.

إن ما يبديه العراقيون من مودة كان لرجل واحد بالذات، وهو مدير محطة لبيع الغاز موقعها إلى الغرب عن قاعدتنا، حيث كانت فرق السرية تتولى بالتناوب أعمال الحراسة مدة أربع وعشرين ساعة في اليوم. إن حراسة المحطة كانت عملاً مرغوباً فيه بالنسبة للعديد من جنود الوحدة التي أنتمي إليها؛ لأن العاملين في المحطة بإمكانهم أن يساعدونا في الحصول على الطعام والمشروبات والمثلجات من مخازن البيع في المدينة، حتى إن فرقتنا ابتاعت جهاز تلفزيون هناك. وكان بإمكاننا أيضاً أن نستخدم هاتفاً لاسلكياً للاتصال بأهلنا في الولايات المتحدة مقابل دولارين عن الدقيقة الواحدة.

في ذلك المكان أصبحت مدمناً على تبسي (Tepsi) وهو طعام مصنوع من الباذنجان والطماطم يطبخ مع الأرز أو الخبز وأنواع ممتازة من الخضراوات. آخرون من جنودنا كانوا يحبون الشيش كباب والفراخ المشوية التي تؤكل مع خبز مرقوق، ويتم أكلها مع الصودا أو حتى مع البيرة، وهذه كلها يمكن شراؤها من المستخدمين في المحطة.

الأمر الذي استمتعت به في المحطة أكثر من غيره كان مرافقة مدير المحطة الذي اسمه محمد. كان محمد طويل القامة، ذا لحية وجسده فاتح اللون، وكان قد تعلم اللغة الإنكليزية في الجامعة، حيث كان يدرس الجيولوجيا، وقد تحدثت معه طويلاً، وذات مرة تحدثنا عن القرآن الكريم،

obeikandl.com

وهو كتاب كريم كنت أجهله كل الجهل، شرح لي محمد أن قراءة الكتاب المقدس مباحة لغير المسلمين، بشرط طهارتهم عند قراءة القرآن الكريم.

قال لي: «في الواقع يجب أن تغتسل قبل أن تمسك القرآن الكريم. ولكن عليك فقط أن تغسل يديك، وهذا يكفي حالياً، إذا أخذت الظروف الراهنة في الحسبان».

سألته، مستخدماً كلمة عربية للتعبير عن الخطيئة: «هل حرام عليك أن تشارك مسيحياً في قراءة القرآن الكريم؟».

أجابني وهو يبتسم ابتسامة لطيفة صادقة: «ليس حراماً أن أشاركك قراءة القرآن. لعلمك، من واجبنا نحن المسلمين أن نعمم قراءة الكتاب المقدس. وكلما أُتيحت الفرصة لمسلم صادق ينبغي له دائماً أن ينشر كلام القرآن بين الناس، وإلا فإن المسلم لا يقوم بواجبه، وعندما يكون الناس مستعدين للاستماع، يجب أن يكون المسلم دائماً مستعداً للتحدث».

بهذا الحوار بدأت علاقة أعتز بها حتى هذا اليوم، مع أنني الآن قد فقدت التواصل مع محمد.

إن العديد من الأشياء التي تعلمتها بفضل محادثاتنا في محطة بيع الوقود ظلت ثابتة عندي. في تلك المحادثات اكتشفت أن لدى المسلمين احتراماً عميقاً ليسوع، ليس لكونه المسيح، بل لأنه نبي موقرّ. كذلك، فإن مريم العذراء ليست فقط موضع تقدير، بل هي تعدّ نموذجاً جيداً للسلوك والتعبد للّه، تحرص النساء المسلمات على اقتفاء أثره.

obeikandi.com

كان محمد مسلماً سنياً سبق له أن عمل مع حزب البعث خلال نظام حكم صدام.

قال لي ذات يوم عندما كنا نحتسي الشاي في مكتبه: «إنني لم يسبق أبداً أن كنت على اتفاق مع صدام، ولكني لم أكن مخيراً، لا سيما وأنني مهندس جيولوجي، فقد كان عليّ أن أخدم الحكومة».

مع أن الكثير من الطعام في الرمادي كان يطبخ بواسطة الحطب ومواقد الغاز، وكلاهما كان مألوفاً، فقد كان هذا يعني بالنسبة لكثيرين من الرمادي أن يذهبوا إلى محطة محمد للحصول على الوقود. ذات يوم جاء مسلم شيعي مع ابنه إلى المحطة لشراء الغاز، وهما كانا صديقين قديمين لمحمد الذي استغل الفرصة لتعريفهما بنا.

قال محمد، مترجماً الكلام للرجل المسن: «إنه يريد أن يعرف ما الذي يجعل الأمريكيين يعاملون العراقيين كالكلاب».

أجبته قائلاً « لا نقصد أن نعامل العراقيين كالكلاب، لكننا عندما نتعرض لهجوم نضطر للرد، وعند ذلك تحدث الأشياء السيئة».

لم أكن متأكداً أنني مؤمن بكلماتي. ولعلي في داخلي لم أكن مؤمناً بذلك، ولكن لسبب ما شعرت أنه ينبغي لي أن أدافع عن الغاية من وجودنا هناك. لقد كان الرجل المسن هناك لا يصدق ذلك، وبدا أنه منزعج. كان ابنه، وهو في أواخر الثلاثينيات أو مطلع الأربعينيات من عمره يقف، وقد أحاط بيديه مقعداً كان يجلس عليه والده، محدقاً في وجهي بنظرة جدية على وجهه. نظرت حولي في الغرفة ورأيت أن الجميع كانوا يحدقون في، ومع أني لم أكن قد أنزلت خوذتي من رأسي، فقد كنت لا أزال أرتدي

كامل بزتي، ممسكاً بإحدى يدي فنجان شاي، وباليد الأخرى كنت ممسكاً بندقيتي. كانت القنابل معلقة على صدريتي، كما أن الحزام جعل من العسير على أن أشعر بالراحة. شعرت وكأني أواجه تحقيقاً من قبل محكمة مدنية. ومع ذلك لم أشعر طوال الوقت خلال محادثاتنا بأنني غير آمن أو أتعرض لتهديد، بل شعرت فقط بالخجل.

قال محمد، بينما كنت أنا وهو نراقب الرجل المسن، وهو يرفع رداءه؛ ليكشف لنا عن رضٍ كبيرٍ أصيب به في ركبته اليسرى: «إنه يريد أن يخبرك شيئاً عما حدث له الأسبوع الماضي».

سألته: «ماذا حدث له؟».

قال محمد مترجماً الكلام «إنه يقول: إن مجموعة من الرجال هبطوا من طائرة هليكوبتر على ممتلكاته واحتجزوا الأشخاص الذين وجدوهم داخل المنزل، هَدَّدُوهُمْ بالرصاص، وقد غادروا المنزل آخذين هؤلاء الأشخاص إلى قاعدة للجيش الأمريكي.

إن الأذى الذي أصاب ركبته حدث عندما رموه إلى داخل طائرة الهليكوبتر.

لاحظت أن هناك عصا خيزران قد أسندت إلى المقعد الذي كان يجلس فوقه الرجل. بقي الأشخاص الحاضرون كلهم صامتين، بينما كان الرجل المسن يتكلم باللغة العربية، وكان من حين إلى آخر يشير إلى ركبته وإلى ابنه الذي كان يقف خلف والده، تاركاً كل الكلام لوالده.

تابع محمد كلامه: «استجوبوه مدة بضعة أيام، إلى أن أفرجوا عنه أخيراً. فقد ظن الجنود من القوات الخاصة الأمريكية. أنه أحد القادة

المناضلين. تساءلت بيني وبين نفسي: كيف عرفوا أن الجنود من القوات الخاصة؟ «اعترفوا أخيراً بغلطتهم وأعادوه إلى بيته، ولكنهم لم يدفعوا قط أي مبلغ لقاء الضرر الذي سببوه للبيت».

بدا الرجل المسن مضطرباً بالفعل، وليس دون سبب، ولكني لم أكف عن التفكير في أنه لا بد أن يكون هناك مسوغ للأعمال التي قام بها الجنود، ثم إنهم اعتذروا، بل أعادوا الرجل المسن إلى أسرته. وعندما تبينت الأمور لي لم تكن في نظري غير مقبولة.

قال محمد، وهو يتطلع إلى عصا الخيزران: «إنه يشعر بالألم عندما يمشي».

قلت وقد تحولت عن انتباهي من محمد إلى صديقي الشيعي: «يؤسفني في الواقع ما حدث، لا نريد أن نكون هنا».

قال محمد: «أعرف ذلك، أعرف. إنه ليس منزعجاً منك، ولكنه يريد أن يخرج الجيش الأمريكي من العراق».

استمر الحديث بهذا الأسلوب، مع شكاوى من وحشية الولايات المتحدة، وكانت هذه الشكاوى تأتي متتابعة بطريقة جعلت الجدل أن كل شيء كان غلطة معزولة سيئة الحظ ومن العسير بالنسبة لهم أن يقبلوا ذلك ولكنهم فهموا استعمالي لهذا الجدل. كان هؤلاء رجالاً متعلمين ولا سيّما الرجل المسن الذي يربط ركبته، والذي كان يبدو أنه يحظى بالاحترام بين السنة، وهم أكثرية الحضور. وتبين لي أن الاحترام الذي يظهرونه تجاهه ليس ناجماً عن حكمته وتقدمه في العمر، بل لأنه أيضاً ربما كان رجل دين موقراً.

شعرت، وكأني أحضر محكمة تصدر قرارها بشأن الاحتلال الأمريكي، وكأني أقوم بدور مزدوج بوصفي مسؤولاً عن الدفاع ومتهماً، بينما كان الشيعي المسن يتحدث نيابة عن كامل الشعب العراقي. لم أشعر أني مؤهل أن أكون نداً لخصمي الرهيب.

على الرغم من غضبه من جراء الاحتلال، لم ينحدر الشيعي المسن إلى مستوى الحملات الشخصية تجاهي، بل إنه بدلاً من ذلك كان يتحدث بحوار محترم عن حق العراق في تقرير المصير. ومع أنه كان لا يزال يبدو منزعجاً، كان يبدي الود تجاهي عندما غادر. تابعت أنا ومحمد الحديث عن العراق والاحتلال الأمريكي. عند نقطة ما شعرت بالضغط عليّ من جراء أسئلة محمد، وعجزي عن إيجاد أجوبة أخرى، قلت في حديثي مع محمد: إننا في العراق بقصد إحلال الحرية للبلد وشعبه.

نظر إليّ محمد، غير مصدق، فقال: «الحرية؟!»

قلت: «نعم» وكنت مصراً على كلامي، مع أني غير مصدق لكلماتي.

تابع محمد كلامه، وكان وجهه صارماً: «ولكنك قلت: لا تريد أن تكون هنا».

تابعت كلامي، فقلت: «لا أريد».

تابع صديقي، بينما كان يذكرني بشيء سبق أن قلته له في الماضي: «أنت قلت: إن العقد الذي وقعته مع الجيش قد انتهى».

اعترفت قائلاً: «أجل، قلت ذلك».

«ما دام الأمر كذلك، فلماذا أنت هنا؟».

obeikandl.com

قلت موضحاً، بينما هو أخذ يتابع أسئلته: «لأن الجيش قادر على أن يحتفظ بك بعد انتهاء العقد الموقع على الأقل هذا بإمكانهم ما دامت هناك حرب».

قال وقد رفع جفنيه إلى أعلى: «ضد إرادتك؟».

قلت بهدوء: «نعم»

قال: «إذاً كيف يمكنكم أن تجلبوا لنا الحرية، ما دمتم أنتم تفتقرون إلى الحرية؟».

لم أتمكن من الإجابة عن هذا السؤال، ولكني تذكرت أنه خطر في بالي أن محمداً لا يعرف كيف تعمل الجيوش، مع علمي أنه كان مجنداً في الجيش العراقي في زمن يفاعته. إلى جانب ذلك، لا علاقة للحرية ولا غياب الحرية بمشاركتي في حرب عارضتها منذ البداية. كان سوء طالعي أنني ارتبطت بقرار اتخذته عندما كنت في التاسعة عشرة من عمري، فوقعت على عقد عسكري، وتنازلت عن معظم حقوقي. ومنذ تلك النقطة كان عليّ أن أضع جانباً كل الاعتبارات الأخرى - السياسية، والأخلاقية، والروحية – متابعةً لأي مهمة تلقيت أمراً بالقيام بها. كلا، هذا ما برحت أقول لنفسي، لا شيء له علاقة بالحرية.

أما في أعماق نفسي، فقد كان شعوري مختلفاً، كنت أعرف أنه ما من أحد، في النهاية، يستطيع أن يقول: إنه يرفض إبقاء السجناء محرومين من النوم وعرقلة سيارات الإسعاف، وهي متجهة إلى المستشفى. كان بإمكاني أن أقول: «لا» للمهمات عديمة المعنى التي تضع حيوات الجنود والمدنيين الأبرياء في خطر لا لزوم له. كان بإمكاني أن أؤكد حريتي وأن أقول: «لا».

obeikandi.com

المشكلة كانت أن كل شخص آخر كان يفعل ما يُطلب منه، وأسهل شيء كان أن يطبق فاه، وأن يظن أن محمداً لا يفهم، كانت المشكلة أنني فقدت حريتي في التفكير في نفسي بوصفي إنساناً فرداً ذا قيم أخلاقية وروحية، حاصلاً على استقلاليته من الخدمة العسكرية، وفقدت أيضاً حرية قبول حقيقة أنني لست حراً.

كان رجال الشرطة الذين يقومون بالحراسة في المصرف أقل من محمد ثقافة وتعليماً، وقد كانوا يظهرون تحدياً لوجهات نظري بأي طريقة. وكانوا لا يزالون غرباء عن معرفة الولايات المتحدة وطبيعة الحياة في الخدمة العسكرية في الولايات المتحدة.

أتذكر أن روزادو أظهر لرجال الشرطة العراقيين كيف يمكنهم تركيب أجزاء بندقية من نوع (M - 16) وتفكيكها، وهم بدورهم بيّنوا له الطريقة ذاتها مع بنادقهم (AK - 47)، وهي سلاح استخدامه أسهل، بل إنهم عرضوا أمام روزادو شريط فيديو يظهر فيه صدام حسين وهو يلقي خطابين من شرفة الطابق الثاني في مقر رئيس البلدية.

أتذكر كذلك كيف أسرني جمالُ عاملة في صرف النقود في المصرف، مع أن الشيء الوحيد الذي كان بإمكاني أن أراه هو وجهها، وما تبقى منها كانت توحي به الخطوط القليلة في ثوبها الأخضر والأسود. بدت عيناها الحادتان زرقاوين في الضوء الباهت فوق منضدتها، ولكن كان يمكن أن تكونا رماديتين. إن هاتين العينين الفاتنتين، لم ينتبها إلى نظرتي، فإن سحرهما جعلني لأول مرة أشعر بالافتتان، مما جعلني أتساءل: ما شكل الانتقال إلى العراق، وتقبل الثقافة تقبلاً كاملاً. بدا لي أن حالات الزواج

ليست ما تسميه الثقافة في الغرب حباً. كان تفكيري أن بإمكاني الذهاب إلى أسرة هذه الشابة؛ لأسأل: هل أستطيع أن أتزوجها؟ أما الحب فأمره يأتي بعد الزواج. قلت لنفسي: هل بإمكاني أن أحب بسهولة هاتين العينين الحادتين، وتلك الابتسامة الجميلة التي أستطيع رؤيتها عن بعد، ولغز ذلك الجسم الذي لا يمكنني أن أكف عن الحلم به.

لم أعرف شيئاً عن المرأة، ولكن ذلك بدا أمراً طبيعياً في ثقافتها. والرجال والنساء لا يتواعدون على لقاء، أو يمارسون الجنس قبل الزواج، بطبيعة الحال كان ينبغي لي أن أكون مسلماً؛ لكي تتاح لي فرصة لقاء مع أسرتها، ولكن أليس إلهنا هو الله ذاته، إله إبراهيم؟ كنت أتجه نحو الإصابة بالخبل، إن كففت عن النظر إليها. أما هاتان العينان! فلماذا لا تضع عليهما حجاباً؟ لعلها امرأة متزوجة. أصابني جنون التفكير في إمكان زواجي من إمرأة لم يسبق أن عرفتها، ولكنني أحببتها، غير أن إمكانية ذلك الزواج ملأت فؤادي بالإثارة والشغف.

عندما كانت تنتهي المهمة في المصرف كنا نعود إلى مجمّع المهندسين، حيث تكون الحياة مذلة بصورة خاصة، وكلما كنا نخرج في مهمات مشتركة مع المهندسين، كنا نقوم بمعظم العمل. كنا جنوداً مشاة وكانوا هم من سلاح الفرسان، ولذلك كانوا يظلون في سياراتهم المصفحة ويحافظون على الأمن بأسلحتهم الكبيرة، بينما كنا نحن نقتحم البنايات، محطمين الأبواب بالعتلات والمطارق الثقيلة، ونسارع إلى دخول غرف معتمة دون أن نعرف إطلاقاً ما نتوقع.

قيل لنا في ختام أسبوعين من عملية العقرب ـ البندقية: إن السلطة سيبدأ انتقالها إلى الشرطة العراقية، فقد كان علينا أن نغادر قاعدتنا

إذاً في حالة الهجوم عليهم فقط. وفي أثناء ذلك يكون بإمكاننا الاستعداد لإعادة انتشارنا في الولايات المتحدة التي سبق أن سمعنا بالعودة إليها. ومنذ وصولنا، كانت مواعيد إعادة انتشارنا تقدم لنا بانتظام، المرة تلو المرة. والفرق في هذا الوقت كان أن ضابطنا التنفيذي قد بث الأخبار وأعلمنا أننا ننتظر وصول الشاحنات؛ لكي نتمكن من الذهاب في قافلة كبيرة عبر الكويت. عند إحدى النقاط، أصدر الرقيب وليامز أمراً إلى الفرق بأن تحزم بعض أمتعتها في صناديق الفصيلة من أجل وضعها في منطقة التموين؛ لتكون جاهزة للشحن. ارتفعت آمالنا إلى أن انتهت العملية ولم تكن هناك قوة شرطة يُعتمد عليها لنقل السلطة إليها. في نهاية الأمر عُدنا إلى العمل كالمعتاد، ولكن خيبة الأمل هذه المرة كانت مريرة بصورة خاصة.

في ختام عملية العقرب ـ البندقية كانت الأسلحة التي سُلِّمت إلى الناس قليلة العدد وقديمة، والغارات الرئيسة الثلاث التي نفذناها بالاشتراك مع المهندسين لم تسفر عن متمردين أشداء أو عن أسلحة. ومن خلال الحكم على تواتر الهجمات وتعدّدها، ازدادت قوة المتمردين وصارت أكثر تعقيداً.

عندما كنّا نُقيم مع المهندسين تعرضت الفصيلة الثالثة لكمين عند نقطة للإشراف على السير. غير أن المتمردين هذه المرة هاجموا في آن واحد من ثلاث زوايا منفصلة، وكان هذا تطوراً جديداً. ومع أنه لم تصل أخبار عن إصابات في أي من الجانبين، فإن الكمين المثلث الجوانب للفصيلة الثالثة أظهر أن الهجمات صارت أكثر تعقيداً منذ وصولنا إلى الرمادي، وفرضت على قيادتنا أن تصدر أمراً بعدم البقاء في مكان واحد

مدة تزيد عن ثلاثين دقيقة، الأمر الذي حرم العدو من الوقت للإعداد لهجوم معقد. كان لهذا الأمر مفهومٌ وكان يجب صدوره من قبل، غير أن المسألة الحقيقية هل كنّا نملك المعرفة بشأن حماية أنفسنا بشكل أفضل، بل كان الأمر الحقيقي هل كان لدى قادتنا أي اهتمام باستعمال تلك المعرفة.

قبل عودتنا إلى قاعدتنا بوقت قصير تسلمنا ألواحاً من السيراميك لحماية أجسادنا. كانت تلك أول مرة في العراق تلقينا فيها حماية مناسبة. فحتى ذلك الحين كنّا نرتدي صداري قديمة من زمن حرب فيتنام وهذه الصداري لم تكن تصدّ رصاصة، حتى لو أراد العدو أن يصوبها باليد. كل مافعلوه أن يثقلوا علينا دون أن يوفروا لنا أيّ حماية.

كنّا نخرج للقيام بمهمات أقل عدداً، وأقصر زمناً، وبصورة عامة كنّا ننفذ المهمات في شاحنات بدلاً من أن ننفذها سيراً؛ لأن درجة الحرارة، ونحن نقترب من شهر حزيران (يونيو) صارت أشد من أن تحتمل. لقد مات جنديان أميركيان نتيجة جلطة قلبية. أحدهما كان في مهمة يقود شاحنة، كما قيل لنا: إن «دماغه تعرّض للشوي»، أمّا الآخر فقد كان يقوم بالدورية في الشوارع تحت شمسٍ حرارتها لا تحتمل فأُغمي عليه ولم يستعد وعيه. كان هناك سببٌ إضافيٌّ بالنسبة للدوريات المتوترة هو أن كميات الماء المتاحة لنا كانت متدنية، وأن نصيب الجندي من الماء كان محدداً بكمية ليترين في اليوم.

إن الدوريات في تلك الأيام كانت تتألف بصورة عامة من جولة بالسيارة مدة ساعة أو نحو ذلك، وإقامة نقطة للإشراف على السير مدة تقارب

ثلاثين دقيقة، وبعد ذلك العودة إلى القاعدة للحصول على استراحة. كنّا نفعل ذلك مرة كل يوم، ثمّ مرة أخرى في الليل. إضافة إلى ذلك، كنّا نقوم بالدورية صباح كل يوم على مسافة من الطريق الرئيسة رقم 10 للتأكد من عدم وجود مقاومين يتربصون لنسف سياراتنا. إحدى تلك المهمات الدائرية كانت نموذجية لانتشارنا، حيث كنا نقوم بالدوريات لمجرد التأكد أن الدورية ذاتها لم تكن تتعرض للنسف. ولكن ما من أحدٍ فكر بالتحقيق في ذلك، أو على أقل تقدير أن لا يفعل ذلك علناً.

ما إن يتم تنظيف الطريق الرئيسة رقم 10 مرة واحدة، حتى نقوم بتنفيذ التقاطع على شكل حرف واي (Y)، حيث تتجه الطريق شمالاً، فتنقسم قسمين أحدهما شرقاً والآخر غرباً بمحاذاة نهر الفرات. كانت تلك المنطقة تشهد العديد من الهجمات العنيفة على مختلف وحداتنا وصارت تُعرف باسم طريق الكمين. كانت هذه المهمات اليومية التي اتبعت الإجراء ذاته جزءاً من الروتين الإلزامي الذي كان يبدأ بدوريات كل يوم. ومع أن قادة الفصيلة كان عندهم شيء من التحفظ إزاء كيفية القيام بمهماتهم، فإنه كان عندهم فقط تباينات لكيفية تنفيذ مهمةٍ ما ينفذونها في الوقت ذاته، وفي كل مكان في كل وقت محدد. ولحسن الحظ أننا كنا نقوم بعمل تحرير المكان سيراً على أقدامنا، لأن المقاومين الذين زرعوا المتفجرات كان يبدو أنهم مهتمون بنسف السيارات أكثر من تفجير الجنود على الأرض. مع ذلك كنا كلما حررنا الطريق الرئيس رقم 10 والتقاطع بشكل (Y)، كنت أعود إلى القاعدة وأحمد الله، لأنه أتاح لي أن أعيش يوماً آخر.

والآن أدرك الناس أن الرصاص له وجهتان في الحرب، والمواقف التي كانت هي السائدة عندما عدنا إلى الأردن قلما سمعنا عنها. كل واحد

منا كان يريد الذهاب إلى الوطن. هذا الموقف الجديد كان الدليل إليه الشائعات التي انتشرت في الوحدة عن كيفية محاولة هذا السياسي أو ذلك الضابط أن يبذل جهده لخروجنا من العراق. كنا نسمي هذه الشائعات «جبنة» «Cheese» وهكذا إذا افترض أي واحد منا أخباراً بشأن خروجنا من العراق كان يعلن ذلك بالقول: «هل تخمنون ما هي آخر جبنة؟» كان ذلك تتبعه عادة قصة عن كيفية أن عضواً ما في مجلس الشيوخ في الوطن وجه رسالة إلى وزارة الدفاع (البنتاغون) يسأل فيها ما الداعي إلى بقائنا في العراق هذه المدة الطويلة، وكيف حدث هذا، وكيف حدث ذلك؟ ولم يسفر هذا كله عن أي شيء سوى شائعة فارغة.

وربما بسبب اقترابي المستمر إلى الموت، وبعد فقدان الأمل في أن ينقذنا شخص ما في الوطن من الحرب، شرعت أُسلِّم جسدي وروحي إلى الله كل يوم. قبل الذهاب إلى العراق، لم أمارس قط الصلاة فعلياً وبقي إيماني معظم الوقت على السطح. إن كوني في بيئة قتال قد بدّل الأشياء. فقبل كل مهمة وبعدها، وقبل الذهاب للنوم، كنت أتلو دائماً صلاة قصيرة. في أول الأمر كانت هذه الصلاة رجاء بسيطاً إلى الله أن يتيح لي أن أرى ابنتي سامانثا مرة واحدة أخرى. ولكن مع مرور الزمن، توسعتُ في صلواتي، سائلاً الله السلامة والخير لكل الجنود في وحدتي، ثم صرت أشرع في الصلاة من أجل جميع الجنود في العراق وعائلاتهم. وقبل وقت طويل صرت أصلي لعائلات العراقيين الذين قتلوا خلال قيامنا بمهماتنا. ثم إنني في أحد الأيام أدركت أنني أصلي حتى من أجل أعدائنا، ومن أجل نهاية العنف في العراق، وبعد ذلك من أجل نهاية الحرب كلها.

ومع أنني كنت أنتسب معظم حياتي إلى مدارس كاثوليكية، وكنت دائماً أعدّ نفسي كاثوليكياً، فإنه لم تتم معموديتي في الكنيسة. فذات يوم سمعت القس في الكنيسة يعرض أن يقوم بممارسة معمودية الجنود في القصر. ومع أنني حاولت عدم مغادرة قاعدتي إلا عند الضرورة الماسة، فقد قمت بعمل استثنائي وقررت أن أقوم بالرحلة مع بعض الجنود الآخرين من وحدتي، الذين تمت معموديتهم معظمهم سابقاً، ولكنهم يريدون تجديد الوفاء بقبول المعمودية.

بعد رحلة قصيرة ومتوترة بالسيارات عبر المدينة، نزلنا من الشاحنات وذهبنا لمقابلة القسّ. تلونا صلاة قصيرة، وبدّلنا قمصاننا التي قدمها لنا الجيش والقمصان ذات الأكمام القصيرة، ومشينا في الساحة الخلفية للقصر الرئاسي الذي دُمِّر معظمه. عند وصولنا إلى حافة الساحة مشينا فوق ممر مرصوف بحجارة لونها كلون الرمل بجانب النهر، إلى أن وصلنا إلى منطقة، درجاتها تقود إلى الماء. كان القس يُغطسنا واحداً بعد الآخر في الماء مدة قصيرة، وهكذا تعمدت وأنا في السابعة والعشرين من عمري، في مياه الفرات التي جاء ذكرها في التوراة.

إن اقترابي من الله منحني شعوراً متجدداً بارتباطي مع أشخاص زملاء، ولكن ذلك لم يكن يعني أنني أقل قدرة على ضغط مقداح بندقيتي إذا شعرت أن حياتي أو حياة الذين من حولي كانت معرضة للخطر. في حالة الخطر الشديد أحياناً كنت أشعر بنشوة، وعندها كان الشيء الوحيد الذي كان يهمني هو نجاتي من الموت، وكل شيء غير ذلك كان يختفي من وعيي.

تصاعدت هجمات المقاتلين وتعددت في الرمادي، فصرنا نشتبه في أن أي توقف يؤدي إلى العنف، وذلك جعلنا نحسبه إنذاراً بالإعداد لشيء كبير. وصلت الأمور إلى حد أني لم أعد أتمكن من الاسترخاء ما لم أكن خارجاً لمهمة. لدى العودة إلى القاعدة كنت أتوقع باستمرار كارثة بل أتوقع الموت، وكلما سمعت صوت انفجار كان يغمرني نوعان من الخوف: الخوف من استدعاء فصيلتي للرد على أي شيء يكون قد حدث، والخوف من أن يكون شخص أعرفه قد تحوّل إلى قطعٍ بسبب قتله. وكانت اللحظات الأشد معاناة بالنسبة لي هي لدى مغادرتنا القاعدة؛ للقيام بعمل الدورية. كنت أجلس في مؤخرة الشاحنة وأحياناً على مقعد قرب سائق الشاحنة، بينما كان عقلي مستغرقاً في التفكير في الرعب والهلوسة والموت المؤلم في القتال.

كان من عادة فونيز أن يقول: «لا تقلق كثيراً أيها الرجل. سنكون بخير». كان يبدو أنه يملك القدرة على قراءة المخاوف وعوامل القلق على وجهي، ربما لأنه كان هو أيضاً يشعر بها.

كنت أقول: «أعرف» ولكن مستوى توتري لا ينخفض حتى نغادر القاعدة بالسيارة عبر البوابة وحشو بنادقنا بالرصاص.

ما إن نخرج فعلاً للقيام بالدورية كانت الأشياء تتحسن وكنت أستعيد بعض الشعور بأني مسيطر على الوضع، وكنت أرى أين وصلت فرقتي وهل يواجه جنودها المنطقة ويتفحصونها بأبصارهم وأسلحتهم، وكان بإمكاني أن أرى الطرق وأن أقرر أي دروب أسلكها وأي أمكنة يجب أن أتجنبها. بل إني أحياناً كنت أسترخي بما فيه الكفاية لأستمتع بالمشهد. وكنت أستمتع برؤية الناس على الشوارع وأركّز على محاولة قراءة التعابير

على وجوههم. وقلما كان يسرهم أن يرونا، وهذا كان مفهوماً لأننا، عندما تتصاعد مقاومتهم، كنا نتبنى عدداً من التكتيكات الهادفة إلى تقليص خطر الهجوم علينا، ولكن ذلك كان يتطلب القليل من الانتباه لحاجات العراقيين وراحتهم. فعلى سبيل المثال، كنا نسوق سياراتنا على الجانب الخطأ من الطريق الرئيس؛ لتخفيض خطر تعرضنا للصواريخ.

كان ذلك برغم السيارات القادمة على جانب واحد من الطريق، وإبطاء انسياب حركة المرور إبطاءً كبيراً. ولكي نتفادى عرقلتنا بسبب ازدحام السير، حيث يستطيع شخصٌ ما أن يدحرج قنبلة يدوية تحت شاحناتنا، كنا ببساطة نقود سياراتنا على الممرات الجانبية، بحيث نسير بشاحناتنا فوق حاويات القمامة، وكنا نصدم السيارات المدنية؛ لإبعادها عن طريقنا. كان العديد من الجنود يضحكون ويزعقون عند رؤيتهم هذه التكتيكات، ولكن محاولة أهل الرمادي أن يتابعوا أشغالهم اليومية لم تكن مسلية إطلاقاً، بينما يستمر الاحتلال، كما تستمر تعاستهم من جراء وجودنا الملموس والمتزايد. حتى إن الأولاد الذين كانوا سابقاً ذات مرة يتراكضون إلى جانب شاحناتنا، رافعين أصواتهم وملوحين بأيديهم مرحين، أخذوا الآن فقط يراقبونا صامتين ممتعضين. بعضهم كانوا يرفعون أيديهم في الهواء إشارة إلى أنهم يريدون أن نغادر، أما نحن فكنا نلوّح لهم بأيدينا، محاولين أن نبدو مسرورين، وكنا نهز أكتافنا وكأننا نقول: «ماذا يمكننا أن نفعل غير ما نفعل؟» أحدنا كان يشعر بالسخط من حين إلى آخر، مصوباً بندقيته نحوهم صارخاً: «اللعنة عليك أيها الولد!».

ولكن لم يكن كل واحد منهم غاضباً منا، بينما كنا نقوم بدورياتنا. في يوم حار للغاية، وبينما كنا نشعر بالتوتر من جراء حشرنا في حركة السير

openkandil.com

في قلب المدينة، ظهرت فتاة صغيرة من بين المباني عند جانب الشارع. نظرتْ نحونا وكانت تبتسم ابتسامة ساحرة، فجازف جنود كثيرون من حولي بأن يُخْلُوا يداً من أيديهم عن أسلحتهم، باحثين عن آلات التصوير؛ لأخذ صور للفتاة. أما ثوبها الذي كانت ترتديه، ولو أنه قديم وقذر، وضيّق بالنسبة لها، فقد جعلها تبدو كأنها أميرة صغيرة. لم يكن عمرها أكثر من ست سنوات، ولكن بدت وحيدة وهي تجوب الشوارع حافية القدمين. في وسط كل ذلك العنف وأسى الاحتلال، جدّدت رؤية البنت الصغيرة ببراءتها وجمالها، شعوري بالأمل للبشرية.

لسوء حظنا أن حادثاً من هذا النوع كان نادراً، والواقع أن الازدراء والمرارة تجاه الجيش الأمريكي كان يزداد بصورة عامة، وإذا لم يكن الاحتلال بحد ذاته لا يكفي، كان بإمكان المرء دائماً أن يعتمد على حماقة قيادتنا في خلق الظروف التي تذكي سخط الشعب على وجودنا. أحد الأمثلة الخاصة عن مثل هذه الحماقة يظل واضحاً في ذاكرتي.

الأمر كله يبدأ بالإجراء الروتيني لإقامة نقطة التحكم في المرور عند نهاية دورية قصيرة. قرر الرقيب وليامز أن يقيم نقطة التحكم بالمرور بالقرب من أكبر جامع في المدينة، وهو مسجد مثير للاهتمام وأرفع مكانة من المنازل الوضيعة في منطقته، الواقعة في الوسط بين قاعدتنا ومركز مدينة الرمادي. ومع أن نقطة التحكم في المرور لم تكن أول نقطة يفترض أن نقيمها بالقرب من جامع، إلا أنها أغاظت السكان المحليين الذين عدّوها إهانة لديهم. هذه العملية بالذات كانت لها صورة عالية؛ لأن الرقيب وليامز أصرّ على جلب مدافع هاون مع فصيلتنا مع شاحنة إضافية، لاستخدامها في حجز الناس وحراستهم نتيجة لذلك امتدت نقطة التحكم في المرور على كامل طول المسجد.

في مطلع بهيج لإحدى الأمسيات كان هناك صفان طويلان من السيارات المنتظرة العبور من نقطة التحكم في المرور بعد تفتيشها. وخلافاً لطريقة تعاملنا مع مثل هذه المهمة سابقاً، قرر قائد فصيلتنا هذه المرة إبقاء السائقين والركاب ضمن محيطنا بعد تفتيش سياراتهم، حتى ولو لم نجد شيئاً يسوّغ احتجازهم.

كان فريق من الجنود مكلفاً بإيقاف سيارات الناس الذين احتجزناهم، وأدى ذلك إلى قيامنا بما يشبه خدمة مِرْأَب السيارات. بعد مرور نحو ثلاثين دقيقة من قيامنا بالعملية، كنا قد فتشنا عدداً كبيراً من السيارات التي كانت الآن مركونة بعيداً عن محيطنا، وحرسنا جمعاً كبيراً من الناس.

بدأت أشعر بالقلق إزاء الوضع بكامله، الذي كان له عدد من الجوانب السلبية. بقينا في مكان واحد مدة أطول مما يجب، وكنا نحتجز عدداً كبيراً من الناس، واضعين إياهم في خطر بسبب قربهم منا. كنا نحن بالقرب من أكبر مسجد في الرمادي، وكنا نحتل شارعاً بكامله. هذه الأوضاع بدا أنها مقصودة لإحداث، مجابهة وعندما أثرتُ أسباب قلقي مع الرقيب ديمارست، أجابني:

«استرح، يا ميخيا، لن يشرعوا أبداً يهاجموننا بالقرب من الجامع».

أجبته: «انقضى على وجودنا هنا أكثر من ساعة، وأفكر الآن أنها ليست مسألة كم من الوقت تتيح لهم متابعة الاستعد...» دون أن يكمل الكلمة.

قاطعني ديمارست، وهو يبتسم: «أنت شديد القلق أكثر من اللازم، ياميخيا».

وصلت في تلك اللحظة في سيارة دورية مجموعة من ضباط الشرطة العراقية الذين تخرجوا حديثاً. إن بنادقهم من نوع (AK - 47) وبزاتهم ذات اللون الأخضر الغامق قد جعلتهم يبدون رجال جيش أكثر من كونهم رجال شرطة. وجدوا بقعة قريبة من مجموعة المحتجزين، الذين كانوا يتبادلون الحديث، بعضهم يدخن، وبعضهم الآخر يضحكون ويتبادلون الطُّرف، وكان جلياً أن غيرهم كان يزعجهم الموقف.

كان عملي تلك الليلة أن أقوم بالدورية عند نقطة التحكم في المرور للتأكد من عدد أفراد فرقتي الذين كانوا جميعاً منتشرين بالتساوي عند الشاحنات، للقيام بتوفير الأمن للسيارات. وعندما سرت على الشارع صعوداً وهبوطاً صرت أشعر بأن مزاج المنطقة كان يتبدل بصورة دراماتيكية. أما القلائل من الناس الذين تلبثوا داخل الحديقة العامة عبر الشارع الذي يمتد من الجامع فنهضوا وانصرفوا، وقد توقفت السيارات عن الدوران في الشوارع القريبة، والمحلات التجارية الصغيرة التي كانت مفتوحة أقفلت أبوابها وأطفأت أضواءها. كان هناك رجل يراقبنا من سطح بناية مجاورة مؤلفة من ثلاثة طوابق، منذ لحظة وصولنا، ولكنه انصرف أيضاً.

بعد ساعة ونصف الساعة من نقطة مراقبة السير، سمح وليامز للمحتجزين بالذهاب إلى منازلهم، ولكنه بدلاً من إنهاء المهمة عاد لاحتجاز المزيد من الناس، بلا سبب واضح، كان الاختصاصي سيمبسون Simpson، وهو أحد المسؤولين عن مدافع الهاون، يحرس هذه المجموعة الجديدة، مصوباً بندقيته نحوهم وهم جالسون عند ممر جانبي. كنا نحن الاثنان نقف بجانب الممر الجانبي، بين اثنين من شاحناتنا، وعندها أفسد صوت مدفعٍ رشاش صمت تلك اللحظة.

إن ما رأيته بعد ذلك كان شيئاً ما زال حتى اليوم يحيرني. فقد انطلقت سيّارة ببطءٍ على الشارع وتوقفت إلى القرب من المكان، حيث أقف أنا وسيمبسون. كانت السيارة محاطة بهالة نور باهتة، هي نتيجة شرارات كانت تغطّي سطح السيارة؛ لأنها رشة من الرصاص الذي أصابها. القول بأن فصيلتي هي التي أحاطت تلك السيارة بالنور كان صحيحاً فعلياً. فالسيارة كانت تتوهج من جراء الرصاصات التي أصابتها.

تطلع سيمبسون وأنا الواحد منا إلى الآخر مدة لمحة قصيرة عندما كان سائق السيارة يرتعش مع كل رصاصة اخترقت جسده. خطرت لي الفكرة أنه قد يكون شخصاً ما آخر يختبئ داخل السيارة، منتظراً اللحظة المناسبة لرمينا بقنبلة يدوية. أو لعلّ السيارة بكاملها كانت سيارة مفخخة. لا شيء من ذلك كان يهمنا فعلاً. فمهما كان من أمر الجنود الذين في فصيلتي عندما أطلقوا النار على ذلك الرجل فإن هذا كان أمراً يمكن التثبت منه لاحقاً. أمّا في الوقت الراهن فقد كان ذنبه هو حقيقة كونهم يطلقون النار عليه.

لا شيء كان يعني فرقاً لسائق السيارة، الذي كان آنذاك قد مات فعلاً، مع ذلك مازلت أرفع بندقيتي وأطلق النار عليه. كان ذلك ردّ فعلٍ أوتوماتيكياً، وكأنه مشعل إنسان آلي، مثل الردّ المبرمج الذي لا يشتمل على أي مشاعر بشرية أو تفكير بشري. رفعتُ البندقية، وبدأ الإصبع يضغط مقداح البندقية، وكان هناك شحوبٌ في رؤية عينيَّ.

عندما هدأ إطلاق النار تحركتُ انفعالياً، ووقفت خلف إحدى شاحناتنا؛ لعلّي كنت أسعى إلى مكانٍ يحميني، أو الأرجح أنني كنت أبتعد

openkandil.com

عن مشهد الرجل الذي قُتل لتوّه، وكان رأسه معلّقاً من عنقه. آنذاك أدركت أن مانتيلا كان يُطلق النار على المباني عبر الشارع، فسرت نحوه قائلاً: «مانتيلا، بحق السماء على ماذا تطلق النار؟».

قال بصوتٍ غائبٍ وبالشحوب نفسه في البصر الذي أُصبت به قبل لحظة: «لا أعرف. هناك جميعهم يطلقون النار على تلك المباني».

تطّلعت باتجاه ما كان يواجهه هو ورأيت فوهات بنادق تلمع مع وصول كل رصاصة نحونا. آنذاك فقط أدركت أننا نتعرض لهجومٍ جسيم. صوّبت سلاحي، وانضممت إلى مانتيلا في الردّ على الرصاص، ولكنّ إطلاق النار توقف على الفور. حسبت أن القتال بالرصاص قد انتهى، فاتجهت نحو بداية تشكيل سياراتنا؛ بحثاً عن إستيم Estime وهودجز، وهما كانا ملحقَينْ بوليامز لتنفيذ المهمة، أولهما كان سائقاً، أمّا الثاني فكان يطلق النار من الرشاش المنصوب على السيارة، ولكن عندما وصلتُ إلى سيّارتهما الهمفي لم يكن هناك ما يدل على وجودهما.

كانت خطتي أن أسير نحو خط نقطة مراقبة التحكم بالحركة من الأمام إلى الخلف؛ لكي أتأكد أن جميع جنود فرقتي بخيرٍ، وثمة دليلٌ على وجودهم. ولكن السير بهذه البساطة تبين أنه أصعب مما كنت أتوقّع. آخر شيء خطر ببالي هو أننا سنتعرّض للهجوم مرّة أخرى. في كل مناسبة سابقة عندما كنّا نتعرض للهجوم، كان المقاتلون يستخدمون تكتيكات «الضرب والهرب»، ولم يبقوا أبداً في المكان من أجل الجولة اللاحقة. يبدو أن الأمور اختلفت قليلاً هذه المرّة.

خلال عودتي سيراً على الخط؛ بحثاً عن بقية أفراد فرقتي شاهدت مجموعة من الجنود يهتمون بشخصٍ ما ملقىً على الأرض. كان ذلك هو

الاختصاصي كاردينـاس Cardenas الذي يتعامل مع سلاح SAW وهو جندي في الفرقة الثانية. كان قد أصيب برصاصة في ساقه وكان أفراد الفرقة ينقلونه إلى مكان آمن، حيث يمكنه أن ينتظر، حتى يهتم به الفريق الطبي في سريتنا.

فكرت في أن أساعد في نقل كاردينـاس، ولكن كان هناك أربعة جنود يهتمون بذلك، وهذا أكثر مما يكفي. واصلت السير، وكنت ما أزال معنياً بالعثور على كل جندي في الفرقة خلال مواصلتي السير.

قال شخص ما من القائمين بأعمالٍ سرية: «مرحباً، أيها الرقيب ميخيا، هل عندك ضمادات؟».

الذي كلمني كان الرقيب أول شوي Chuy، وهو قائد فرقة مدافع الهاون. كان يعالج عراقياً أصيب بالرصاص خلال انتظاره ريثما الإفراج عنه بعد أن تم تفتيش سيارته وسمح له بالذهاب. بحثت عن المحفظة التي أضع فيها الضمادات. كان يفترض بنا ألاّ نستعمل معداتنا الطبية لمساعدة أي شخص آخر غيرنا، لا سيما إذا لم يكن جندياً أمريكياً، ولكن تبيّن أن شوي قد استعمل ضماداته لمساعدة مدني عراقي آخر أصيب بجرح.

سألتُ، وأنا أرمي له الضماد: «ما خطبه؟».

قال، وهو يقضم اللصاق لفتح الضماد: «جرح في المعدة».

بدا أن الرجل كان يعاني من ألم شديد، ولكنه كان واعياً ومدركاً تمام الإدراك مايحيط به. كان يتحدث مع شوي باللغة العربية وأبدى فهمه لتحديقي به بانحناء ضعيف من رأسه. على بعد أمتار قليلة ركضت نحو الاختصاصي آيبو Ibaugh.

obeikandl.com

هتف قائلاً: «أيها الرقيب ميخيا، هل بإمكانك المجيء هنا؛ ليس بإمكاني أن أقوم بهذا العمل».

كان يحاول استعمال قاذفة من طراز (AT- 4)، وما كان استعمال سلاح من هذا القبيل إلا في سيارات مصفحة تصفيحاً خفيفاً. ولكن لا يستعمله أشخاص. ولا أحد كان يهتم بأشياء من هذا القبيل في العراق. وإذا ما تعرضت وحدتنا لهجوم، كنا نرد على النار بكل ما عندنا من سلاح، وحتى إذا لم نكن نحمل ما يُعدّ دون السلاح الكامل للقتال، كنا دوماً نملك التفوق في النار على العدو.

حاولتُ أن أساعد آيبو في استعمال سلاح (AT - 4) دون جدوى. كانت مناظير القاذفة مختلة وآلية المقداح لم تكن تعمل. قلت مخاطباً آيبو إنني سأعود لمساعدته بعد حين، بعد أن بحثت عن كل فرد من الفرقة، واستأنفت مسيرتي.

سمعت صوتاً يقول: «مرحباً! مرحباً!».

تطلعت من فوق كتفي اليمين، فرأيت الرجل الذي كان يصرخ نحوي. كان جالساً على مقعد سائق سيارة صغيرة بيضاء من طراز فولكسفاغن باسات Volkswagen Passat، كان يجلس بجانبه رجل أكبر سناً بدا أنه يرتدي رداءً أبيض مما يرتديه الشيعة. كان رأسه منحنياً قليلاً، وبدا أنه غارقٌ في أفكاره، محدّقاً في أرضية السيارة. تمكنت من رؤية شخص آخر على المقعد الخلفي، بدا أنه نوعاً ما أكثر وعياً لما يجري، ولكنه لم يتفوه بكلمة لي، أو لأي شخص آخر، واكتفى فقط بالجلوس هناك، بينما كان سائق السيارة مستمراً في محاولته لفت انتباهي.

obeikandi.com

سبق لي أن قرأت مؤخراً تقريراً مخابراتياً لإحدى الوحدات الأخرى العاملة في المنطقة، مفاده أن جندياً أصيب برصاصة في وجهه خلال القيام بمهمة نقطة التحكم في السير. وبحسب التقرير اقترب الجندي من سيارة بعد أن طلب رجل عراقي المساعدة، مدعياً أن واحداً من ركاب سيارته مريض مرضاً خطيراً، وأنه بحاجة إلى نقله فوراً إلى مستشفى. وعند التفات الجندي بعيداً عن السيارة؛ ليتحدث مع رئيسه، أمسك شخص جالس على مقعد المسافر مسدسه وأطلق النار على الجندي. في تلك اللحظة بدأ قتال بالرصاص بين الجنود المشرفين على نقطة التحكم السير من جهة وأشخاص من سيارتين أو ثلاث سيارات كانت تنتظر تفتيشها، من جهة أخرى.

الآن ألفيت نفسي في وضع مماثل. كان من شأني بغريزتي أن أطلق النار على هذا الشخص الذي يريد لفت انتباهي. إنه يريد قتلي، وهذا أول ما تبادر إلى ذهني. لم أعد أتمكن من سماع صوته، ولم أكن أحاول أن أميّز بين الإنكليزية والعربية، ولم أهتم بما كان يقول لي. كنت أرى أنه في حالة بؤس، ربما كان يعاني من ألم مبرّح. ولكن كل ما تمكنت من سماعه في رأسي هو صوتي أنا.... إنه يريد قتلي. رفعت بندقيتي ببطء دون أن أقترب كثيراً من السيارة. استمرت نداءاته، غير المفهومة، والغريبة عني ولا شأن لي بها.

فجأة ناداني صوت آخر، إنه شيء مألوف أكثر من غيره. كان صوتاً عالياً أستطيع سماعه، ولكن ليس عالياً إلى حد يجعلني قادراً على رد الفعل. في تلك اللحظة، أولويتي الوحيدة في الحياة هي الحياة ذاتها، حياتي، وبقائي حياً كان يتطلب أن أقتل هذا الرجل قبل أن يقتلني.

openkanal.com

إن السنوات الثماني التي أمضيتها متدرباً في سلاح المشاة كانت لها طريقة لجعلي أتولى المسؤولية في مواقف من هذا القبيل، وصرت مرشداً بصورة آلية. أخذت أنظر من خلال فوهة بندقيتي (m - 16) مغمضاً عيني اليسري، بينما أصبعي يشدّد على المقداح. وشعوراً من الرجل بالخطر الرهيب من وضعه، صارت صرخاته أعلى وأشد يأساً، ولكني لم أشعر بالندم، أو التعاطف، ولم أشعر بأي شيء، كل الصراخ من شأنه أن ينتهي في لحظة.

«الرقيب! الرقيب! توقف! توقف! توقف!».

رفعت رأسي من خلف نافذة البصر، وأبعدت أصبعي عن مقداح البندقية، ولم تبتعد عيناي عن السيارة، وظلت بندقيتي مصوبة إليها.

«إنهم جرحى، أيها الرقيب، لا تطلق الرصاص عليهم. يريد الرجل أن يخبرك بشيء».

لم أعرف أبداً الذي حال بيني وبين قتل أولئك الناس. كان صوته مألوفاً لأنه كان يكلمني باللغة الإنكليزية، وقد حاولت المرة تلو المرة دون جدوى أن أعرف هوية الشخص الذي أعادني إلى حالة من الوعي البشري. وأياً كان هو، فإنه أنقذ حياة أكثر من ثلاثة رجال في تلك السيارة، إذ كنت أعرف شدة الأسى، حين أعيش مع نفسي، بعد أن أكون قتلت ثلاثة أشخاص غير مسلحين، واثنان منهم جريحان.

قال السائق: «ياسيد، ياسيد، المستشفى من فضلك».

وقد تبدى الشعور بالراحة على وجهه.

خاطبتُ ويليامز بالجهاز اللاسلكي: «اثنان ـ ستة، هنا اثنان ـ واحد. أمامي شخصان جريحان في سيارة. السائق يرجو السماح لهم بالذهاب إلى المستشفى».

أصرّ الرجل، وهو يلوح بيديه إلى الأمام؛ ليشير إلى أنه قادر على إيصالهم بسيارته إلى المستشفى: «ياسيد، ياسيد، أنا أوصلهم إلى المستشفى. من فضلك ياسيد».

قلت: «إنهم يستطيعون الوصول بسيارتهم، ويبدو أنهم يرجون السماح لهم بالمغادرة، حوّل».

كان جواب ويليامز لاسلكياً: «الجواب سلبي، اثنان ـ واحد. ليس مسموحاً لأحد أن يغادر المنطقة قبل أن أسمح بذلك. أخرجهم من السيارة».

«سيد ،سيد ، من فضلك».

قلت مخاطباً اثنان ـ ستة: «روجر».

كان صوت الرجل يدل على اليأس عندما قال: «المستشفى، من فضلك، ياسيد، ولكنني في تلك الليلة كنت ألتزم بالأوامر.

قلت له بصوت حازم، وهو يبيّن لي أنه يريد أن أساعده في فهم الأمر: «اخرج من السيارة» قلتها مرة أخرى بصوت أعلى، ولكن الرجل ظل مصراً على رجائه.

«ياسيد، من فضلك» تابع هذا الرجاء مرات عديدة. لم يتمكن من فهمي. الرجل الذي بجانبه كان مصاباً بجرح خطير، وكنت أرى ذلك الآن، وأن لديه الوسيلة لنقله إلى المستشفى للمعالجة. وكنت أنا العقبة

الوحيدة، وأنا أقف أمامه وسلاحي ممتلئ بالرصاص، وقد أبلغته أنه لا يستطيع الذهاب إلى أي مكان. لكنه تابع الإلحاح: «الرجاء، الرجاء، الرجاء، يا سيد، المستشفى».

صرخت: «اخرج من السيارة».

«رجاء، ياسيد»

«اخرج من السيارة» وبدات أرفع بندقيتي مرة أخرى.

قلت: «اخرج من السيارة» وخفضت صوتي، مستخدماً بدلاً من الصوت سلاحي لتخويفهم.

عند ذلك تكررت الأمور مرة أخرى، وهذه المرة بانفجار. لم أتمكن من رؤية الانفجار، ولكني شعرت بموجة الصدمة، مما عرفت لاحقاً أنها قنبلة يدوية.

بدأت أعود إلى الوراء رافعاً بندقيتي، ولكن لم أعد أصوبها نحو السيارة، بل نحو البناء الذي ينطلق الهجوم منه، وهو البناء ذاته الذي صدر منه الرصاص سابقاً.

كان الرصاص يمطرنا مرة أخرى، ومرة أخرى كنا نرد على الرصاص، أخذنا الآن نطلق قذائف عالية المفعول من قاذفات قنابل. كانت المباني تضاء كلما انفجرت قنبلة عبر نوافذ الأبنية. وكانت المواقع المستهدفة أسطحة المباني، ولكن قربنا من المباني جعل من المستحيل أن نصيب الأهداف بالقاذفات. وباختيارنا أفضل هدف آخر، بدأنا استهداف النوافذ. فإذا كان أحد ما موجوداً على أراضي المنازل كان من المؤكد أن ننهيهم كلياً.

obeikandi.com

تطلب مني التحرك إلى الوراء جزءاً من لحظة؛ لكي أجد مكاناً آمناً، ولم أكن قادراً على تحديد هوية أي أمكنة واضحة للأعداء، ولكن اختبأت مرة خلف شاحنة، وأطلقت بضع طلقات نحو أحد الأسطحة. أطلقت الرصاص ببساطة في الاتجاه العام، والسبب الأول هو أن إطلاق النار كان الشيء الذي لا بد لي من فعله في تلك اللحظة. كان هناك شخص ما يقف من بعدي يطلق النار. مرة أخرى كان هذا الرجل هو مانتيلا.

خاطبني قائلاً وهو يشير إلى الجزء الأدنى من صدريته وفيها ثقب من جراء رصاصة: «اللعنة لقد أصبت برصاصة. لم تعد صدريتي تحميني».

سألته، وقد رأيت في أنه كان محظوظاً حين أصيب بالرصاص في ذلك اليوم، وليس قبل يومين عندما لم تكن لدينا صدريات جديدة: «هل الإصابة كبيرة؟» إن إصابته بالرصاص من بندقية (AK - 47) في الجانب الأيسر من بطنه كان من جرائها أن تسبب له ضرراً خطيراً.

قال: «كلا، شعرت فقط بجرح ضئيل».

توقف إطلاق النار للمرة الثانية، فشاهدت الرجل الذي طلب السماح له بالذهاب إلى المستشفى قد خرج من السيارة وجلس إلى جانب الطريق مع اثنين من رفاقه.

إن المترجم الذي سافر معنا ذلك اليوم كان شخصاً مصرياً، بدا أنه يشبه كثيراً السيد ماغو M.Magoo وهو شخصية كاريكاتورية، إذ كان قصير القامة، مستدير الوجه، يضع نظارة سميكة تجعل عينيه تبدوان ضخمتين.

opeikandi.com

أخبرنا في وقت لاحق أن الرجلين المسنين اللذين كانا في سيارة Passat البيضاء هما عم ووالد السائق. رأيت أنهم خرجوا من السيارة واختبأوا خلف إحدى شاحناتنا، قررت أن أتابع السير على الطريق.

بدا أن هناك مدنيين جرحى في كل مكان تطلعت نحوه، وفي نهاية نقطة التحكم في خط السير، كانت هناك سيارتان للشرطة العراقيين، وقد استعملهما رجال الشرطة للاختباء داخلهما إذا تعرضوا للهجوم. كنت أنطلق إلى سيارة الدورية هذه عندما شاهدت رجلاً يركض قادماً نحوي، لقد كان هو الرقيب غاليغوس.

قال وهو يتعرق بقذارة: «مرحباً أيها الرقيب ميخيا بيريز وأنا بخير. لدينا كل المواد الحساسة». كان يقوم بعمله بصفته قائد فريق.

قلت: «روجر، عمل جيد يا غاليغوس، هل شاهدتم فونيز وبيان إيم؟».

وقال، وضربات قلبه تزداد: «نعم إنهم عند نهاية هذا الخط، جالسون في خلفية آخر شاحنة».

تابعت عمل التفتيش، ومررت بالقرب من شاحنة أخرى، حيث شاهدت الاختصاصي بيريز، الذي كان يغطي جسده بالعديد من الصدريات. بعد تسلم الصدريات الجديدة قررت سريتي استعمال الصدريات القديمة وبعض الملابس الإضافية من أجل الحماية، مع أن هذه في الواقع لم تضف الكثير من الحماية. وضعنا حول موقعنا أكياس رملٍ لاستيعاب انفجار القنابل عند جوانب الطرق.

سمعت صوتاً يصرخ عند مروري بالقرب من خلفية الشاحنة التي كان يجلس فيها بيريز، يقول: «مرحباً يا ميخيا، تقدم وساعدني في التعامل مع

هذا الرجل». كان الرجل المشار إليه هو طبيب الفصيلة، الذي كان واحداً من قلة من الجنود الذين كانوا ينادونني باسمي دون أن يضيف إليه كلمة: «أيها الرقيب».

سألته بصوت عالٍ: «ماذا تفعل هنا في مكان مكشوف؟».

قال: «أحاول أن أحافظ على هذا الرجل حياً». التفت الطبيب برأسه إلى الوراء نحوي وكان يجلس عند الطريق في مواجهة المباني التي صدرت منها الهجمات السابقة.

كان هناك رجل عراقي مدني جريح، بدا أنه ميت أكثر مما هو حي، وكان عاجزاً عن موازنة الجزء الأعلى من جسده في وضع الجلوس.

سألته، وأنا أزداد اقتراباً منه: «ما خطب هذا الرجل؟».

قال: «جرح في الصدر. حدثه واسأله ما اسمه». كان هذا كلام الطبيب، وعلى الفور خلت أنه يحدثني، ولكني سمعت صوت شخص آخر خلفه مباشرة.

«اسمك؟» كان السائل هو السيد ماغو الذي كان يسأل الرجل عن اسمه باللغة العربية. لم يسمع أي جواب.

قلت للمترجم: «إنك بالتأكيد بحاجة للوقوف في مكان يحميك» ثم قلت للطبيب: «وأنت أيضاً ياسونين شين Sonnen Schein».

تابع الطبيب كلامه للعراقي الجريح: «هلم واجلس معي. نستطيع أن نفعل ذلك، وإياك أن تموت بين يدي».

قلت، موجهاً كلامي إلى سونين شين: «نحن هنا محميون». وبدا سونين شين أكثر اهتماماً بحياة الرجل الجريح.

obeikandi.com

تابع المترجم الكلام مع الرجل باللغة العربية، وقد كاد الرجل يفقد الوعي، ويبدو كأنه يقترب من الموت، وكلما حاول أن يتنفس بدا الهواء وكأنه يخرج من ثقوب عديدة من جسمه.

قلت، مخاطباً سونين شين: «لابأس، دعنا ننقله. أما أنت فاجلس وراء تلك الشاحنة» وكان هذا الكلام الأخير موجهاً إلى المترجم.

قال سونين شين: «أمسك أنا بذراعيه، وأمسك أنت ساقيه».

عندما وضعت سلاحي على كتفي الأيمن، وأمسكت بساقَي الرجل، وأخذنا نحاول نقله شرع الإعداد لهجوم جديد.

«أسرع يا سونين شين، تحرك بسرعة».

صرخ الطبيب قائلاً: «إنني أتحرك».

في نهاية الأمر وضعت الشخص المدني وراء مكان لحمايته، وبقي معه سونين شين والسيد ماغو محاولين أن يوفرا للرجل بعض الغذاء.

بقيت بالقرب منهم، واضعاً نفسي وراء الدواليب الكبيرة للشاحنة؛ ظناً مني أن هذا الوضع قد يكون الأفضل. لم تكن هناك حاجة كما يبدو للرد على النار؛ لأني لم أكن أعرف بالضبط في أي اتجاه يجب أن أطلق الرصاص. ولكن إطلاق النار بكثافة انفجر بالقرب مني. لقد كان رجال شرطة مراقبون يطلقون الرصاص من بنادقهم (AK - 47). لم يكونوا يصوبون الرصاص على أي شيء بحد ذاته، بل كانوا يطلقون الرصاص في الهواء فوق رؤوسهم. وخطر لي أن تلك الرصاصات قد تنعكس نحونا وتسبب ضرراً جسيماً، ولكني لم أقل أي شيء.

سمعنا صوتاً عالياً آخر يصدر هذه المرة من الطريق الواقع بيننا وبين مهاجمينا. ألقيت نظرة سريعة، فرأيت سيارة الهمفي الخاصة بالرقيب الأول، التي نصب على ظهرها مدفع رشاش. وكانت السيارة تتقدم، بينما يستمر إطلاق النار على أي شيء يتحرك. في أول الأمر كان إطلاق النار موجهاً نحو البناء الخطأ، ولكن بعد تدمير جانب كبير من هذا البناء انتقل التصويب إلى البناء الذي يحتوي على الأهداف الفعلية التي ما لبثت أن توقفت عن إطلاق النار.

فقمت واقفاً وأسرعت إلى آخر شاحنة في الصف عند نقطة التحكم في السير، حيث وجدت فونيز وبيان إيم اللذين كانا مستلقيين على أرضية الشاحنة، وهما يصوبان سلاحهما نحو جهات أخرى.

سألت فونيز: «هل أنتم بخير؟».

أجاب غاضباً وهو يشير بيده إلى بيان إيم: «هل تستطيع أن تصدق هذا السخيف. إننا نتعرض لإطلاق النار، وهو يصرخ نحوي، وأظن أنه قد جرح وعلى وشك أن يموت، ولذلك توقفت عن سؤاله ما مشكلته؟ يريد مني أن أساعده في إصلاح حزامه».

كان كلامه كله عن بيان إيم، ولكن بيان إيم نظر باتجاهي، وارتسمت ابتسامة على وجهه.

سألت، مستوضحاً عن الأمور الحساسة وأقصد بالدرجة الأولى المناظير الليلية والأسلحة: «هل معكم كل معداتكم؟».

قال بيان إيم وهو ما يزال يبتسم: «روجر، أيها الرقيب»، أما فونيز فقد أومأ برأسه فقط.

بعد لحظات وصلت إلى المسرح قوة رد الفعل السريع التي كانت عائدة تلك الليلة إلى الفصيلة الثالثة. وحال نزولهم من سياراتهم تلقينا الأمر بأن نعود إلى الصعود إلى السيارات. ذهبت لأبحث عن غاليغوس؛ للتأكد من أنه قد سمع الأمر. خلال عودتي على الطريق سمعت صوت الشاب الذي أصيب والده وعمه بجراح.

قال: «من فضلك يا سيد».

نظرت إلى أسفل، كان لا يزال جالساً إلى جانب الطريق، وشعرت لأول مرة بالأسف تجاهه طوال كامل مدة تبادل النار. كان بإمكاني أن أقول: إن والده لا يزال حياً ومالكاً للوعي وهو يغمض جفنيه. كان صدر الرجل المسن مغطى بالدماء، وبدا أنه يعاني من ألم شديد، ولكنه كان أيضاً مسيطراً على نفسه. أما شقيقه فكان مصاباً بجرح في يده اليسرى التي كان يضغطها على جسمه. عيناه مفتوحتان، ولكنه كان يرفض النظر إليّ. كانت ترتسم على وجهه علامات الألم والغضب والكبرياء.

تابع الشاب كلامه، وكان يبدو في أواخر العشرينيات من عمره: «الرجاء، ياسيد» لم يكن مصاباً بأذى، ولكن كان يشعر بأشد الألم العاطفي، قائلاً وهو يتوسل، يكاد كلامه يكون همساً: «من فضلك».

«اثنان ـ ستة، هل تسلمت الكلام؟».

لم تنهمر دموع على وجه الشاب، ولكني كنت أدرك مدة انزعاجه كما ظهر من تعبيره ولهجة صوته. التفتّ من فوق كتفي الأيمن، فرأيت جنود الفصيلة الثالثة، وهم يتخذون مواقع دفاعية.

أما من فوق كتفي الأيسر فكنت أرى فصيلتي تصعد إلى الشاحنات. كان واضحاً أن اثنين ـ ستة منشغلة بشيء آخر .

صرخت نحو جنديين يشرفان على أمن السيارة: «اسمعوا! هل ترون هؤلاء الناس هنا، بإمكانهم الذهاب. لا تطلقوا النار عليهم».

قال أحدهم: «روجر، أيها الرقيب».

قلت للرجل: «اذهب».

سألني، وهو يحرك يديه؛ ليتأكد من أنه يعرف ما أقول: «اذهب!».

قلت وأنا أمدّ إحدى يديّ نحوه: «اذهب، خذهم إلى المستشفى، نعم خذهم إلى المستشفى».

نهض، وساعد والده على السير نحو سيارتهما. كان عمه يشعر بضعف في ركبتيه، ولم يتمكن من السير دون مساعدة. ومع أني كنت حريصاً كأي شخص آخر، على الخروج، رافقتهما إلى سيارتهما. حسبت أني أخشى أن يتعرضا للرصاص بسبب انصرافهما، أو لعلي شعرت بالذنب في كل المسألة. وما إن دخلا السيارة حتى صرخت في الجنود مرة أخرى: «أفسحوا للسيارة، يمكنهما الذهاب».

كان إستيم وهودجز في سيارة الهمفي الأمامية مع وليامز. وكان غاليغوس وبيريز معي في الشاحنة ذاتها، أما آييو فكان مع مانتيلا، وكان بيان إيم وفونيز في الشاحنة الخلفية. وكل واحد في الفرقة جرى الاطمئنان عليه، وكل واحد في الفصيلة نجا سليماً. ولكن لدى عودتنا إلى القاعدة اعتقدت أننا جميعاً كنا نعلم أن الكمين كان علامة على مستوى جديد

من التوتر في المقاومة في الرمادي. فلم يكن ذلك الكمين والقتال بالرصاص الأشد شراسة والأطول مدة تعرضنا له حتى ذلك الحين، بل كان برهاناً على أن المقاتلين قادرون على شن هجمات من مسافة قريبة جداً، وأنهم كانوا مستعدين للقتال جولتين أو ثلاثاً أو أكثر.

في ساعة متأخرة من تلك الليلة، ولدى عودة الفصيلة الثالثة إلى القاعدة، علمنا أن الفصيلة أغارت على المباني التي جاءت منها الهجمات، ولكن دون أن يجدوا أي شيء. لا قتلى ولا جرحى ولا أسلحة، بل ولا أي غلاف مستدير فارغ، وكأنه لم يكن أحد هناك سابقاً.

مجموع العدد غير الرسمي لإحصاء الإصابات في ذلك اليوم كان وفاة سبعة مدنيين، جميعهم وقعوا صرعى في تبادل إطلاق النار. كانت دماؤهم لا تزال تلوث الشارع بعد يوم من تبادل الرصاص، وفي المكان الذي حدث فيه القتال. وفي ضوء الصباح، انكشف أبشع ما تبقى من مخلفات رعب الليلة السابقة. لم يكن قد صدر أمر بإبعاد السيارة التي كانت البادئة في تبادل إطلاق النار، وهو التبادل الذي مات خلاله الرجل. إن جثمانه، وقد أزيل عنقه، كان لايزال على مقعد السائق؛ تذكيراً لكل العراقيين، بأننا نحن أصحاب السلطة. لا أدري أي أسرة ستُستدعى لرؤية هذا المشهد المحزن، علماً بأنهم عندما يبكون على رجلهم المحبوب الذي قتل في ظل أعظم جامع في مدينتهم، فسيبكي جميع سكان الرمادي معهم.

ثامناً

كان يمكن للمرء أن يعتقد بعد فضيحة تبادل إطلاق النار عند المسجد، أن المسؤولين سيغيّرون طريقة قيامنا بالمهمات، ولكنهم لم يفعلوا ذلك. تابعنا البقاء مدة أطول مما يجب أن نبقى في مكانٍ واحدٍ مما يجعل من السهل للعدو أن يتنبّأ بتحركاتنا بعد اتباعنا الطرق ذاتها. ولعل قيادتنا كانت تحاول عن قصد أن تعرضنا للهجوم.

مع انقضاء الأيام والأسابيع بجانب عش النسر سيطر على قلوب معظم الجنود شعور بأن الزمن قد تجمد. كانت الشائعات القائلة: إننا على وشك إعادة الانتشار؛ لنعود إلى الولايات المتحدة، ظلت ترفع الآمال دون جدوى. إن المواعيد النهائية التي كان يجري تحديدها لإعادة السلطة إلى السلطات العراقية المحلية وتخفيض وجودنا، كانت تُحدد وتنتهي. في حين كان واضحاً طوال الوقت أننا نتبنى بالفعل صورة أعلى كثيراً في المدينة. في أثناء ذلك كان ازدراء الناس المحليين بوجودنا يلهب المقاومة التي كانت تتنامى بشكل ملحوظ.

كنا نعلم بالمحاولات المتكررة النشطة من قبل عائلاتنا في الوطن؛ لإقناع الضباط القادة في الحرس الوطني في فلوريدا بإعادتنا من العراق. أثبتت كل محاولات العائلات أنها دون جدوى. فقوة الحرس الوطني تحولت إلى قوة فدرالية، ولم تعد القرارات تُتخذ على مستوى الولاية.

إن احتمال العودة إلى الوطن صار ضوءاً باهتاً في الليل العراقي واستمر بنا المقام بتعاسة في دورياتنا التي كانت تتم بموجب تناوب ثلاثي، نقوم برد الفعل السريع، وبأعمال الحراسة. ولم يكن هناك فرق بين الأسابيع والعطلات الأسبوعية، بل ولم يعد هناك شعور بالأسابيع أو الأشهر، ولا بالعطلات، ولا ببداية أي شيء ونهايته. كنا نشعر فقط بالدورة الكريهة ذات الأيام الثلاثة، المرة تلو المرة.

على مستوى الفصيلة كان أمامنا عدد من الواجبات، إضافة إلى التناوب الذي تنظمه السرية. كان أحد هذه الأعمال تنظيف مراحيضنا السيئة، وهي أبعد ما تكون عن المراحيض الفخمة التي كانت بعض الوحدات الناشطة في العمل تستخدمها في قواعدها، فقد كان علينا أن نتعامل مع براميل معدنية تقسم إلى نصفين، توضع مقاعد المراحيض فوقها. وعند إمتلائها كانت تجرها سيارة قذرة، فذلك ما كان يستخدم مراحيض لنا. وبعدما تُجَرّ هذه البراميل يُسكب الوقود فيها ونشعل النار. وكان علينا أن نحرك غائطنا بقضبان معدنية طويلة؛ لكي نضمن احتراقها بالكامل، بينما كنا نحاول طوال الوقت عدم التنفس أمام الروائح الكريهة. كان يتطلب الأمر ساعات قبل تحويل كتلة القذارة إلى رماد.

كانت هناك مسؤولية أخرى هي إعادة ملء المولّد الذي في الفصيلة بالوقود قبل أن ينفد وقوده. وهذا ما كان يحدث كل نحو اثنتي عشرة ساعة. مع حلول هذا الزمن في عملنا كانت قد أقيمت وحدات تكييف الهواء في كل غرفة تقريباً، وكانت هناك مراوح في السقف، وقد وُضعت مجمِّدة لكل فصيلة من الفصائل يستعمل معظمها لتبريد الماء قبل البدء بالدوريات. إضافة إلى ذلك كان لدى كل فرقة تلفزيون خاص ومشغّل

DVD، بل إن بعض الجنود ابتاعوا حاسبات وألعاباً تعمل على الإنترنت. وهذه كانت متوافرة لدى موقع قيادة السريّة. وهكذا كلما نفد الوقود صار عمل الفرقة المسؤولة عن إعادة تزويد المولد بالوقود عملاً مكروهاً لدى بقية الفصيلة.

كان علينا أيضاً أن نوفر أشخاصاً للعمل مراسلين في المراقبة اللاسلكية لمركز قيادة السرية. ومهمة هؤلاء المراسلين هي تسليم الرسائل إلى الأشخاص الذين في السرية إذا لم يكن إيصالها إليهم لاسلكياً. وإذا تم إبلاغ المراسلين بتعليمات أخرى، استخدم هؤلاء مقرهم للتوصل في ساعة متأخرة من الليل إلى الإنترنت في مركز السرية. والمراسلون بدورهم كان بإمكانهم أحياناً تجنب الخروج في مهمة، وميزاتهم جعلت من الرقابة اللاسلكية عملاً مفضلاً في سائر أنحاء السريّة. وكان الجنود الذين أصيبوا بجروح بسيطة يُكلفون في أحيان كثيرة بعمل في الإشارات اللاسلكية، إذ كان هناك عدد من الأشخاص الذين يبدو أنهم كانوا دائماً يعملون في غرفة اللاسلكي، الأمر الذي يزدريه كثيراً بقية جنود السريّة.

أحياناً، ومع أن هذه الأعمال الصغيرة كانت مخصصة عند وجود أيام دون دوريات، ولم تكن هذه الأعمال متكررة، فقد كانت تمكّن الجنود من الاسترخاء ومشاهدة أفلام على DVD، بل اكتساب الفرصة لتناول المشروبات، حتى وقت متأخر من الليل.

كانت المشروبات الكحولية محظورة، ويستحيل وجودها في مخازن الجيش الأمريكي، ولكن الجنود كانوا يتوصلون إلى طريقة للحصول على مواد جيدة، وحتى في بيئة القتال. معظم المشروبات المُسِكِّرة كان

الحصول عليها من خلال جولات غير مسموحة في المهمات أو من أشخاص محليين يبيعون الكحول ومواد أخرى لذيذة أخرى عند بوابات القاعدة. لكن أكبر مخبأ للمشروبات المسكرة توصلت إليه فصيلتنا كان مفاجأة كبيرة.

عندما رأى قائد كتيبتنا أننا فقدنا العديد من سياراتنا في عمليات هجومية، أمر قادة سريته بتنفيذ مهماتهم، مهما كانت غير تقليدية، بطرق لتجنب المزيد من تدمير المعدات. إحدى نتائج هذا التوجيه أننا بدأنا باستخدام حظر التجول على نطاق عام في البلد من أجل احتجاز الأشخاص الذين يقودون سياراتهم بين الساعة الحادية عشرة ليلاً والساعة الرابعة صباحاً. بعد اعتقال السائقين، كنا نختار السيارات التي أعجبتنا، فنزودها بالوقود من عبوات مصادَرَة، ونقوم بدوريات في سيارات محجوزة، عثرنا داخل خلفية إحدى السيارات المصادرة ـ وهي، حسب ما أذكر سيارة كابريس Caprice زرقاء قديمة ـ على اثني عشر صندوقاً مملوءاً بعلب كبيرة لشراب البيرة، وقد صادرنا معظمها بصورة غير رسمية. في الليلة المقبلة قررت فصيلة أخرى أن تستخدم السيارة ذاتها، فوجدت فيها بقية المشروبات المُسكِرة.

إن معدل نجاح المتمردين في استخدام القذائف قد ازداد بفضل تحسين تكتيكاتهم. أول كمين واجهته فصيلتي أخفق؛ لأن المقاومة فشلت في إبطاء سيارتنا الأمامية؛ لكي تحدد المقاومة توقيتاً دقيقاً للانفجار، والعديد من الهجمات الأولى تعرضت لمشكلات مماثلة. إن هذا الافتقار إلى نجاح أولي أدى إلى فرط الثقة لدى العديد من الجنود الذين استخفوا بسهولة بمهارات المتمردين وتدريبهم وقدراتهم. إن هذا الاستخفاف بالعدو قد

obeikandi.com

تعزز من جراء التمييز والعنصرية السائدين في الاحتلال بكامله. القول: «إن الحاج لا يتمكن من حكم نفسه» أدى بسهولة إلى أن «الحاج لا يستطيع أن يسبب لي أذى».

لم نعرف إلا القليل عن عدم رؤيتنا الآلام المبرحة الأخيرة التي سببتها مقاومة ما بعد الغزو، بالأحرى بداية تمرد شعبي واسع النطاق. وسرعان ما حقق المتمردون تنظيماً حقيقياً، وأخذت هجماتهم تقتل جنوداً أمريكيين وتجرحهم على أساس منتظم. إن أول نجاح لهجوم بالقذائف جوبهنا به في الرمادي، حدث في شهر تموز (يوليو) عام 2003 على طريق دائم الحركة وتستعمله السيارات العسكرية بصورة عامة. قُتل في ذلك الهجوم مدني عراقي واحد وجُرح سبعة آخرون، كانوا جميعهم مسافرين في الاتجاه المعاكس للقافلة الأمريكية التي كانت هي الهدف المقصود. أُصيب أيضاً ثلاثة من قوة رد الفعل السريع الثالثة الأمريكية. واحد منهم فقد ساقه في الانفجار وآخر أصيبت عينه وفقد معظم بصره. أما سيارتهما الهمفي، فقد أصيبت بأضرار لا يمكن إصلاحها. قرر قائد الوحدة المعنية، وهو برتبة عقيد، أن الوقت قد حان للرد على الهجوم؛ ليعرف العراقيون «من صاحب السلطة».

تلقينا أوامر بتعطيل جميع تقاطعات الشوارع الرئيسة في المدينة خلال ساعات منع التجول. أُطلق على هذه المهمة اسم «عملية تعطيل العمل: Operation Shutdown» وكان التفكير هنا أن المهاجمين هم من خارج المدينة، وأنهم يدخلون ويخرجون لزرع قنابل. لكن كان واضحاً لمعظمنا أن التمرد ليس بحاجة إلى استيراد أشخاص من خارج المدينة، فقد كان من الجلي أن المتمردين يعرفون تخطيط المدينة، وأنهم قادرون على الهرب

بالدخول إلى منازل الأشخاص المحليين دون إثارة إنذار. كل شيء كان يشير إلى أن المقاومة هي من تنظيم الأشخاص المحليين. والحقيقة، أن وسيلتنا لمعرفة من هو متمرد ومن هو ليس متمرداً إذا تمكنا من معرفة الأشخاص الذين يحملون أسلحة في المكان الواقع مباشرة بالقرب من حدوث الهجوم. ولكن، بطبيعة الحال، كل شخص تقريباً يملك سلاحاً، والذين استخدموا أسلحتهم ضدّنا في لحظة ما يمكنهم في لحظة أخرى إخفاؤُها، وأن يقفوا في الوقت ذاته بأدبٍ ويقدموا التحية لنا، بينما نسارع للبحث عن منفذي الهجوم الذي وقع لتوّه.

لعل عجز قائد الوحدة الثالثة لرد الفعل السريع عن الرد على الهجمات كان له علاقة بالعدد القليل من الضباط أصحاب المراتب الرفيعة الذين بادروا فعلاً للعمل، وخوف الضباط الأدنى مرتبة من مناقضتهم عندما يخطئون. إن شعورنا بالإحباط هو نتيجة لعجزنا عن الرد على الذين هاجمونا، وهذا ما أدى إلى أنه يرمي ببساطة إلى معاقبة السكان المحليين الذين ساندوهم. وكان هذا جلياً عندما شرعنا نعطل الطريق خلال القيام «بعملية التعطيل».

كانت الخطة التي رُسمت أن تتبّع ذات الإجراءات بما لا يقل عن ثلاث ليالٍ متتابعة. وكانت تلك غلطة كبيرة منذ البداية؛ لأنها قدّمت عنصر المفاجأة. فقد كان علينا أن نخرج كل ليلة في الوقت ذاته وعلى الطريق ذاته، لاحتلال المواقع ذاتها مدداً طويلة. إن التنبؤ بهذا النموذج زاد كثيراً احتمال هجوم بمدافع الهاون والأسلحة الصاروخية، لا سيما أنه لم تُرسل دوريات استطلاع قبل البدء بالمهمة. ولأن كل واحد في الكتيبة كان له دور في العملية، لم يكن باستطاعة أي قوة رد فعل سريع أن توفر

بفاعلية المساندة في حالة وقوع هجوم. خلاصة القول: كنا نعرّض أنفسنا لخطر كبير لتعطيل المتمردين والحيلولة دون دخولهم المدينة التي ما كانوا بحاجة إلى دخولها؛ لأنهم يعيشون فيها منذ أساساً.

كل واحد من وحدتي، وأنا من ضمنهم، تذمَّر من جراء حماقة طريقتنا للقيام بالمهمة، التي كان من الواضح أنها أهملت من قبل تدريب مشاتنا، فلم تنهض بها قدرة القتال التي اكتسبناها بصعوبة، لكن لا أحد كان يجرؤ أن يقول كلمة لقيادتنا.

في أول ليلة من ليالي العملية، تجمعت الفصائل عند بوابة عش النسر نحو الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً. كان لدى كل فصيلة شاحنتان قديمتان غير مصفحتين، إضافة إلى سيارة همفي، وهي أيضاً غير مصفحة، ومخصصة لقائد الفصيلة، وعامل اللاسلكي، وعنصر أمن صغير، وكانت الفصيلة الثالثة الأولى في الانطلاق، إذ إنها كانت مسؤولة عن تعطيل الطريق التي تقع مباشرة خارج القاعدة، تبعتها الفصيلة الأولى، التي توجهت لتعطيل المرور على تقاطع مظلم للطرق الريفية بجانب نهر الفرات على بعد ثلاثة أميال. تُركت فصيلتي لتكون الأخيرة، متوجهة نحو نقطة تلاقي خمس طرق، في منتصف المسافة بين الفصيلتين الأولى والثالثة.

إلى جانب بعض الانفجارات البعيدة، التي أضاءت عن بعد رقعاً من جو الليل، وطلقات رصاص قليلة من وقت إلى آخر، مرت الليلة الأولى لعملية التعطيل دون حوادث. أوقفنا شاحناتنا بعرض الطريق ووضعنا المسؤولين عن تشغيل المدافع فوق الشاحنات؛ لتوفير نيران قامعة للجنود الذين على

obeikandi.com

الأرض. بعد ذلك وضعنا بدائل من الأسلاك المشبوكة على مسافة نحو خمسين متراً أمام موقعنا، وقمنا بتوصيل مشعلات الضوء الكيميائية بها، بحيث تتمكن السيارات القادمة من رؤيتنا بوضوح، كذلك وضعنا أشكالاً مخروطية برتقالية اللون أمام الأسلاك؛ لتراها السيارات المارة، ولافتات كبيرة باللغتين العربية والإنكليزية تنبيء الناس أن الطريق معطلة خلال ساعات منع التجول. وكان عندنا رجال شرطة عراقيون يمكنهم أن يصرخوا للسائقين، طالبين منهم أن يتحولوا عن الطريق.

بقينا عند أماكن تعطيل الطرق حتى الساعة السادسة صباحاً، أي بزيادة ساعتين بعد منع التجول. كان هذا يعني الخروج في دوريات صباحية دون أن ننام أبداً، ولكن لم يعبّر أحد عن شكواه. كنا جميعاً قد تعودنا أداء واجباتنا بعد نوم قليل جداً، والانتقال من مهمة إلى أخرى دون استراحة.

قال الرقيب الأول آدامز Adams، وهو من الفصيلة الأولى، متمتماً معي: «إنه يمتصّنا»، وكان كلامه بُعَيّد عودتنا من أولى ليالي العملية. وتابع كلامه قائلاً: « ولكن لا بد لنا من أن نفعل ذلك.

كنا نتحدث داخل المرحاض، الذي كان يتلظى من جراء حرارته؛ لأن جدرانه المعدنية كانت تمتص الأشعة التي لا ترحم في ساعة متأخرة من الصباح.

تابع كلامه وهو يحمل بيده اليمنى علبة صغيرة تحتوي على مناديل للأطفال: «أمامنا الآن دوريات. لعلك تعرف مبلغ تعب رجالنا. أقصد أن رجالك تعبوا أيضاً، ولكن هذا ما يريدون منا أن نفعل، ولذلك فهذا ما نفعل».

قلتُ: «صحيح، أُمي تقول لي: إن زوجتك تؤدي عملاً جيداً بحرصها على إطلاع عائلاتنا على ما يجري هنا».

أجابني قائلاً: «صحيح، إن مجموعة من زوجاتنا، من ضمنهن زوجة الرقيب الأول، يقمن بعمل جيد بالتعاون مع مجموعة مساندة الأُسر».

«حسناً، أُشكُرْ زوجتك نيابة عني كلما تحدثت معها، أبلغها أنها تقوم بعمل رائع».

«سأفعل ذلك بالتأكيد».

كانت أمي قد أخبرتني أن زوجة آدامز هي واحدة من النساء اللواتي عملن في تنظيم مجموعة دعم عائلات سرية شارلي، ولكنها أهملت إبلاغي أن خلافات سياسية خطيرة بدأت تخلق مشكلات بينها وبين عائلات عسكريين آخرين في السرية. إن حركة قليلة الخبرة قد نشأت بين الأقرباء؛ للمطالبة بعودتنا إلى الوطن. الحجج التي استندوا إليها هي أننا نُشرنا في الخارج مدة أطول مما يجب، وخارج أعمالنا المعتادة كأفراد في الحرس الوطني، وهي أعمال كانت بالدرجة الأولى للإغاثة في حالة طارئة على مستوى الولاية. استندت والدتي إلى الحجج ذاتها بطبيعة الحال، ولكنها أضافت إليها إدانة للحرب، بوصفها حرباً إمبريالية غير مشروعة، طالبت بعودة جميع الجنود الأمريكيين، وليس فقط الحرب في فلوريدا. كان معظم العائلات الأخرى، ومن ضمنها عائلتا الرقيب آدامز والرقيب الأول، تؤيدن الحرب بحماسة.

أنهيت تدخين سيجارتي، ومسحت العرق عن جبهتي بأحد مناديل الأطفال، وغادرت المرحاض شديد الحرارة وتوجهت إلى منطقة فصيلتي.

obeikandl.com

كنا في ذلك اليوم نعمل في قوة رد الفعل السريع منتظرين هل سوف نُستدعى لدعم الدوريات.

لم يكن أمامنا أن ننتظر طويلاً. كنا نتابع فيلماً على جهاز محمول من نوع DVD يحمله هودج، وكان الجهاز موصولاً بتلفزيون كانت فرقتنا قد ابتاعته في محطة غاز بروبين. كان مركز «الصقر الأسود تحت: Black Hawk Down» عند منتصف الطريق عندما تلقينا الأمر بالاستعداد. جاء الأمر من الفصيلة الأولى التي كانت تتعرض للنار المعادي من مجموعة كبيرة من الأشخاص والسيارات في قلب مدينة الرمادي. كان ذلك خبراً سيئاً؛ لأنه حتى ذلك الوقت كان حدث القتال الأشد شراسة بعد أن كانت الهجمات من نوع «اضرب واهرب»، أما الآن فقد كان واضحاً أن مجموعة كبيرة من المهاجمين ومعهم سيارات عديدة، تطلق النار على كامل فصيلة مشاة، انطلاقاً من مكان مكشوف. كان جلياً أن التمرد يتصاعد.

أخذ خفقان قلبي يتصاعد، وأنا أصعد إلى شاحنتنا. كان سائر أفراد الفرقة قد صعدوا إلى الشاحنة وكانوا يصوبون أسلحتهم إلى الخارج، منتظرين الذهاب عبر نقطة الرقابة على الخروج Exit Control Point أو باختصار ECP، وهذا تعبير غريب بدلاً من كلمة «البوابة». كان ميليغان في الأمام إلى جانب السائق. وجدتُ مكاناً خلف البوابة الخلفية. كنت على وشك أن أشعل سيجارة عندما ظهر الرقيب الأول، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة.

«اجلس، ثانية، اجلس إنه إنذار مزوّر».

obeikandl.com

أحد الأشخاص سأل: «ماذا يجري أيها الرقيب الأول؟».

قال مبتسماً: «الفصيلة الأولى لا تواجه هجوماً. كان جنودها يظنون أنهم يواجهون هجوماً من جمهور كبير، ولكن ذلك كان جنازة فقط».

كانت العادة في الرمادي، وربما في معظم العراق، إطلاق النار من الأسلحة خلال الجنازات والأعراس ومناسبات اجتماعية أخرى. هذا النشاط كان في معظم الحالات يتحول إلى مأساة. لحسن الحظ أن الفصيلة الأولى قد أدركت ما كان يحدث قبل أن تفتح النار بسبب غلطتهم هذه، كان الضحك يتصاعد مسبباً التوتر الذي كان قد سمّم الهواء قبل ذلك بلحظات.

صرخ أحد الأشخاص من داخل إحدى الشاحنات الأخرى: «مرحباً، أيها الرقيب الأول!».

«ماذا هناك؟».

«الذي حدث أن الفصيلة الأولى لم تستطع أن تقتل أحداً، ولذلك فإنها تستهدف أشخاصاً موتى هل هذا صحيح؟» ضحك الجميع مرة أخرى.

شخصٌ آخر سأل: «هل هم بهذه الحالة من اليأس؟».

خرجنا جميعنا من السيارات وعدنا إلى غرفنا، وأشعلنا سجائرنا قبل أن نعود إلى مشاهدة الفيلم. عندما عادت الفصيلة الأولى من الدوريات كان كل شخص في سرية شارلي قد سمع عن الجنازة. كان منتظراً الترحيب بمهرّج، وقد تقبلوا ذلك مرحين، مبتسمين.

الأمر الذي فاجأ الجميع، أن الليلة الثانية للعملية مرّت بسلام، وكان الشيء المثير للإعجاب أننا أنكرنا مرور سيارات الإسعاف إلى المشفى

الرئيس في الرمادي، أو إلى أي مستشفى؛ لأن المدينة بكاملها كانت مطوقة من قبل كتيبتنا. إن رجال الشرطة العراقيين الذين يقومون بالحراسة معنا لم يستطيعوا فهم ما يحدث. شرحنا لهم أن سيّارات الإسعاف، وفقا لقراراتنا تُستخدم بانتظام لنقل متفجرات والقيام بهجمات ضد قوات التحالف، أمّا نحن فلم يكن بإمكاننا أن نجازف بأي شيء، ذلك أن السيارات كلها يجب أن تعود إلى الوراء، أو تتعرض لإطلاق النار.

أحدثت سياسة عدم المجازفة فهماً لديّ في ذلك الحين، وذلك عندما اقترب مني شرطي عراقي كان يريد أن نسمح بمرور سيارة إسعاف لنقل امرأة حامل إلى المستشفى، فلم يكن يجب عليّ أن أطلب نصيحة من الرقيب في فصيلتي.

قلت للشرطي: «كلا، أبداً!».

«ولكن يا سيّد، ولد، من فضللك».

«كلا، قلت لك: كلا».

«ولكن، يا سيد، انظر». أراد مني أن أفهم ما الذي كان يحدث.

«أعرف، ولد، نعم». حرّكت يدي أمامي، معبراً عن انحناء لتصوير بطن خيالي منتفخ؛ لأبين له أنني أعرف أن المرأة حامل، ولو أني لم أشاهدها.

«مستشفى: Hospital». قال عندما بدأ بالسير إلى الوراء نحو سيارة الإسعاف، ولعله كان يظن أنني قصدت أن أقول: «نعم بالإمكان المرور».

صرخت في وجهه: «كلا!. أعرف أن المرأة العاهر حامل».

لوّح الشرطي العراقي بيده لمساعدة طبيب كان يقف خارج السيارة طوال الوقت، للبدء بالتحرك تجاهي، بينما كان يواصل السير نحوهم. عاد مساعد الطبيب إلى داخل السيارة، وقام بتشغيل المحرك. رفعت بندقيتي وسددتها نحو سيارة الإسعاف، مستعداً لإطلاق النار إذا تحركتْ مقتربة مني مسافة بوصة واحدة. أدرك الشرطي أنني على وشك إطلاق النار، فوقف بين سيارة الإسعاف وبندقيتي. قال وهو يمدّ ذراعيه مشيراً براحتي اليدين «لا، لا،لا،لا. الرجاء لا تطلق النار».

صرخ ببضع كلماتٍ وجهها إلى السائق، وأرسل صراخه أيضاً إلى من يعرف إلى كل أين يذهب قبل أن ينضمّ إلينا خلف نقطة التعطيل. شعرت بالرعب، ولكني لم أتمكن من التخلص من الصورة الذهنية لسيارة إسعاف تُنسف في وسط موقعنا المعطل للسير. كنت أريد جزئياً أن أفتش السيارة؛ لأتأكد من أنها لم تكن تحمل متفجرات، ولكني كنت خائفاً حتى من ذلك. فماذا يمكن أن يحدث، وأنا على علم بأنهم لا يستطيعون قتل نصف جنود الفصيلة إذا قرروا أن يقتلوني أنا فقط؟ إلى جانب ذلك كنت أنا قائد فرقة والشيء المناسب هو أن أطلب من واحدٍ من الفرق التابعة لي القيام بعملية التفتيش، ولكني لم أرغب في أن يتعرضوا لتلك المجازفة، وإذا ما سمحنا لسيارة الإسعاف بالمرور، كان يجب علينا أن نتصل لاسلكياً بنقاط التعطيل الأخرى؛ ليعرفوا أن سيارة الإسعاف في طريقها، وعند ذلك سيعرفون أني خالفت الإجراء، وأننا كنا ضعفاء. كان ذلك كله وفق الافتراض بأن ديمارست سيسمح لسيارة الإسعاف، وهو أمر غير محتمل. تساءلت بيني وبين نفسي، ما الذي سيحدث للمرأة الحامل، إن كانت هناك فعلاً امرأة حامل. إلى أين تذهب لتلد طفلها؟

ظلّ السؤال يعود إلى الذهن ولكن كانت تعود أيضاً صورة سيارة الإسعاف، وهي تفجَّر، كانت الأفكار تتنازعني، ولكني كنت حيّاً وهذا ما فيه الكفاية بالنسبة للوقت الراهن.

خرجنا صباح اليوم المقبل للقيام بدورية، واحتفظنا بصورة لا بأس لها، وبالتأكيد لم أكن أفكر في اعتقال الناس دون سبب وجيه. تولّى ديمارست قيادة الفصيلة، بينما كان وليامز واثنان من الجنود كانا من ضباط الشرطة في الولايات المتحدة، في أحد الأماكن للقيام بتدريب العراقيين الشباب؛ لكي يصبحوا رجال شرطة. كان ديمارست يشجع شعوراً باحترام أساسي نحو الشعب العراقي الذي نتفاعل معه. قمنا بصورة أساسية بعملنا وخرجنا. هذه طريقة حبّ ديمارست للقيام بأشياء، وأنا بدوري كنت معه في ذلك.

يوم القيام بالدورية مرّ بسرعة ودون ثرثرة عندما شاهدنا في إحدى المناطق المجاورة الواقعة بين قاعدتنا وقلب مدينة الرمادي، شابين صغيرين يبتعدان راكضين عندما شاهدانا. نزلنا من الشاحنات وحاولنا مطاردتهما، ولكن سرعان ما اتضح أننا لن نستطيع القبض عليهما. وكما يحدث في غالب الحالات، قررنا أن تفتش منزلين من المنازل المجاورة. هذا الإجراء هو ذاته لم يتغير دائماً: فريق سيظل في الخارج مطبّقاً التأمين عند كل نقاط الدخول والخروج في البيت، وفريق آخر يدخل البيت لوضع جماعة أمن داخلي، ويقوم جنديان بتفتيش كل زاوية من زوايا المنزل.

إن أكثر المساكن الوضيعة في الرمادي فيها طابقان أو ثلاثة طوابق، وسط كل منزل توجد منطقة فسيحة حيث يجلس الناس معاً لشرب الشاي، وتدخين السجائر والتحدث للأصدقاء، والسهر عندما تكون درجة الحرارة شديدة، وهذا ما يحدث غالباً. قبل القيام بأي أعمال تفتيش، كانت تصدر

obeikandi.com

الأوامر إلى جميع أفراد الأسرة، ومن ضمنهم الأولاد والمسنون، بالتجمع في إحدى غرف الطابق الأول. أمّا الجندي الذي وقع عليه الاختيار في فرقتنا لمراقبة العائلات فكان دائماً الرقيب رودريغز Rodriguez، وهو في الخمسين من عمره كان يُعد الأكبر سناً بيننا.

بصفتي قائد الفرقة كنت أتنقل عادة بين الجنود الذين يقومون بأعمال التفتيش والذين يقومون بمهمة الأمن داخل المنزل وخارجه. أحياناً عندما نكون في الخارج خلال أشد ساعات النهار حرارة كنت أذهب إلى الثلاجة في أي منزل نقوم بالتفتيش فيه للعثور على ماءٍ مثلج تضعه العائلات العراقية في أوانٍ معدنية أو في زجاجات بلاستيكية كبيرة. كنت أشرب جرعة وأعطي الماء لبقية أفراد الفرقة، دون أن أسأل أي شخص في العائلة إن كان ذلك أمراً حسناً. بدا تصرفي وكأنه حقٌ من حقوقنا، ولم أفكر أبداً في ذلك.

كثيراً ما كنت أجلس في قاعة المعيشة في منطقةٍ أستطيع منها أن أشاهد الأسرة المحتجزة. كنت أختار أفضل كرسي مريح للجلوس عليه، وأضع خوذتي على الأرض دون أن أترك بندقيتي. كان جميع أفراد الأسرة يحدقون في من مكان جلوسهم على حصير في أرض الغرفة، ولكني لم أفكر أبداً في ماذا هم يفكرون. إنني ببساطة أجلس هناك وأشرب الماء الذي لهم، وأكون متعباً وشاعراً بالحرارة الشديدة، ومستعداً للانتقال إلى المنزل اللاحق. ولم يكن يقلقني أبداً رؤية النساء الجدّات والزوجات اللواتي كُنّ يشعرن بالرعب عندما يؤخذ رجالهم من المنزل، مع أنني حاولت أحياناً أن أُهَدِّئ روع النساء بكلمات تطمين بأنهن سيعاملون معاملة جيدة، وسيُخلى سبيلهن إذا كنّ بريئات فوراً.

obeikandi.com

لم يساورني شك قط في هذه الكلمات على الأقل، ليس في ذلك الوقت. نحن برغم كل شيء جيش الولايات المتحدة ولم نُسئ معاملة الأبرياء. ومن المؤكد كان هناك حرمان من النوم وأعمال إعدام هزلية في مكان يسمى الأسد، ولكن هؤلاء كانوا حالات استثنائية، والاستثناء لم يكن هو القاعدة. ولم أكن أعرف إلا بعد انقضاء نحو عام أن سوء تعاملي مع المحتجزين كان يبدو شاحباً بالمقارنة مع ما يحدث في سجن أبو غريب في بغداد. وكما تبين لاحقاً، فإن العائلات التي كنت أتخلص فوراً من رعبها كانت تعرف جيشنا بصورة أفضل من معرفتي به.

والأمر الذي فاجأني، أن الليلة الثالثة من عملية التعطيل انقضت دون هجمات على مواقعنا. إن جندياً في فصيلتي القديمة فتح النار من مدفعه الرشاش على شاحنة ذات ثمانية عشر عجلة، كانت قد أخفقت في التوقف عند تعطيل الطريق خارج عش النسر مباشرة، فقُتل السائق. كانت الشاحنة قد وصلت إلى التوقف الكامل، ثم بدأت تتدحرج ببطء إلى الأمام. إن ذلك، إضافة إلى أن التفتيش اللاحق في الجزء الأمامي المغطى والمدمر في السيارة الذي لم يسفر عن وجود أي أسلحة، أظهر أن إخفاق الكوابح هو الاحتمال المرجح. لكن هذا النوع من قتل المدنيين عن طريق الخطأ قد توقف منذ زمن طويل عن إثارة أي اهتمام أو تعليق على الحادث.

عند عودتنا أسرعتُ في الذهاب إلى روزادو، الذي بقي في القاعدة متابعاً عمله مراسلاً للرسائل اللاسلكية، بينما كان الآخرون منا قد انصرفوا. وخلال وجوده في منطقة اللاسلكي سمع محادثة بين النقيب وارفل والمقدم ميرابل Mirable وكان هذا المقدم قد قال، على ما يبدو، للنقيب: إننا على وشك إرسالنا خارجاً مرة أخرى، وفي ليلة رابعة، لسحب العدو من مكانه.

قال روزادو: «أيها الرجل، الأمر سيئ. إن هذا السافل لم يكفه العمل مع القذارة على مدى ثلاث ليالٍ متتابعة. ولذلك يريد منا أن نخرج ليلة رابعة. إنه لن يتوقف قبل أن يموت شخص سافل من هذه الكتيبة.

كان روزادو محقاً، إذ كان واضحاً أن المقدم كان يحاول أن يحرض على حدوث قتال بالرصاص، ونكون نحن الطُّعْم. كان علينا أن نتبع الإجراء ذاته الذي اتبعناه للمرة الرابعة والخامسة بعد ثلاث مرات متتالية.

عند حلول الليلة الرابعة لعملية التعطيل حلّ محل الكثير من العويل والتذمر مزيج صامت من الرعب والامتعاض، وهذا المزيج صار طافياً في الهواء، بينما جلنا في الشاحنات منتظرين أن نتحرك، ومع أننا شعرنا أن سلسلة القيادة كانت تتلاعب بأرواحنا لعبة الروليت الروسية المعروفة، فإننا لم نجرؤ على القول كلمة واحدة. كنا نسمع انفجارين عاليين بعد أن تبعت الفصيلة الأولى الفصيلة الثالثة في الخارج. صدرت الانفجارات عن نيران مدافع هاون كانت موجهة إلى الطريق عندما كنا ذاهبين للوصول إلى مواقعنا النهائية. لكن قذائف الهاون أخطأت أهدافها، وكان الأمر الصادر إلى الفصيلة الأولى أن تندفع إلى الأمام، وبذلك استمرت المهمة وفقاً للخطة. أما نحن فقد تابع كل واحد منا التحديق في الآخر، محافظين على صمت فاتر، وهو صمت، للأسى، لن يستمر طويلاً.

جاء صوت ديمارست بواسطة أجهزة لاسلكية من طراز موتورولا Motorola للإرسال والاستقبال وتُستخدم للاتصالات الداخلية، حصلنا عليها من أقرباء لنا: «هناك إصابة تعرضت لها الفصيلة الأولى. نحن نغادر الآن».

جاءت الأجوبة من كل قائد فرقة «روجر».

سألتُ: «هل هناك مزيد من المعلومات، حوّل؟» لم يكن هناك جواب، ولعل السبب أنه من العسير أن تستمع أجهزة الموتورولا كلاماً مدة طويلة من الوقت. انطلقنا نحو موقع الفصيلة الأولى، متجاوزين تقاطع الطرق الأولى أمامنا ومنحدرين بالسيارات على الطرق التي بدا أنها مواقع ممتازة لهجمات بالأسلحة الصاروخية. إن مَعِدَاتِنا كانت في أفواهنا، ونحن على علم أننا نتجه مباشرة نحو معركة محتدمة بالبنادق.

إن الأصوات التقليدية ومشاهد الحرب كانت إعلاناً للقتال بالأسلحة قبل دقائق من وصولنا إلى المشهد، وإن الجولات القوية بأسلحة الرشاشات من عيار الخمسين رسمت خطوط أشعة عبر فضاء الليل، تاركة آثار الضوء على امتداد مسارها المنحني القاتل، ورنين نيران الأسلحة الصغيرة كان مسموعاً من مسافة قريبة. وكانت جوانب الطريق أمامنا محتلة من قبل جنود الفصيلة الأولى الذين اضطجعوا في أوضاع مائلة خلف متاريس من الآجرّ المكسر والنفايات، وهي من نوع القمامة المنتشرة على الشوارع في سائر أنحاء المدينة والصحراء المجاورة لها.

ومع انتشار الفصيلة الأولى على امتداد جبهتنا، مقابلة هجوم العدو، كان يستحيل أن تطلق نيران أسلحتنا دون تعريض أشخاص منا للخطر. كل ما كنا نستطيع أن نفعله هو تأمين مؤخرة التشكيل والانتظار حتى ينجو من تبادل النيران.

مع احتدام المعركة، وردت أخبار عن وجود ما لا يقل عن حالتين من الإصابات الخطيرة. كانت سيارة الهمفي الأمامية للفصيلة الأولى قد أصيبت

obeikandi.com

لدى الوصول بانفجار، إما من قنبلة صاروخية أو لغم أرضي، ولم يعرف أحد الحقيقة على وجه التأكيد. إن الجندي الذي يطلق النار من السيارة، وهو الاختصاصي ريسيو Recio، قد أصيب بجراح من الشظايا والرصاص في ساقيه الاثنين، ففقد بذلك معظم اللحم من ربلة أحد ساقيه وكاد أن يموت بسبب نزف الدم. إن الاختصاصي مايورغا Mayorga، طبيب الفصيلة، كان يركب في السيارة ذاتها وفقد ثلاثة من أصابعه. الآخرون الذين أصيبوا في الحادث يشملون الرقيب الأول ماثيو Mateo، الذي أصيب بجراح من شظايا في أحد ذراعيه، وقائد الفصيلة الأولى الملازم بار Barr، وقد أصيب بشظية في مؤخرة عنقه. الشخص الوحيد الذي سلم من الإصابات هو عامل اللاسلكي لدى الملازم. أما السيارة فقد دُمرت.

عندما توقف تبادل إطلاق النار أخيراً، سمعت صوتاً من جهاز اللاسلكي يطلب من ديمارست إرسال فرقة من فرقنا في مهمة التفتيش والقتل في أحراج قريبة، حيث يعتقد شخص من الفصيلة الأولى أننا سنجد شخصاً جريحاً من الأعداء ينتظرنا. كنت أعرف المنطقة التي كان موقعها بالقرب من نهر الفرات، مغطاة بأدغال منخفضة، وبقليل من الضوء، تشكل بقعة ممتازة لتكون مصائد ومصدر القذائف الصاروخية.

تمكنت من سماع صوتٍ ملحٍّ يتوسل «ليست فرقتي من فضلك، لا تسمحوا أن تكون فرقتي».

صرخ ديمارست «الفرقة الأولى!».

اللعنة! هكذا فكرت. «لماذا نكون نحن المقصودين؟ إياك أن تقول ذلك، ياديمارست، لا تجرؤ»..

«اجمع فرقتك ياميخيا، فنحن ذاهبون في مهمة تفتيش وتدمير».

«روجر، الرقيب!» لم يفاجئ جوابي أحداً أكثر من مفاجأتي بالاقتناع وعدم الخوف» روزادو، غاليغوس، يجب أن يستعد فريقاكما. سنذهب للبحث عن أعداء موتى أو مجروحين».

تابع ديمارست كلامه: «ميليغان، أنت أيضاً ستأتي معنا».

فكرت في أن هذا شيء عظيم؛ لأني شعرت بالراحة لعدم ذهابنا وحدنا. ما إن غادرنا الأحراج حتى كانت معنا الفرقتان الأولى والثانية، إضافة إلى ديمارست والقائد، جميعنا ماضون في المهمة. عند ذهابنا إلى الأراضي المنخفضة مررنا بجثة رجل كبير الحجم مات بجانب الطريق. إن جنود الفصيلة الأولى، كانوا يحرسون بعناية محيطنا، بينما أسلحتهم موجهة إلى الخارج وبعيداً عن محيطنا، أمَّا أسلحتهم فموجهة إلى الخارج، وبعيداً عن جثمان الميت، وجهوا رؤوسهم من أجل لمحة سريعة نحونا عندما كنا نتحرك خلسة نحو الأدغال المعتمة. إن القليل مما نسمعه من تعبيراتهم لم تكن مشجعة، لقد كانت نظرة مألوفة تعبّر عن التعاطف والاهتمام، لكن فوق كل الرسالة: «أنت أفضل مني».

كان شخص صغير يقف بالقرب من الرجل الميت، الذي بدا أنه مغطى بستار أبيض من الرأس حتى أخمص القدمين. أخبرني بعد ذلك أشخاص عديدون أن ذلك ولد صغير السن يقف بالقرب من جثمان والده، حاولت في وقت لاحق أن أتذكر وجه الصبي، وهل كان يبكي أم بدا حزيناً، ولكني كلما حاولت أن أتذكر ازداد إدراكي أن هناك لحظات لن تتيح لي ذاكرتي خلالها أن أستعيد التفكير في الأمر.

سرنا إلى الأمام، خائفين متشامخين كل خطوة من خطواتنا، وكنا نمشط الشقوق الصغيرة والنباتات التي تنمو داخل التراب بالقرب من النهر دون أن نعثر على أي شيء. لدى عودتنا إلى المكان الآمن نسبياً كنت مدركاً أن شيئاً ما يشغل بالي، شيئاً لن يسمح لي بأي قدر من السلام، ولكنه شيء لا يمكنني أن أدرك كنهه. خطر لي أنه يرتبط بالجثمان الذي سرت بجانبه في طريقنا نحو النهر وتجاوزناه مرة ثانية، قبل ذلك بلحظات، عندما كنا على طريق العودة. في ذلك الحين كان الولد الذي سبق أن وقف قرب الجثمان قد ذهب.

استعدتُ آثار خطواتي، قائلاً لنفسي: إنني أردت أن أُلقي نظرة أخرى على الجثمان. كنت مستغرباً من أين جاء الستار الأبيض الذي كان يغطيه. إذ «أعرف أننا لم نأخذ الستار».

وقفت برهة قرب الجثمان وحدقت فيه لحظة لا نهاية لها. إن ما أقنعت نفسي به أن الستار عند غطى الجثمان لم يكن سوى الرداء الأبيض الذي كان الرجل يرتديه عند قتله. فالرداء بدا كأنه ستار يغطي سائر الجسد؛ لأنه لم يعد للرجل رأس. إن النيران التي أُطلقت من مدفع رشاش من عيار خمسين كانت قد فصلت الرأس عن الجسد.

شخص ما سألني في وقت لاحق: «ألم تشاهده؟».

سألت في المقابل، وأنا خائف من الجواب: «لم أشاهد ماذا؟».

«رأسه. كان رأسه ملقى إلى جانبه تماماً، عند المنحنى».

القصة التي جرى تداولها على نطاق واسع عقب الحادث، هي أن سيارة اقتربت بسرعة عالية من موقع المنع الذي اتخذته الفصيلة الأولى

في مركز التعطيل بعد الهجوم الأول مباشرة، وعندما أخفقت وحدات التحذير بواسطة الرصاص في إيقافها، صدر الأمر بتدمير السيارة، وكان ذلك عندما أطلق جندي الرصاص من مدفع رشاش من عيار خمسين، فقتل السائق قاطعاً رأسه، وأخطأ بأعجوبة الولد الذي كان جالساً على مقعد المسافر.

بعد أن تابعتُ التفكير في المسألة، وبعد أن تحدثت مع عدد من الناس الذين قدموا التفاصيل المفقودة، حاولت إعادة تكوين روايتي الشخصية عن هذا المشهد المرعب. لعلي رأيت شيئاً ما إلى جانب الجثمان، ولكن عقلي أبلغني أن ما رأيته كان صخرة. ولكن هل كان ذلك قريباً جداً إلى الجثمان؟ وهل رأيت فعلاً أي شيء؟ ولماذا؟ بينما غيري عرف أن ذلك كان ولداً واقفاً بالقرب من الجثمان، ولكن لماذا محا عقلي كل آثار وجهه ودلائل عمره؟ لعل ذاكرتي كانت تلعب بي خدعاً في محاولة لكبت صور قصة ليس مؤلماً فقط سردها، بل كان مؤلماً أيضاً تذكرها.

قبل انتهاء تلك الليلة المروعة، وقع حادث آخر بدّل ما كان ثقيلاً، بشكل أكثر أو أقل سلبية. كنا قد عدنا للتو إلى عش النسر، عانينا من أربع إصابات. اثنتان منها خطيرتان، وواحدة منها تهدد بالوفاة وكانت إحدى سياراتنا قد دُمرت، وكأن ذلك لا يكفي فقُطعت رأس مدني بريء أمام ولده، ولذلك كان من العسير هضم الحوار الذي سمعته بين الرقيب الأول ديمارست والنقيب وارفل.

قال النقيب: «نعم» فتساءلت: هل تلك أول مرة ألمح الاهتمام في صوته؟ «يقول الأطباء: إن ريسيو Recio كان يمكن أن يموت بسبب نزف الدم. ومن المحتمل أن يفقد ساقه.

نظر ديمارست لحظة نحو الأرض، وكان جلياً أنه لم يتمكن من أن يقول أي شيء.

تابع النقيب كلامه قائلاً: «أخبرني العقيد أننا سنفعل الشيء ذاته مساء غدٍ. كان صوته باهتاً، وليس فيه تأكيد».

سأل ديمارست، وهو ينظر إلى أعلى: «الشيء ذاته بالضبط؟».

أجابه ميرابل: «الشيء ذاته».

قال ديمارست: «ولكن هذا مجرد جنون» مع أنه لم يكن من عادته أن يعبر عن انتقادٍ لرؤسائه».

تابع النقيب، وقد ارتسمت على وجهه نظرة جدّية: «أعرف. ولكنه يقول إن علينا أن نجعل العدو يعلم أننا لسنا خائفين».

كان ذلك نموذجاً عندما تعبّر قيادتنا عن اهتمامها بشعور العدو، أو تفكيرهم حيال الحالة الجيدة للجنود والمدنيين الأبرياء. إن الأحداث المرعبة في الليلة الرابعة لتلك المهمة التي لا معنى لها كان يمكن تفاديها، بأن نفعل ببساطة ما كنا نعلم أنه لا يعني شيئاً في عقيدنا. أما الآن فإنه يريدنا أن نفعل بالضبط الشيء ذاته مرة أخرى.

قلت مخاطباً ديمارست بعد أن انصرف وارفل: «لاسبيل! أنا آسف أيها الرقيب، فإني أُكنّ لك كل احترام في العالم، وآمل ألا تأخذ على عاتقك كل المسؤولية، وإني لن أخرج في المهمة غداً».

أجاب رقيب فصيلتي بصوت هادئ: «بل يجب أن تخرج. إنك قائد فرقة ورجالك بحاجة إليك...».

سألته، محتداً: «ماذا يمكن أن أفعل إذا كان هذا العقيد ذو العقل المريض يريد منا أن نقوم بعملنا القذر؟».

قال ديمارست بصوت يعبّر عن التعاطف: «أعرف ماذا تعني. بل إنني أخبرت القائد أن ذلك كما أراه نوع من الجنون. لكن الأمر صدر عن قائد الكتيبة، وعلينا أن نقوم بالعمل».

قلت، وكأني أصرخ: «يا رجل، اللعنة على قائد الكتيبة! لماذا لا يفعل وارفل شيئاً إزاء ذلك؟».

تابع ديمارست كلامه: «إنه لا يستطيع. كل ما علينا أن نفعل هو ما طلبوا منا أن نبذل قصارى جهدنا، ولهذا السبب لا بد لك من الخروج هناك؛ لتكون مثالاً لقيادة فرقتك بأفضل ما تستطيع».

«على أي حال، لن أخرج أيها الرقيب. آمل ألا تعدّ ذلك موقفاً شخصياً، فهذا السخيف يستخدمنا؛ لكي ينال هو الأوسمة والترقيات، ولن أشارك في ذلك. لماذا لا يأتي معنا إذا كان مهماً أن يظهر للعدو أننا لا نخاف؟ لم أشاهد أبداً هذا الغبي هناك».

نظر ديمارست نحوي بأسلوب يبيّن أنه يتفق مع معظم ما قلت، ولكنه لم يكن قادراً أن يخسر نحو عشرين عاماً من التدريب العسكري والمفهوم الخاطئ للولاء الأعمى الذي صاحب ذلك التدريب. شعرت أنني أشق طريقي من خلال جدران خيالية من الإسمنت الصلب بقبضات يديّ العارية، بينما كنت أجابه أعمق المخاوف وفقدان الأمن. لم أكن راغباً أن أعصي الأوامر، وكنت مرعوباً، ولكني شعرت أنه لا مفر أمامي من القيام بذلك العمل».

openkandil.com

تابعت كلامي، فقلت: أعدك بألاّ أحاول البدء في ثورة أو أي شيء، ولكني سأتكلم مع فرقتي وأقول لجنودها: إنني لن أخرج غداً، وآمل أن يتبعوا قيادتي، والسبب أنني لن أفعل هذا الشيء القذر».

غادرت عائداً إلى غرفتي، مع بقاء علاقتي الحسنة مع ديمارست، الذي أخبرني أنه سينتظر حتى اليوم المقبل لإبلاغ النقيب عن موقفي. عندما تحدثت في وقت لاحق مع فرقتي، مع أنه ما من واحد منهم وقف ضدي، فما من واحد أراد أن يتبع خطواتي.

صباح اليوم المقبل عاد وليامز من القصر، حيث أتمّ عمله مدرباً للشرطة. كان نحو ست مئة من العراقيين الشبان قد تدربوا في دورة ضابط شرطة بإشراف وليامز وجنود آخرين من كتيبتنا. إن الانبهار الذي رافق تخرجهم اضمحل بسرعة بعد الاحتفال عندما وضعت قنبلة خارج مركز الشرطة وأودت بحياة سبعة من الخريجين الجدد، وتسببت في إرسال ثلاثة وستين آخرين إلى المستشفى، مصابين بجروح خطيرة. من مجموع خمس مئة أو نحو ذلك الذين لم يصابوا بأذى، استقال على الفور أكثر من أربع مئة. مهما يكن من أمر، فقد انتهى التدريب، وعاد وليامز، وأراد أن أقابله بشأن رفضي الخروج في المهمة.

قال وليامز: «إذا لم تخرج الليلة فسيضربونك، وسيجعلونك نموذجاً للآخرين».

أجبته، وكنت أشير إلى المفتش العام، بوصفه الهيئة القضائية في السلك العسكري التي تتولى أعمال التحقيق، كلما كانت هناك شبهة في عمل خاطئ: «لا بأس، سأطلب من المفتش العام إجراء تحقيق في طريقة العقيد؛ لاستغلالنا من أجل الحصول على أوسمة».

سألني قائد فصيلتنا الذي عاد مؤخراً: «ولكن كيف تثبت ذلك؟ كيف تبرهن أنه يفعل ذلك من أجل الحصول على أوسمة؟».

بأي طريقة تستطيع أن تشرح أنه انتهك كل قاعدة من قواعد المشاة؟ وكيف سيفسر هو أنه تخلى عن عنصر المفاجأة، والقيام بالمهمة ذاتها بالضبط، وبالأسلوب ذاته بالضبط، مرة تلو المرة؟

أجاب قائد فصيلتي مغطياً جبهته: «ليس مضطراً للشرح. كل ما عليه أن يفعله هو أن يوجه اللوم إلى أرفع شخص، ثم الأرفع لاحقاً، مروراً إلى من بعده حتى الوصول إلى الجنرال، إن كان الأمر يتطلب ذلك. الآن، أسألك: هل تظن فعلاً أنهم سيصغون إلى رقيب أول، متجاوزين عقيداً؟ يبدو أنك فقدت عقلك. يمكنك أن تقول: إن الخوف منعك من الخروج في مهمة، عندها يتساهلون معك».

«ليست مسألة خوفي، يا وليامز» أزعجني أنه تخلى عني بمثل هذه السهولة، دون أن يسمع بطريقة صحيحة إلى ما كنت أقول، ولكنه كان على أقل تقدير مهتماً بمجرى العمل الذي كنت على وشك أن أقوم به. أقصد أنا خائف، إنهم لن يفعلوا أكثر من اتهامنا بالفشل.

أصرّ على كلامه، رافعاً حاجبيه، وكأنه يعرف أنه محق خلافاً لرأي أي شخص آخر: «اعلَمْ أني أقول لك: إنك قد تقول: إنك خائف جداً، أو إنهم سيضعونك أيها الحمار، في السجن؛ ليراك الجميع».

تابعت كلامي، فقلت: «سأفعل ذلك، حتى لو وضعوني في السجن. سيكون هناك الكثير من الأمور المشتركة بيني وبين الأولاد في السجن، وسأكون حياً وقادراً أن أروي القصة».

قال مصراً على جعلي أظن أنني أرفض من جراء الخوف: «يكفي أن تقول لهم: إنك خائف، ياميخيا، يكفي ذلك. سيتساهلون معك، ويمكن أن تنجو من العقوبة».

قلت، معانداً: «كلا، يا وليامز، يجب أن أجعلهم يعرفون أن قيمة حياتي هي أهم من أي ترقية. أفضّل الذهاب إلى السجن بدلاً من أن أموت، أو أُقتل، أو أن أُجرح في سبيل المجد الشخصي لواحد من الناس. قل لهم: إني أُغادر الجندية لهذا السبب».

قال وليامز: إنه سيفعل ذلك، ولكنه لم يفعل. لدى ذهابه إلى اجتماع قادة الفرق مع القائد الأعلى في وقت لاحق من ذلك اليوم، وجد هناك وضعاً أبعد ما يكون عن توقعه. كان جنود الفصيلة الأولى قد تجمعوا لدى عودتهم إلى القاعدة بعد الليلة الرابعة في عملية التعطيل. كانوا غاضبين بسبب ما حدث، وكيف أنهم خسروا أربعة أشخاص في ليلة واحدة، إضافة إلى خسارة سيارة. عندما سمعنا أننا تلقينا أمراً باتباع الإجراء ذاته في الليلة الخامسة، قرروا رفض ذهابهم إلا إذا أُعيد تنظيم المهمة بطريقة حساسة لتوفير سلامتنا والسماح لنا باستعادة عنصر المفاجأة. إن مجموعة من قادة الفرق من الفصيلة الأولى، بقيادة رقيب فصيلتهم الجديد، هو الرقيب أول أدامز، نقلوا هذا الخبر إلى القائد والرقيب الأول.

عندما استدعى وليامز قادة الفرق لإعطائنا إيجازاً عن مهمة تلك الليلة، استدعاني إليه، وكأنه لم يحدث أي شيء إطلاقاً. كان علينا أن نخرج خلال ساعات ضوء النهار؛ لتفقد مواقعنا التي كنا نحتلها، وكان علينا أيضاً القيام بدوريات حضور على امتداد الطرق والأزقة في منطقة

عملياتنا، حيث كان هناك احتمال تدبير هجمات لنا. إضافة إلى ذلك، فلن تتوقف دوريات الحضور خلال تعطيل الطرق في المدينة، ولكن كان علينا أن نعمل على استمرار الدوريات طوال منع التجول، مما يزيد صعوبة أن يقيم المتمردون كميناً لأي عناصر ظلوا في مكان واحد مدة أطول مما يلزم. وبدلاً من عودتنا إلى القاعدة عند الساعة الرابعة صباحاً، غادرنا قبل هذا الوقت بساعتين. وهذا مازاد احتمال إبطال أي خطة هجوم أُعدت لنا عند رجوعنا.

آخر ليلة من ليالي عملية التعطيل انقضت دون حوادث أو جروح. خرجت في المهمة مع سائر أفراد فصيلتي، بصفتي قائد الفرقة الأول، ولم يعد أحد يتحدث عن رفضي الأصلي المشاركة في المهمة، على الأقل ليس في العراق.

openkandi.com

تاسعاً

بعد انقضاء بعض الوقت منذ انتهاء عملية التعطيل تابعت سريتنا تعطيل تقاطع الطرق الرئيسة في الرمادي كل ليلة. لقد أُخذت إلى أقصى حد نداءاتي إلى المهمات باستخدام عنصر المفاجأة، وهذا ما جعلني أظن أنني يجب أن أكون أكثر عناية بما أتمناه. فبدلاً من إقامة مواقع التعطيل المعتادة مع لافتات، وقضبان ضوء كيميائية، وشاحنات عسكرية بعرض الطرق، ووضع جنود في أماكن لتحويل السير، كان مطلوباً منا أن نختبئ خلف أدغال مجاورة لطرق مظلمة. الشيء الوحيد الذي نضعه على الطريق للدلالة إلى أنها معطلة، هو شبكة واحدة من أسلاك على شكل الأكورديون، التي يجب وضعها على مسافة نحو خمسين متراً أمام موقعنا. جرى تخصيص فصيلتي بموقع قرب الكمين الذي نُصب للفصيلة الأولى خلال الليلة الرابعة من ليالي عملية التعطيل، بجانب طريق النهر.

قال وليامز خلال اجتماع قادة الفرق: «أطلقوا النار على أي سيارة تصل إلى السلك».

سألتُ قائد فصيلتنا: «هل قلت: إن الشيء الوحيد الذي نستعمله علامة لموقعنا هو شبكة الأسلاك؟».

أجاب: «هذا صحيح».

«هل صحيح أننا نقيم موقعاً بجانب طريق النهر، بعد تقاطع الطرق على شكل حرف Y؟».

«صحيح، وهذا ما قاله القائد».

انبثقت نظرات قلقة في أنحاء الغرفة، عندما هضمنا مضامين الأمر الذي تلقيناه لتوّنا. كان مطلوباً منا أن نقيم موقع تعطيل على طريق مظلم يؤدي إلى أكبر مستشفى في المدينة، دون وضع علامة له ولا جنود فيه، بل كان علينا أن نطلق النار على أي شخص وصل إليه. وكل والد أو والدة يأخذ ابنه للمعالجة الطبية يمكنه بسهولة أن يصل إلى الأسلاك. إن المهمة لم تطلب منا بصورة مباشرة أن نقتل مدنيين أبرياء، ولكن لم نترك مهمتنا مجالاً واسعاً لتفادي حدوث مأساة.

مع ذلك لم يقل أحدٌ منا أي شيء يشير إلى انتفاء الأخلاقية الكامن في مثل هذا الأمر. رفعنا جميعاً إلى أعلى حواجبنا، وذهبنا إلى الاجتماع، حاملين معنا مذكرات عن كل ما قاله لنا قائد فصيلتنا، ودون أي بحث لهذا الأمر، دعك عن تحديه، كنا قد تبنينا سياسة غير رسمية مفادها: «أطلق النار أولاً، اسأل أسئلتك بعد ذلك».

عندما حان الوقت لإبلاغ أفراد فرقتي بتفاصيل العملية، لم أكن واثقاً مما يجب أن أقول. كانت تتنازعني هذه الأوامر، وكانت تلك الفكرة ترعبني. أدركت أنني بحاجة للتوصل إلى طريقة أسلم لإبعاد الفرقة عن ارتكاب غلطة رهيبة تطاردنا ما بقي من حياتنا، بشرط أن أفعل ذلك دون أن أُنمّي علناً عصيان التعليمات.

أخيراً قلت، بعد أن حدّقت طويلاً في الأرض: «لن أطلق النار. لن أطلق النار ما لم أقل: إن معهم سلاحاً، وإني أشعر بأني مهدّد بالقتل».

هذه لم تكن بأي حال خطة مضمونة. فعلى سبيل المثال، كان رجال الشرطة العراقيون مسلحين، ويركبون في مؤخرة سيارات مدنية للأجرة دون ملابس رسمية. شعرت أني أشبه بشخص جبان بسبب عدم تحدثي بصوتٍ أعلى ضد أمرٍ كان يمكن أن ينجم عنه قتل مدنيين غير مسلحين. كان لنا كل الحق بأن نرفض تلك المهمة وكنت أعرف أنه كان من واجبي أن أفعل ذلك في اجتماع الفرقة، ولكن فات أوانه الآن.

قال أحد الجنود: «ولكن لماذا، أيها الرقيب؟».

سررت؛ لأن شخصاً ما طرح هذا السؤال.

«لأننا لم نعرف هل سيكون في تلك السيارة نساء وأولاد. لمجرد وصولهم إلى شريط الأسلاك ألا يدركون هذا في المقام الأول، أننا لن نطلق النار عليهم، نحن الذين سنضطر للعيش مع هذه القذارة لو كنا نقتل الناس الأبرياء. أيها الرجال، إذا كان أحد ملزماً بالعيش مع تلك القذارة، فلن يكون النقيب أو العقيد هو من يضغط مقداح البندقية، فأنتم من يفعلون ذلك، أما هما فإنهما لن يفعلا هذه القذارة.

الفصائل الأخرى حدّدت مواقعها في مناطق أقل إبهاماً حيث تكون أشرطة أسلاكهم مرئية حتى لو حافظوا على صورٍ خافتة، ولن يضطروا أبداً، حسب معرفتي، لاتخاذ قرار بإطلاق النار أو عدم إطلاق النار على مدنيين غير مسلحين.

لحسن الحظ، لم نكن مضطرين فعلاً لاتخاذ أي من هذين القرارين المرعبين. كان فهمي أنه أُشيع عن إعدادنا فخاخاً بجانب النهر، وأن معظم السكان المحليين يتجنبون المنطقة، ما دمنا نحن هناك. أسوأ شيء حدث

في تلك الليلة والليالي اللاحقة، أنه كان من واجبنا في مناسبتين، أن نحرس المتفجرات، وهي قنابل مدفعية قديمة من عيار 155 مليمتراً تخلى عنها عراقيون في سن الشباب، وأن ننتظر وصول أشخاص من الجهة المكلفة بالتخلص من المتفجرات للقيام بذلك.

بعد نحو أسبوعين توقفنا عن إقامة مواقع تعطيل إلى جانب طريق النهر، لكن قيادتنا تابعت إصدار أمرها إلينا لتنفيذ المهمات التي يتمكن أعداؤنا كلياً بالتنبؤ بها. قمنا بتنظيف نفس البقعة من الطريق الرئيسة رقم عشرة بالطريقة ذاتها بالضبط، وفي الوقت ذاته بالضبط، في كل يوم بمفرده. كنا جميعاً نعرف إلزامية حدوث ما لم يكن هناك مفرٌ منه، وسرعان ما كان يحدث. في يوم مرعب، وعندما نظفت الفصيلة الأولى الطريق، حدث انفجار أداةٍ عشوائية، أدى إلى تدمير سيارة الهمفي الخاصة بالرقيب الأول آدامز، واخترقت إحدى شظاياها خوذته من نوع كيفلر Kevlar وأصابت جمجمته.

كنا صباح ذلك اليوم نقوم بمهمة قوة رد الفعل السريع، فبادرنا للهجوم على المكان بأسرع ما نستطيع، وهذا، كالعادة، كان متأخراً عن أدائه. كان مرتكبو الهجوم قد هربوا، فعدنا إلى القاعدة، حيث وجدنا سرية ضغطت معنوياتها وكان لديها ما تبقى من سيارة الهمفي التابعة للرقيب آدامز التي دُمرت. إن رشات الدم التي لوثت داخل السيارة وتركت بقع دم على المنديل الأخضر الذي كان آدامز يلف به عنقه وكان آنذاك مرمياً على أرضية السيارة المليئة بالرمل. كان آدامز قد تعرض لجروح حادة في رأسه، وكان يمكن أن تؤثر بصورة دائمة على قدرته ومهاراته الذهنية. كانت تلك أخطر إصابة عانت منها سريتنا حتى ذلك الحين.

مع ذلك لم يكن هناك توقف عن المهمات التي لا معنى لها. استمرت إصابة جنودنا بالجروح، واستمر تدمير سياراتنا. أحد أصدقائي، وهو الرقيب ماريو فيغا Mario Vega أصيب بجروح من جراء انفجار قنبلة صاروخية رمته نحو مقعد خشبي في مؤخرة الشاحنة التي كان يركبها، فأصيب الجزء الأدنى من ظهره وذراعه اليمين بجراح سببت له العمى مؤقتاً. جرى نقله إلى منشأة طبية قريبة، وكان يجب نقله من هناك إلى عيادة مناسبة مختصة بإعادة التأهيل. ولكن بدلاً من ذلك أُعيد إلى القاعدة، وهو يعاني من الضعف والعمى، الأمر الذي لم يمكنه من النزول من الشاحنة دون مساعدة. في وقت لاحق خلال وجودنا في قاعة الطعام، اضطررت لإطعامه بيدي؛ لأنه لم يتمكن من تناول الطعام دون مساعدة.

قال مشتكياً: «إذا كانت إصابتك بجرح خطيرة، بحيث يتطلب منهم نقلك من وحدتك إلى مكان لمعالجتك، كان يفترض أن يرسلوك إلى خارج منطقة القتال؛ لكي تتعافى، لا أن يعيدوك إلى قاعدتك. على أقل تقدير هذا ما قاله الأطباء هناك».

سألته، بينما كنت أمسك بملعقة مملوءة بالبيض المخفوق، واضعاً إياها أمام وجهه: «إذاً، ماذا حدث؟ كيف حدث أنك الآن هنا، وليس في مستشفى مكيف الهواء، حيث يمكن أن تتحسن؟»

قال، وقد تمكن من شم رائحة البيض دون أن يتمكن من رؤية الطعام: «الواقع، عندما كنت على وشك أن أغادر للذهاب إلى منشأة أكثر ديمومة، جاء أحد الأطباء، فأبلغني أن قائدي اتصل لاسلكياً ليقول: إنه غير مسموح لي الذهاب إلى أي مكان، وإنني لا بد لي من العودة للقيام بالواجب الوظيفي».

كافأته على هذه المعلومات بالبيض الذي أضفت إليه بعض اللحم البارد. طلبت منه أن يمضغ الطعام.

سألته، مع أنه لم يكن قد بلع لقمة الطعام التي في فمه بعد أن أطعمته للتو: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

«ذهبت بعد ذلك؛ لأطرح سؤالاً على ضابط برتبة رائد كان هناك، إنه أحد الأطباء العاملين في المنشأة».

سألت، دون أن أعرض عليه مزيداً من الطعام: «ماذا قال لك؟» كانت النظارة السوداء الضخمة التي كان يضعها فوق عينيه والتي بدا بسببها أنه أعمى يحدق في فراغ.

«قال: نعم، كان يفترض أن تذهب إلى مكان آخر لتتحسن».

قائلا: «ما منعك يا ماريو، من الذهاب؟» ألقيت الملعقة الفارغة على الطبق.

أجاب مدافعاً عن نفسه. لأنه! هذا العقيد، طبيبنا، جاء وأخذني. كان يشير إلى طبيب سريتنا، وهو مقدم وجراح مختص بترميم الجروح في العالم المتمدن. فذكرت أنني ذات مرة قلت له: إنني أمسكت زجاجة من الزئبق السائل، كان المتمردون يستخدمونها لصنع قنابل مرتجلة. كنت أخشى إمكانية أن أتسمم به. أخبرني أنه كان يحب اللعب بالمواد وأن يرى كيف أنَّ المعدن السائل يتدفق، وأنه كان يجب علي ألا أقلق إلا إذا أخذتُ رشفة منه.

«إذاً، ما الذي حدث بالضبط؟»

«جاء وسألني: لماذا كنت أطرح أسئلة على الأطباء الآخرين؟ بعد ذلك عدنا إلى هذا المكان».

obeikandl.com

قضية فيغا ليست وحيدة من نوعها. في الواقع، كان عندنا جنود كثيرون أصيبوا بجروح خطيرة تسوّغ إرسالهم إلى الوطن للاستشفاء، ولكنهم عادوا إلى السرية. لو سُمح للجنود بالذهاب، كان في هذه الحالة خطر أن يتدنى حجم السرية إلى ما دون قوة القتال. في تلك الحالة كان من شأنها أن تُحل وتُسرّح، فيفقد القائد منصبه.

إن جندياً آخر، هو خوسيه مانغوال Mangual Jose من الحرس الوطني في بويرتو ريكو Puerto Rico، أُجريت له عملية جراحية كبيرة؛ لأنه كان يعاني من البواسير وكان يصعب عليه أن يتحرك بعد العملية. وبدلاً من إعطائه إجازة للاستشفاء احتفظوا به في الرمادي، حيث كان أحياناً يتولى استخدام اللاسلكي.

ووفقاً لما قالوا لنا، كانت وحدة حرس بكاملها في بويرتو ريكو قد تميزت بصورة رائعة منذ البداية. إن وحدات الحرس كانت قد أُرسلت إلى فلوريدا بناءً على طلب حاكم فلوريدا، ووفقاً للفهم أن هذه الوحدات ستتولى الأمن في الموانئ والمطارات، بينما يُرسلوننا نحن إلى الشرق الأوسط. ولكن ما إن وصلت هذه الوحدات حتى ألحقوها فوراً بوحدتنا وأرسلوها إلى الحرب. كان ما أشيع بين أفراد الجنود من بويرتوريكو، أن حاكمهم منفعل وغاضب بسبب ما حدث، وأنه بالتوافق مع القائد العام لحرس بويرتوريكو، كان يحاول إعادتنا إلى الوطن.

لم يكن ذلك هو الحادث الوحيد الذي أزعج مواطني بويرتوريكو الذين ألحقوهم بوحدتنا. فخلال التدريب في الأردن، أخذ الضابط التنفيذي لسرّية ألفا، وهو رجل أبيض، صوراً رقمية لأشخاص من بويرتوريكو وبعض الجنود السود، وعلقها بصورٍ ظليلة للتدرب على الهدف. إن هذا العرض

الوقح للعنصرية لم تكن له عواقب خطيرة على الضابط. فالأمر بالنسبة له هو مجرد نقلة إلى منصب إداري، ولعل هذا النقل كان بالنسبة له أفضل من أجل سلامته أكثر مما هو لأي شيء آخر.

كانت العنصرية في سريتنا أقل وضوحاً بصورة عامة، ومع ذلك فإنها ظهرت على السطح هناك أيضاً عندما يطلق جندي أبيض رصاصة بصورة عرضية عندما يكون في مؤخرة سيارة همفي، ترتد الرصاصة إلى سطح معدني صلب، فتصيب الجندي في صدريته دون أن تجرحه. لقد نجمت غلطة مماثلة عند التأنيب الجديّ لاثنين من أصل لاتيني، وهما من صف ضابط في فصيلتنا. فالجندي الأبيض لم يَنْجُ فقط من التأنيب، بل حصل على وسام «القلب الأرجواني Purple Heart».

إن العنصرية غير المقصودة لقيادتنا، مقترنة بتصميم القيادة على إرسالنا مراراً في مهمات نحن نعدّها عديمة الجدوى لمجرد تحسين سيرة حياتهم، هذه العنصرية بدأت تخلق امتعاضاً شديداً في أوساطنا.

ذات ليلة، بعد إنكار النقيب وارفل كلامه السابق أنه لن يعود إلى الولايات المتحدة مالم يحصل على وسام مشاة القتال (Combat Infantry Badge C I B) استدعاه الرقيب وليامز إلى لقاء مع فصيلتنا لبحث المسألة. عُقد اللقاء في غرفة فرقتي، حيث كان جميع أفراد فصيلتنا، وعددهم اثنان وثلاثون جندياً، يجلسون على مقاعد خضراء وزعها عليهم الجيش.

قال وارفل محتجاً: «لم أَقُلْ هذا الكلام إطلاقاً. لم أقل إطلاقاً: إنني لا أريد العودة دون وسام القلب الأرجواني. أودّ الحصول على الوسام، كما يود كل ضابط، ولكن هذا الكلام لم يصدر عنّي».

كان الرقيب ولیامز يقف بجانبه، محملقاً في كل واحد منا. وسرعان ما تبيّن أنه غاضب؛ لأنه ما من أحدٍ في الفصيلة كان مستعداً لتحدي النقيب، بالرغم من انتشار الشكاوى من ملاحظات وارفل الأولية.

قال وليامز: «ها هو معكم الآن، هل تقولون له الأشياء التي قلتم لي؟».

ومع أني أمنح وليامز الفخر بوقوفه مسانداً للفصيلة بهذا الشكل، كان جلياً منذ بعض الوقت أن هناك شيئاً شخصياً بينه وبين قائد السرية. كانت المشكلة أن وليامز أراد أن يفعل الأشياء بطريقته الخاصة، بينما وارفل الذي يعيد النظر دائماً، كان يشدّد كل مرة أن له سلطة على وليامز. إن آخر مناوشة بينهما كانت تتعلق بجندي في فصيلتنا اسمه كاراسكيلو Carrasquillo، الذي كانت جدته في حالة خطرة من جراء مرضٍ في مجاري التنفس. هذه الجدة كانت هي التي قامت بتربية كاراسكيلو وهذا ما منحه حق الحصول على إجازة طارئة للذهاب لزيارتها. كان وليامز قد تقدم بالعديد من الطلبات إلى وارفل لمنح كاراسكيلو إجازة، استناداً إلى إشعارين إسعافيين من الصليب الأحمر فيهما إثبات لحالة العجوز المريضة، ولكن وارفل ظل يرفض الموافقة على طلب الإجازة، بل إنه قال أمام وليامز: إنه يعدّ كاراسكيلو كذاباً. هذا الخلاف صار معروفاً عند أفراد الفصيلة.

هذه المرة جاء دور كاراسكيلو، وبصورة صحيحة، لأن يتحدث ضد وارفل.

قال: «أنت قلت ذلك يا سيدي، لقد قلت لجميع من هم من رتبة (E - 4) ومن هم دونهم: إنك لا تريد العودة دون وسام مشاة القتال».

قال جندي آخر كان يجلس في مؤخرة الغرفة مكرراً الاتهام: «نعم يا سيدي، أنت قلت هذا الكلام».

سرعان ما سمعنا مزيداً من أصوات اللوم، إلى أن امتلأت الغرفة بتمتمة انتقاد عالية. ومع أن أحداً لم يكن ينتقد وارفل علناً، أو ينتقده مباشرة بارتكاب خطأ، فقد كان واضحاً وجود الكثير من الاستياء بسبب إخفاقه في حماية جنوده مما كان يُعد، على نطاق واسع، طموحات قاسية ومخالفة للمبادئ الأخلاقية من قبل قائد كتيبة تملّكه حب العظمة.

أصرّ وارفل مرة أخرى، وهو يومئ برأسه ويغمض عينه: «لم أقل ذلك الكلام إطلاقاً. لم أقل أبداً: إنني أرغب في الحصول على وسام مشاة القتال إلى حد عدم رغبتي في العودة دون الوسام».

سأله صوت مجهول الاسم في مؤخرة الغرفة: «إذاً، ما هو يا سيدي، الذي لا تريده؟» لزمنا جميعاً الهدوء.

أجاب وارفل دون أي تردد: «حلمي في الحياة أن أكون القائد العام للحرس الوطني في فلوريدا، وهذا ما أرغب فيه».

أما كثيرون فيريدون أن يعود إلى وطنهم أحياء، وبمعنويات عالية، أو أن يساعدوا الشعب العراقي على إقامة الديموقراطية والمجتمع المحترم. كان ذلك الجواب لخطأً، ولكن ما من أحد أبدى تشككه في خداع، كهذا الطموح الخادع. لزمت الغرفة الصمت إلى أن غادرنا وارفل.

ولكن معظم غضب سريتنا لم يكن موجهاً فعلاً إلى وارفل، بل كان بدلاً من ذلك يستهدف قائد كتيبتنا، ميرابل. إن الشائعات عن قيامه بقصارى

obeikandi.com

جهده لتنفيذ أسوأ مهمات من أجل أن تتعرض كتيبته للقتال، بل ولخلق ذلك القتال، كان بداية انتشارها منذ البداية ذاتها لانتشارنا، ولكن الشائعات لم تكن تعني شيئاً لأي شخص إلى أن وصلنا إلى الرمادي، وبدأنا نمارس القتال. إن الرسالة التي فهمتها من رفاقي الجنود كانت عبارات من قبيل: «يجب علينا إرسال رسالة إلى العدو، إننا لسنا خائفين» أو «يجب طرد العدو»، هذه الرسائل أخذت تبدو بصورة متزايدة أنها غريبة ومروعة؛ لأنها صارت تُترجم إلى معارك عنيفة بالنيران وهجمات وضع قنابل إلى جانب الطرق، وكان بالإمكان تجنب معظمها بسهولة.

مع تزايد التوتر والكراهية، سمعتُ شائعات عن تخطيط جنود في وحدتنا لاغتيال ميرابل.

قال لي روزادو في أحد الأيام، بعد عودته من متابعة الرقابة اللاسلكية: «سمعت عن تفكير شخص في قطع الجزء الأسفل لزجاجة ماء وربطه بفوّهة بندقية، واستعمالها كاتماً للصوت. أنا أخبرك أنهم يريدون قتله».

لم آخذ كلام روزادو على محمل الجد، على الأقل ليس حتى مرور بضعة أيام عندما دعينا إلى تشكيل في سرية، وهو أمر كان حدوثه غير معتاد إلى أقصى حد في بيئة قتال. إن النقيب وارفل حمل قطعة ورق وهو يقف أمامنا، وأرانا إياها. كانت الورقة رسالة وردت من داخل عش النسر متضمنة تهديداً بإلحاق الأذى، ليس الأذى لميرابو فقط، بل أيضاً لعائلته في الولايات المتحدة في حالة عدم إعادة انتشارنا بأسرع ما يمكن. أراد وارفل الحصول على أي معلومة توصله إلى معرفة كاتب الرسالة، وأنذر بأن كل شخص تصدر عنه تهديدات مماثلة يمكن معاقبته، أو سيُعاقب

بموجب المجموعة الموحدة لقانون القضاء العسكري. لم يتقدم أحد لتقديم معلومة، لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر.

ما لبثنا بعد التشكيل أن سمعنا خبراً عن منحنا وسام مشاة القتال. والوسام بحد ذاته هو شعار بندقية قديمة الطراز Musket مع مطرقة مطروحة فوق جيوب الجانب الأيسر من ملابسنا القتالية في الصحراء. إن وضع هذا الوسام كان اختياريا، ولكن الشعارات جرى توزيعها على جميع الجنود، ونشرت قيادتنا كلاماً، مفاده أنه تشجيع إلى أقصى حد استعمال هذه الشعارات. هذه كانت مناسبة واحدة، إذ كان قادتنا خلالها يقومون بالقيادة من موقع المقدمة: كانوا ضمن الأوائل الذين زاروا الخياطين للحصول على إشارات صغيرة عن العظمة، تخاط أقرب ما تكون إلى قلوبهم.

ذات مرة تم منح الوسام، ولكن إغراء الحياة في الرمادي بدا شاحباً بسرعة بالنسبة لضباطنا، كما بدا للآخرين منا. ولكن فات الأوان لكي يقول ضابطنا برتبة مقدم: «حصلت على كامل خبرة القتال التي أحتاجها، الآن أريد أن أعيد وحدتي إلى الوطن»، إن الأحداث في العراق لم تقع وفقاً للخطة وكان السلك العسكري بحاجة ماسة لجميع المشاة الذين تستطيع الحصول عليهم. إن الوحدة الثالثة لرد الفعل السريع التي ألحقنا بها كان يفترض أن تحل محلها وحدة من الوحدات المتميزة والحاصلة على الأوسمة في الجيش، وهي الفرقة المحمولة جواً الثانية والثمانون. إن وراثة هؤلاء السادة الجدد للرمادي تضمنت قصرين رئاسيين، وأبنية حكومية وقوة محلية من الشرطة، ومخازن عسكرية، ومنشأة لتناول الطعام فيها تحمل اسم كيلوغ براون أند روت Kellog Bwron & Root مع جميع

المستخدمين الأجانب فيها، وكذلك كتيبة الحرس الوطني في فلوريدا، وهي قديمة ومعداتها سيئة وتشكل كتيبة المشاة رقم 124. لم يكن من واجبنا أن نذهب إلى أي مكان.

ومع أننا رسمياً ملحقون بالفرقة المحمولة جواً الثانية والثمانين، فإنه كان علينا أن نكون تابعين مباشرة إلى وحدة تابعة لفرقة المشاة الأولى، وهي معروفة باسم «الوحدة الحمراء الكبيرة» «The Big Red One». هذا الوضع الغريب بالذات خفضنا إلى حالة غير ثابتة لعدم الوجود عسكرياً في الوطن، إذ كانت الحمراء الكبيرة وكذلك الثانية والثمانون، كل منهما تشير إلى الأخرى عندما يتعلق الأمر بتوفير قطع غيار للسيارات في حاجة ماسة إليها، وكذلك عجلات جديدة للسيارات وذخيرة. لم يتحمل أحد مسؤولية تزويدها بكل هذه الأمور، ولكن كل واحدة، من ضمنها الوحدات الثالثة لرد الفعل السريع، أرادت استخدامنا للقيام بمهمات مشتركة.

إن العلاقات الأولية مع المقاتلين المتميزين الواصلين حديثاً من الفرقة الثانية والثمانين لم تمر دون شيء من التوتر؛ ذلك أن ضباطهم كانوا يتحملون العبء باستمرار عندما نفشل في تقديم التحية لهم، مع أننا فعلياً كنا نفعل ذلك لحمايتهم من هجمات محتملة من جانب قناصين. كانوا هم أيضاً يوجهون اللوم إلى عدد قليل من جنودنا إذا لم يقصوا شعر رؤوسهم وفقاً للقاعدة العسكرية، ولأنهم تركوا على وجوههم لحية قصيرة، مع أننا أوضحنا أن اللحية كانت لمساعدتنا على الانخراط مع الناس المحليين عندما نقوم بدورياتنا بسيارات مدنية خلال الليل. أصدر قائد الفرقة الثانية والثمانين أمراً بمنع وحدات الحرس الوطني من الاستفادة من المخزن العسكري وقاعة الطعام في القصر الرئيس. جرى تحويلنا إلى

منشآت من الصنف الثالث في قصر أصغر، وهذه حركة قوبلت بالكثير من الاستياء لدى جميع أفراد السرية. ولكننا كوحدة من الحرس الوطني عوملنا عادة، وكأننا الولد غير المرغوب في تبنيه من قبل السلك العسكري، وهكذا تغلبنا بسرعة على الإذلال.

إن اقتران الحصول على وسام مشاة القتال بتصنع الفخامة من قبل الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً قد أحدثت تحولاً غير طبيعي في موقف قائد كتيبتنا. وعندما بدا أنهم على وشك إرسالنا للقتال، حيثما أمكن، التفت ميرابل نحونا فجأة طالباً المساعدة في محاولة السماح بإعادة الكتيبة إلى الوطن. كانت المناسبة خطاباً ألقاه أمام سريتنا عن الذكرى الثانية لأحداث 11 أيلول «September 11». كنا نتوقع تذكّر الذين ماتوا بسبب الهجمات الإرهابية وتوقعنا مسوغاً وطنياً لاستمرار وجودنا في العراق. بدلاً من ذلك، كما أتذكر، هزّ قائدنا الفرقة المليئة بالنخير، وهو ناشئٌ عن الشعور بالتعب من المعارك، قائلا: «نحن جنود، وليس من حقنا أن نشكك في الأوامر الصادرة إلينا أو مهماتنا. لا يمكننا أن نقول: إن هذا وقت عودتنا إلى الوطن. كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نقاتل وأن نفعل ما يطلب منا». تمهل وبدا أنه يعكس للحظة التفكير فيما كان على وشك أن يقول: «لكن عائلاتنا كان بإمكانها أن تطلب عودتنا. لعائلاتنا هذا الحق. إن زوجتي في الوقت الراهن تعمل مع مجموعة من أفراد عائلات في فلوريدا لجمع التوقيعات التي هدفها ممارسة الضغط على السياسيين في بلدنا للقيام بما يستطيعون من أجل عودة فرقة المشاة رقم 124 إلى الوطن. وعائلاتكم يمكنها أن تفعل الشيء ذاته، وأنتم يمكنكم أن تشجعوا العائلات للانضمام إلى هذا الجهد من أجل إعادتنا».

كان واضحاً لي عند استماعي إلى خطابه أن ميرابل لم يشاهد فقط ما يكفي في الرمادي، بل لم يكن لديه مؤشرات تبين متى سيعاد انتشار وحدتنا ولم يعد له أي رأي في هذه المسألة. كانت هذه المرة الأولى التي عندها أدركت إلى أي حد صار عاجزاً الآن. ومع أنني مازلت مقتنعاً من أنه استخدم نفوذه من أجل خروجنا من العراق بسرعة، وأنه كان يتحين العديد من الأعمال القتالية الشديدة؛ بحثاً عن تحسين سيرة حياته، فقد علمت الآن أيضاً أنه كان متطرفاً فيما يريد عمله ولم يكن هناك أي شيء يستطيع أن يفعله من أجل عودتنا إلى الوطن.

قبل مرور وقت طويل بعد استماعي إلى خطاب ميرابل، كتبت رسالة إلى النقيب وارفل، طالباً فيها إعادتي إلى الوطن. شرحت في الرسالة تفصيلياً وضعي القانوني، بصفتي جنديّاً في جيش الولايات المتحدة دون جنسية أمريكية، وأنني قبل نشرنا في الخارج كنت أخدم في السلك العسكري أقل من ثماني سنوات، وبموجب قوانين الجيش وأنظمته، كانت ثماني سنوات تمثل ليس فقط انتهاء العقد الذي وقعته، بل تمثل كذلك المدة القصوى زمنياً لبقاء شخصٍ ليس مواطناً في الولايات المتحدة، بصورة قانونية في القوات المسلحة. ونوهت بأن بطاقتي الخضراء كانت على وشك انتهاء مدتها.

حاولت دون نجاح، وبهذه الحجج ذاتها، أن أخرج من الانتشار في عدد من المناسبات منذ وقت مبكر، أي في شهر كانون الثاني (يناير) عام 2003، ولكن الردود التي تلقيتها من الشخص المختلف الذي تحدثت معه، كانت هي ذات الردود: «لا تقلق، أيها الرقيب، ستكون بطلاً ومواطناً عندما تعود إلى الوطن». ولم أكن راغباً في أن أكون بطلاً ولا مواطناً، كل ما أردته هو

الخروج من حرب أعدّها غير شرعية. ولكن كلما قوبلت بالرفض، قبلت أي أسباب قدمها لي شخص قانوني، وما لبثت أن وجدت نفسي عائداً إلى وحدتي. إن الناس الذين تعاملت معهم كانوا على ما يبدو جاهلين بأنظمة الجيش، ولكن ذلك كما رأيت ليس خللاً في النظام، بل هو جزء لا يتجزأ من النظام وجزء ضروري منه.

إن محاولة الخلاص من الحرب كانت،كما شعرت، أشبه بمسعى سيزوف Sisyphus الذي كان يرفع الصخرة إلى أعلى التل، أكثر من شبه المحاولات الواقعية للخروج من الجيش، لا سيما أننا الآن في العراق. إن طلبات الجنود للذهاب إلى الوطن لرؤية أقرباء يموتون أو أطفال وُلدوا منذ وقت قريب أو إنقاذ بكفالة أعمالٍ تجاربة توشك على الإفلاس دون وجود هؤلاء الجنود، هذه الطلبات كانت تقابل دائماً بالرفض، وكلما فكرت في أن أطلب إعادتي إلى الوطن كنت أضحك من نفسي؛ لأن الفكرة ذاتها كانت واردة، ولكني كنت أشعر من حين إلى آخر أنه لا بد لي أن أحاول الخروج من الجيش على أقل تقدير. حتى مع علمي أن النظام العسكري سيكتفي بالضحك في وجهي وإعادتي إلى خطوط القتال.

عندما قرأ القائد والرقيب الأول رسالتي، حاولا حل المشكلة بواسطة الحصول على وثائق الهجرة من الإنترنت. ولكن كل ما أمكنهم الحصول عليه هو نماذج أوراق لإطالة مدة تأشيرة السياحة أسبوعاً أو أسبوعين. لحسن الحظ، أن الرقيب وليامز ظن قضيتي معركة أخرى في حربه المستمرة مع وارفل وأنه، بواسطة مواصلة ضغطه المستمر، توصل أخيراً إلى اتفاقية تسمح لي برحلة مدتها ثلاثة أيام إلى المكان الذي يدعي «الأسد»؛ للالتقاء مع ضابط من مكتب القاضي المحامي العام

Judge Advoeate General باختصار (J A G)، وهذا هو الدائرة العسكرية التي تعالج المسائل القانونية.

مكان الأسد تغيرّ كثيراً عما كان عندما زرته آخر مرة. فقد تحول من شبكة كئيبة مؤلفة آنذاك من حظائر مدمرة كانت للطائرات في وسط مكان مجهول، إلى بلدة عسكرية مزدهرة تحتوي على مخزن عامر بالمؤن ومركز للاتصالات الهاتفية واللاسلكية، وحوض للسباحة، ودائرة مالية، ومكتب بريد، وكنيسة صغيرة ومكتب قاضي محامٍ عام.

بعد مقابلة أولية أحالوني إلى نقيب هو النقيب محمد. إن محمداً طويل القامة، أسمر، ولعله من أصل عربي، وكان محامياً للدفاع في القضايا الجنائية لدى الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً، وعمله هو الدفاع عن الجنود الذين يُتهمون بأشياء من نوع المعاملة الفظة للسجناء. قبل انضمامه إلى الجيش كان يعمل في دائرة الهجرة ومنح الجنسية. بعد أن راجع قضيتي بسرعة استنتج أنه لا بدّ لي من تقديم طلب لتجديد إقامتي في الولايات المتحدة عبر الإنترنت. وهو قال لي: إن مسألتي قد تتطلب إرسالي إلى الوطن عند وقت ما خلال عملية التجديد، وأضاف: إن القيام بذلك الآن سابق لأوانه. والقرار، في أي حالة، سيعود كلياً إلى قيادتي.

سألته عن النظام الذي يمنع حالات التمديد، بعد أن أمضيت في الجيش ثماني سنوات دون أن أكون مواطناً، فادعى أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك وطمأنني بأنه لن تكون هناك عواقب سلبية بالنسبة لي، حتى إذا كان هناك نظام من هذا القبيل.

وأضاف، مع ابتسامة مطمئنة: «لا تقلق، سيستمر حصولك على راتبك، وستحصل على الفوائد التي تنالها مادمت موجوداً هنا».

عند الوصول إلى ذلك الحين استبدّ بي ذلك الشعور المألوف بأن الآلة العسكرية ليست مبرمجة لمساعدة الجنود في الخروج من الحرب، لا سيما إذا كانوا من المشاة. الأمل الوحيد ولا أمل غيره أن أغادر ذلك المكان بعد أن أكون قد وجهت سؤالاً واحداً أخيراً إلى محمد:

«ماذا إذا انتهت مدة إقامتي في الولايات المتحدة؟ هل يمكن للجيش أن يحتفظ بي؟».

كان محمد آنذاك أكثر وضوحاً.

أجاب: «كلا، إذا انتهت مدة إقامتك يسمح لك الجيش بالذهاب».

مع هذه المعلومة عدت إلى الرمادي وأبلغت بما قيل لي. أُمرت بأن أحضر لقاءً في غرفة النقيب وارفل، حيث كان لقائي أنا ووليامز، إلى جانب القائد، مع الرقيب الأول والملازم غرين Green.

عند دخولي إلى الغرفة رأيت النقيب وارفل متمدداً على سريره ومتخذاً وضع أمبراطور روماني مستبدٍ، ولكن دون العنب. تطلع إلى يمينه حيث كان ذا نوغوليتور واقفاً ويبتسم له بلطفٍ. مرة أخرى شعرت كأني أُحاكم عن جريمة عقوبتها الإعدام. كان وارفل رئيس المحكمة، وكان ذا نوغوليتور المدعي، وكان غرين يمثل هيئة المحلفين، أما وليامز فكان محامي الدفاع عني.

سألني المدعي: «لماذا لم تقدم من هنا طلباً لتجديد إقامتك؟».

أجبت: «أيها الرقيب الأول، إن محاكمة حجزٍ قضائي تنتظرني في الوطن، وأريد أن يحل ذلك قبل تجديد بطاقة إقامتي».

obeikandl.com

في رسالتي إلى القائد كنت قد أوضحت أنني شرعت في إجراء قانوني لإثبات أبوّتي لابنتي، التي نافستني عليها أمها. في نهاية الأمر، منحني القاضي حقوقاً أبوية، ولكنه قضي بأنني تسببت في مقاضاة لا ضرورة لها للأم، وأمرني بدفع جزء من أتعاب محاميها، وهذا لم أكن قد فعلته. في ذلك الحين كنت قلقاً؛ خشية أن يكون هذا الدين بالمبلغ حجة ضدي عندما أقدم طلب تجديد الوضع القانوني لإقامتي.

سألني القاضي وارفل: «لماذا لم تهتم بهذا الأمر قبل مغادرتك؟».

أجبت: «كنت أذهب إلى المدرسة بدوام كامل ياسيدي، لم أكن أملك آلاف الدولارات، بل كنت أعتمد على منح دراسية، وقروض، وفاتورة الجيش لمساعدتي».

قال النقيب، وكأنه يقاطعني: «نعم، ولكن لماذا لم تحاول إثارة هذه المسألة قبل مجيئك إلى العراق؟ أما البسمة الرقيقة فقد اختفت.

«بل فعلت ذلك يا سيدي، ويمكنك أن تسأل الرقيب الأول».

تبادلت لمحة سريعة مع ذا نوغوليتور، الذي بدا منزعجاً؛ لأني استخدمته من أجل قضيتي، ولكنه لم ينكر الادعاء.

تابعت كلامي، فقلت: «بل إنه اختارني مرة من مكتب مساعدة قانونية في فورث ستيوارت».

سألني وارفل، وكان آنذاك ينظر إلى شيء في يده: «ماذا حدث هناك؟».

«قالوا لي: يجب ألا أقلق، وأننا من المحتمل أن يكون انتشارنا مدة ستة شهور فقط، وأنني لدى عودتنا سأكون بطلاً وسأحصل فوراً على جنسيتي».

openkandi.com

قال الرقيب الأول: «أنا أعرف طريقة لتمديد إقامتك. أظن أننا نستطيع أن نفعل ذلك دون اضطرارك للعودة».

تدخل وليامز في الكلام: «نعم، ولكن ذلك لن يحل مشكلة إقامته عندما يعود. وحتى إذا أمكنه أن يمدد الإقامة، يبقى أمامه أن يتمكن من تصفية مسألة عدم دفعه أتعاب المحامي، وفقاً لأمر القاضي، أو أنه قد يُحتجز بتهمة تحقير المحكمة».

حصل عندي انطباع واضح أن وليامز لم تكن لديه أي فكرة عما يتحدث عنه، وكنت في لحظة على وشك أن أضحك، ولكنه تكلم وكأنه يتمتع بثقة أحد محامي نقابة الحريات المدنية الأمريكية.

تابع وليامز كلامه، متجاهلاً المدعي، وموجهاً نظره إلى القاضي بعينين حادتين: «إنه في الواقع كان يمكن ترحيله، وعنده ابنة صغيرة يجب أن يعولها».

كانت غلطة وليامز أن يفكر في أن هؤلاء الناس يهتمون بالجنود وعائلاتهم. كنت أعرف الحل الوحيد الحقيقي، وهو أن نجعلهم يرون إمكانية فقدانهم نهائياً أحد الجنود.

قال ذانوغوليتر: «حالياً أحاول فقط أن أبقيه هنا، وعندما يعود يستطيع أن يهتم بأي مسائل أخرى لديه».

قلت أخيراً دفاعاً عن نفسي: «ما رأيك في هذا يا سيدي؟ ولماذا لا ننسى كل هذا وأنك فقط تطلب مني الذهاب في كانون الثاني (يناير)؟ إن مدة إقامتي تنتهي في شهر آذار (مارس) من العام القادم، وهذا يعني أنه يتحتم عليّ عندئذ أن أكون قد أنهيت عملي في الخدمة العسكرية».

Obeikandi.com

تصورت أنني إذا تمكنت من جعل النقيب يفهم أنه يستطيع أن يخسرني نهائياً، فبإمكانه أن يرسلني إلى الوطن، على الأقل مدة أسبوعين. هناك يمكنني العمل، أو أن أجعله عملاً دائماً. هدفي الرئيس هو أن أخرج من العراق.

تابعت كلامي، وكانت عيناي جاحظتين دون أن أنظر إلى أي شخص بذاته، فقلت: «امنحني بضعة أسابيع؛ لأُتمم مسألتي، إضافة إلى شهر من إجازة ختامية. سأكون قد خرجت بحلول السادس من شهر آذار، يا سيدي، أي عندما تكون انتهت مدة بطاقتي الخضراء. فقط أطلب السماح لي بالذهاب في كانون الثاني».

اشمأز النقيب من إمكانية تركي الجيش نهائياً.

فقال: «سنفكر في شهر كانون الثاني عندما يحل كانون الثاني. أما ما سنفعله الآن فهو أن نتصل بفلوريدا بواسطة الهاتف الخلوي، وأن نتحدث مع الضابط الأعلى مرتبة، القاضي المحامي العام في الولاية».

قبل أن يتولى النقيب وارفل قيادة سريتنا، كان لديه عمل بدوام كامل في مقر رئاسة الحرس الوطني في فلوريدا، حيث كان يقوم بأعمال إدارية. كان يعرف جميع البيروقراطيين الذين يشغلون أعمالاً إدارية. إن هذا الضابط كان يتحدث ليس فقط عن مساعده وصديقه، بل كان يتحدث أيضاً عن جاره الذي يقع مسكنه بجواره، واسمه العقيد ماسترز Masters.

تابع كلامه، قائلاً: «إذا كان هناك من يستطيع مساعدتك فستكون هي».

بدا هاتف القمر الصناعي الذي يستخدمه النقيب، وكأنه هاتف خلوي من زمن التسعينيات، وكان هذا الهاتف كبير الحجم وله هوائي ضخم. وعندما أدار وارفل قرص أرقام الهاتف تطلع نحوي؛ باحثاً عن شيء.

سألني: «إذا أُتيحت لك فرصة مغادرة هذه الحرب غداً، فهل ستفعل ذلك أيها الرقيب؟».

أجبته دون تردد: «نعم يا سيدي، سأفعل». وكنت أتساءل: ماذا سيكون رد فعله إذا قلت له: إنني ضد الحرب.

«حتى لو بقينا جميعنا هنا؟».

«تماماً هذا صحيح يا سيدي».

قال وقد ركّز عينيه نحوي: «لا أعرف كيف يمكنك أن تفعل ذلك. لم أتمكن من العيش وحدي دون بقية الناس».

من العسير أن أقول بدقة كيف شعرت في تلك اللحظة. فمن ناحية كانت فكرة مغادرة الوحدة تجعلني أشعر بأنني مذنب، والسبب الأكبر هو فرقتي. من ناحية أخرى لقد عرفت أن الحرب خاطئة، وأننا كنا نعامل الشعب العراقي بوحشية نتيجة وجودنا. ولكني شعرت أيضاً بحافز يدفعني لأن أُبلغ وارفل أن الرغبة في البقاء في القتال، وإصدار الأوامر من قاعدة آمنة، هو أمر يناسب ضابطاً هدفه في الحياة أن يكون برتبة جنرال، أما أنا فكانت لي أهداف أخرى في الحياة.

قال، منتظراً أن يتصل شخص ما من الجهة المجاورة للهاتف: «ينبغي لك أن تعدني بأنك، إذا سمحت لك بالذهاب، فستهتم بكل أمورك، وبعد ذلك تعود».

قلت: «كلمتي ستكون كلمةَ وعدٍ يا سيدي، ولكن ينبغي لك أيضاً أن تعطيني وعداً إذا كان من شأني، وبموجب القانون أن أُعفى من الخدمة، فستسمح لي عند ذلك بالذهاب».

«إذا كان يفترض أن أسمح لك بالذهاب بموجب القانون، فإنني أقول: نعم عندئذ وأقدم لك وعدي».

شخص آخر من الجهة الأخرى للهاتف بدأ يتكلم.

«نعم، كاتي Kathy، مرحباً يا كاتي هذا تاد Tad. أنا أكلمك من الرمادي».

إن ما تمكنت من فهمه من هذه المخابرة، أن كاتي كانت مسرورة عندما فوجئت بسماع «تاد» وهو يتصل بها من العراق الذي مزقته الحرب. ولكن الأمور الرسمية تم إتمامها، ربما لأن وارفل كان يعرف أن كل دقيقة تكلف أكثر من دولارين. ولذلك فإنه التفت إلى مسائل أكثر جدية.

«نعم، يا كاتي، كنت أتساءل هل أستطيع أن أتحدث إلى العقيد ماسترز. كلا إنها ليست هنا؟» ثم التفت نحوي، فقال لي: «لا بأس يمكنك عندئذ أن تتمكن من مساعدتي. هناك جندي في سريتي لديه بعض قضايا الهجرة. ماذا؟ ميخيا. نعم، هل تعرفينه؟».

قطب النقيب جبهته، وهو يتحدث معي، وغطى الهاتف بيده.

سأل: «هل تعرف أي شيء أيها الرقيب، عن تحقيق يجريه الكونغرس في قضيتك؟».

أجبت: «ليس عندي علم بأي شيء عن تحقيق في الكونغرس، ليست لدي فكرة، يا سيدي».

تابع حديثه، مع كاتي: «نعم، نعم، إنه هنا، سأجعله يحدثك»

سلمني الهاتف.

سمعت صوتاً من أقصى أنحاء العالم يسألني: «نعم، الرقيب ميخيا؟».

قلت: «نعم».

«الرقيب كاميلو ميخيا؟».

قلت متسائلاً: ماذا يحدث؟ «نعم أنا من يتكلم».

«مرحباً أيها الرقيب، اسمي كاتي ترنجيالي Kathy Tringially. أنا أعمل في مقر رئاسة الحرس الوطني في فلوريدا، سأسألك بضعة أسئلة». قالت هذا الكلام دون أن تذكر أي رتبة عسكرية مما جعلني أظن أنها فتاة مدنية وليست عسكرية.

قلت لها: «نعم يا سيدتي، ولكن كيف عرفت اسمي الأول؟».

«عندنا في الكونغرس تحقيق بشأنك. أمك أرسلت رسالة إلى عضو مجلس الشيوخ بيل نيلسون Bill Nelson، وهو من فلوريدا، طالبة إجراء تحقيق في قضيتك.والآن، اسمح لي أن أسألك، أيها الرقيب...».

كنت في الواقع متشوقاً أن أسمع ما تنوي أن تسألني: «نعم، أسرعي، آسف».

«هل قدمت طلباً من أجل جنسية؟».

«كلا، لم أفعل».

«ومتى انتهت مدة العقد بينك، وبين الجيش، ومدته ثماني سنوات؟».

obeikandi.com

قلت، ظناً مني أنها نظرت في القانون الذي أشرت إليه في رسالتي إلى النقيب: «كان ذلك في شهر أيار (مايو) من هذا العام».

كان ذلك الأسبوع الثالث من شهر أيلول (سبتمبر)، وكان عقدي مع السلطة العسكرية قد انتهى رسمياً قبل ذلك بنحو أربعة شهور.

قالت: «إذاً كان يجب تسريحك من السلك العسكري فوراً».

قالت: «لا يمكن التمديد لك مالم تكن قد تقدمت بطلب للحصول على الجنسية وحددت المحكمة تاريخاً من أجل تجنيسك».

قالت: «آنذاك كان يجب تسريحك من العمل العسكري فوراً».

سألتها، في إشارة إلى التعبير العسكري للتمديد غير الطوعي خلال الحرب: «وماذا عن خسارة وقف التمديد؟».

كنت أشعر بالإثارة والإنكار في آن واحد، فقلت: «وماذا إذا كانت هناك حرب؟».

«القانون واضح جداً أيها الرقيب. يجب تسريحك من الخدمة العسكرية. وما إن تصبح مواطناً مدنياً، يمكنك أن تعود إلى العمل العسكري، أما الآن مباشرة فيجب تسريحك».

سألت محبوبتي الآنسة ترنجيالي Tringially: «هل تتمكنين من قول هذا الكلام لقائدي؟».

قالت: «نعم، بالتأكيد اتصل به هاتفياً».

أردت أن أقبّلها فقلت لها: حسناً، أشكرك». ثم قلت للنقيب عندما أعدت الهاتف إليها: «إنها تقول لا بد من تسريحي».

obeikandi.com

قال مع مزيد من تقطيب الجبهة: «ماذا؟» ثم تحدث بواسطة الهاتف: «هالو Hello، من يتكلم، كاثي؟ هالو، هالو، كاثي هل أنت هناك؟ فقدت الإشارة» هذا ما قاله لي، وهو يقفل الهاتف بإبهامه ووضعه في الجيب اليمين لبنطلونه الخاص بالصحراء.

بعد حديث مع ترينجيالي دون أي مشكلة طوال الوقت، بدا أنه أمر غريب، فقدانه إشارة جيدة.

«يا سيدي، قالت لي: إنه يجب تسريحي فوراً».

احتدّ النقيب، فقال «ليس هذا ما قالته لي: سنجرب مرة أخرى غداً، عندما يكون العقيد ماسترز في المكتب. إنها أكبر مسؤول قضائي في الولاية. وستعرف ما يجب أن تفعل».

قلت وأنا أبتعد عن النقيب: «روجر، سيدي».

علمت لاحقاً أن الرسالة التي وجهتها إلى الآمر، التي أرسلتها بالبريد الإلكتروني إلى الوطن لحفظها مع السجلات، قامت والدتي بتسليمها إلى عضو من مجلس الشيوخ الأمريكي؛ لكي يحاول إخراجي من العراق. وبسبب تلك الرسالة جرى تحقيق في الكونغرس (تحقيق كان الداعي إليه عضو في الكونغرس)، وبتّ أحلم بتسريحي من الخدمة العسكرية. شعرت مهما لدى العقيد ماسترز (وهي سيدة) من كلام، فلن يكون له شأن في الواقع. فمن أو ماذا يمكن أن يكون أعلى سلطة من تحقيق يجريه الكونغرس؟ مع انقضاء أكثر من ثماني سنوات من خدمتي في الجيش، لم تكن عندي حتى ذلك الحين فكرة دقيقة عن واقع قوة السلطة العسكرية.

في الليلة المقبلة، وعلى وجه التأكيد، قبل نحو ساعة من الموعد المقرر لاجتماعنا، أرسل النقيب في طلبي مرة أخرى. ناولني الهاتف للتحدث مع السيدة العقيد ماسترز. «قضيتك مألوفة عندي، أيها الرقيب ميخيا، وأظن أننا نستطيع مساعدتك؛ لكي تصبح مواطناً مدنياً. سأرسل إلى قائدك الأوراق الخاصة بك لملء المطلوب فيها».

من عادتي أن أشعر بمزيد من الراحة عندما أتكلم مع النساء بدلاً من الرجال، خاصة في السلك العسكري، ولكني أدركت على الفور أن العقيد ماسترز هي استثناء.

قلت لها: «نعم، يا سيدتي. أشكرك، ولكن ماذا عن القانون؟ السيدة تريجينالي قالت: إن هناك تحقيقاً في الكونغرس، والتحقيق أظهر أنه يفترض تسريحي».

قالت ماسترز بلهجة فيها شيء من السخط: «لم أشاهد ذلك القانون. إضافة إلى ذلك نحن نسرح من الجيش الأشخاص المصابين بالسمنة، ولكننا لا نفعل ذلك حالياً. هل نفعل ذلك أيها الرقيب؟».

أجبتها، وكنت في تلك اللحظة مرتبكاً: «لا أعرف يا سيدتي». تُرى، لماذا نتحدث عن الأشخاص المصابين بالسمنة.

«نحن لسنا!».

سألتها، متعثراً: «ولكن ماذا عن التحقيق في الكونغرس، وكوني قد أمضيت الوقت الماضي في الخدمة العسكرية، دون أن أقدم طلب الحصول على جنسية؟».

قالت، وهي تتسرع في كلامها، وذلك ما جعلني أعجب ما سبب سرعة كلامها: «إذا كنت جاداً في أن تصبح مواطناً مدنياً فعليك أن تملأ الأوراق التي سأرسلها لك وأن تعيدها لي بأسرع ما يمكن، بعد ذلك يجب أن يتصل النقيب وارفل بمكتب الجنود الأول (G - 1) في بغداد؛ ليعرف من المكتب ماذا يفعل بالنسبة لأشخاص هم في وضع كوضعك».

سألت «مكتب G - 1؟».

«نعم، سأخبره عن ذلك. في هذه الأثناء عليك أن تعيد إليّ كل العمل الورقي الذي أرسلته لك. ومن جانبنا سنساعدك لتصبح مواطناً مدنياً».

لم تكن رغبتي أن أبدو غير وطني، ولكني بدأت أستغرب ما سبب تعجلهم لأكون مواطناً، كان يجب منذ البداية إرسال طلبي إلى الوطن لتجديد بطاقة إقامتي التي ستنتهي مدتها قريبا. بدا الآن كل شيء يركز على أن أصبح مواطناً على الفور.

بعد الحديث مع السيدة العقيد ماسترز عدت إلى غرفتي، دون أن أكون راغباً في الواقع أن أرفع الصخرة إلى أعلى التل مرة أخرى. كل ما تمكنت أن أفعله هو محاولة أن أحافظ على جسدي وروحي معاً، ريثما تنتهي خبرتي في الحرب، ومع أنني كنت خائب الأمل بسبب اضطراري للبقاء، فإني سررت بانتهاء الأمر كلياً. على أقل تقدير حاولت وتمكنت الآن من العودة إلى فرقتي وجعل الآخرين يعرفون أنني لست مغادراً. كنت قد أطلعت اثنين من أفراد الفرقة على الرسالة التي كتبتها، وعرفوا جميعاً أنني جربت الخروج. وما من أحد منهم أبدى غضبه مني لرغبتي في الرحيل، بل أمكنني القول: إنهم فضلوا بقائي.

بعد يومين لاحقاً، في الأسبوع الأخير من شهر أيلول عام 2003، سلّم مراسل اللاسلكي رسالة إلى الرقيب وليامز. كان النقيب وارفل قد تسلم برقياً رسالة من القصر الشمالي، حيث كان لقاء قيادته منعقداً مع العقيد ميرابل وقادة السرية الآخرين. كانت الإدارة في الجيش قد دافعت عن استراحة وبرنامج استرخاء يسمح للجنود الذين ظلوا في العراق عاماً أو أطول من عام بالذهاب إلى الوطن أسبوعين. تسلمت كتيبتنا عشرين منحة من هذا النوع.

قال وليامز، وهو يقف عند باب غرفتي: «القائد يريد منك أن تكون في المجموعة الأولى».

نجح أفراد الفرقة من منع وصول الضوء من الخارج إلى غرف نومنا. ومع احتفاظ وليامز بالباب مفتوحاً، كان الضوء الذي عمّ الغرفة يمنع عينيّ من النظر، وأخذت عيناي تبحثان عن ظلّ وليامز لاستعادة البصر.

سألته، وقد صدمني التطور الجديد المفاجئ، مع تصرفي بهدوء: «هل تنوي إرسال أي شخص آخر؟ لعلي عازم على انتهاء إقامتي هنا يا وليامز».

أجابتني صورته المعتمة: «لا بأس، يمكنك البقاء. ماذا يريدون عمله؟ إن إقامتك اقتربت من الانتهاء».

قلت مُصراً على كلامي: «نعم، ولكن هذا مدة أسبوعين فقط. يريدون مني أن أعود».

«لا تقلق بهذا الشأن».

فكرت هل يريد وليامز أن يتصرف بوصفه رجلاً طيباً، أم أنه ينحاز إليّ للذهاب مرة أخرى إلى وارفل. مهما كان الأمر، بدا أنه لا يعترض على إمكانية مغادرتي نهائياً. لعله خطر له أن هذه طريقة جيدة للتخلص من قائد فرقة كانت عنده العادة السيئة للتشكيك في سلطته.

تابع أسئلته ملحاً: «ماذا هم عازمون أن يفعلوا؟ إذا انتهت مدة بطاقتك الخضراء، وأنه يُفترض أن تترك الجيش، فماذا سيفعلون؟».

قلت «لا بأس، يا وليامز».

«إذاً أسرع. يجب أن نستعد للذهاب في غضون ساعة». ثم أغلق الباب، وتركني في الظلام للتأمل بضع دقائق.

جمعت بضعة أشياء لحملها معي، وهي الأشياء الأساسية. فيما يتعلق بالذخيرة كان علينا أن نأخذ مخزناً واحداً للبندقية وليس قنابل، ولا معدات خاصة. وما إن فرغت من إعداد كل شيء، حتى أخذت أبحث عن أكبر عدد من أفراد الفرقة أستطيع أن أجدهم؛ لكي أودّعهم.

سألني إستيم: «هل ستعود أيها الرقيب ميخيا؟».

قلت له: «لا أعرف أيها الرجل. قد لا أعود».

تمنى لي حظاً طيباً وعانقته لحظة. عندئذ جاء مانتيلا، راكضاً ومعه غلاف أصفر اللون.

قال: «أرجو منك معروفاً، خذ هذا معك لزوجتي. ها هو رقم الهاتف».

«موافق، أيها الرجل، لا تقلق، سأسلمها الغلاف».

obeikandl.com

«حسناً، اهتمّ بنفسك».

بينما كنت خارجاً التقيت ذا نوغوليتور، الذي كان يحمل استمارات للإجازة للتوقيع عليها من جميع أفراد سرية شارلي. وبصفتي رقيباً أول، كنت الجندي الأعلى مرتبة الذي يغادر السرية. تلقيت أوامر بإرسال رد بالبريد الإلكتروني إلى الرقيب الأول بمجرد وصولي إلى الولايات المتحدة، يؤكد فيه أننا جميعاً عدنا بأمان، ويجب أن أقدم تفاصيل تاريخ هبوط الطائرة، وهذا من شأنه أن يكون رسمياً إجازة الأسبوعين.

عندما صعدت إلى الشاحنة وصل النقيب وارفل، قادماً من اجتماع القيادة، فتوجه ببصره نحوي.

قال مبتسماً: «كنت واثقاً أنك ذاهب في هذه الرحلة؛ لأني أردت منك أن تهتم بمسائلك في الوطن. أتوقع منك أن تكون قد وجدت حلولاً لهذه المسائل عندما تعود».

«سأهتم بكل شيء يا سيدي».

كانت تلك آخر كلمات قلتها للنقيب وارفل عندما بدأت أغادر العراق.

obeikandl.com

obeikandl.com

عاشراً

كنت واحداً من نحو عشرين جندياً من المشاة رقم 1-124 بينما كنا نركب في شاحنتين قديمتين من وزن خمسة أطنان في طريقنا إلى قاعدة الأسد الجوية في الشعبة الأولى من رحلتنا إلى الوطن مدة أسبوعين للاستمتاع. وإضافة إلى عشرين جندياً كان لهم حظ الذهاب إلى الوطن، شملت القافلة سيارتين من نوع همفي مسلحتين بمدافع رشاشة من قياس خمسين لتوفير الأمن في رحلة العودة، بعد أن يكون عددنا قد تضاءَل.

ولأن أفضل طريق مباشر إلى قاعدة الأسد صارت مؤخراً موقع العديد من الهجمات بالصواريخ ـ كان أحد الجنود قُتل، وجُرح آخر في اليوم السابق ـ صدر قرار بأن نسلك الطريق الأقل استخداماً لها في السفر. هذا قادنا عبر الصحراء ـ إلى مساحات واسعة في بُقعٍ يأتي إليها بعض الرعاة عرضياً؛ سعياً وراء الكلأ لقطيع خرافهم في قطعٍ من الأرض معزولة، ولكنها معشوشبة، أو تكون فيها مجموعة من الأكواخ الطينية التي يقف سكانها يتفرجون علينا خلال مرورنا. حاولتُ أن أحافظ على تيقظي مصوّباً بندقيتي إلى خارج الشاحنة، وأصبعي فوق مقداح البندقية، ولكن شيئاً ما حال دون انتباهي الكامل لأعمال جنودي في ذلك اليوم. وكان خوفي قد زال وحل محله شيء آخر، إنه شعور جديد. شعرت أنني مفتون بالأراضي الريفية التي كنا نسافر عبرها، بمنازلها الصدئة المحاطة بأشجار نخيل صغيرة ومياه من نهر الفرات. لم يكن أمامي مفر من التخلي عن حراستي، فقد كنت بحاجة إلى القول: وداعاً للعراق.

وصلنا إلى قاعدة الأسد، وسلمنا أسلحتنا إلى الرقيب المسؤول عن التموين في الكتيبة، وهذا تصرف هو علامة الانتقال من بيئة القتال في الرمادي إلى قاعدة الأسد الأكثر راحة، حيث ينال الجنود بذخ المشي في أنحاء المنطقة دون أن يحملوا معهم معداتهم للقتال. قبل استحداث برنامج إجازة الأسبوعين، كانت قاعدة الأسد تستخدم مكاناً لرجال الحرس الوطني يحصلون خلال ذلك على استراحة، مدتها ثلاثة أيام. أما الآن فقد صار استخدام القاعدة نوعاً من مركز إزالة حساسية خوض القتال بالنسبة للجنود الذين يغادرون ساحة المعركة.

زارنا في تلك الليلة قسيس في الجيش قدّم لنا تُوَجِيْهَيْنَ، التوجيه الأول يختص بإعادة التكيف مع الوطن والأقارب، أما التوجيه الثاني فيدعو إلى منع الانتحار. لقد ذكّرتني هذه التوجيهات بزمن ذهاب فصيلتنا لرؤية فريق توتر القتال في الرمادي، إذ كان الفريق مؤلفاً من اختصاصي في العلوم النفسية واثنين من مساعديه. كانت بداية الجلسة مع أعضاء الفريق أن يطلبوا من كل واحدٍ منا أن يتحدث عن تجربته في العراق وتأثيرها على حياته، وأن نشرح كيف تعاملنا مع التجربة. كل القصص كانت تدور حول معارك تبادل القتال بالأسلحة وأحداثٍ أخرى لها علاقة بالقتال، وحول طرق التعامل مع مثل هذه اللحظات، ابتداء من القراءة والكتابة أو اللعب في مركز اللعب Play Station. وكلما قام كل واحد بدوره في الكلام، كان الفريق يشجعنا على استخدام كل واحد منا طرق شخص آخر للتعامل مع توتر القتال، وبعد ذلك كان الفريق يغادرنا.

بدا هنا، أيضاً، أن التوجيهات ترمي إلى حماية صورة الجيش أكثر مما ترمي إلى مساعدة الجنود. إن جلسة مدتها عشرون دقيقة تركز على

النصح «بعدم الإقدام على الانتحار» لا تفعل الكثير للتخفيف من كرب الجندي الذي تعامل مع الرعب، على سبيل المثال، الرعب لأنه قتل ولداً، كما أن جلسة مجموعة مع فريق معالجةٍ توتر القتال، لا تساعد الجندي إذا كانت حياته معرضة للخطر على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم.

في النهاية، كان يعود دائماً إلى قائد الوحدة أن يقرر هل يمكن السماح أو عدم السماح لأي جندي بالذهاب إلى الوطن إذا كان متوتراً بسبب خوضه القتال. في ظني أننا جميعاً كنا نتوتر إلى مستوى معيّن يُعد سيئاً للصحة وفقاً لمقاييس المدنيين، ومن ثم كان جلياً أننا لا يمكننا جميعاً الذهاب إلى الوطن. ولكن أن يقول شخص مختص في العلوم النفسية لجندي يكافح لمعالجة توتر ناجم عن قتال بالأسلحة النارية مؤخراً أن يمارس لعبة بالفيديو، إنما ذلك سخرية بذكاء الشخص.

ذهبنا صباح اليوم المقبل نحو طائرة هليكوبتر من نوع شينوك Chinook لتنقلنا إلى مطار بغداد الدولي، الذي كان يتولى حماية أمنه جنود من الولايات المتحدة، ولكن بينهم جنود من إستراليا وإنكلترا. الأشياء تغيرت قليلاً منذ وصولنا المرة الأولى في شهر نيسان (أبريل). إذا نظرنا إلى الماضي بدا المكان أنه يشبه أرضاً مشاعاً، والمنطقة مهجورة كلياً ما عدا وجود جنود أمريكيين وسيارات عسكرية تشغل المهبط المدمّر وأماكن نهاية الهبوط في المطار. إذا حكمت على الأمور من مستوى الأمن الذي رأيته الآن، فإني لا أشعر أن التمرد قد تضاءل، ولكننا في عملنا ووجودنا داخل أراضي المطار كان بإمكاننا أن نستمتع بوجبة في منشأة رائعة لتناول الطعام، بإدارة شركة مدنية.

كنا في بغداد مدة يوم واحد فقط. في صباح اليوم اللاحق ركبنا طائرة تابعة لسلاح الجو وهي من نوع (C ـ 130) نقلتنا إلى قاعدة للجيش في الكويت. هذه القاعدة كانت منطقة مخصصة حصراً للقوات العسكرية الأمريكية، ولكنها أشبه بمطار دولي. خلال هذا التوقف ارتفعت درجة أخرى عملية إزالة التحسّس بالقتال. لم نعد نلبس صدرية أو نعتمر خوذة، وكان يكفي إظهار بطاقات هويتنا العسكرية للتنقل بحرية بين مخزنين لتبديل النقود، ومقهى الإنترنت، وأماكن وجبات الطعام السريعة، ووكالة سفريات، حيث اشترينا بطاقات الطائرات التي ستنقلنا إلى الوطن من مطار بالتيمور ـ واشنطن الدولي ـ وهذا أقرب ما يكون إلى السفر المدفوع أجره من الجهة العسكرية.

بعد أن أمضينا يوماً واحداً في الكويت استقللنا طائرة تجارية إلى فرانكفورت في ألمانيا. كانت هذه أول طائرة تجارية أستقلها منذ رحلتي الأصلية إلى الشرق الأوسط في شهر آذار (مارس). إن ركوب تلك الطائرة منحني مقداراً من الشعور بالأمور الطبيعية ونقلني أقرب مسافة إلى واقع الحياة المدنية التي سافرت منها إلى هذا الحد منذ أن غادرت الولايات المتحدة. شعرت بغرابة أن أكون في بيئة، حيث لا وجود لرشاشات بارزة من النوافذ ولا رصاص يتطاير ولا هجمات بمدافع هاون أو بقنابل صاروخية.

بقينا في ألمانيا ساعتين، أي مدة تكفي فقط لإعادة ملء خزان الطائرة بالوقود، ولتقديم توجيهات لنا مرة أخرى، هذه المرة كانت عن الإرهاب وقيادة السيارة وقائدها سكران. كانت التوجيهات عن الإرهاب تتألف من نوعين، الأول: وجوب عدم ارتداء بزاتنا الرسمية في المنزل؛ لأن الخلايا الإرهابية العاملة في الولايات المتحدة قد تحاول قتلنا ـ أو إلحاق الأذى

بعائلاتنا ـ لأننا في الجيش. الثاني: عدم إعطاء أي معلومات عن وحداتنا في العراق، حتى ولو كان طالب المعلومة امرأة جميلة في حانة. والتوجيه الآخر أبسط كثيراً: «لا تشرب الخمر، وأنت تقود السيارة».

عند وصولنا إلى بالتيمور كنا قد سافرنا نحو أربعة أيام. كل واحد منا قد أصابه التعب، ولكن لا مجال أن نخطئ في الشعور بالراحة والسعادة؛ لأننا عائدون إلى الوطن. ذلك بدا بالنسبة لي تحقيقاً لحلم مستحيل، أي العودة المفاجئة لحياة كانت هي أيضاً سُلبت مني. لدى هبوط الطائرة، رحب بنا قائدها بالوصول إلى الولايات المتحدة، وكانت استجابة كل واحد منا بهتافات عالية وثناء.

وعند انتقالي إلى طائرة ستأخذني إلى فلوريدا، شعرت أن مزاجي يتراوح بين الفرح والسوداوية. كنت أعرف أنني سعيد؛ لأني سأرى ابنتي وعائلتي مرة أخرى، ولكني كنت أقل وضوحاً في معرفة سبب حزني أيضاً، لعلّ السبب معرفتي أنني سأعود إلى الحرب والاحتلال الذي أكرهه، أو قد يكون السبب تأكدي سراً أنني لا أريد العودة، وأنني أترك أفراد وحدتي ورائي في حربٍ لا ننتمي إليها، ولكنهم كذلك في أرض وُجدنا فيها بقوة لا يمكن أن تزدهر إلاّ وسط الرعب من الحرب.

ما إن وصلت إلى بالتيمور حتى بدّلت بطاقة الطائرة، التي كانت في الأصل بطاقة للذهاب إلى ميامي، وذلك من أ جل الذهاب في وقتٍ أبكر إلى فورت لوديرديل. أردت أن أمضي أكبر وقت ممكن مع عائلتي، بطبيعة الحال، ولكني كنت قد سمعت أن وسائل الإعلام عرفت شيئاً عن وصولنا، وأول معرفةٍ بذلك كان الترحيب في الوطن بجنود فلوريدا العائدين من

الحرب، وكنت أعرف أن هؤلاء الجنود لا يريدون مواجهة الصحفيين. خشيت ألاّ أتمكن من التعبير عن معارضتي للاحتلال. استأجرت سيارة من فورت لوديرديل، وفاجأت أمي عندما وصلت إلى منزلنا.

كان التخابر مع أمي عن الحرب بالغ الصعوبة. كنت أكره كوننا قد أُرسلنا إلى الخارج لمساندة حرب غير شرعية واحتلالٍ إمبرياليّ، فيهما تجاهل كليٌّ للقانون الدولي. ولكن عندما صارت مهماتنا أشدّ خطراً، فإن التحليلات السياسية والأخلاقية للحرب صارت أقلّ أهميّة، وفي النهاية تركت المجال لخوفٍ قاتل من الموت. عندما حاولت أن أحافظ على هدوئي خلال مهماتنا القتالية لم تكن محاولةً سهلة، ولكن لم تكن شيئاً يُقابل بالمطلوب منيّ أن أسيطر على هدوئي في أثناء تحدثي مع والدتي بالهاتف من العراق، كانت والدتي تعتقد اعتقاداً راسخاً أننا نخوض حرباً من أجل مصالح بضع شركات أميركية كبرى تريد النفط، ومن أجل الإمبراطورية. إن مشاركتي في الغزو كانت مصدراً ثابتاً للصراع بالنسبة لوالدتي؛ لأنها، من جهة، كانت تعتقد أن للشعب العراقي الحق في القتال ضد احتلال إمبريالي، وأنها من جهة أخرى، كانت تكره فكرة احتمال أن يصيبني أي أذى. وإن هناك مزيجاً واضحاً من القلق، والارتباك، والخجل كلما كلمتها عبر الهاتف، وذلك جعلني أشعر بارتكابي ذنباً كبيراً لجعلها تمرّ بمثل هذه المعاناة الشديدة.

عندما وصلت إلى منزلها، ركضت نحوي وطوقتني بذراعيها، وضمتني بقوةٍ وقبّلت شعر رأسي، وقد كان عندي الانطباع آنذاك أنها أرادت أن تقول شيئاً ما، ولكنها كانت تبكي دون أن تتمكن من السيطرة على مشاعرها، فلم تتمكن من الكلام. بدوري لم أتمكن من أن أقول أي شيء، بل أردت أن

أظهر بمظهر شخص قويّ، وكنت أعرف أن صوتي على وشك أن يختنق. توقفنا كلانا عن تعانقنا، وامتلأت عيوننا بالدموع. لم أكن أعرف هل كان ذلك أسعد يوم في حياتي، أم أنه اليوم الأكثر حزناً.

تمكنت صباح اليوم المقبل من رؤية ابنتي للمرة الأولى خلال تسعة شهور، وكانت هذه المدة تبدو أشبه بالعمر كله. امتلأت نفسي بالخوف والقلق، فقد كانت في عمر سنتين ونصف السنة عندما غادرت الولايات المتحدة إلى الحرب، وكنت أعرف أنني قد تغيرت. شعرت أحياناً أنني أشبه بشخص مختلف كليّا. تُرى هل ستتذكر من أنا؟ هل يمكن أن يبقى هذا القادم الجديد هو والدها؟

جاءت ذكريات قاعدة الأسد إلى ذهني، وهي ذكريات حاولت عندما كنت مستلقياً على أرضية من الإسمنت خارج الخرائب التي عاشت فيها فصيلتي، أن أمحو ذنبي بشأن ما كنّا نفعل هناك عندما كنا نسمع الموسيقى الكلاسيكية على قرصٍ مدمج. والحقيقة أنني كنت قد أسأت إلى السجناء برغم معرفتي أن ذلك كان خطأً؛ لأنني كنت شديد الخوف من اتخاذ موقف ضدّ الأوامر التي قوّضت أخلاقيتي. إذ كيف كان يمكنني أن أعلّم ابنتي التمييز بين الصواب والخطأ، في حين أنني أنا ذاتي فعلت الكثير من الخطأ؟ وأي سلطة أخلاقية بقيت لي لكي أكون أباً صالحاً؟ ومع استمرار زمن وجودنا في العراق، أصبحت في حينها أكثر انشغالاً، إذ إن مهمتي الوحيدة هي أن أظل حيّاً. هذه المسائل صارت أقل فأقل اهتماماً بالنسبة لي. أمّا الآن وقد وصلت إلى باب منزل سامانثا، فعادت كل هذه الأمور طافية على ذهني.

obeikandl.com

بمجرد فتح الباب التقطت سامانثا وحملتها بذراعي. فنظرت إلى وجهي بضع ثوانٍ بجدية كبيرة.

قالت، وقد انفرجت ابتسامة واسعة على وجهها: «والدي: Daddy».

ذهلت كم كبرت في تسعة شهور، وذهلت إلى أي حد صارت تستطيع الآن الكلام. عندما تعانقنا، تراجعت كل شكوكي السابقة، وكنت أعرف أنه لم يفت الأوان لإعادة اكتشاف نفسي القديمة، وأن أكون الأب الصالح لابنتي مرة جديدة.

مع ذلك ما إن شعرت بالكثير من الإثارة امتزج ذلك بشعور عميق بالخوف. هل تكوّن ذلك الشعور خلال وقت مبكر، وأنني كنت على وشك ابتعادي عنها مرة أخرى؟ مرة ثانية ألفيت نفسي أقاوم دموعي عندما أخذت سامانثا إلى السيارة، حيث كانت والدتي تنتظرني.

قلت لها، وأنا أفك حزام المقعد الذي تجلس عليه سامانثا: «لقد عرفتني».

أجابت أمي: «بطبيعة الحال. كل مافعلتّه خلال ابتعادكَ عني أن نتحدث عنك، أليس صحيحاً يا سامانثا؟».

لم تجب سامانثا، بل اكتفت بالنظر إليّ وهي صامتة. كنت أعلم أن والدتي بذلت قصارى جهدها من أجل أن تبقى ذكرياتي حيّة بعرض صورٍ وتشغيل أجهزة فيديو أمام سامانثا، وكانت هذه الصور وأجهزة الفيديو تظهرنا نحن الاثنين في الحديقة الواقعة عبر الشارع أمام منزلنا، أو عندما كنّا نلعب في مياه المحيط عندما كانت لا تزال طفلة صغيرة، أو مجرد تمضية الوقت معاً في المنزل، نأكل ونلعب ونحافظ على سعادتنا بوجهها الصغير

obeikandi.com

الثمين على فيلم، حين تمكنت من المشي خطواتها الأولى، عندما كانت في عمر ثمانية شهور فقط. أمّا الآن وقد صرنا معاً مرة أخرى، فإن تاريخنا المشترك يمكن أن نصنعه وأن نسجله، ولكن كم من الوقت؟ مع استعادة علاقتي مع ابنتي جددت عزمي للضغط على السلطة العسكرية للحفاظ على قوانينها وأنظمتها لكي تسمح لي بالانسحاب من الخدمة العسكرية. كان عندي أمل في هذا الصدد. على أيّ حال، فإن السيدة ترينجيالي، الموظفة المدنية في الحرس الوطني في فلوريدا التي كنت قد تحدثت معها من العراق، قد قالت لي: «يجب تسريحك من الخدمة العسكرية فوراً». ومن المؤكد أنها لم تكن تتحدث عن شيء لا علم لها به أو عنه، خاصة في السؤال الذي أجراه الكونغرس وحفز على إجراء تحقيق في قضيتي. وكانت قد قالت أيضاً: إن النظام واضحٌ، وإن النظام الرسمي في الجيش الذي يمنع التمديد غير الطوعي لجنودٍ غير مواطنين بعد تمضية ثمانية أعوام في الجيش، لا وجود له.

لم يكن من العسير وجود نظام فعلي. توجهت إلى مقرّ رئاسة وحدتي في مدينة ميامي، وشرحت الوضع لشخص هو أحد معارفي منذ زمنٍ سابق، كان يعمل في تجنيد الجنود. إنه لم يكن يعرف فقط هذا النظام، بل كان هذا موجوداً معه، إلى حدّ أنه صنع نسخاً من القسم الذي أحتاجه لعرض قضيتي إلى الأقسام القانونية في الجيش.

بعد أن اتصلت بالعديد من المكاتب القانونية في فرقة المشاة الثالثة، أحالوني إلى دائرة الانتقال الموجودة في فورت ستيوارت Fort Stewart، بولاية جورجيا. ولكنهم ادعوا أنهم لا يمكنهم مساعدتي؛ لأن وضعي هو وضع العمل الفعلي للخدمة في الحرب، وإني لا أزال جندياً في الحرس

الوطني. وعندما اتصلت بالحرس الوطني في فلوريدا ساعدوني على الاتصال بالرقيب الأول وينغارد Wingard، وهي جندية اختصاصها معالجة الأمور الشخصية.

قالت بشأن تمديد التعاقد معي أكثر من ثمانية أعوام: «نعم، ما كان يجب التمديد لك. ولكننا لا نستطيع أن نساعدك؛ لأن لواء المشاة الثالث والخمسين بكامله (من الحرس الوطني في فلوريدا) يخضع لقيادة فرقة المشاة الثالثة. إنهم هم الذين يمكنهم تسريحك. لو كنت أنت هنا لتمكنت من إخراجك من الخدمة».

سألتها: «ماذا تعنين بعبارة لو كنت هنا؟».

أجابتني: «لو كنت هُنا في الولايات المتحدة».

عرفت عندها أنها ظنت أنني كنت أتصل من العراق، فقلت: «ماذا إذاً لو كنت في الولايات المتحدة أيتها الرقيب الأول؟».

أجابتني، وبدت كأنها ساهية: «لو كنت في الوطن لتمكنت من الحصول على تسريحك» تصورتُها، بينما كان الهاتف مضغوطاً بين رأسها وكتفها، وهي منشغلة بعملٍ ورقيّ بيديها وعينيها.

قلت بشعورٍ متجدد بالأمل: «حسناً، أنا الآن في الولايات المتحدة. إنني في إجازة من العراق مدة أسبوعين».

سارَعتْ إلى القول: «كلاّ، كلاّ، كلاّ، كلاّ، ليس هذا ما قصدته. كنت أعني أنه عندما تعود وحدتك من العراق أستطيع تسريحك»».

«ولكنكِ قلتِ للتو: إنه ما كان يجب إطلاقاً التمديد لي».

openkandil.com

«نعم، ولكنه جرى التمديد لك» بدت وكأنها تتحدث مع ولدٍ يمكن إقناعه بسهولة. «حالياً أنت في إجازة، وإذا لم تعد إلى الخدمة يمكن اتهامك بتهمة Awol، وأنت تعرف ما معنى ذلك، أليس كذلك أيها الرقيب؟» Awol، هي عبارة معناها الغياب دون إجازة Absent Without Leave وهي شكل أدنى من الهروب، وتهمة في زمن الحرب يمكن أن تكون عقوبتها بالغة القسوة.

أجبت، مدافعاً عن نفسي: «أنا لا أتحدث عن Awol بل أتحدث عن حقيقة أنه كان يجب في الأصل عدم إرسالي للقتال، وها أنت تقولين: إنني يجب أن أعود إلى القتال».

قالت بلهجة أعلى صوتاً ومطت كلمة Know: «أنت تعرف، أيها الرقيب، أن ما يذهلني فعلاً أمر غريب هو أنك أمضيت في العمل العسكري مدة أطول من ثمانية أعوام، ومع ذلك لم تصبح بعد مواطناً في الولايات المتحدة».

أجبتها «مهلاً، أيتها الرقيب الأول، لم أفكر إطلاقاً أن الجنسية تعني كثيراً، ولكني لا أظن أن عدم اكتسابي جنسية الولايات المتحدة يجعلني شخصاً سيئاً».

قالت: «كلا، لم أقل هذا الكلام».

«يبدو أنك تقولين: إن بالإمكان انتهاك النظام، وإنه يمكن التمديد لي بطريقة غير شرعية، ولكن ضمن ذلك التمديد غير القانوني، ينبغي لي أن أفي باحترام أوراق إجازتي مدة أسبوعين».

عند هذا الحد صرت أشد صلابة.

قالت وكأنها تريد المصالحة: «كل ما أقوله هو إنك تنتمي إلى عنصر العمل الفعلي. إن من واجبك أن تعمل مع سلسلة قيادتك».

قلت مكتئباً: «ما معنى ذلك؟».

قالت، مع أنها مستعدة لاختتام الحديث: «أيها الرقيب، يُقال: إن العجلات التي تُحدث صريراً تستهلك معظم الزيت. تابع المحاولة».

شجعني هذا الجواب الذي لم أتوقعه، فاتصلت بإدارة النقل في فرقة المشاة الثالثة. تحدثت مع الرقيب الأول سامرز Summers التي سبق أن تحدثت معها.

قالت: «نعم، ولكن يجب أن تعود إلى وحدتك، وأن تطلب منهم تسريحك قبل أن نتمكن من فعل أي شيء».

«هل تقصدين أنني يجب أن أعود إلى العراق؛ لأتمكن من الحصول على تسريحي من الخدمة العسكرية، وبعد ذلك أعود إلى الولايات المتحدة؟».

«أنت الآن في إجازة أيها الرقيب» كان يمكن أن ألمح بعض نفاد الصبر في صوتها. قالت: «يجب أن تعود وإياك أن تنتهك أوامر إجازتك».

حاولت أن أحافظ على هدوئي: «أجل، ولكن ما الداعي لأن أسافر طول الطريق عائداً إلى العراق؛ لكي أحصل آنذاك على تسريحي هنا في الولايات المتحدة؟».

«لا نستطيع أن نسلمك أوراق تسريحك، إن قائد وحدتك هو الذي يجب أن يفعل ذلك، وهو في العراق».

الثقة المفاجئة في صوتها جعلتني أعتقد بوضوح أنها ظنت أن المسألة بلغت ختامها. كان لا بد من توقيع قائدي على أوراق العمل، وفي ذهنها أن ذلك يعني ضرورة عودتي إلى العراق. في الماضي كنت أقبل ببساطة هذا الحكم، بوصفه صادراً من شخص أعلى مرتبة، ولكن ليس الآن.

«إذا تمكنت من توقيع قائد كتيبتي على أوراق التسريح يمكنك عندها أن تسرحيني هنا، هل هذا صحيح أيتها الرقيب الأول؟».

«إذا لم تعد في نهاية إجازتك يمكن اتهامك بالغياب دون إجازة Awol».

«ما من أحد يفكر في الغياب دون إجازة» كنت أقول الحقيقة هذه المرة. «إن سؤالي هو: هل يجب أن أكون جسدياً في العراق؛ لكي تقومي بتسريحي؟ أقصد، إذا كانت معي هنا أوراق تسريحي، موقعة وكل شيء».

بدت أنها تفكر كثيراً في جوابها، أو ربما كانت تفكر فيما يترتب من أمور على جوابها. لذلك قررت أن أمدّ لها يداً.

«بعبارة أخرى، أيتها الرقيب الأول، هل هناك أي نظام يقضي بأن أكون جسدياً في العراق؛ لكي يجري تسريحي من الجيش؟».

أجابت بعد تمهل قصير للتفكير، فبدا صوتها المائل إلى الثبات أنه يعبر عن الحجم الثقيل للإقرار بالهزيمة.

«كلا»

هذه الكلمة كانت تكفي بالنسبة لي. أرسلت فوراً رسالة إلكترونية إلى النقيب وارفل، شارحاً بتأنٍ أنني أحتاج منه أن يكتب رسالة إلى ميرابل، سائلاً إياه: هل يمكنه أن يوافق ويوقع على وثائق تسريحي؟ أردت أن أبدي

احترامي له، وحرصت على تذكيره بوعده لي، إذا كانت الأنظمة تنص على على وجوب تسريحي، فسيعمل على السماح لي بالحصول على التسريح.

جواب وارفل كان جواب شخص غاضب، وليس مشجعاً، لكنه لم يباغتني. قال في جوابه: «ليس أني أظن فقط أن طلبك عديم الاحترام لي، بل أظن أنه طلب يظهر الجبن. تأكد أنني لن أكتب مثل هذه الرسالة» بعد أن تابعت سلسلة اتصالاتي بالقيادة، كتبت إلى المقدم ميرابل، شارحاً له كامل قضيتي بكثير من التفصيل، بل قدمت استشهادات بالأنظمة ذات العلاقة.

كان ردّ ميرابل أكثر دهاءً وأشد انضباطاً من رسالة وارفل. قال: إنه سيجعل مساعده الشخصي ينظر في الوضع، ووعد أن يكون رده سريعاً، وطلب «مذكرة مجاملة» إذا لم يصل إليه جواب خلال ثلاثة أيام.

في ذلك الحين كنت قد أمضيت أكثر من أسبوع في الولايات المتحدة، ومع اقتراب إجازة الأسبوعين من نهايتها، صارت توسلات والدتي أن أرفض العودة قد صارت أشد إلحاحاً. قالت لي مراراً وتكراراً: إنه ينبغي لي البقاء في الوطن بغض النظر عما لدى الجيش من كلام حول حقي القانوني في تسريحي. بالنسبة لها الحرب غير شرعية، ولذلك ليس ثمة ما يلزمني بالعودة إلى الحرب. قدمت لي قائمة بأسماء وعناوين أشخاص ومنظمات يمكنها أن تدعم الجنود الذين يعارضون الحرب، مع أنه لا يوجد هاربون معروفون في ذلك الوقت.

إن عدم استعدادي أول الأمر لتحدي الجيش علناً كان يستند جزئياً إلى ما أدركت لاحقاً أنه اعتقاد ساذج بأن اتباع الإجراء الصحيح، مع

ادعاء قانوني جيد، سيؤدي إلى خروجي من الجيش، كنت أعرف أن التمديد لي لم يكن شرعياً، وأنه بعد الاستجواب من قبل الكونغرس كان الحرس الوطني في فلوريدا قد بتّ في وجوب تسريحي فوراً. وبالتأكيد كنت أرى منطقياً أن الجيش سيحترم أنظمته الخاصة، ولا سيما أن عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي مطلع على الوضع.

وهكذا، فإني أرسلت بعد ثلاثة أيام «مذكرة ودية» إلى قائد كتيبتي كان هو قد طلبها مني. ذكر الجواب أن ضباط استخبارات الكتيبة قد استعرضوا قضيتي فتبيّن لهم أنه يُفترض أن أبقى مع وحدتي حتى انتهاء المهمة، وبعد إعادة انتشار الوحدة فقط يمكنني أن أنسحب. عند ذلك، وعند ذلك فقط، كما أبلغني ميرابل، يمكنني أن أقرر ماذا أريد أن أفعل في بحياتي.

بعد تفكيري أنني على وشك أن أترك الجيش والحرب، تملكني في داخلي شعور بالعجز. كيف حدث ذلك؟ كان عليّ أن أعود إلى العراق، وأن أبطش بالشعب، وأن أغتصب الأرض، وقد أموت هناك، كل ذلك عكس ضميري.

لم أكن واثقاً مما يجب أن أفعل عند هذه النقطة. الأنظمة لم تكن في الحقيقة ذات أهمية كبيرة، وإمكانية الجيش أو عدم إمكانيته قانونياً أن يحتفظ بي. لم أعُدْ أقل اهتماماً بذلك، والحقيقة أنني احتقرت الحرب ووجودي فيها، ولكني لم أتمكن أن أقول ذلك للسلطة العسكرية. كان عليّ أن أعود إلى العراق. وكان عليّ أيضاً أن أزدرد ذنبي، وقيمي، وضميري، وأن أعود إلى الحرب وأن أجد طريقة للبقاء حياً هناك، حياً ليس بالجسد فقط، بل بالروح أيضاً وكان يجب أن أجد طريقة لعدم خسارة نفسي في الحرب، وأن أعود إلى الوطن إنساناً؛ لأتمكن من أن أكون والد ابنتي.

كان يؤلمني أن أفكر فيها، بأي طريقة لا بد من أن تخسر الكثير. إذا عدت إلى الحرب، يمكن أن أُقتل بأكثر من طريقة. لم يكن ما يؤلمني الموت الجسدي فحسب، بل أيضاً أموات روحي الكثيرة كل وقت عند قتل كائن بشري، وسواء عندما أضغط قادح البندقية، أو أعطي أوامر، أو مجرد وقوفي كاملاً عند مواجهة مهمات لا معنى لها. النتيجة هي ذاتها: سفك دماء بريئة، لا فرق بين هذه كلها. نحن نموت، شيئاً فشيئاً، كلما قُتل شخص ما، إلى ألا تبقى روح، أما الجسد فيصير جثة، تتنفس ودافئة، ولكنها عديمة البشرية.

إذا عصيت أوامر الجيش، فإن العصيان يعني ملاحقتي بموجب قانون القضاء العسكري، ومحاكمتي أمام محكمة عسكرية، أو احتمال الحكم عليّ بعقوبة الموت! وإلاّ يصدر بحقي أقسى حكم، ويمكن أن يحكموا عليّ بالسجن مدة طويلة، قد تكون خمسة أعوام، وربما عشرة أعوام. وكيف يكون أبٌ في السجن؟. وكيف يمكن أن يغيّرني السجن؟ وهل يفيد ذلك أي شخص بعد خمسة أو عشرة أعوام في السجن؟ وماذا يحدث إذا قررت والدة سامانثا أن تختفي، فلا أعود أرى ابنتي الصغيرة مرة أخرى؟ هذا قد يحدث، وإذا حدث، فماذا ستكون قوتي أمام القانون بصفة «مجرم» سابق ومدان بالهرب من الجيش؟

كلا، يجب أن أعود. كان بإمكاني النجاة والبقاء حياً في الحرب، ومن ثم أذهب إلى الوطن. سبق أن تم انتشارنا لأكثر من سبعة شهور، ولعله لم يبقَ لنا سوى بضعة شهور قبل إعادة نشرنا بإعادتنا إلى الولايات المتحدة. كان بإمكاني أن أعود، ومرة أخرى أن أطيع الأوامر الصادرة لي، وأن أنقذ جسدي وأن أعود إلى الوطن، وبشكل ما أن أعيد بناء نفسي. ولكن ماذا عن

العراقيين؟ لقد قتلنا مدنيين. هل أنا قتلتهم؟ وماذا عن الشاب الذي رمى القنبلة؟ كان بعيداً إلى حد لم يكن بإمكانه الوصول إلينا، ولم يتمكن من إلحاق الأذى بنا، ولكنه رمى قنبلة يدوية، مع ذلك أنا لم أقتله، هل قتلته؟

كل واحد أُطلق النار عليه، وماذا بشأني؟ لم أتذكر أنني أطلقت النار عليه. كان في مرمى بصري وأخطأتُ إحدى عشرة رصاصة بعد الحادث. لكني لا أتذكر أنني أطلقتها.

إن إطلاق إحدى عشرة رصاصة يتطلب مدة لا نهاية لها، فكيف يمكن أن تكون اللانهاية قد امّحت من ذاكرتي؟

ولكن هناك ذاكرة: كان يتحرك ببطء شديد في نطاق مرأى بندقيتي، كانت يده على وشك أن ترمي قنبلة، ولكن بعد أن يفعل ذلك مباشرة، نحن نفتح النار عليه، وهناك كان الإرباك. آنذاك مات الشاب غارقاً في بركة من دمه. خرج رجلان من الجمهور رافِعَيْن أيديهما إلى أعلى. أخذا رَجُلَهما الميت، وبعد ذلك استوعبهما الجمهور. كنا قد قتلنا للتو ابنهما. إني أراه المرة تلو المرة، وأرى نفسي في غرفة مظلمة، كنت وحيداً وكنت أحسب عدد الرصاصات التي أطلقتها على ذلك الشاب. ذهب! مات للأبد.

وماذا عن الصور الأخرى، هل هي حقيقية أم أني تصورتها؟ إن الولد الذي لا وجه له الواقف بالقرب من جثمان والده الذي طار رأسه، إنه ليس ولداً حقيقياً، هل هو حقيقي؟ إنه يتيم الأب، لعله ميت الآن وأنه في نظري ولدٌ عديم الوجه إلى الأبد، وذلك لأني لم أشأ أن أراه. من السهل أن ألحق الأذى بهم، وأن أقتلهم، وأن أقتل الناس الذين يحبون عندما يكونون بلا وجه.

وماذا عن المدنيين السبعة الذين قُتلوا بالقرب من ذلك المسجد الجميل ـ هل كانت لهم وجوه؟ أتذكر وجهاً واحداً، لا ثلاثة وجوه. أظن أنني أتذكر ثلاثة وجوه. ولكن ماذا عن الرجل الذي كان في السيارة؟ كلا، لا أتذكر وجهه. أطلقت النار عليه ولكن لعله كان قد مات في ذلك الحين. كان ذلك قراراً آلياً ـ أنا لم أطلب من جسدي أن يصوب البندقية نحوه وأن يضغط على مقداح البندقية. كل ما في الأمر أن هذا ما حدث. كان على بعد أمتار منيّ، وأطلقت عليه النار؛ لأني أعلم أنه كان مذنباً. مذنباً بماذا؟ لا أعرف، لعله مذنب؛ لأنه تعرض لإطلاق النار. ولكن كيف حدث أنني لم أعد أتذكر وجهه؟ كان قريباً مني. كل ما في الأمر أنني لا أتذكر وجهه. ألا توجد صور ولا شيء إطلاقاً؟ بلى، هنالك صورة، صورة للحظة قصيرة جداً. لحم بشري. أجل، لحم ودم، لم يكن ذلك وجهاً، كان ذلك لحماً ودماً، ما كان ذات مرة وجهه. كان ميتاً عندما أطلقت النار عليه. لا بد أنه كان ميتاً، ولا بد أنه هكذا. كان ميتاً.

بعد ذلك كانت هناك بنت صغيرة، الأميرة الصغيرة الغالية التي جابت شوارع مملكتها، وهي مملكة قمنا نحن باحتلالها وتدميرها. كان وجهها قذراً، لوحته حالة الطقس، ولكنه كان جميلاً جداً. كانت عيناها فاتنتين وابتسامتها لم يفسدها الموت والدمار الذي بدا طافياً من حولها. لقد ذكرتني بابنتي. ولكني كنت بلا لوم ولم يكن من واجبي أن أقلق بسبب فقدان روح إنسان. كنت جندياً. كان عليّ أن أعود إلى أفراد وحدتي، وهي وحدة مشاة وأن أواصل فعل ما يطلب مني رؤسائي أن أفعل. هذا ما يفعله الجنود، ولذلك لا يمكن أن ألام من جراء ذلك. حياتي يمكن أن تكون حياتي الخاصة بعد الحرب. أما الآن فإنها تخص السلطة العسكرية.

قررت أنه ينبغي علي أن أتصل بإحدى المنظمات، مثلاً أن أتصل بمنظمة حقوق الجنود في كاليفورنيا، فتلك المنظمة تساعد الجنود بمسائل قانونية، وهذا ما عرفته من القائمة التي سلمتني إياها والدتي. كان قد بقي يومان من إجازتي.

سألتني مستشارة حقوق الجنود بلهجة تنم عن القلق: «هل تستطيع أن تطلب تمديد إجازتك؟» المستشارة اسمها تريزا Teresa قالت لي: «سنكون بحاجة إلى مزيد من الوقت للعثور على محامٍ يمكن أن يتسلم قضيتك».

تمديد؟! لم أعد أفكر في ذلك إطلاقاً. ماذا أقول لهم؟ هل كنت بحاجة لوقت لإيجاد محام مدني لإخراجي من الجيش؟ ذلك لم يكن احتمالاً كبيراً أن يكون عملاً ناجحاً.

سألتُ: «كم من الوقت نحتاج لإيجاد المحامي؟».

قالت: «هل عندك مال لتدفع إلى المحامي أتعابه؟». صوتها كان حلواً وتساءلت: ما شكلها؟

سألتها متردداً: «كم يكلفني ذلك؟».

«نحن نبحث عن وثيقة أمر قضائي، وهي تعني أساساً أن محكمة مدنية ستنظر في قضيتك، فإذا تبيّن أنك محق، فستطلب المحكمة المدنية من الجهات العسكرية إعفاءك. أما كلفة المحامي الذي سيدافع عن قضيتك فستبلغ ببساطة ما بين خمسة عشر، وخمسة وعشرين ألفاً من الدولارات».

قلت لها، معبراً عن فزعي: «غير معقول!».

قاطعتني، محاولة أن تطمئنني: «لا تقلق، سنحاول إيجاد محامٍ يدافع عن قضيتك على أساس أن عمله للمصلحة العامة Pro Bono ولكن هذا سيتطلب منا بعض الوقت.

سألت: «كم من الوقت؟».

قالت: «لا يمكن أن يتوافر لك وقت، لماذا لا تبدأ تبحث عن محامٍ في منطقتك وتحاول في الوقت ذاته منحنا مزيداً من الوقت، ثم نتحدث مرة أخرى غداً؟».

قلت: «موافق» وأنا أحاول أن أتغلب على شعور قوي بالتناقص.

بعد انتهاء اتصالي الهاتفي مع تيريزا، اتصلت بالحرس الوطني في فلوريدا، فأحالوني إلى النقيب المسؤول عن التمديد. تركت رسالة لها على آلتها الجوابية.

في اليوم المقبل ردّت عليّ تيريزا. أخبارها لم تكن مشجعة.

قالت: «لم أتمكن من أن أجد محامياً حتى الآن. هل تمكنت من الحصول على تمديد؟».

قلت يائساً: «كلا. تركت رسالة على آلة الرد الخاصة بالنقيب، ولكني لم أتلقَّ منها جواباً».

سألتني تيريزا: «هل فكرت في تقديم طلب للحصول على طلب لوضع المعترض الواعي؟».

فوجئت بسؤالها فقلت: «المعترض الواعي؟ أنا؟! كلا. أنت تعرفين أنني من المشاة، وشاركت في القتال».

حدثتها قليلاً عن تجربتي في العراق.

قالت، وهي هادئة ومقتنعة: «نعم، أعرف، لا يهم. مازال بإمكانك أن تقدم طلباً».

«ولكني لست معترضاً واعياً».

أصرت على كلامها، قالت: «بلى، أظن أنك معترض واعٍ. أعرف أنك لا تريد العودة إلى العراق. ولكن اسمح لي أن أسألك: هل تريد أن تشارك في أي حرب؟».

في الواقع لم أفكر في ذلك إطلاقاً. أعرف معترضين واعين كان يُفترض أنهم معارضون لكل الحروب، أما أنا فلست متأكداً أن هذا ينطبق عليَّ. على أي حال، ليس هذا بالأمر الذي يهم؛ لأنه سبق لي أن قاتلت في العراق. هل فات أوان الادعاء أنني معترض واعٍ؟

قالت تيريزا شارحة موقفها: «كلا، ليس الأمر كذلك. ربما حدث عندك تبدل في قناعتك بسبب تجربتك في العراق. يجب أن تفعل كل ما في طاقتك من أجل بقائك خارج الحرب، ويبدو من خلال ما سمعته منك أنك تتمتع بقناعات أخلاقية قوية ضد الحرب وضد العنف بصورة عامة».

قلت بإصرار على كلامي: «كلا، أطلقت النار على أشخاص، هل تعرفين ذلك؟ كنت جندياً من المشاة في الحرب. لا مفر».

قالت: «اسمعني، دعني أواصل محاولة إيجاد محامٍ. في هذه الأثناء سأرسل إليك بالبريد الإلكتروني أسئلة تطلب منك فيها أن ترد بشأن تقديم طلب معترض واعٍ. اشتغل بهذه الأسئلة، بينما أنت تنتظر اتصالاً من وحدتك».

وافقت على النظر في صيغة الطلب، ولكني لم أكن بعد مقتنعاً. طبعت الأسئلة ووضعتها على الطاولة المسائية بالقرب من سريري، وكنت شديد التوتر عندما حاولت قراءتها. اضطجعت في غرفتي بعد إطفاء الأضواء، مفكراً في الحرب ومفكراً في أفراد وحدتي وفي الشعب في العراق.كنت لا أزال أشاهد صوراً لتجارب مرعبة مررنا بها، بينما كنت أنتظر أن يرن الهاتف. فكرت في ابنتي، ثم استغرقت في النوم.

أخيراً عندما رن الهاتف، كان الصوت عالياً ومفاجئاً. لم أكن راغباً في الرد عليه، لقد كنت أشعر بالرعب. عندما فتحت عينيَّ أدركت أن الصباح قد أشرق، وكان ذلك يعني أنه لم يبقَ أمامي سوى يوم واحد في الولايات المتحدة.

سمعت صوت أنثى تتحدث بالهاتف، وصوتها يدل على أنها صاحبة سلطة: «أنا النقيب آش Ash. هل أنت الرقيب أول ميخيا؟».

قلت وكأني على وشك الموت: «أجل يا سيدتي».

قالت النقيب آش: «تحدثت مع قائدك النقيب تاد وارفل. إنه قائدك، أليس كذلك؟».

قلت، وكنت أبدو أكثر حيوية: «بلى أيتها النقيب، إنه قائدي» ولكني كنت خائفاً أن تستمع إلى خفقان قلبي.

«لقد نبهتني قائلة: «إنك قد تحاول أن تطلب تمديداً والأمر الصادر لك يطلب أن تعود إلى مكان عملك، أي في الرمادي، العراق، بمجرد انتهاء إجازتك».

«روجر، أيتها السيدة» قلت ذلك، بينما بدأ العالم ينهار فوق رأسي.

قالت، وهي مستمرة في غرس الخنجر في قلبي ببطءٍ: «لقد راجعت مضمون طلبك. لا أظن أن قضيتك قضية جيدة لطلب تمديد. هل فهمت ذلك، أيها الرقيب الأول؟».

«نعم، يا سيدتي».

«اليوم هو آخر يوم لك هنا، أليس كذلك أيها الرقيب؟».

«بلى، يا سيدتي».

«متى تغادر طائرتك؟».

«صباح الغد يا سيدتي».

«أسلمك أمراً مباشراً للصعود إلى تلك الطائرة غداً أيها الرقيب».

«نعم، يا سيدتي».

تابعت كلامها، فقالت: «إنك رقيب أول، وهذا يعني أنك أمضيت زمناً في الخدمة العسكرية، ولذلك أنت تعرف عواقب تخلفك عن تلك الطائرة».

قلت: «نعم، يا سيدتي».

«وأنت تعرف أنه يمكن إبعادك من البلد إذا لم تستقل تلك الطائرة؛ لأنك لست مواطناً».

«نعم يا سيدتي، كما قلتِ: أنا رقيب أول، وانقضت مدة قصيرة على وجودي، وأعرف العواقب، أيها النقيب». كان في صوتي شخير ينم عن الغطرسة الآن، ولكنها تجاهلت ذلك.

obeikandi.com

أجابتني بهدوء: «حسنٌ، أيها الرقيب. ما أحرص عليه هو التأكد أنك تعرف بوضوح ما يمكن أن يحدث هنا».

قلت ساخراً بقدر ما أستطيع أن أكون ساخراً: «شكراً لك يا سيدتي، لا تقلقي. أنا أعرف العواقب».

في تلك الليلة تحدثت مع تيريزا؛ لأعرف ما بقي من عالمي الذي تقوض نهائياً.

قلت لها: «لم يمنحوني التمديد. يُفترض أن أستقل طائرة صباح الغد؛ لأعود إلى العراق. ماذا يجب أن أفعل الآن؟».

إنها لم تجد محامياً.

قالت، وفي صوتها نبرة من اليأس: «لا يمكنني أن أطلب منك عدم الذهاب لركوب الطائرة. كل ما يمكنني قوله هو: إننا سنحاول تأمين خروجك بعد أن تكون في العراق».

«ولكنك لا تفهمين، يا تيريزا: «وقد شعرت، وكأني أموت عندما لفظت هذه الكلمات». إنهم لا يهتمون بالقانون في العراق. كل ما يهمهم هو إبقاء جنودهم هناك، هذه هي الحال. لن يسمحوا لي إطلاقاً بالخروج إذا عدت إلى هناك».

«لعلهم سيصغون إلينا إذا وجدنا محامياً، ولكن لا أنصحك بالبقاء». وقد لمحت في صوتها مزيجاً من اللطف وفقدان الأمل.

شعرت أنني وحيدٌ في العالم.

«تابع العمل في موضوع المعترض الواعي. من جانبنا لن نتوقف عن العمل من أجل عودتك من العراق». شعرت أنها مخلصة، ولكني كنت في حالة من اليأس ومن إهمالي.

شكرتها على مساعدتها، إذ بدت أنها صادقة، ووعدت بأن أبقيها مطلعة على وضعي، مهما فعلت. بعد تلك الليلة لم يعد هناك إطلاقاً حديث بين تيريزا وبيني.

استقبلت الصباح، وأنا على سريري، ولكن دون نوم. كان عليّ أن أنهض وأن أعرف برنامج الرحلة، وأن أستعد للمغادرة، ولكن لم تكن هناك حاجة للنهوض فوراً. فقد كان الصباح لا يزال مبكراً، وأمامي كثير من الوقت. كنت أشعر بتعب شديد، وشعرت أن جسدي مثقل. مرت ساعات وبقيت على سريري. لم أعرف بدقة متى يجب أن أغادر، ولم أكن خلال وقت طويل أنظر إلى الساعة الموجودة على طاولة الليل. ولكن علمت أنه لا بد لي من النهوض. يجب أن أعود إلى العراق. قبل أن أعرف ذلك، حلّ الليل مرة أخرى. كنت قد تخلفت عن طائرتي، فقررت أن تكون عودتي في اليوم المقبل. عند ذلك استسلمت للنوم.

obeikandi.com

obeikandl.com

الحادي عشر

كان مطر بارد ينهمر في فصل الخريف في مدينة نيويورك، عندما زرت للمرة الأولى مجموعة الدفاع عن حقوق الجنود تُسمى: «مجموعة الجندي المواطن» Citizen Soldier، ومقر رئاستها هو في الجادة الخامسة في مانهاتان Manhattan.كان قد مضى نحو أسبوع بعد النهاية الرسمية لإجازتي التي مدتها أسبوعان وبداية إقامتي السرية مدة خمسة شهور في شمال شرق الولايات المتحدة، وقد انتقلت إلى المنطقة بعد أن أدركت أنني عازم على عدم العودة إلى العراق.

إن الارتحال إلى نيويورك، وهي أكثر مدن الولايات المتحدة حرية، كان في جزء منه بحثاً عن «نوعيتي» لأكون أقرب إلى الناس الذين لهم المشاعر ذاتها عن الحرب كمشاعري. ولكنه كان أيضاً انتقالاً إليها لأسباب الأمان. كرهت ترك بيتي وأسرتي، وخاصة ابنتي، من أجل الحياة السرية لإنسان هارب. ولكن لو بقيت في ميامي، حيث نظام التنقل الشعبي السيئ جعل تجنب قيادة السيارات أمراً مستحيلاً، لجازفت بأن يمسكني رجال شرطة المدينة بتهمة خرق نظام المرور، وهذه هي الطريقة الأكثر عمومية للقبض على جنود بسبب تغيبهم دون إجازة، إضافة إلى ذلك، كان هناك خطر الإبلاغ عني من قبل أفراد وحدة الحرس الوطني التي أنتمي إليها، ممن كانوا في إجازة داخل الوطن، أو من قبل جنود أقرباء كنت أعرفهم وكانوا يؤدون خدمتهم العسكرية في العراق.

obeikandi.com

إن محاولة إقناع نفسي بأن العودة إلى العراق هي الشيء الصحيح الذي يجب أن أفعله، ثبت أنها محاولة فاشلة. فالأسباب التي استندت إليها في الماضي لتسويغ انخراطي في الحرب، لم يعد لها أي وزن، إذ إنه مازال يسبب لي أذى عميقاً أن أفكر في أن الجنود في زمرتي يمكن أن يصابوا بجروح أو أن يُقتلوا إذا لم أكن معهم هناك. لقد ازداد تقاربنا، الواحد مع الآخرين خلال الحرب، ولم يكن نوعاً من مناجاة النفس عندما تركت وظيفتي، بصفتي قائد القتال لفرقتي. ولكن توصلت إلى إدراك أن الأفراد يجب أن يتخذوا بأنفسهم قراراتهم الخاصة استناداً إلى ضمائرهم.

يسوّغ جنودٌ كثيرون مشاركتهم في الحروب، فيجدون أن هذا التسويغ يواجَه بالاعتراض على أساس الحجة القائلة: إننا نقاتل بعضنا بعضا. ومن المؤكد أن هذه المحاجّة صارعتُها، ولكن مهما قلنا: إننا نقاتل بعضنا بعضاً، تبقى الحقيقة أن لا حقّ لنا أن نكون في العراق. إلى جانب ذلك، كجنودٍ قبلنا أن وجودنا في الخدمة العسكرية يمكن أن يضعنا في أحد الأيام على طريقٍ مسببٍ للضرر، ولكن تلك الحالة نفسها لا تنطبق على الشعب العراقي. فليس أمامهم خيار إلا أن يتم اكتساحهم في الحرب والاحتلال اللذين فرضناهما عليهم. كنّا على الشوارع، ونقوم بالدوريات على الطرق، ونغزو بيوتهم، فبدا لي أن الوحشية الحقيقية هي الموت والدمار اللذين نجلبهما لأولئك الناس.

ما من واحدٍ من هذه التأملات قدّم لنا أجوبة سهلة، والحقيقة هي أنه لم توجد إطلاقاً لحظة وضوحٍ كاملة اتخذتُ عندها قراراً حاسماً بمقاومة الحرب. خلاصة الأمر: إنني لم أصعد إلى الطائرة عندما كان يُفترض أن أستقلها. كان ظني أنني سأسافر في رحلة الطيران المقبلة، ولكني تخلفت

عن تلك الرحلة أيضاً، ثمّ عن الرحلة اللاحقة، وعن الرحلة التي بعدها أيضاً، إلى أن استيقظت ذات يومٍ، مقتنعاً أنني لن أعود إلى العراق.

في أعماق نفسي عرفت أني تخلفت لسببٍ هو قدومي إلى الوطن وعدم عودتي إلى العراق. كنت أعرف أنني حتى في حالة عدم عودتي إلى العراق، فستظل الحرب بالنسبة لي أبعد ما تكون عن انتهائها، بل قد تكون مجرّد البداية. إنها لم تكن الحرب ذاتها، أي الحرب التي قاتلت فيها فوق الطرق وعلى الأزقة في الرمادي، ولن تتطلب مني أن أحمل بندقية. لم يعد عندي صبرٌ على ذلك. هذه ستكون، أولاً وقبل أي شيء آخر، حرباً أشنها داخل نفسي، حرباً تتواجه مخاوفي وشكوكي معي وجهاً لوجه وبالأحرى مع ضميري، إنها حربٌ لاستعادة إنسانيتي وحريتي الروحية. وهي ستكون أيضاً حرباً ضد النظام الذي قدمت أنا منه، أي معركة ضدّ الآلة العسكرية والتنين الإمبريالي الذي يلتهم جنوده بالذات والمدنيين العراقيين على حدٍّ سواء من أجل الأرباح. كنت أعلم أنه لا بد لي بشكل ما أن أحوّل كلماتي إلى أسلحة؛ لأن حديثي صار الآن سبيلي الوحيد للقتال.

بمجرّد وصولي إلى ميامي من العراق، بدأت أعطي مقابلات صحفية حول الواقع الكئيب الذي يواجه الجنود الأميركيين في العراق. بعد بضعة أيام من عودتي، فتحت والدة الاختصاصي بيريز Peres، السيدة ميلاديس غوريرو Miladys Guererro، منزلها لمجموعة من أقارب الجنود، دعتهم لإقامة صلاة من أجل أمنهم. وفي وقتٍ مبكرٍ من الغزو، عندما كانت الحرب والرئيس أيضاً لايزالان يحصلان على تأييد شعبي قوي، وقفتْ هي مع والدتي وزوج أمي في مدينة ميامي، حاملين لافتات كُتب عليها: «نطلب إعادة جنودنا إلى الوطن Bring our Soldiers Home، بينما كانوا

يرتدون ألبسة عسكرية. منذ ذلك الحين، كانت مجموعة أكبر عدداً هي مجموعة دعم الأسرة، تتألف من عائلات جنودٍ آخرين في وحدتي، وهؤلاء كانوا يتجنبون أنصاري كتجنبهم للوباء، خاصة أن مجموعة دعم الأسرة هي الأشد انتماءً إلى المحافظين. بعد الصلاة طلب صحفي من مؤسسة فوكس نيوز Fox News، إجراء مقابلة صحفية معي وكنت الجندي الوحيد الذي يحضر المناسبة لإجراء مقابلة معه. إنني دون أي خجلٍ، ودون أن أعبّر عن إدانةٍ أخلاقية أو سياسية للحرب، أدليت بتعليقاتٍ إنتقدت فيها الجهات العسكرية. قلت للصحفي: كيف أن وحدات الحرس لا تتلقى الدعم اللوجستي الصحيح لأداء مهامها القتالية. وأوضحت كيف أن معنويات الجنود تدنت كثيراً، بخلاف ما تقول أخبار وسائل الإعلام، وأوضحت كيف أن كل واحدٍ من أفراد وحدتي كان يفتقر إلى شعور بالمهمة، وإنه يتوق للعودة إلى وطنه، ولكن المقابلة التي أجراها معي الصحفي لم تُبث.

أمّا الآن وقد صرت أعيش حياة سرية، فصارت الأمور بالنسبة لي مختلفة. فأنا صرت أتحدث(متكتماً على هويتي) ليس فقط عن تدني معنويات الجنود في العراق بسبب افتقارهم إلى المعدات وتمديد بقائهم في العراق، بل كنت أتحدث أيضاً حول إهمال قادتنا العسكريين دون أدنى اعتبار حياة المدنيين العراقيين أو الجنود، وكل ذلك فقط من أجل حصول قادتنا على مكافآت، وكنت أتحدث أيضاً عن إساءة معاملتنا للسجناء. كنت أتحدث عن مشاعري إزاء الحرب، وأتحدث عن سبب عدم عودتي. فلم أعد أكتم أيّ شيء.

إن المقابلة الأولى معي كانت مع مراسل لقناة CNN الذي سبق أن أجرى مقابلة مع والدتي، عندما بدأت هي وزوجها، جوليو Julio يعبران علناً عن

احتجاجهما على الحرب. وقد كان لا بد من عناية كبيرة لحماية هويتي؛ لذلك أبقى المصور وجهي خلال المقابلة في الظل واستخدمتُ اسماً غير حقيقي هو اسم كارلوس، فقلت للذي أجرى المقابلة معي: إنني كنت مقاتلاً سابقاً في العراق بعمر ثمانية وعشرين عاماً، أعزب ودون أولاد، وجندي من المشاة، فلجأت إلى الحياة السرية بسبب معارضتي للحرب. بعد ذلك بأسبوعين تمّ بث المقابلة عبر التلفزيون والإذاعة الوطنيين، وأعتقد أن تلك كانت أول مقابلة صحفية جرى بثها، وكانت مع أحد مقاومي الحرب في العراق.

عبر اتصالات الإعلام قبل أن ألجأ إلى الحياة السرية حصلت على معلومة عن رجل يُدعى ستيف روبنسون Steve Robinson، وهو مقاتل سابق متقاعد من جنود القوات الخاصة كان يقود منظمة تدعى المركز الوطني لموارد حرب الخليج، التي أمنت الدعم للمحاربين السابقين في حرب الخليج عام 1991. وقد حقق لي ستيف بدوره اتصالاً مع تود إنساين Tod Ensign، مدير منظمة حقوق الجنود التي تُسمى الجندي المواطن Citizen Soldier.

وهكذا، بعد أسبوعين من نهاية إجازتي وجدت نفسي في الجادة الخامسة في مانهاتان خارج العنوان الذي أعطاني إياه تود Tod بواسطة الهاتف، وإذ نظرت إلى البناية من الشارع، خلت أول الأمر أنني وصلت إلى المقر الرئاسي الخيالي لمنظمة جيدة التمويل. بيد أني عندما دخلت إلى البناية تبين لي أن مكاتب الجندي المواطن معتدلة. علاوة على ذلك، وخلافاً لصورة القلب المتحجر التي تخيلتها دائماً للمحامين، تبيّن لي أن تود Tod شخص لطيف متواضع مع ابتسامة كبيرة، ويشبه جسدياً

openkanal.com

كريستوفر ووكن Christopher Walken، وهو شبه يتعزز بلهجته الثقيلة التي اكتسبها من مدينة نيويورك. إن تود، المحامي الشاب في الستينيات والسبعينيات، شارك في حركة المقاومة التي شكلها الجنود في فيتنام، وساعد الجنود الذين عاشوا حياة سرية في خارج وطنهم مع عودة آمنة إلى الولايات المتحدة، ووفر لهم دفاعاً قانونياً ووسيلة لإيصال حكاياتهم إلى وسائل الإعلام.

ما إن تحدثت مع تود حتى انفتح أمامي الباب إلى عالم جديد، حيث انتقلت من الشعور بأني عاجز ووحيد إلى إدراكي وجود شبكة كاملة من الأشخاص والجماعات، ومن منظمات حقوق النساء ومنظمات المقاتلين القدامى المعادين للحرب، إلى عائلات أشخاص عسكريين وجماعات دينية، وكلهم يشعرون كما أشعر إزاء الحرب.

بحثنا تود وأنا كيف سأتعامل مع غيابي عن العمل العسكري. اتفقنا على أن أفعل كل ما أستطيع فعله لتفادي اعتقالي، ومن ثم تسليم نفسي طوعياً مع إصراري في المحكمة على حقي في تسريحي قانونياً من الخدمة العسكرية. إن إستراتيجية تسليم نفسي من شأنها إبطال تهمة الهرب، الذي تعريفه بطريقة فظة هو غياب من الخدمة العسكرية دون إذن مع نية البقاء غائباً بصورة دائمة.

اجتمعنا تود وأنا مرات عديدة خلال الشهور اللاحقة للبحث في كيفية شكل عودتي لاحقاً إلى الخدمة العسكرية، وعندما بلغت الترشيحات الرئاسية الذروة وأثار عدد كبير من المرشحين المعادين للحرب مسألة العراق في مناظرات بينهم وبين خصومهم الأقرب إلى المحافظين، كان رأي تود أن

أفضل إستراتيجية أعتمدها هي أن أسلّم نفسي عند وقوع حادث سياسي، وأن أُدلي ببيان ذي أهمية للشعب؛ لكي أضغط على أولئك المرشحين؛ لكي يلتزموا بوعودهم. كان في اعتقاده أن وسائل الإعلام ستكون معنية على نطاق واسع بقضيتي بوصفي أول جندي سابق مقاتل يشجب الحرب ويرفض العودة إليها، ومن ثم فإن السلطة العسكرية سيكون تعاملها معي ليناً؛ لأن هذه السلطة ستراقبها الجماعات الشعبية.

ولكني لم أكن بعد في ذلك الحين مستعداً لتسليم نفسي. سبق أن قبلت إمكانية تحوّلي إلى معترض واعٍ وبدأت العمل بتقديم الطلب الذي سلمتني إياه تيريزا. شعرت بحاجتي إلى إجراء محادثة جدية، وجهاً لوجه مع مستشاري القانوني حول ما أتوقع حدوثه من احتمال محاكمتي في محكمة عسكرية. كان ذلك الشخص هو الذي تولى عملياً الدفاع عني، بعكس تود الذي كان مسؤولاً عن الجانب الآخر من القضية، أي الجانب السياسي والعلاقات العامة. ولهذا السبب أوضح لي تود، أنني بحاجة للذهاب إلى بوسطن للقاء مع شريكه، وهو محامٍ اسمه لويس فونت Louis Font.

عند استعدادي للذهاب، أخذني تود إلى مركز لشراء بطاقة سفر بالباص إلى بوسطن. إن ما أدهشني أن سعر البطاقة ذهاباً وإياباً عشرون دولاراً فقط.

سألت: « لماذا هذه البطاقة رخيصة إلى هذا الحد؟».

أوضح لي بقوله: «إن شركات سيارات الباص في شيناتاون Chinatown هي دائماً في حالة حرب فيما بينها، ولذلك فإنك تضمن الحصول على أرخص سعر هنا».

كانت هذه الأولى فقط من المعلومات العديدة المفيدة التي كنت أحصل عليها من تود خلال مدة إقامتي متخفياً في نيويورك. ولم يمر وقت طويل عندما عرفت كل الأماكن الرخيصة، حيث يمكنني الحصول على طعام رائع من الشرق الأوسط، إضافة إلى العديد من الأماكن الآمنة لإجراء مقابلات سرية مع الأوساط الإعلامية، معظمها مقرات رئاسية لا تتوخى الربح، مع أنها يمكن أن تكون منظمات سياسية علناً، تكره الحرب سراً، ويسعدها أن تساعد جندياً مستعداً لإبداء رأيه.

تابع تود كلامه قائلاً، مع بسمة تعبّر عن الثقة: «لا تقلق من شرطة مدينة نيويورك، لديهم إمكانيات كثيرة، حتى للاهتمام بتنظيم الجنود المتغيبين دون إجازة».

أرشدني كيف أصل إلى قطار الأنفاق الذي يوصلني إلى البيت، كما أنه على غرار ما صار يفعل دائماً في المستقبل كلما افترقنا، كان يعطيني بطاقة مدفوعة كامل القيمة للركوب في قطار الأنفاق.

«إن قيمتها نحو عشرين دولاراً، وقد استعملتها بضع مرات فقط» قال هذا الكلام وهو يلوح بيده عن بعدٍ عندما نزلت إلى محطة قطار الأنفاق.

موقع المحامي لويس فونت خارج بوسطن مباشرة في بروكلاين، مساشوستس، وقد تحدثت معه بضع مرات هاتفياً، ولكن لم أكن التقيته شخصياً، كما أنه، لأسباب أمنية، لم أشأ أن أبحث تفاصيل قضيتي ما لم نجتمع وجهاً لوجه. في ذلك الحين كانت الحكومة ووسائل الإعلام متورطة فعلاً في القول: إن معنويات الجنود عالية في العراق، وكنت أنا المقاتل القديم الوحيد الذي يعرف كلٌّ من لويس وتود أنه مستعد لتكذيب ما

يشيعونه. هذا ما جعلني الرجل المطلوب، وهذا ما حفز لويس أن ينصحني بتجنب الاتصالات بالإنترنت والهاتف إلى أقصى حدٍ ممكن.

إن والدتي، وجدتي، وخالتي نورما، وصديق ساعدني في الانتقال من ميامي إلى الشمال الشرقي، اصطحبوني جميعهم في زيارتي الأولى إلى بوسطن لمقابلة لويس، الذي استقبلنا بوصفنا أسرة، منذ لحظة دخولنا إلى مكتبه. كان أحد همومنا الرئيسة ألا يشاركنا لويس مشاعرنا الأخلاقية والسياسية ضد الحرب. ولكن عندما قدمنا جميعاً أنفسنا للويس ترك الغرفة، ثم عاد إليها، حاملاً دفتراً مملوءاً بصور وقصاصات مقطوعة من الصحف، تبيّن موقفه المعادي للحرب خلال الصراع في فيتنام.

وُلد لويس فونت ونشأ في الجنوب الأمريكي مع أب وأم من بويرتوريكو، وكان له في شبابه قصة نجاح في الجيش لتجنيد الأشخاص الذين من أصول لاتينية في الخدمة العسكرية في الولايات المتحدة. كان قد تخرج واحداً من صفوة الطلاب في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في وست بوينت، وهي كلية تخريج ضباط الجيش الأمريكي الأرفع مكانة. وما لبث الجيش أن قرر إيفاد الملازم الثاني فونت إلى مكتبه هارفارد للأعمال التجارية، حيث بدأ الضابط الشاب يستمع بمزيد من الاهتمام إلى الشكوك التي راودته حول حرب فيتنام، التي كان من المتوقع أن يخدم فيها. في ذلك الحين رفض لويس علناً إرساله إلى حرب عدَّها غير أخلاقية، فصار أول ضابط في تاريخ وست بوينت يقاوم علناً.

إن تود إنساين Tod Ensign، الذي كان قد صار محامياً، ساعد في تنظيم دفاعٍ قانونيٍ وسياسيٍ عن الملازم فونت، الذي اتهم جنرالات الجيش

obeikandl.com

الأميركي بارتكاب جرائم ضد شعب فييتنام. قال لويس، مبتسماً: «أنا أفهم الوضع الذي تجتازه يا كاميلو».

سرعان ما أصبح واضحاً أنه بالتأكيد يفهم، وربما يفهم أفضل مني في ذلك الوقت. واجه لويس في ذلك الحين حكماً يقضي بسجنه مدة تصل إلى خمسة وعشرين عاماً، وقد استمرت محاكمته سنة كاملة. ولكن الضغط الشعبي الذي مارسه الدفاع عن لويس ثبت أنه أصعب ما يكون بالنسبة للسلطة العسكرية التي كانت قبل ذلك تكافح صراعات داخلية شديدة، وهي صراعات الامتناع عن الرضوخ والتمرد. في نهاية الأمر استسلمت الآلية العسكرية وجرى إخلاء سبيل لويس إخلاءً مشرفاً بوصفه أحد المعترضين الواعين. وكان قد سافر إلى بوسطن آملاً أن يجد محامياً يفهمه، فوجد مصدراً للإلهام ونموذجاً يُحتذى به.

كان الجو في بوسطن بارداً عندما غادرنا مكتب لويس في ذلك الوقت المبكر من بعد ظهر أحد أيام الخريف. تجولنا في الشوارع ساعات؛ بحثاً عن فندق، ولكن غرف الفنادق كانت محجوزة من قبل المسافرين الذين يقومون بالرحلة السنوية إلى بوسطن من أجل عيد زهور الزينة. فلما فشلنا كما يبدو، أعاد لويس إرسال نداءٍ كان قد أرسله بواسطة بريده الصوتي. وكان يبدو أن شبكة السلام والعدالة السرية قد أسبلت شبكتها على ماساشوستس وكذلك على نيويورك. حصلنا على اسم شخص ورقم هاتفه يستطيع أن يمدّ لنا يد المساعدة لتمضية الليل، بالرغم من أن المهلة كانت قصيرة للغاية. لم يكن مطلوباً منّا أن نسجل الاسم أو البطاقة الشخصية، بل كان يكفي أن نقول: إن لويس فونت هو الذي أعطانا اسم

ذلك الشخص. وقبل أن نعرف تبين أننا سنمضي تلك الليلة في منزل فخم في نيوإنغلاند في أطراف مدينة بوسطن.

لم يكن هناك أي شخص ينتظرنا عندما وصلنا، ولكن الأبواب كانت مشرعة ووجدنا تعليمات لنا بشأن مكان وجود مفاتيح غرفنا. إن الكلمات التي تُركت لنا تتضمن عبارة حفاوة مفادها: «نتمنى لكم مساء سعيداً». أمضيت عدة أمسيات في المكان ذاته في الشهور المقبلة، وكان هناك ترتيب ليس فقط للمسافرين المتعبين الذين كانوا ينشدون تمضية راحة هادئة عند المساء، بل كان الترحيب أيضاً بالناشطين في منظمة السلام والعدالة، ومجموعات التضامن الدينية، والطلاب الدوليين الذين يعيشون معتمدين على ميزانيات متواضعة. خلال الشهور التي أعقبت استمر اتصال والدتي عن طريق الخط الساخن الخاص بالهاربين من الجيش؛ لكي تعرف إن كان اسمي وارداً في هذا الخط، ولكن لم يرد إطلاقاً اسمي. حتى إن رجال الشرطة لم يزوروا منزل والدتي. وإلى جانب عدد قليل من اتصالات البريد الإلكتروني الحقيرة الواردة من النقيب وارفل لإبلاغ مجموعة مساندة الأسرة أنني مطلوب بسبب تخلفي، لم يحدث أي شيء آخر.

بيد أن افتقار السلطة العسكرية إلى النشاط في ملاحقتي لم يكن يعني أن أضعفت تنبهي وحذري، بل كان الأمر أبعد من ذلك. فهمت أن صمت الجيش هو مجرد حذر. وكنت أعرف انتهاكات السلطة العسكرية التي اقترفتها خلال إرسالي في الجيش والتمديد لي، وكان تقديري أنهم يحاولون فقط أن يجدوا طريقة للتعامل معي بهدوء ودون الإساءة بالأذى إلى صورة شعبية السلطة العسكرية.

Obeikandl.com

كانت الحاجة إلى اليقظة والتنبيه أشد ما تكون؛ لأنني تابعت الحديث، سرياً، مع وسائل الإعلام الداخلية والدولية. وقد حذرني لويس من احتمال أن يكون شخص ما في الجهة العسكرية يراقب جميع المقابلات الصحفية مع جنود حول الحرب، ولا سيما الذين كان لهم رأي يمثل انشقاقهم، أي معترضين واعين سريين يرفضون العودة إلى الجيش. عند هذه النقطة كان ذلك يعني لي الكثير.

قال لي لويس ذات مرة: «كلما جرت معك مقابلة صحفية يا كاميلو، قد يكون شخص ما في الجيش، أو ربما من هم أرفع مستوى في وزارة الدفاع (البنتاغون) يقول: ها هو كاميلو مرة أخرى».

قلت: «أتظن ذلك فعلاً يا لويس؟».

«بطبيعة الحال. فكر في الأمر يا كاميلو، أنت لست المقاتل السابق الوحيد الذي كان في العراق ويرفض العودة إليه، والذي لا ينفك يتكلم ضد ما رآه في الحرب. ولأنك كنت هناك لا يريدونك أن تتكلم». تمهل لحظة ثم قال: «لا ترتكب أي غلطة يا كاميلو، إنهم يعرفون كل شيء عنك في أعلى مستويات الحكومة».

أخذت في الحسبان هذه التحذيرات، وتوقفت عن استخدام هاتفي الخلوي وحسابي في الإنترنت، كما أنني تخلصت من بطاقة اتصالاتي ATM card. أجريت اتصالاتي الهاتفية من أجهزة هاتف مدفوعة، محاولاً كل مرة أن أستخدم جهازاً مختلفاً. وإذا دعت الحاجة للبحث مع لويس في أمر حساس، كنت أسافر إلى بوسطن؛ لكي نتحدث وجهاً لوجه. وقد نصحني بأن أتجنب إجراء اتصالات مع أي شخص من أفراد

وحدتي، أو مع أي من العسكريين بوجه عام، مالم يكن هو (أي لويس) أو تود أو كلاهما حاضراً. لم أتوقف عن المقابلات مع ممثلي الصحافة التي معظمها كان يرتبها تود، الذي رتبها لإجراء المقابلات في المطاعم وفي المقاهي. حرصاً على السلامة والأسعار الرخيصة.

كان يقول عندما نستقل قطار الأنفاق قاصدين حانة إيطالية صغيرة وجميلة: «سنكون بخير هناك. إنهم قادمون بالطائرة فقط لإجراء المقابلة معك. ومعهم ما يكفي من المال، وتأكد أن كلامك سيجد عندهم آذاناً مصغية».

والواقع أن الصحفيين لا يأبهون بالكلام دائماً، لكن الذي أثار اهتمامي أكثر من غيره لم يكن الطعام أو من دفع قيمة الطعام، بل كانت مقاربة الصحفيين والأمور التي يطرحونها في أسئلتهم. على سبيل المثال، معظم الصحفيين في الولايات المتحدة، سواء يتفقون مع الحرب أو يعارضونها، يكون تركيزهم الأول على ألم العائلات الأميركية من جراء العواقب المترتبة على رفض القتال وما له من تاثير على المؤسسة العسكرية.

كان من عادتهم أن يسألوا: «هل تظن أن الجيش إذا سمح لك بأن تكون معترضاً واعياً بسبب معارضتك للحرب في العراق، فسيفتح الباب أمام كل شخص يخدم العسكرية أن يفعل الشيء ذاته؟».

إن الموقف الذي يتناول الحديث بين هؤلاء المراسلين الصحفيين كان يبدو لي أنه يعني أن الجنود، سواء على صواب أو خطأ، يفترض فيهم أن تبقى أفواههم مغلقة وأن يطيعوا الأوامر. في ذلك الحين رأيت هذا التحليل التبسيطي للأمور مقياساً لضعف أسلوب الأوساط الإعلامية الأميركية. لم

أكن أومئ برأسي غارقاً في التأمل والتفكير، عندما ينهي الصحفي ذو الوجه الصارم كلامه، حتى وإن علمت بدقة إلى أين يعتزم هو أو هي المضي في الكلام. كان من المحتمل أن أتمكن من كتابة الردود على الأسئلة التي طُرحت عليّ، وبذلك أوفر الكثير من الوقت. كان من شأن الجواب الذي يمكن التنبؤ به على السؤال الذي يمكن التنبؤ به هو: «لا أحد يريد أن يقاتل في الحرب».

بيد أني كنت أقول ـ وكأني أجيب عن سؤالٍ للمرة الأولى ـ: «ولكن لا داعي أن تقلق على الجنود الذين لا يريدون القتال، ما دام هناك سبب وجيه لوجود شخص في الحرب. المشكلة هي أنه لا يوجد عندنا سبب وجيه بأن نكون في العراق. أنا لم أوقّع على تقاعدي؛ لكي أقاتل من أجل النفط في الشرق الأوسط، ولا أظن أن أيّ شخص في الجهاز العسكري قد فعل ذلك».

آنذاك يمكن أن يسألوا: «ماذا قد تقول لأمهات الجنود الذين قتلوا في العراق في ذلك الحين؟ إن أبناءهن المحبوبين ماتوا من أجل النفط، وهل تقول: إنهم من المرتزقة؟».

شعرت أن الجواب عن ذلك السؤال ليس مطلوباً مني؛ لأني لم أكن أنا من أرسل أبناءَهم المحبوبين إلى الحرب، ولم أكن أنا من جنى مالاً وفيراً من عقود غايتها إعادة بناء ما قمنا نحن بتدميره (ولم أكن أنا أيضاً من رأى الكثير من إعادة البناء في العراق) ولكني أقول دائماً: «اتخذت قراري استناداً إلى فهمي أن هذه حرب إرهابية غير شرعية من أجل إمبراطورية». كنت أقول للصحفي: « لو كنت متُّ في الحرب لكنت مت مُرتزقاً. وكان قراري الشخصي جداً ألاّ أفعل ذلك. كنت سأطلب

من الأمهات أن يعبرن عن ألمهن، وأن يتحدن معارضاتٍ للحرب؛ لمنع سفك المزيد من الدماء من دون لزوم».

أجوبتي كانت صادقة، ولكن معرفتي تماماً جعلتني أشعر أنني أشبه بمخادع إلى حدٍ ما، وشعرت أيضاً باستياء حول أجوبتي، إذ كان ثمة الكثير مما يجب أن أقوله، ولا سيما كلفة الحرب التي يتحملها الشعب العراقي.

ولكني كنت أعلم أن معظم الصحفيين الأمريكيين لا ينشدون أجوبة وافية لأسئلتهم، بل يريدون فقط أجزاء سليمة. ولذلك شعرت بضرورة أن أنجز ما يجب عمله، وأن أحاول بكل طريقة ممكنة التوصل إلى نوع من المفهوم النقدي أمام رأي عام ميَّال للنسيان بشكل عام.

كانت الأمور مختلفة عند اللقاء مع صحفيين أوروبيين هم أكثر اهتماماً بخبراتي وتجاربي التي جعلت مني معترضاً واعياً. منذ كان معظم أسئلتهم تعالج التفاعلات اليومية بين الجنود الأمريكيين والعراقيين العاديين، كانت رغبتهم أن يحيطوا علماً بالغارات وبحالات منع التجول، وحوادث القتل عند قطع الطرق، وإساءة معاملة السجناء.

وكانوا يودون أن يعرفوا هل كان بين الجنود في وحدتي، في الرمادي، من يعارضون هم أيضاً الحرب، فقلت لهم: إنني لا أعرف الشيء الكثير عن جنود يتفقون أو يختلفون معي، سياسياً، أو أخلاقياً، أو روحياً. ما أعرفه فقط هو وجود استياء شديد من الحكومة ومن المهمة، بالرغم من غياب التشكك علناً في الحرب.

شعرت أن بإمكاني أن أتوسع في حديثي مع الصحفيين الأوروبيين أكثر قليلاً من توسعي في الحديث مع نظرائهم الأمريكيين، كما أنني حصلت

بصورة عامة على الكثير من التعاطف عبر المحيط يفوق ماأناله داخل الولايات المتحدة. بل عُرض عليّ المساعدة إذا ما شئت الذهاب إلى أوروبا، وتكرر هذا العرض مرات عديدة.

قالت باتريسيا Patricia، وهي صحفية أوروبية تعمل في صحيفة اشتراكية، وكانت تناديني باسمي المستعار عادة: «بإمكانك الذهاب إلى أوروبا، يا كارلوس، أما هنا فمصيرك السجن».

قلت رداً عليها: «ربمّا، ولكن هنا أنا في وطني».

قالت، وهي مصرة على رأيها، مظهرة مزيجاً من الحزن واللطف: «نعم، ولكنك لم تفعل أي شيء خطأ، ثم ما الداعي إلى بقائك هنا مع أن بإمكانك الذهاب إلى أوروبا، الناس هناك في أوروبا يكرهون الحرب، هل تعرف ذلك؟».

قلت: «يجب أن أبقى هنا والسبب بدقة هو أنني لم أفعل شيئاً خطأ. إلى جانب ذلك كثيرون من الناس هنا أيضاً يكرهون الحرب».

نظرت نحوي، وكأني لا أعرف ماذا ينتظرني في طريقي.

قالت متابعة كلامها، وكأنها قادرة أن تتنبأ بما يحمله لي المستقبل: «نعم، ولكنك ستدفع ثمن قرارك، يا كارلوس، إنك ستدفع الثمن».

صرنا أنا وباتريسيا نلتقي كثيراً وصرنا صديقين جيدين. لم تغفل أن تقول: إنني باعتقادها يجب ألاَّ أستسلم للنظام العسكري بما أن العسكريين هم، لا أنا، الذين اقترفوا الجريمة. كانت حجتها أنه كان أمامي الكثير من العمل للتعافي بسبب وجودي في الحرب، وأنني فوق ذلك، إذا انتهى

بي الأمر إلى زجي في السجن، فستكون الأضرار النفسية والعاطفية التي سأعاني منها عصية على الإصلاح. قلت لها دائماً: إنني سبق أن اتخذت قرار عرض قضيتي في ساحة الرأي العام، وإذا دعت الحاجة فسأعرضها أمام محكمة عسكرية. حاولت أن أبدو مطمئناً عندما قلت هذا الكلام، ولكني بكل الصدق كنت أخاف اللجوء إلى الرأي العام والاستسلام للجيش. كان يغلب عليَّ في مشيئتي أن أكتفي بالابتعاد بهدوء وأن أتظاهر أن الحرب لم تحدث إطلاقاً.

عندما تحولت أيام اختبائي إلى أسابيع، وصارت الأسابيع شهوراً، بدأت أشعر بمزيد من الضغط عليّ للاستسلام أمام الرأي العام. إن وضوح ذهني أخلاقياً وفكرياً لم يترك أمامي أي خيارات سوى أن أتحدث علناً ضد الحرب وأن أرفض أي مشاركة جديدة في الحرب. وهكذا صرت في ذلك الحين مقتنعاً بفكرة المعترض الواعي، وأمضيت ساعات لا يُحصى عددها، وأنا أملأ فقرات استمارتي الخاصة بالاعتراض الواعي. إن هذا النهج، مقروناً بالعديد من المقابلات الصحفية التي أجريتها سراً، أرغمتني على العودة والعيش من جديد مع تجاربي في العراق، والتأمل في معناها. كل هذا التحليل والتشكيك في الحرب، والتشكيك بذاتي في الحرب، أفادتني بوصفها وسيلة لبلوغ الوضوح المطلق للخطأ، ليس خطأ الحرب ضد العراق فحسب، بل خطأ الحرب بشكل عام. وهذه القناعة المتنامية لم تفلح في محو الخوف الذي تركّز في داخلي، وقد وصل هذا الخوف أحياناً إلى حد الرعب، بحيث دفعني إلى شيء من الاستسلام. ظلت كلمات باتريسيا تُستعاد ويتردد صداها في رأسي: «ستدفع الثمن، يا كارلوس، ستدفع الثمن».

openkanan.com

إن بث خبر القبض على صدام حسين، على نطاق واسع، لم يساعد على تخفيف مخاوفي، فقد واصلت وسائل الإعلام بغير انقطاع، استغلال القبض عليه، وكأنه مسوّغ للغزو، والاحتلال. لم تعبأ وسائل الإعلام إطلاقاً بعدم وجود أسلحة دمار شامل، ولا بوجود رابطة بين صدام والقاعدة، إذ كان الناس في نوع من النشوة من جراء روايات وسائل الإعلام وبدا كأن كل شخص يهتف ترحيباً بالحرب والعسكريين. ذات مرة، بدا أن باولا زاهن Paula zahn أرادت في برنامج إخباري في قناة (CNN) أن تصفع الجنرال ويسلي كلارك General Wesley Clark عندما قال: إنه لا يزال يظن أن الحرب كان لها ما يسوّغها.

وهي قد سألته: «حتى بعد القبض على صدام حسين؟!» وقد أذهلها تفكير أي شخص تفكيراً مختلفاً.

قال الجنرال: «كلا».

كان موقف كلارك يبدو، على الأقل بالنسبة لي غير واضح في ذلك الوقت، إذ إنه يمثل الرأي العام الأوسع نطاقاً. لعل الناس كانوا عاجزين عن إبداء شكهم في الأمر الجلي. إن روايات الحكومة وشركات وسائل الإعلام حول القبض على صدام قد أوصلت التأثير الساحر للخداع إلى الناس. تساءلت بيني وبين نفسي: كيف سيتصرف جندي منشق أمام هذا التطابق واسع النطاق للخداع؟ فبوجود رأي عام يشعر بالرضا عن نفسه إلى هذا الحد ويكون منفصلاً جداً عن الواقع، سأكون ببساطة أكتوي انزعاجاً، أولاً بسبب أمةٍ منومةٍ مغناطيسياً بفعل الحرب، ثم بسبب آلة الحرب ونظامها القضائي الذي عاقب الانشقاق.

سرت متمشياً في شوارع المدن الضخمة مجهولة الأسماء في شمال شرق الولايات المتحدة، أُمضي كامل أوقات بعد الظهر في حدائق ومعارض، ومنشغلاً بسعيي الذي لا ينتهي من أجل الحصول على صفة المعترض الواعي، مغمضاً عيني فقط للتنبه إلى عزمي على الغوص في الخوف من احتمال استسلامي علناً، والعيش في الرعب من العمل العسكري والحكومة، والخوف من المستقبل، وغير قادر أن أعيش فعلاً. شعرت أنني جبان غير قادر أن أتصرف وفق ما كان بوضوح واجبي الأخلاقي.

كلما فكرت في العودة إلى العمل العسكري، كان خفقان قلبي الذي يكاد يسبب لي الصمم يصيبني بالشلل. ظل تود يقول لي: إننا يجب ألاّ ننتظر مدة أطول من اللازم، وكان يقترح كل شهر أن نشترك في سباق أو في حدث آخر، وكانت غاية الفكرة أن نجعل استسلامي علنياً وجماهيرياً بأقصى حد ممكن؛ لكي يشع ضوء كاشف على معالجة السلطة العسكرية لقضيتي. إن لويس، الذي كان يعرف رعبي، لم يكن يصرّ على أن تمثل عودتي حدثاً في الوسائل الإعلامية، ولكنه أراد أيضاً أن أحدد على الأقل تاريخاً لاستسلامي.

قال لي ذات مرة: «كاميلو، أنا أعرف صعوبة الأمر، ولكني أحضرت زبائن للعودة إلى الخدمة العسكرية، وهم سكارى تماماً؛ لأن تلك كانت الطريقة الوحيدة، لكي يتمكنوا من فعل ذلك، إذ كانوا خائفين إلى هذا الحد».

لم يكن ذلك في الواقع خياراً لي، وكنت أعرف ضرورة أن يكون ذهني واضحاً إذا كان مطلوباً أن أقول ما لا بد من قوله عندما أسلم نفسي. وقيل

لي المرة تلو المرة: إن هناك أهمية لحديث جندي ضد الحرب، مستنداً إلى تجربته الشخصية بعدما كان في غمار تلك الحرب، هذا فضلا عن أنه ربما لا يكون هناك، في الحرب عضو واحد يعمل عمل في الخدمة العسكرية ليقول أي شيء مهما انتقده، وذلك لبعد الواقع على الأرض في العراق، ولكنه مسؤولية جسيمة يصعب حملها.

كان من عادة الناس أن يقولوا: «أنت شجاع جداً» إنك ستشق الطريق في حركة انشقاق جديدة ضمن الجهاز العسكري. كثيرون آخرون سيتبعونك».

لم أشأ أن أومئ برأسي علامة للإقرار، مسجلاً الكلمات، لكن غالباً مفكراً في العقوبة التي لا محالة ستتبع، وقلقاً بشأن ما أنا عازم أن أقرر. هل أنا شجاعٌ فعلاً؟ لم أفعل بعد أي شيء! هذا ما أقوله لنفسي. ثم ترد إلى عقلي كلمات أخرى: لا بد أن يكون هناك واحدٌ أول، صوت يكسر الصمت. لا بد من وجود واحدٍ أول. إن ما تستدعي حاجتي أن أفعله سيصبح واضحاً مرة أخرى.

تحقق حدثٌ مفتاحيٌ بعد إحدى زياراتي لمقابلة لويس في مساشوستس. رافقني في الزيارة نانسي ليسين وشارلي ريتشاردسون الشريكان المؤسسان لمنظمة شعبية معادية للحرب تسمى: «عائلات العسكريين تتحدث»، وكانت والدتي قد انضمت إلى هذه المنظمة عندما كنت لا أزال في العراق بعد محادثة طويلة مع لويس بشأن عودتي إلى العمل العسكري، أخذتني نانسي ومعها شارلي إلى مكان خارج بوسطن، يستغرق الوصول إليه نحو أربعين دقيقة، وكان من شأن الذهاب إلى هذا المكان أن يؤدي دوراً رئيساً في استسلامي المفترض للجيش، واسم المكان: «دير السلام، في شيربورن، مساشوسيتس».

استقبلنا بترحاب في الدير من قِبَل مؤسسه ومديره لويس راندا Lewis Randa. إن لويس هذا، شأنه شأن كثيرين غيره من فتيان الطبقة الوسطى، كان قد التحق بالحرس الوطني؛ لكي يتفادى الذهاب إلى فيتنام. ولكنه خلال التدريب الأساسي بدأ يفكر في أن عمله هذا يعدّ طريقة غير شريفة لتجنب القتال، فبدلاً من ذلك قدّم طلباً للحصول على وضع المعترض الواعي، رافضاً أن يرتدي البزّة العسكرية وأضَربَ من ثم عن الطعام، وكان الاضراب جزءاً من احتجاجه. كان رد السلطة العسكرية محاولة إرساله إلى الواجب الفاعل في فيتنام. إن تدخل السناتور إدوارد كيندي هو وحده الذي أمّن له وضع المعترض الواعي وحال دون إرساله إلى الحرب. ومنذ تلك النقطة نذر لويس حياته لقضية السلام، وأسس في عام 1972 «مدرسة تجربة الحياة Life Experience School» وهي اسم برنامج يمكّن الأولاد واليافعين من أن يصبحوا دعاة سلام. بعد ذلك بأربع عشرة سنة، توسّع لويس في عمله وفتح ديراً للسلام، وهو ملاذ للناس من سائر العقائد ومناحي الحياة الذين يرغبون في أن يتعلموا، أو أن يمارسوا الامتناع عن العنف.

الدير مكان يجب تجربته ليكون مفهوماً، فما من كلمات قادرة على أن تعبر عن روح المكان الذي صار لاحقاً شبه منزلي الثاني. إن تمثالاً لغاندي بحجم كامل الإنسان يرحب بالزوار، والأرض حوله تشمل حَرَماً للحيوانات تضم بقرة، وثلاثة خنازير، وحماراً وجديين. وهذا الحرم مفتوح دائماً أمام الناس؛ لتمضية بعض الوقت مع الحيوانات، وخارج الإسطبل تماماً، عند قاعدة تلٍ صغير، هناك شاهدة قبرٍ كتبت عليها كلمات «مدنيون غير معروفين وقُتلوا في الحرب» وقد أزاح الستار عن النُّصُب البطل العالمي

للملاكمة من الوزن الثقيل، المقاوم للحرب والمعترض الواعي محمد علي كلاي في العام 1994.

إن منزلين من ثلاثة طوابق في نيوانغلاند يقعان بجانب الإسطبل ويشرفان على مقبرة قديمة خارج ممتلكات المنزلين. أحد المنزلين مأوى مؤلف من أربع غرف للزوار الذين ينشدون السلام والراحة، ومعبد لأشخاص من مختلف الديانات، ومطبخ لأطعمة من الخضراوات، ومكتبة صغيرة فيها مجموعة من الكتب تتناول السلام وموضوعات الفظائع في الحرب. وجدران ملاذ السلام تزدان بقصاصات من صحف عن أشخاص دفعوا ثمناً غالياً لقاء دفاعهم عن السلام، مع آثار قديسين وأشخاص قُتلوا خلال نضالهم من أجل العدالة الاجتماعية.

عندما دخلت المنزل للمرة الأولى ذهلت بالموسيقا الروحية المهدئة التي تملأ المكان بروح السلام والانسجام. وما فاجأني هو صوت نداء صوفي، ولكنه مألوف. إنه دعوة إسلامية إلى الصلاة. كانت هذه أول مرة أسمع فيها الدعوة إلى الصلاة منذ عودتي من العراق، وهذا ما ذكّرني بالروابط بين الناس في العالم، ووحدة البشرية، مما حملني على المجيء إلى الدير.

في زاوية من المنزل الرئيس، وداخل المعبد هناك للمؤمنين من ديانات متعددة، مزار مقدس مكرس لرئيس الأساقفة أوسكار إرنولفو روميرو Monsignor Oscar Arnulfo Romero، رئيس أساقفة السلفادور الذي اغتيل في العام 1980 بسبب التزامه السلام والعدالة ـ مما جعله أول أسقف يُذبح عند مذبح كنيسة منذ توماس بيكيت Thomas Becket في القرن الثاني عشر. إن الصور التي تعود إلى لحظات بعد ذبح رئيس الأساقفة

معروضة بالقرب من ستارٍ ملوث بالدم مأخوذ من المذبح، حيث كان يقف لإلقاء آخر قداس له. وكانت نظارة رئيس الأساقفة المعروضة بالقرب من قطع القماش الملوثة بالدم، شهادة على حضوره الروحي القوي والثمن الذي دفعه من جراء مجابهته السلطة بالحقيقة.

امتلأت جدران ممر المنزل الثاني بصور أولاد، طفل فقد ساقه، وقد شوهته ألغام أرضية، كان يحدق في وجهي من إحدى الصور وصورة أخرى على الجدار أظهرت طفلاً حديث الولادة جاء إلى هذا العالم؛ ليعيش بضع لحظات فقط ضحية الوحشية قبل موته، لقد وُلد الطفل مشوهاً تشويهاً شديداً؛ لأن اليورانيوم استهلكه، واليورانيوم مادة مشعة استخدمتها القوات العسكرية الأمريكية لصنع ذخائر للأسلحة ولوحات تصفيح للسيارات.

إن القذائف التي تعتمد على اليورانيوم المستنزف والصفائح المسلحة، عند حدوث تأثيرها، تنسحق وتنتشر في الهواء والماء، ملوثة كل شيء في طريقها وتجعل الناس، من ضمنهم الجنود، والمدنيون، وحتى الأولاد الذين لم يولدوا بعد، ليعيشوا حياة ألم شديد، والتشوه والموت بسبب المرض.

لم أكن أتكلم عندما كنت أشاهد هذه الصور، ولكني عند تحديقي في الصور المرعبة كنت أعي ما يحدث في داخلي من تغيّر. بدأت أشعر بالخجل من خوفي أن أُزج في السجن وأُسمى خائناً. أدركت أنني كنت جباناً منذ البداية ذاتها، عندما كان من واجبي أن أرفض إرسالي إلى الحرب دون أن أفعل أي شيء. في العراق رأيت وشاركت في معاملة وحشية ومسيئة للسجناء والمدنيين، ولكني لم أملك الشجاعة لعصيان الأوامر. أما الآن، وأنا أواجه الواجب الأخلاقي بأن أرفض الحرب علناً وأقاومها،

obeikandl.com

فعدت مشلولاً مرة أخرى، شديد الضعف، وعاجزاً عن تحطيم قيود خوفي، ولكن عندما كنت أنظر إلى وجوه أولئك الأولاد، من أزمنة وأراض مجهولة لي، شعرت بعزم جديد وأدركت أنني كنت أملك القوة للوقوف والتحدث عندما أريد أن أتحدث. أكثر من ذلك، كنت أعرف أن الدير هو المكان الذي أردت حدوث كل شيء فيه. أردت أن أتحدث علناً عن إدانتي للحرب ورفضي العودة إليها، فقلت ذلك في هذا المكان الذي كان منذ بدايته مكرساً للسلام.

عندما أطلعت تود في وقت لاحق على خطتي، أبدى بعض التحفظات. ماكان يقلقه أن الدير بعيد جداً عن بوسطن وكذلك المدن الأخرى بعيدة بالنسبة للصحفيين الراغبين في القيام بالرحلة إليها، ولكن لويس Louis أصرّ على أهمية اختيار مكان أشعر فيه بالراحة، وكانت عائلتي متفقة معه في موقفه. في نهاية الأمر وافق تود، وبدأنا نعدّ الخطة لاستسلامي علناً للنظام العسكري.

حتى تلك النقطة ظل معظم أقربائي، ومنهم والدي، لا يعرفون حقيقة وضعي. كانت تلك السرية ضرورية لسلامتي، وأيضاً لحماية المقربين إليّ من احتمال أن يضايقهم الجيش ويحيلهم إلى القضاء. ولما قررنا المضي في الاستسلام، بدأنا نتصل بجميع الأقرباء والأصدقاء الموجودين، وبمختلف المجموعات والمنظمات المعارضة للحرب التي تريد الوقوف إلى جانبنا.

اخترنا تاريخاً هو 15 آذار (مارس) 2004، وهو يكاد يكون بالضبط خمسة شهور بعد الانتهاء الرسمي لإجازتي من الحرب، وهذا التاريخ

إذا أخذنا في الحسبان مواعيد الأشخاص الذين نرغب في توجيه دعوات إليهم، فسيتيح لأكبر عدد ممكن من الناس حضور مؤتمر صحفي ننوي عقده في الدير. وبعد المؤتمر الصحفي سترافقني حماية إلى المكان الذي أنوي أن أسلم فيه نفسي للسلطات العسكرية. إن ردّ وسائل الإعلام على خبر استسلامي كان مشجعاً للغاية، وهو يشمل مقابلة صحفية مع دان راذر Dan Rather مدتها ستون دقيقة، وتم إعداد المقابلة معنا بمساعدة صديق لويس راندا Lewis Randa، وهو هيو تومسون Hugh Thomson. وهذا كان موضوع إحدى قصصهم، وهي عبارة عن خبر وثائقي حول الذكرى السنوية الثلاثين لمجزرة ماي لاي My Lai، والخبر يركز على عمل هيو البطولي عندما هبط بطائرته الهليكوبتر للحيلولة دون قتل المزيد من المدنيين بالرصاص في العملية الوحشية الشائنة في فيتنام.

عشية استسلامي، اجتمعت أنا وعائلتي مع صحفيين وأصدقاء؛ لتناول العشاء وإجراء بضع مقابلات نهائية في مدرسة تجربة الحياة، وهي تقع على بعد بضعة أميال من الدير. كان الحاضرون والدي وأمي، وشقيقي كارلوس، وزوج أمي جوليو، وأنتونيا Antonia جدّتي من جهة والدتي، وخالتي نورما، وخالي ألكس، ولويس فونت وزوجته غيل غلازر Gel Glazer، ومراسلان صحفيان من جمهورية تشيلي، وبعض أصدقاء عائلتي الحميمين. بعد العشاء عدنا جميعا إلى دير السلام، حيث كانت فرقة تقدمية من المنطقة تقدم حفلة موسيقية. شارك في الحفلة والدي وشقيقي ببعض أغنيات نيكاراغوا. في ذلك المكان، وبعد خمسة شهور من العمل وخمس وخمسين صفحة، تمكنت أخيراً من إنهاء ادعائي بأني معترض واعٍ.

بحزم قال لي لويس: «يجب أن تتخلى عنها، وبهذه الطريقة فقط نتمكن من عرضها على الجيش».

صباح اليوم اللاحق، وصل إلى الدير المطران الكاثوليكي توماس غامبلتون Thomas Gumbleton، وهو المطران الاحتياطي رئيساً لأبرشية ديترويت، وبين الآخرين الذين جاؤوا هناك للتعبير عن مساندتهم نانسي ليسين Nansy Lessin وشارلي رتشاردسون Charley Richardson، وهما من مجموعة عائلات العسكريين تتكلم Military Family Speakout وفرناندو سواريز دل سولار Fernando Suarez del Solar الذي كان ابنه جيزوس واحداً من أوائل المارينز الأمريكيين الذين قُتلوا في العراق، وديف كلاين Dave Cline، الرئيس الوطني لجماعة المناضلين القدامى من أجل السلام، ونحو ما بين ستين وثمانين آخرين معارضين للحرب وقفوا تضامناً معنا.

لم نعرف ما يمكن أن نتوقعه من حيث حضور وسائل الإعلام في المؤتمر الصحفي الذي عقد بعد الصلاة الدينية. خشيت أن النقطة التي أثارها تود حول طول المسافة التي يجب أن يقطعها الصحفيون قد يكون معناها ضعفاً في الحضور، ولكن جمهور الصحفيين، الدوليين منهم والوطنيين، الذين قدموا التحية لنا في المرجة الخضراء أمام الدير قد فاق أعلى توقعاتنا. وضع لويس Lewis ترتيباً للحدث، بحيث نجيب وقوفاً إلى جانب نُصُب المدنيين المجهولين الذين قتلوا في الحرب عن الأسئلة الموجهة إليّ، حيث كانت شعلة تشع تكريماً للموتى. وبعد أن أنشد طالب من مدرسة تجربة الحياة أغنية: «راية النجم المتلألئ Star - Spangled Banner» ألقى الأسقف غامبلتون كلمة قصيرة عن التقليد المديد للاعتراض الواعي ضمن الكنيسة الكاثوليكية، منوهاً

بشخصيات تاريخية أمثال: القديس فرانسيس Saint Francis من أسيسي والقديس إغناتيوس Ignatius Saint من لويولا.

قررت عدم كتابة خطاب، ولذلك فإني بعد أن ألقى الأسقف كلمته أدليت ببيان من القلب قلت فيه ببساطة: إني أرفض كل حرب، وإني كنت أداة عنف في الماضي، ولكنني اخترت الآن أن أكون أداة للسلام. وأعلنت أنني معترض واعٍ، وقلت: إن الحرب في العراق كان الدافع إليها النفط، وإنني لم أكن مرتزقاً، وعبرت عن إيماني بعدم توقيع أي تعاقد من أجل القيام برحلة عبر نصف مسافة العالم؛ لكي نقاتل في سبيل النفط.

تابعت كلامي، فقلت: «الذي يريد دعم الجنود لا يمكن أن يساند الحرب».

واختتمت كلامي بالتنويه بقرار الناخبين في أسبانيا في اليوم السابق تماماً، باختيار رئيس وزراء جديد ملتزم بسحب جميع الجنود الأسبان من العراق.

قلت: «بالأمس، كان اقتراع الشعب الأسباني بكلمة: «لا» للحرب. آمل أن يتمكن الشعب الأمريكي من قول كلام مماثل في شهر تشرين الثاني (نوفمبر). أشكركم جزيل الشكر».

هتف مراسل لإحدى الصحف: «ولكن، ياكاميلو، عندما وقعت تعاقدك للعمل في الجهد العسكري، كنت تعرف أن مصيرك سيكون العمل في حرب. ما الذي جعلك تغيّر وجهة نظرك في هذا الأمر؟

«حسناً، كنت هناك، وبإمكاني أن أقول لك: إن الشعب ليس هو الذي في السلطة، وليس هو الذي يعلن الحروب، ويدفع الثمن، بل الجنود والمدنيون والناس الأبرياء غير المسلحين».

قال رجل طويل القامة يرتدي بذلة زرقاء، وبدا كأنه أشبه بموظف في المخابرات أكثر من شبهه بأي شيء آخر: «نعم ولكنك كنت تعلم أن الجنود والناس يموتون في الحرب. ما الذي رأيته وجعلك تغيّر تفكيرك؟».

«كنا نتعرض لكمائن، وكان هناك أشخاص يقتلون، ولكن أرى، بغض النظر عما كنت مطمئناً في قصر أو في موقع على الشوارع متعرضاً للكمين كما حدث لي، فإن خوض الحرب من أجل النفط عمل غير أخلاقي».

سألتني امرأة من شبكة تلفزيونية أسبانية بارزة: «كاميلو، ما الفرق في نظرك بين ما تراه وبين ما تقوله الأخبار هنا عن الجنود في العراق من جهة وتجربتك أنت هناك؟

أجبتها، وكنت مسروراً بأنها طرحت ذلك السؤال: «نعم، خيبة الأمل الكبيرة هي أن أخبار وسائل الإعلام تقول: إن معنويات الجنود عالية في العراق، وإننا كلنا سعداء بوجودنا هناك. هذا مخالف للحقيقة. كلنا كنا نكذب في الكلام عن أسلحة الدمار الشامل والعلاقات بين العراق والإرهاب من أجل إيجاد مسوّغ للحرب. في الواقع كنا نتحدث عن الإرهاب بوصفه سبباً للتواجد مع هذه الحرب. وحقيقة الأمر، حتى بالنسبة للذين دعموا الحرب، كنا جميعاً نشعر أننا في فخٍ هناك؛ لأن الشعب العراقي لا يريدنا هناك، ولا معنى للمهمة. لا توجد عندهم كهرباء، ولا ماء، ولا إعادة بناء أي شيء. شعورنا هو أننا كنا هناك للدفاع عن أنفسنا».

قبل استسلامي ببضعة أسابيع، أعطيت حديثاً صحفياً لمراسل شيكاغو تربيون Chicago Tribune. بعد لقائه معي، مضى للتحدث مع أشخاص

من وحدتي، التي كانت آنذاك قد عادت من العراق. وعندما تكلم مع بعض الجنود عما قلته حول أسلوب قادتنا العسكريين في استخدامنا طُعماً لجر المتمردين إلى القتال وإثارة تبادل النيران، أكد عدد منهم صدق كلامي، ولم يكن مفاجئاً أن النقيب المسؤول عني الذي جرت مقابلة صحفية معه، اعتمد نهجاً آخر. وأقواله التي نشرت صباح ذلك اليوم، والتي ركز عليها الصحفي هي:

«كاميلو، قائدك يقول: إنك فقدت أعصابك. ما قولك في ذلك؟» طرح هذا السؤال وهو ينظر في دفتر صغير كان يحمله في يده.

توجهت ببصري نحو المراسل الصحفي عندما تكلمت، فقلت: «أقول: إنني لم أفقد أعصابي. الواقع قمت بعملي بوصفي جنديّاً».

سألني رجل آخر يبدو أنه ذو صفة رسمية: «ولكن ماذا تقول للجنود في وحدتكم الذين قد يقولون: إنك غدرت بهم؟».

«ما أقول لهم هو: إنني اتخذت قراراً شخصياً محضاً بأن أكون ضد الحرب، اعتماداً على مبادئي الأخلاقية، وحتى إذا اختلفوا معي الآن، لا بد أنهم سيدركون يوماً ما كيف أن الآخرين يكذبون علينا حول هذه الحرب. وأقول أيضاً: إنني اليوم أتحدث مع العديد من الجنود الذين يعارضون هذه الحرب، ولكنهم لا يملكون القوة للتقدم إلى الأمام. أنا لا أدير ظهري إلى قادتي العسكريين، بل أفعل ما أفعله من أجلهم».

سألتني امرأة صحفية أنيقة في لباسها، كانت تركع على العشب أمامي: «ماذا، بحسب رؤيتك، ستفعل لك الآن السلطة العسكرية؟».

قلت: «ليست لديّ أي فكرة. وكان كلامي هو واقع أمري» وقلت: «ولكن مهما حدث، وإذا انتهى بي الأمر إلى زجي في السجن سنوات عديدة، فسيكون ضميري على الأقل نقياً، وسأنعم بالسلام؛ لأني أعرف أن الله قد غفر لي».

بعد ذلك صارت الأسئلة ذات صفة أكثر قانونية، ولذلك طلبت من لويس Louis وتود Tod أن يقدما الأجوبة. وبعد أن أدلى أشخاص آخرون ببيانات مختصرة نيابة عني، خاطب لويس المراسلين، قائلاً لهم: إنه مستعد للدفاع عني إذا قرر الجيش محاكمتي أمام محكمة عسكرية، ولكنه أكد أننا نتوقع منهم التعامل معي إدارياً، وأن يسبغوا عليّ صفة المعترض الواعي.

قال لويس: «خلال حرب فيتنام، وكان الرئيس بوش ذاته متغيباً عن الوحدة التي ينتسب إليها في الحرس الوطني شهوراً عديدة تفوق مدة تغيب الشخص الذي أدافع عنه، فتعامل معه العسكريون إدارياً. ونحن نتوقع منهم أن يتعاملوا بالطريقة ذاتها مع الرقيب الأول ميخيا».

بعد المؤتمر الصحفي صعدت أنا وأصدقائي وعائلتي مع عدد كبير من الصحفيين الذين أمكن استيعابهم إلى سيارة باص استأجرها لويس Lewis لنقلي إلى قاعدة عسكرية؛ لأتقدم باستسلامي الرسمي. لقد جاء رجال شرطة محليون قبل لحظات من مغادرتنا، وعندما شاهدهم أحد الناشطين يقتربون منّا عبر المقبرة، تكون جدار بشري حولي بسرعة؛ لمنعهم من أخذي معهم. لكن أحد رجال الشرطة أوضح أنهم جاؤوا؛ لأن عدداً كبيراً من السيارات قد أُوقفت بصورة غير شرعية أمام الممتلكات هناك. وعند ذلك فقط شعر أصدقائي بالراحة.

عندما قال لويس Lewis لضابط الشرطة: إننا على وشك المغادرة لنذهب إلى قاعدة هانسكوم للسلاح الجوي، على بعد مسافة تستغرق نحو عشرين دقيقة من شيربورن، عرض ضابط الشرطة مرافقتنا، وهكذا انطلقنا مع مرافقة من الشرطة للحراسة في طليعة قافلة طويلة من المؤيدين لنا.

سافرنا على امتداد الطرق الريفية، وعزف والدي وشقيقي المزيد من موسيقا نيكاراغوا الشعبية، بينما طرح بعض المراسلين الصحفيين، من ضمنهم فريق للإخراج أرسله مايكل مور Michael Moore منتج الأفلام الوثائقية، بعض الأسئلة النهائية. ولدى وصولنا إلى القاعدة، رحب بنا مزيد من الصحفيين والناشطين الذين كانوا قد نصبوا آلات التصوير ومعدات تسجيل الصوت. وفي موقع قريب، عند الجهة الجانبية للطريق المواجهة للمنشأة العسكرية، كان علم قوس قزح للسلام وراية مناضلين قدامى للسلام، يرفرفان في الهواء. قبّلت أصدقائي وأقربائي وعانقتهم، ثم اقتربت أنا ولويس Lewis نحو عدد من رجال الشرطة العسكرية. كان واضحاً أنهم لا فكرة عندهم إطلاقاً عما يجري.

قال لويس، مخاطباً الضابط المسؤول: «أحييك، يا سيدي، اسمي لويس فونت. أنا المحامي ممثل الرقيب الأول ميخيا، وها هو الآن هنا؛ ليستسلم رسمياً للإشراف العسكري».

بعد أن قدمت للضابط بطاقة هويتي العسكرية، طلب مني أن أمضي معه إلى القاعدة. قبل وصولنا إلى البوابة التفتُّ خلفي مرة واحدة أخيرة لألوّح: وداعاً. ردّ أقاربي، وأصدقائي، والمحامون المدافعون عني، وجميع

opelkandi.com

الناشطين المدافعين عن السلام، وعدد قليل من مراسلي شبكات أخبار رفيعة المستوى على تحيتي بتلويح بالأيدي. بدا أن جواً من الحزن العميق غمر تلك المجموعة، فهتفت إحدى النساء: «إننا نحبك يا كاميلو!» واستجاب الجمع لهتافها بهتاف حزين.

التفت والدي إلى والدتي، وقال باكياً: «ماذا فعلنا يا ماريتزا Maritza؟ لماذا أسلمنا ابننا لهم؟».

ظلوا هناك مدة يراقبون، عندما التقيت مجموعة من رجال الشرطة يرتدون ملابس مموهة، ويحملون أجهزة إذاعة وبنادق. أخيراً احتوتني سيارة دورية أخذتني إلى المقر المجهول لقاعدة هانسكوم للسلاح الجوي.

obeikandl.com

الثاني عشر

كان واضحاً أن الضباط في هانسكوم لم يكونوا مدركين ما كان يحدث خارج قاعدتهم في ذلك اليوم، ولم يطرحوا أي سؤال عن الجانب السياسي لقضيتي، بل لم يذكروا أي شيء عن غيابي دون إجازة. كانوا يريدون فقط أن يتحققوا من أنني كنت عضواً في وحدة الحرس الوطني في فلوريدا، وأنني من ميامي، وهذا بالضبط ما حدث. إن الطيارين الذين تولوا مهمة حراستي كانوا شبه خائفين مني، وعاملوني كما يعاملون ضابطاً قوياً أو كما يعاملون شخصية أخرى من مستوى رفيع. وبعد وهلة بدا فضولهم ليعرفوا هل أنا إضافة إلى كوني رقيباً أول في الحرس الوطني، أنا أيضاً شخص ذو شهرة.

سألني الطيار المكلف بحراستي: «لماذا جاء كل أولئك الناس معك، أيها الرقيب؟».

قلت، وقد هزمتني أحداث ذلك اليوم: «لا أعرف، أيها الرجل، لعلهم هناك بسبب توافقهم معي».

سأل مرة أخرى، وهو مقطب الجبين: «توافقوا معك؟! وماذا عن أولئك الذين يحملون آلات التصوير التلفزيونية؟».

أجبته، دون رغبة مني في الدخول في أي تفصيل: «ستعرف الكثير عما قريب».

obeikandl.com

بعد تأكده من كوني جندياً في الحرس الوطني، وبعد أن تبين له أنني عدت إلى الإشراف العسكري بمحض إرادتي، كان قرار القيادة في قاعدة هانسكوم أنني لست هارباً خطراً. وكنت في غضون بضع ساعات من استسلامي، تسلمت بطاقة ذات اتجاه واحد من وكالة سفريات داخل القاعدة، وانتظرت مجيء لويس Louis لاصطحابي لنقلي إلى مطار لوغان Logan الدولي في بوسطن. وكانت والدتي وخالتي ينظران هناك لنقلنا بالطائرة معاً إلى المنزل.

عندما ودعني لويس، وغيل Gale وابنتها إميلي في المطار لم تكن والدتي وخالتي الوحيدتين في انتظاري، فقد بدأ كما هو جلي، انتشار خبر عن أول مقاتل سابق في العراق يشجب الحرب، وشمّ بضعة مراسلين صحفيين رائحة خبر عن قرار سلاح الجو بإخلاء سبيلي وإرسالي إلى الوطن بطائرة، بل أخذوا علماً بشرطة الطيران التي ستنقلني. كانت مجموعة من عشرة أشخاص أو نحو هذا العدد ينتظرون وصولي داخل مكان الواصلين بالطائرة.

«كلا، لم يصدر بعد اتهام بحقي، ولا أعرف ما هم عازمون أن يفعلوا. كلا، إنهم لم يسيئوا معاملتي. أشعر أني بخير. شكراً لكم. سأقدم شهادتي إلى وحدتي في فلوريدا، ربما غداً صباحاً».

تحركت معنا مجموعة من المراسلين الإعلاميين يحملون آلات تصوير ومايكروفونات، عندما كنا نفاوض بشأن الطريق الذي سنسلكه نحو أمن المطار. شعرت بغرابة أن أنال الكثير من الاهتمام، ولكن هكذا سارت الأمور منذ أن خرجنا من القداس في دير السلام Peace abbey صباح

ذلك اليوم. إضافة إلى ذلك، قال لي لويس وتود: إن وجود المراسلين يخفض احتمال تعرضي إلى أي سوء معاملة من قبل العسكريين.

لم تختلف الأشياء كثيراً جداً عند دخولنا إلى مطار ميامي الدولي في وقت متأخر تلك الليلة. كان بانتظارنا خارج مكان وصولي بالطائرة لدى وصولنا عدد كبير من المراسلين المحليين للصحف والتلفزيون. قلت لهم: إنني عازم على الذهاب إلى الوطن وتقديم شهادتي إلى وحدتي في ساعة مبكرة من صباح اليوم اللاحق. كانت والدتي قد اتصلت مسبقاً واتخذت الترتيبات لكل من ميلاديس Miladys، والدة الاختصاصي أوليفر بيريز والمرأة التي استضافت أول قداس صلاة حضرتُه لدى عودتي إلى فلوريدا، من أجل استقبالنا ونقلنا. أخذتنا المرأة إلى منزلها، حيث شاهدنا الأخبار المحلية بالتلفزيون. استسلامي كان الخبر الرئيس وتغطية الخبر تضمنت مقابلات صحفية مع بعض أفراد وحدتي الذين لم يكن معظمهم من مساندي موقفي. لم يسعني إلاّ أن ألاحظ عدم وجود أي واحد من جنود فرقتي، ولم يكن هناك أحد من فصيلتي، من بين الذين جرت المقابلات معهم، مع أنهم جميعاً يعيشون في منطقة ميامي. وكان جلياً أنه لم يكن لدى ممثلي الأوساط الإعلامية من بلدتي أي اهتمام بأقوال الناس الذين قاتلوا فعلاً إلى جانبي.

ذهابي إلى البيت بعد أن غادرت مكان أوليفر لم يوفر لي أي راحة من جنون الوسائل الإعلامية. كان رنين الهاتف مستمراً. في أول الأمر استقبلت والدتي الاتصالات، وأوضحت بكل صبر أننا مرهقون، وأننا بحاجة إلى بعض النوم. ولكن الاتصالات لم تتوقف، وفي النهاية اضطررنا لفصل الهاتف. استيقظنا، بعد ذلك ببضع ساعات على صندوق بريد كامل الصوت، ووجود سيارة نقل الأخبار بانتظارنا خارج بنايتنا.

عند مكان أسلحة الحرس الوطني في شمال ميامي، كانت هناك مجموعة أخرى من الصحفيين بانتظارنا، كذلك كان هناك مُخبرٌ من شرطة ميامي الذي رافقني لحراستي ينتظرني؛ لأقابل رجلاً برتبة رائد من الدائرة القانونية في الحرس الوطني. ولدى وصولنا إلى مكان الأسلحة، توقف المخبر لحظة، وبعد أن أتأكد من وجود شخص يستطيع سماعنا من مسافة بسيطة، التفت إليّ.

قال: «أيها الرقيب ميخيا، أريد منك أن تعرف أنني جندي، إضافة إلى أني ضابط في الشرطة. فأنا رقيب أول في الاحتياط». تلفّت حولنا لحظة، ثم قال: «أظن أنك محق في كل شيء تقوله، ولكن يجب أن تعلم أن هناك عواقب خطيرة للأعمال التي قمت بها».

أجبته: «أعرف أيها الرقيب، أعرف أن هناك عواقب».

«قد ينتهي بك الأمر إلى زجك في السجن، أيها الرجل، إن لديك مأزقاً مع الجيش».

«أعرف أيها الرقيب».

ختم كلامه، وبدا أنه مخلص، فقال «طيّب، مادمت تعرف» بعد ذلك ذهب إلى إحدى الغرف؛ بحثاً عن الرائد.

في داخل مخزن الأسلحة، وهو ليس أكثر من ملعب واسع لكرة السلة رأيت هناك أوليفر وميلادس، كانا يريدان أن يقدما كل المساندة التي يستطيعان تقديمها لدى استسلامي على وحدتي. إن والدتي وخالتي، اللتين كانتا تتحدثان في الخارج إلى الصحفيين، انضمتا إلينا بعد بضع دقائق.

بعد ذلك شاهدنا رفيقي الرقيب السابق في فصيلتي، وهو الرقيب الأول أرانغو، يتجول في الملعب. كان يرتدي ملابس مدنية، ويتحدث بصوت عالٍ بواسطة هاتف خلوي، وبدا كأنه يريد منا أن نسمع كل شيء يقوله».

قال، وهو يتحدث بهاتفه الخلوي، ثم يلقي نظرة علينا؛ للتأكد من أنه يحظى بانتباهنا: «نعم، أنا هنا في مركز الأسلحة. أجل، إنه هنا». سار مسافة أقرب إلينا، ثم تابع كلامه، قائلاً: «ماذا؟! أنا لا أريد أن أتحدث معه؛ لأنه هارب. اسمعني، ما الذي يجري، أيها الاختصاصي بيريز» قال كلامه هذا موجهاً إلى أوليفر الذي كان يقف بالقرب مني.

رد أوليفر على بالانغو، الذي كان الآن على بعد ثلاثة أمتار أمامنا: «ليس الكثير، أيها الرقيب».

قال بالانغو الذي كان لا يزال يمسك بهاتفه الخلوي، مع أنه بدا أن محادثاته انتهت منذ لحظة: «لا بأس، يسرني أن أراك». تساءلت بيني وبين نفسي: هل كان يتحدث إلى شخص ما، أم أنه افتعل كل ذلك الكلام.

أجاب بيريز: «يسرني أن أراك أيضاً أيها الرقيب» ولكن بالانغو كان قد توقف عن الكلام، مع أن الهاتف الصامت لا يزال بالقرب من أذنه.

اقترب منا شخص آخر يرتدي ملابس مدنية. قدم نفسه إلينا قائلاً: إنه زوج واحدة من النساء اللائي يعملن في وحدتي، وهي برتبة رقيب. تحدث معي باللغة الأسبانية وبلهجة من لهجات سكان البحر الكاريبي.

قال معبّراً عن جديته: «شاهدتك عند عرض الأخبار بالأمس، وعلمت أنك ستكون هنا اليوم. أحضرت هذا معي؛ لكي يحميك عند كل خطوة من

خطواتك». وبينما كان يتكلم سحب من جيبه مسبحة ووضعها في يدي، وقال لي: «يباركك الله يا ولدي». قال هذا الكلام واختفى.

عندما التقيت في نهاية الأمر مع الرائد الذي يعمل في الدائرة القانونية في مكتب يقع على بعد مسافة من الملعب أبلغني أنني سأتلقى أمراً مباشراً بأن أستقل سيارة حكومية إلى قاعدة الجيش في فورت ستيوارت، بولاية جورجيا، حيث يجب أن أنتظر كلمة بشأن ما يفعله الجهاز العسكري بشأني. كان هناك فريق من الجنود الذين من كتيبتي جرى تكليفهم بمرافقتي إلى القاعدة. وكان علينا أن نغادر خلال بضع ساعات.

اتصلت على الفور عبر هاتفي الخلوي بلويس، وعندما أبلغته بالأمر الذي تلقيته للتو، لم يكن سعيداً. التفتُ نحو الرائد. قلت له: «إن المحامي المكلف بقضيتي طلب مني أن أبلغك أن نعدّ هذا إجراءً عقابياً من جانب السلطة العسكرية.

والواقع أنني حتى الآن استسلمت مرتين بمحض إرادتي. المرة الأولى في قاعدة هانسكوم في ماساشوسيتس، ومرة أخرى هنا صباح هذا اليوم، وهذا دليل على نيتي ورغبتي في حل وضعي مع الجيش، ولا حاجة لحراستي.

أجابني الرائد، وكان جلياً أنه يحاول طمأنتي: «لا،لا، لا، كل ما في الأمر أننا نريد أن نقدم كل مساعدة ضرورية؛ لنجعلك مطمئناً إلى إمكانية وصولك إلى فورت ستيورات. نحن نفعل هذا؛ لكي نساعدك».

نقلت هذا الكلام إلى لويس، الذي كان ينتظر اتصالي على الهاتف. قال: «إنهم لا يريدون أن يساعدوك يا كاميلو. إنهم يريدون أن يضعوك

تحت إشرافهم، لتظل هادئاً. هل بإمكانك أن تصل إلى فورت ستيوارت دون مساعدة؟ هل بإمكان ماريتزا ونورما أن يوصلاك إلى هناك بالسيارة؟» بسؤاله هذا وكلامه كان يقصد والدتي وخالتي.

قلت له: إنهما قادرتان على إيصالي.

بدا أنه نافد الصبر: «إذاً أبلغهما ذلك، واشكرهما على استعدادهما لإيصالك، ولكن قل لهما: إنك تفضل الذهاب إلى هناك بوسائلك الخاصة، وأنك لست بحاجة إلى حراسة».

نقلت هذا الكلام إلى الرائد. ولما بقي مصراً على نقلي بسيارة حكومية مع حراسةٍ طلب لويس أن يكلمه مباشرة. استمر حديثهما نحو دقيقتين، وعندما أعاد الرائد الهاتف إليّ بدا لويس أكثر هدوءاً:

«كاميلو، أنا قلت للرائد: إنك بطبيعة الحال ستُطيع أي أوامر مباشرة تُعطى لك، ولكن إذا أرغموك على الصعود إلى سيارة حكومية للذهاب إلى فورت ستيوارت مع مرافقة حراسة عسكرية فستعدّ ذلك إجراءً عقابيّاً من قبل السلطات العسكرية، وسنقدم شكوى رسمية. إنه سيُحقق مع رؤسائه. اتصل بي مرة أخرى عندما يتخذون قراراً، ولا يفعلون أي شيء دون إطلاعي».

بعد نحو ساعة جاء رائد آخر، وهو رجلٌ قوي ويبدو حقيراً إلى المكتب، وسلمني مذكرة.

قال لي: «أيها الرقيب الأول ميخيا، بما أنك رفضت مساعدتنا، فإني أصدر لك أمراً مباشراً لتقديم نفسك إلى فورت ستيوارت، ولاية جورجيا

obeikandl.com

في موعدٍ لا يتجاوز الساعة الثالثة بعد الظهر في اليوم السابع عشر من آذار «مارس» 2004. هل فهمت أيها الرقيب؟».

المذكرة التي تسلمتها تتضمن صيغة خطية للأمر. وبعد أن تشاورت أكثر من مرة مع لويس، وقّعتُ المذكرة وأعدتها. شعرت بالراحة؛ لأنه ليس مطلوباً منّي في ذلك اليوم بالذات؛ لأنني كنت قد وضعت ترتيبات لتمضية بضع ساعات مع سامانثا. وعندما خرجت لأتحدث مرة أخرى مع الصحفيين، أوقفني الرائد في الإدارة القانونية.

قال: «إذا لم يكن عندك مانع أيها الرقيب ميخيا أودّ أن أمشي معك خارج المكتب».

أجبته، عندما شاهدت صديقه المنتفخ الوجهين والذي يبدو حقيراً وكان يقف خلفنا: «أودّ أن أتحدث مع الصحفيين، فهل ستحاولون منعي؟».

هزّ رأسه، قائلاً: «كلا، يمكنك أن تتحدث معهم، كل ما في الأمر أريد الردّ على أي أسئلة قد يطرحونها لغايات العسكريين».

كانت والدتي، وخالتي وميلاديس وأوليفر يقفون خلفي عندما تحدثت مع وسائل الإعلام. وكان الرائد بجانبي مباشرة طوال الوقت، بينما الرجل الحقير المنتفخ الوجهين يراقب من مسافةٍ بعيدة عنّي، وقد ضمّ يديه فوق صدره. كدت أشعر تقريباً أن عينيه كانتا تتقدان، وهو ينظر خلف عنقي. ولكن الوجود العسكري لم يمنعني من التحدث كما شئت.

قلت مخاطباً الصحفيين: «المسوّغ لهذه الحرب هو المال، ولا يجوز أن يذهب أيّ جندي إلى العراق ليبذل حياته في سبيل النفط».

obeikandi.com

ظهرت ابتسامات على وجوه بعض المراسلين الصحفيين، بينما أومأ آخرون برؤوسهم موافقين، وبدا على بعضهم أنهم يريدون قتلي. عند نقطةٍ ما سألني أحدهم إن كنت مستعداً لما يمكن أن يحدث لي وإن كنت مستعداً أيضاً للذهاب إلى السجن؟

أجبته: «أنا مستعدٌ للذهاب إلى السجن؛ لأن ضميري سيكون مستريحاً. ومهما كانت التضحية التي لا بدّ من أن أقدمها، فلا بدّ لي من الذهاب إلى هناك».

عندما سأل الصحفيون: ما هي الإجراءات التي سيتخذها الجيش؟ أجاب الرائد قائلاً: إن هناك مذكرة ستصدر باعتقالي إذا لم أقدم نفسي إلى فورت سيتوارت حتى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم اللاحق، ولكن لا توجد اتهامات ضدّي، حتى ذلك الوقت. عندما سُئلت: كيف يعاملني الجيش، قلت: إن الجيش يعاملني باحترامٍ وكرامة. عند ذلك التفتوا إلى أوليفر، الذي قال: إنه يساندني، ولكنه قد يتراجع عن مساندتي إذا دعاني الجيش للقتال مرة أخرى. وعندما سألوه عن رأيه في شخصي قال لهم: «أظن أنه قائد شجاع، ويجب عدم مقاضاته».

سأل مراسل صحفي آخر: «هل تعدّه جباناً؟».

قال أوليفر: «كلا، قاتلت أنا وإياه في العديد من المعارك. إنه ليس جباناً».

تمكنت فقط من تمضية قليل من الوقت مع سامانثا، قبل أن أتوجه إلى فورت ستيوارت في تلك الليلة. الرحلة بالسيارة للوصول إلى هناك استغرقت ما يقرب من تسع ساعات، وهذا يعني أنه كان لا بد لي من المغادرة مباشرة، بعد وداعي لابنتي سامانثا، وهكذا أمضيت تلك الليلة، وأنا مسافر على الطريق.

obeikandi.com

كلمة الوداع لها كانت مؤلمة. إن قدراً قاتماً من عدم اليقين يحوّم حولي عند كل مناسبة شاهدتها منذ أول مرة علمت فيها أنني ذاهب إلى الحرب، ولم يكن هذا الشعور مختلفاً هذه المرة. ومع أني شعرت بالراحة؛ لأني بدأت في نهاية الأمر عملية إيجاد حلٍ لموقفي مع السلطة العسكرية، فقد كنت قلقاً أيضاً، فلم أعرف هل سيجري ترحيلي أو وضعي في السجن سنوات عديدة؟!

إن فكرة احتمال ألاّ أرى ابنتي مرة أخرى مدة طويلة كانت شديدة الوطأة عليّ.

قامت والدتي وخالتي بقيادة السيّارة طول الوقت، بينما حاولتُ أن أنال قسطاً من النوم على المقعد الخلفي. إن قيادة السيارة باتجاه الشمال من ميامي، التي تقع عند الطرف الجنوبي لشبه جزيرة فلوريدا، علماً أن معظم سكانها من أصول لاتينية، لها تميّز فريد، إذ إنها تأخذ المسافرين أكثر اقتراباً نحو الجنوب، في حين أنهم يسافرون شمالاً. ومع كل ما حصلت من اهتمام من جانب الوسائل الإعلامية منذ استسلامي للسلطة العسكرية، كنت أتردد في الخروج من السيارة، عندما كنّا نتوقف للحصول على وقودٍ للسيارة وطعام لنا. في ذلك الوقت كانت مساندة الحرب ومساندة الرئيس الأميركي تزداد متانة في سائر أنحاء فلوريدا.

عند وصولنا في نهاية الأمر إلى البلدة التي تقع مباشرة خارج فورت ستيوارت نحو الساعة السابعة صباحاً، تحدثت باقتضابٍ إلى مجموعة صغيرة من المراسلين الصحفيين الذين كانوا ينتظرون خارج الفندق الذي حجزت فيه خالتي غرفاً لنا. وقد أبلغتهم والدتي إلى أين يجب أن يتوجهوا لحضور مؤتمر قصير. تضمنتْ المجموعة مراسل وكالة أسيوشيتدبرس

الدائم الحضور وعدداً قليلاً من مراسلي الصحف المحلية، ومفاجأتي كانت أن الجيش أرسل فريقاً للأخبار مع آلة تصوير فيديو.

بعد أن أخذت قسطاً من النوم بضع ساعات، غادرنا الفندق وتوجهنا إلى القاعدة. ولدى وصولنا كانت هناك سيارة دون علامة خرج منها رجلان يرتديان ملابس مدنية. وكان من الجلي أن الحرس عند البوابة يعرفون من هما الرجلان. أحدهما قوي البنية ويضع نظارات سوداء للحماية من الشمس، سار نحونا وقدم نفسه. قال لي: إنه كان مع إدارة التحقيق الجنائي العسكري (CID-Criminal Investigation Department)، وطلب مني أن أرافقه هو وشريكه.

سألته خالتي نورما، التي كانت واقفة بالقرب مني إلى جانب والدتي: «عفواً منك، هل بإمكاننا الذهاب معه؟ نستطيع أن نوصله بالسيارة إلى أي مكان هو بحاجة للوصول إليه».

طمأنها الرجل العامل في إدارة التحقيق الجنائي، قائلاً: «لا تقلقي يا سيدتي. كل ما في الأمر أننا سنأخذه إلى الوحدة التي فُرز إليها».

قالت خالتي: «ولكننا نستطيع أن ننقله إلى هناك».

فكّر الرجل لحظة قبل أن يوافق، بعد أن قدمت نفسي إلى وحدتي الجديدة وتحدثتُ باقتضاب مع رئيسي الجديد الرقيب الأول، عانقت والدتي وخالتي وأكدت لهما أنني سأكون بخير. عندها فقط انصرفتا بعد تردد، وذهبنا إلى فندق قريب، حيث أمضينا مدة أسبوع.

كنت قد بدأت المرحلة اللاحقة من رحلتي عبر جيش الولايات المتحدة، وهي رحلة زودتني بنظرات عميقة، وجديدة إلى تلك المؤسسة الضخمة

والقوية. قال القادة في فورت ستيوارت للمراسلين الصحفيين: إن بإمكانهم أن يتحدثوا معي فقط خارج القاعدة؛ تفادياً لمشكلات مع جنود آخرين. وهم أغفلوا إعلامهم أنني تلقيت أمراً مباشراً يقضي بعدم مغادرتي الموقع تحت أي ظروف. وبصدور هذا القرار أوقف الجيش فعلياً مقابلاتي مع الصحفيين، وأوقفوا كلامي العلني ضد الحرب.

وإضافة إلى عزلي عن الأوساط الإعلامية وعن العالم في الخارج، حاولوا إبقائي معزولاً عن بقية جنود وحدتي التي جرى تعييني فيها، وعزلوني عن الكتيبة الطبية القابضة، المعروفة باسم «الطبية ـ الحاجزة Med - hold» والطبية الحاجزة هي مكان الاحتفاظ بالجنود الذين، إما أنهم عادوا من العراق بعد إصابتهم بحالةٍ طبية، أو أنهم لم يُرسلوا إلى الحرب بسبب مشكلة طبية، بعد ذلك كان هناك عدد قليل منا هناك لأسباب قانونية.

معظم الجنود الذين في الطبية الحاجزة شعروا بأنهم يلقون معاملة رائعة من النظام العسكري. أما الذين شعروا بالانزعاج بشكل خاص فإنهم أصيبوا بجروح في الحرب، وانتظروا شهوراً للحصول على المعالجة الطبية الأساسية. وأما الثكنات التي عاشوا فيها فلم تكن بنايات غير مدهونة، بل إن بعضها لم يحتوِ على صنابير للاستحمام، ولا مراحيض. كما أنها تبعد مسافة كافية عن المستشفى، وهذه كانت مشكلة خاصة للجنود الذين أصيبوا بجروح حرمتهم القدرة على السير.

كان واضحاً أن الجيش أراد إبقائي منعزلاً عن هذا الاستياء الملتهب؛ خشية أن يتسبب مقاوم للحرب على شاكلتي في زيادة اللهيب. كنت في

منتصف إلقاء الأشياء الخاصة بي على سرير في الثكنات الطبية الحاجزة، عندما دخل مسرعاً رقيب أول، فطلب مني أن أرزم كل شيء مرة أخرى.

قال متعجلاً في كلامه: «أنا آسف، أيها الرقيب ميخيا، لقد ارتكبوا غلطة، إذ إننا في الواقع عازمون على وضعك في بناية أخرى مخصصة لضباط الصف».

أدركت فوراً أن ذلك لم يكن مسألة وضعي مع ضباط صف آخرين Nco`s، لأن البناية التي وضعوني فيها تحتوي على رقباء Sergeants. المشكلة كانت أن داخل هذه البناية كان مكشوفاً، وأن الجنود ينامون بعضهم بجانب بعضهم الآخر في حجرة كبيرة، وهم لا يريدون أن تكون لهم صلة وثيقة مع عقول خمسين عقلاً آخر، لا سيما عندما يكون معظمهم غاضبين ومنتقدين للجيش.

أما البناية الأخرى، وموقعها عند الجانب الآخر للشارع، فقد كانت تتألف من غرف، الواحدة منها لشخصين، وربما كان مجموعها عشر غرف. إن هذه المساكن، إضافة إلى تمتعها بالكثير من زيادة الحياة الشخصية، تشمل أيضاً برادًا وفرن مايكروويف، وأمكنة للاستحمام ومراحيض. إن شخصين قد طُردا من البناية؛ لأتمكن من الإقامة في غرفة خاصة، وأحسست بالشعور السيئ نحوي بسبب عزلي في غرفة من دون جيراني.

لم يستمر هذا الوضع المزعج مدة طويلة؛ لأن القاعدة تسلمتْ خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع عدداً من العربات المقطورة الحديثة؛ لتكون مساكن. وقد جرى نقل كل واحد من أفراد كتيبة المحجوزين طبياً إلى

هذه العربات للسكن، ولكن استثنيتُ من هذا النقل، ويبدو أن السبب أن عددها لا يكفي ليخصني الجيش بواحدة منها، وهذا ما تطلّب من الجيش أن يضعني وحدي في بناية بكاملها.

وضعُ عملي لم يختلف بأي شكل. في أول الأمر لم يعرفوا أين يضعوني، وكان أحد الخيارات الأولى الذي فكّر فيه واحدٌ من سلسلة قادتي يقضي بتكليفي بأن أساعد في إدارة ميادين التدرب على إطلاق النار، وهذا ما يبعدني مسافة طويلة عن المناطق الأكثر انشغالاً في القاعدة. المشكلة في هذا التكليف أن لويس Louis قدّم طلبي للحصول على وضع المعترض الواعي إلى قائد المركز في اليوم اللاحق لاستسلامي في قاعدة هانسكوم، في حين أن الأنظمة السارية تنصّ على عدم إسناد واجبات وظيفية من أي نوع في التدريب على القتال لجنود قدموا طلبات للحصول على وضع المعترض الواعي، إن هذا النصّ لا يؤخذ به دائماً، ولكن الجيش، في هذه المرة، وبعد أن أخذ في الحسبان كل اهتمام الوسائل الإعلامية بقضيتي، لم يشأ أن يترك القرار للمصادفات، فقام بشطب العمل في ميدان التدرب.

ما لبثوا بعد ذلك، أن قرروا تعييني في الدائرة المكلفة بالتدريب في فورت ستيوارت. بدايةً، كان عملي أن أنقل المفروشات من مكان إلى آخر، وقد كان هناك شخصان من صف الضباط يعملان معي، وكانت الجروح التي أصيبا بها لا تمكنهما من رفع أي شيء ثقيل، ولم يكن منتظراً مني أن أقوم بكل العمل الثقيل بمفردي. وجلست في المكان وشاهدت أخبار التلفزيون صباح كل يوم. عند موعد الغداء، كنت أذهب إلى أقرب منشأة فيها مطعم لتناول وجبة لا تثير الشهية بشكل عام، ثم كنت أعود إلى المكتب لأقفل الباب، وأعدّ ذلك يوماً.

استمر هذا الوضع إلى أن اكتشفت سكرتيرة العقيد المسؤول عن الدائرة أنني أملك بعض المهارات الأساسية في الكومبيوتر. وقد اهتمت خاصةً بمعرفتي بما يسمى «نقطة القوة Powr Point»، وهي معرفة، مهما كانت ضئيلة، لا تزال مفيدة، وسرعان ما بدأت أستجيب مباشرة لها أو للعقيد.

بداية كان ظني أن العقيد لا يعرف أي شيء عن وضعي، ولا يعرف من أنا، إلى أن جاء في أحد الأيام إلى المكتب وسألني: هل أعرف أي شيء عن احتجاج يحدث خارج القاعدة تأييداً لي؟ قلت له: إنني لا أعرف أي شيء. ولما أبلغت لويس Louis محادثتي المقتضبة مع العقيد، أزعجه ذلك.

«ما كان لك أن تقول ذلك، ياكاميلو!» لهجة صوت لويس كانت دائماً تنخفض عندما يذكر اسمي. وقال لويس متابعاً كلامه: « يمكنه الآن أن يبلغ الجنرال أو أي شخص آخر يتصل به أنك لا تعرف أي شيء عن ذلك».

قلت: «ما السوء في ذلك؟ لم أفهم ما هي المشكلة».

أجاب: «لأن ذلك يعني أن شخصاً ما من القاعدة يمكنه أن يذهب إلى الخارج، ويقول للذين يقومون بالاحتجاج: إنهم ـ أي المحتجون ـ لا يحتجون من أجلك مع أنك لا تعرف شيئاً عن ذلك».

بدأت أستوعب الصورة.

«يمكنك أن تتأكد، يا كاميلو، أن كل ما تقوله لهؤلاء الناس سيحاولون استخدامه لمصلحتهم».

سألت: «فماذا يجب أن أقول؟ الواقع أنني لم أعلم بوجود أشخاص يحتجون في الخارج».

«باختصار قُلْ له: (بكل احترام، أيها العقيد، نصحني المحامي الذي يتولى قضيتي بعدم الرد على أي أسئلة قبل أن أناقش الأسئلة معه، ولكن لك حرية الاتصال به) وعند ذلك تعطيه رقمي».

غير أني في الواقع أجد صعوبة بإحالة رؤسائي إلى محامٍ، كلما طُرح علي سؤال أو تلقيت أمراً. شعرت وكأنني وضعتُ جداراً بيني وبين الجيش، وهذا ما بدا أمراً يستحيل قيامي به بعد نحو تسع سنوات من العصيان. وهذا ما أوجد صعوبة، خاصة عندما يتعلق ذلك بطلبي لإقرار وضعي المعترض الواعي.

وصفتُ في طلبي للمعترض الواعي، بشيء من التفصيل، الأحداث ذات العلاقة بالإساءَة إلى السجناء في قاعدة الأسد. في البداية لم يحرك ذلك الطلب أي إجراء، ولا أي اهتمام، ولكن بعد انتشار الفضيحة الدولية عن سجن أبو غريب في بغداد، بدا لي وكأن سلسلة الرئاسة في قيادتي قد استثمروا الكثير من الطاقة والجهد لحملي على ملء استمارة مختلفة، ووضع تاريخ لاحق على غلافها.

إن النقيب موهر Mohr، وهو ضابط من المشاة دمث الخلق، ولكنه صارم، وكان قائداً لسريتي، قال لي: «ارتكب محاميك غلطة في الطلب الأصلي» ثم أضاف، وكأنه يعتذر: «ما أفعله هنا هو التزامي فقط بالأنظمة».

أجبت، ولعلي أجيب للمرة العاشرة: «روجر، سيدي. تحدثت في هذا الأمر مع محاميّ، وأكدّ لي عدم وجود أي غلطة، وهو لا يريد مني أن أعيد تقديم الطلب، بل يريد منك في الواقع أن تتصل به».

قال لي: «سأتصل بمحاميك، أيها الرقيب ميخيا، فأنا قائد سريتك، وأبلغك أن هذا الطلب يجب إعادة تقديمه» وقد كان بوسعي أن أقول: إن النقيب موهر سبب لي كثيراً من الإزعاج، ولكنه حاول دائماً في معظم الوقت أن يظل هادئاً».

في وقت لاحق قال لويس Louis: «صدقني، ياكاميلو، إن قائد سريتك لا يتخذ أي قرارات، وليس هو الذي يقرر كيفية تعامل السلطة العسكرية معك. إنه فقط يتلقى الأوامر من جهات أعلى».

لايهم عدد مرات إعلامي رقيبي الأول وقائد سريتي بأنني لن أعيد ملء استمارة الطلب، فهما مستمران في محاولة إرغامي على تقديم طلب جديد، وحجتهما دائماً أن في الطلب غلطةً ما، مع أنهما يتقدمان من حين إلى آخر بحجج جديدة.

ذات مرة قال النقيب موهر: «أنت ترى، أيها الرقيب الأول ميخيا، أن محاميك قدم الطلب مباشرة إلى CG».

والحرفان CG يرمزان إلى الجنرال القائد Commanding general وهو أرفع سلطة في قاعدة عسكرية. في حالة فورت ستيوارت، كان القائد هو الميجور جنرال وليام وبستر، الذي أرسل إليه لويس بالفاكس طلبي الخاص لإقرار وضعي المعترض الواعي بتاريخ 16 آذار (مارس) 2004.

«ويُفترض أن يتحرك الطلب صعوداً عبر سلسلة قيادتك، وتبدأ سلسلة قيادتك من عندي».

على مدى عقود عديدة من الأعوام، عندما كان لويس يتعامل مع القانون العسكري، قدم طلبات كثيرة من أجل المعترض الواعي، وكان

obeikandi.com

مطلعاً على الإجراءات من الداخل إلى الخارج. لقد سبق له أن تعامل مع القانون المتّسق للقضاء العسكري مدة أطول من مدة وجود النقيب موهر، في النظام العسكري، وربما قبل وجود النقيب موهر في الحياة لم تكن هناك أخطاء.

السبب الوحيد المحتمل الذي جعل القيادة في فورت ستيوارت تصرّ على إعادة تقديم الطلب هو ادعاء السلطة العسكرية أن سجن أبو غريب ليس إلا نتيجة فساد بضع تفاحات، وفي المراتب الأدنى ادعائي المعترض الواعي تناقض مع ذلك، شارحاً كيف أن الأشباح العاملين في السرية لأقصى حدٍ هم الذين يديرون العملية، والسماح بسوء معاملة السجناء يصدر من مسؤولين حكوميين رفيعي المستوى. إن اجراءات كيفية تنفيذ سوء المعاملة كانت تنتقل من وحدة إلى وحدة أخرى بمناهج معجلة، وهذا ما يوحي بأن سوء المعاملة منتظم وليس معزولاً، وهذا يبين أن سوء معاملة السجناء بدأ بمجرد وصول الجنود الأمريكيين إلى العراق، مثل إعلان الرئيس الأمريكي: «انتهاء عمليات القتال الرئيسة».

قبل أن ينتشر سوء معاملة السجناء في سجن أبو غريب على نطاق واسع، كان بإمكان السلطة العسكرية أن تكذّب بسهولة ادعاءات الجنود عن سوء معاملة السجناء، بحجة أن هذه الادعاءات كاذبة ولا أساس لها من الصحة، أو أن تُجري السلطة العسكرية تحقيقاً أُعدت نتائجه مسبقاً. ولكن مع تراكم كميات من الأدلة التي تقدّم تفصيلات عن المعاملة الشرسة وغير المعتادة في سجن بغداد، لم تجد السلطة العسكرية مفراً من التظاهر على أقل تقدير بأنها تعامل الادعاءات جدياً. إن تجاهل إقرار طلب المعترض الواعي الذي يقدم وصفاً لسوء معاملة السجناء، والذي

يسبق بعدة أسابيع انتشار أخبار فضيحة سجن أبو غريب، لم يكن طريقة جيدة لحماية صورة الجيش، وخاصة أن تقديم الطلب كان من قبل شخص كان في خضم اهتمام واسع من جانب الوسائل الإعلامية.

ولما اعترفت القيادة في فورت ستيوارت في النهاية بأنني لست عازماً على إعادة تقديم طلب المعترض الواعي، بدأت محاولة تسريع الدعوى بكاملها. في أحد الأيام، ودون سابق إنذار أخبرني ضابط برتبة نقيب لم ألتقِ به من قبل، أنه هو الضابط المحقق معي، وسيكون التحقيق في طلبي لإقرار وضعي المعترض الواعي في اليوم اللاحق. لم يكن أمامي سوى أربع وعشرين ساعة لإكمال الإعداد لقضيتي، وهذا يتطلب دعوة الشهود، وإعداد الأدلة التي أردت تقديمها، والتأكد من وصول محاميّ إلى جورجيا من مساشوستس.

قال لويس عن طريق الهاتف: «كلا، قطعاً كلا. ليس يوم غدٍ، وليس اليوم اللاحق، وليس حتى تنتهي محاكمتك في محكمة عسكرية. أمامنا الكثير من الأمور لمعالجتها بشأن الاستماع إلى طلبك بصفة المعترض الواعي. يمكنك أن تطلب من النقيب أن يتصل بي إذا كانت لديه مشكلة في هذا الشأن».

أدى ذلك إلى مزيد من تدهور علاقتي مع رؤسائي المباشرين. بالنسبة لهم المسألة بسيطة: لم أكن في نظرهم سوى جندي آخر، ويجب أن أفعل ما هو مطلوب مني. الأعلى مرتبة من أعضاء التراتبية العسكرية هم فقط الذين فهموا الملابسات السياسية الأكبر في وضعي. غير أنهم لم يتعاملوا معي مباشرة، بل اكتفوا بإصدار أوامر من مواقعهم الرفيعة

obeikandi.com

في السلطة، وحتى مستويات السرية، حيث يقوم بإدارة المشهد ضباط برتبة نقيب ورقباء أولون.

ما من شيء في ذلك يتم بالسهولة، ولكن شهدنا بعض الأيام الطيبة خلال المدة السابقة للمحاكمة. والغريب في الأمر، أن إحدى أفضل اللحظات كانت عندما علمت للمرة الأولى أنني مقبل على مواجهة محاكمة عسكرية. انتهى الانتظار وعلمت أنني سأقدَّم للمحاكمة. الأهم من ذلك، علمت أنني نظراً لطبيعة المحاكمة العسكرية المبيّنة في لائحة الاتهام، سأنال عقوبة قصوى مدتها اثنا عشر شهراً في السجن. حتى هذه النقطة لم تكن عندنا أي فكرة عن كيفية تعامل الجيش مع قضيتي. كان هنالك احتمال أن يختار الجيش عدم الادعاء، وأن يتخلص مني بهدوء، إدارياً، ودون عفوية. غير أني كنت أواجه كذلك إمكانية حكم بسجني مدة طويلة.

يوم صدور اتهامي، استدعاني النقيب موهر إلى مكتبه، وعند دخولي إلى الغرفة، رأيت المدعي العام الرئيس، النقيب بالبو Captain Balbo، وهو رجل قصير القامة، بدين إلى حدٍ ما، ينظر إلى بعينين سوداوين مجروحتين. فقد بدا أن بالبو غاضب مني.

جعلني موهر أقف وقفة استعداد عسكرية، وشرع يتلو تهمتي وفقاً للمادة 85 من القانون الموحد للقضاء العسكري: الفرار من الجندية.

«المواصفة»: قال، وهو يقرأ من لائحة الاتهام التي كان يمسكها بيديه: «إن الرقيب الأول كاميلو ميخيا، فعل، في 16 من تشرين الأول (أكتوبر) عام 2003، فعلاً متعمداً وترك واجباً خطيراً، هو، تحديداً: مغادرة الخدمة في العراق، وذلك بترك وحدته في الكتيبة الأولى رقم

124 مشاة، التي موقعها في الرمادي، وظلّ متغيباً هارباً حتى 15 آذار (مارس) 2004».

إن ما رفع معنوياتي أكثر معرفتي أن أقصى حكم لا يتجاوز سنة في السجن، وقد لقيت دعماً من جنود آخرين في القاعدة يعلمون رفضي أن أعود إلى الحرب، وإن كثيرً من هؤلاء تعرضوا لتجاربي أو لتجارب أسوأ منها في الشوارع والأزقة التي مزقتها المعارك في العراق، وكانوا يعلمون أني لا أختلق أشياء. الأمر الأكثر أهمية أنهم كانوا يومئون برؤوسهم دليل موافقتهم عندما يتعرفون عليّ، ولكن في أكثر من مناسبة كانوا يهمسون لي؛ تعبيراً عن مساندتهم بقولهم «يجب بقاء رأسك مرفوعاً، أيها الرقيب. لقد فعلت الصواب».

بعد بث المقابلة معي في برنامج «ستين دقيقة 60 Minutes» على قناة «CBS» بدأ مزيد من الناس يتعرفون عليّ، وكثيرون منهم جاؤوا لمصافحتي. في إحدى المناسبات، قالت ابنة ضابط رفيع المرتبة: إنها تتفق معي مئة بالمئة، وإن كثيرين من الأشخاص يقفون إلى جانبي أكثر ممن هم ضدي. بل إن بعض الجنود من أفراد وحدتي، الذين كانوا في فورت ستيوارت لمعالجتهم من جروح أصيبوا بها في القتال، كانوا مؤيدين لي، ومعظمهم كانوا مسرورين برؤيتي.

ولكن كان هناك عدد قليل من الناس الذين كانت لهم بجلاء مسائل سبق أن فعلتها، واحد منهم جندي من وحدتي كانت بيني وبينه علاقة صداقة في العراق، أما الآن فإنه يرفض أن يتحدث معي، أو أن يعترف بحضوري. الآخر كان الرقيب من الصف الأول ديمارست، الذي جاء إلى

فورت ستيوارت للمعالجة الطبية من جروح أصيب بها في العراق، بعد أن غادرتُ العراق، وقد سمعت أنه في وضع سيئ ويجد صعوبة في المشي.

قلت له بعد ظهر يوم ساخن: «مرحباً، سمعت أنك كنت شديد الاضطراب». بعد كلامي أدركت أنه كان بإمكاني أن أتحدث بمزيد من الحساسية.

قال: وهو مقطب الجبين ورافضاً أن يصافحني، مع أني أمدّ يدي له: «كلا، كلا، أظن أنك أنت من كان شديد الاضطراب».

أجبته، مستعيداً يدي التي أمدها: «لست واثقاً مما سمعت أنت، أيها الرقيب».

قال: «ليس ما هذا سمعتُ. أنت تخليت عن رجالك، وإياك أن تفعل ذلك. إنك صف ضابط». كانت نغمة صوته حادةً عندما قاطعني.

حاولت أن أبدو راغباً في المصالحة، فقلت: «كانت عندي أسباب لعدم عودتي». ديمارست شخص أحترمه، ورفضه لي آذاني بعمق. قلت له «لعل من واجبنا أن نتحدث في وقت ما».

أجابني: «لا أظن أن عندي أي شيء لأقوله لك، ياميخيا».

قبل أن أتمكن من إجابته، مشى مبتعداً، وهو يهز رأسه.

ديمارست كانت له دائماً طريقة غير عادية في المشي، ولكنه، بالمناسبة كان يعرج، وبإمكاني الآن أن أقول: إن إصابته بجرح كانت بالغة. رأيته مرة أخرى في وقت لاحق من هذا الأسبوع، حيث كنا نقف هذه المرة جنباً إلى جنب في التشكيل العسكري الذي وصلت إليه متأخراً.

قال لي مباشرة بعد أن اتخذت مكاني بجانبه، مع أنه ظل ينظر إلى مقدمة التشكيل: «طلبوك في وقت سابق».

قلت له: «شكراً أيها الرقيب» وكنت مسروراً أننا استأنفنا التحدث معاً. بعد انتهاء التشكيل العسكري كان علينا أن نذهب معاً إلى مكتب السرية، وهناك خلال انتظارنا عدنا للتحدث معاً. وإذا كنت أتذكر بشكل صحيح، فقد أخبرني أن أداة متفجرة عشوائية قد نشرت شظايا أصابت الجزء الأدنى من جسمه، ولذلك نقل إلى منشأة طبية بالقرب من مدينة الرمادي. وعندما صعد إلى أول شاحنة كانت عائدة إلى عش النسر كادت الوحدة الطبية أن تتهمه بأنه غائب دون إجازة قبل أن يعلموا أنه قد عاد للتو فعلاً إلى وحدته.

قال لي: «لم أتمكن من ترك رجالي».

«ولكنك كنت في حاله سيئة، والواقع لم تكن قادراً على القيام بوظيفتك».

قال: «كان بإمكاني أن أفعل شيئاً ما». كان ديمارست قد حل محل بار Barr برتبة قائد أول للفصيلة، بعد أن أصيب بار بجرح خلال ما يسمى عملية الإغلاق. وقال ديمارست أيضاً: «ربما أني لست قادراً على المشي مشياً جيداً جداً، ولكني قادر حتى الآن أن أكون قائد فصيلة».

لم يكن ديمارست إطلاقاً في أي وقت صريحاً في انتقاده القيادة، ولكني كنت أعرف أننا نتفق حول مسائل كثيرة تتعلق بعدم جدية المهمات التي نقوم بها. وكنت أعرف أنه فصيح ومطلع في الأمور الخاصة بالإستراتيجية العسكرية، وأعرف أنه كان مفكراً، ولكني لم أعرف حتى ذلك اليوم كيف كان شعوره إزاء القيادة التي تدعو إلى الأسى.

قال بعد تمهل طويل: «لو كان لديك ما تقوله، لما كانت بيننا مشكلة». سألته: «ماذا تعني بذلك، أيها الرقيب؟» كنت أتساءل: هل كان يقصد أنه كان ينبغي أن أقول شيئاً فيه انتقاد للحكومة، أو شيئاً عن رؤسائنا في العراق؟

قال: «عن الأشياء التي كانت تحدث ضمن وحدتنا».

سألته: «تعني القيادة. فماذا كان قادتنا يفعلون؟ أنت عدت بعد الجروح التي أصبت بها».

«عدت بسبب الرجال، وليس بسبب القادة. ما كان باستطاعتي أن أكون أقل اهتماماً بالقادة».

«أنا تحدثت فعلاً عن قيادتنا علناً. قلت كيف كانوا يستغلوننا للحصول على أوسمة، وتحدثت عن كل حالات القتل التي ما كانت هناك ضرورة لها، وكنت شديد الانتقاد».

سألني: «متى؟» وأخيراً توجّه ببصره نحوي وهو عابس، فقال: «لم أسمع أي شيء».

قلت: «أجريت العديد من المقابلات الصحفية لدى عودتي، ولكنها كانت مقابلات سرية؛ لأني لم أكن مستعداً لتسليم نفسي. كنت أهيِّئ دفاعاً قانونياً». شعرت بحاجة لأن أشرح أموراً عن نفسي، فقلت: «عندما عدت إلى الجيش، وكنت شديد الانتقاد. وتحدثت عن كل شيء».

ابتعد عني. إن تجهمه والتحديق الحاد في عينيه جعلاني أظن أن شيئاً شديد التوتر يدور في داخل رأسه. بقينا هادئين مدة، فلم أعرف إلى أي مدى أدان أعمالي، ولكني شعرت باحتمال بداية حدوث تبدل في

موقفه. كان من الصعب أن أستخلص في أي شيء يفكر. كان رأيي دائماً أن ديمارست هو من نوع الجندي القادر أن يحلّل الأمور، ولكنه كان أيضاً يأخذ الطاعة للسلطة العسكرية مأخذ الجد. لقد بدا أن تلك الطاعة، وإخلاصه غير المشروط للجنود في وحدته، يضعان إحساسه بالواجب العسكري، بغض النظر عن المهمة، فوق أي مشاعر أو أي آراء شخصية.

قلت له: «يسرني أنك تستمع لكلامي». بدا أن التدخل خلال الصمت، أو لعلها كلماتي، كان لها تأثير عاطفي عليه. قلت له: «يسرني أنك تتحدث معي».

ضغط ديمارست شفتيه إحداهما فوق الأخرى، متخذاً شكل والدٍ غاضب جداً وفخورٍ جداً بالتحدث إلى ابنه الذي سبّب له خيبة أمل شديدة. أدركتُ مرة أخرى كيف أسأت إلى الجنود في وحدتي برفضي العودة إلى الحرب. حسب تفكيري، هم الذين كانوا الأقرب إليّ.

قال، وهو يلتفت نحوي، مع ابتسامة حزينة: «كان لا بد لي من التحدث معك. مهما فعلت، فإنك لا تزال واحداً من جنودي».

بالرغم من لحظات رفع المعنويات أحياناً، كما في الحديث مع ديمارست، فحقيقة الأمر إنني كنت بشكل أو آخر وحيداً في القاعدة، على الأقل عندما أعبر عن انتقادي للحرب، وعندما أتحدى الحكومة والسلطة العسكرية. إن الناس في فورت ستيوارت، وأنا واحدٌ منهم، لم يتمكنوا من تقدير مضامين المسائل الدنيوية المحيطة بقضيتي. على سبيل المثال، فإن النقيب موهر لم تكن لديه معرفة بأمر تقدمي بطلب جديد عن وضعي الجديد، وهو المعترض الواعي؛ لأنه كان يتصرف فقط بوصفه ضابطاً

برتبة نقيب، ويطيع الأوامر، ويفعل ما يعده واجبه، وهذا ما كان أحياناً يتحول إلى محض مضايقة. وأنا من جانبي وجدت صعوبة في أن أفعل كل شيء يتوقعه مني لويس؛ لأني لم أشاطره معرفته وفهمه للنظام العسكري والحكومة. كان هو يرى النيات وراء الأسئلة والمحادثات التي كنت أعدّها عرضية ومتوافقة. لقد كان هو يفهم الصعوبة في حرصي على اليقظة والحذر طول الوقت، ولكنه كان يمارس الكثير من الضغط عليّ، لأكون صلباً ولأبقى قوياً.

كان من عادته أن يقول: «أعرف الصعوبة، يا كاميلو. أعرف أنهم يريدون وضعك في غرفٍ مليئة بأشخاص يفوقونك مرتبة، ويتوقعون منك أن تقول، أو أن تفعل، أو أن توقّعَ على شيء. ولكن ينبغي لك أن ترفض، يا كاميلو، يجب أن تقول: لا».

في النهاية، وباستثناءات قليلة، تمكنت من الأخذ بتوجيهات لويس ونصيحته، أما اضطراري لاتخاذ موقف حازم تجاه سلسلة قيادتي فقد صار مصدر توتر شديد، فكل مرة عندما أتلقى اتصالاً هاتفياً، كنت أكره أن يكون ذلك بمنزلة اختبار جديد لعزمي، وهذا يعني أنني لم أعد متأكداً مدة طويلة من امتلاك القدرة الأخلاقية للتعامل مع هذا الأمر. وصل الأمر إلى حد نشوء خوف غير عقلاني عندي من رنين هاتفي الخلوي. وحتى هذا اليوم، يزداد خفقان قلبي كلما سمعت ذلك الرنين المزعج ذاته من الهاتف.

تابعت القيادة محاولة حملي على توقيع طلب جديد للمعترض الواعي، واستمرت المحاولة إلى ما قبل المحاكمة بأسبوعين. لم تقبل القيادة طلبات لويس السماح لي بأن أسافر إلى ميامي لإجراء التحقيق الدفاعي، مع

إصرار على بقائي ضمن المركز للاهتمام بطلب المعترض الواعي. كانت حجتهم بالسماح لي بالذهاب بطلب المعترض الواعي. سيسيئ إلى النظام في الوحدة وحسن انتظامها، وعندما زارني لويس في القاعدة للاستعداد للمحاكمة، كان ذلك يتطلب منا أن نعقد اجتماعاتنا في مباني الجيش؛ لأنه لم يكن مسموحاً لي أن أذهب إلى فندق، ولو كان فندقاً لا يبعد أكثر من مئتي متر عن البوابة الرئيسة للقاعدة. لم يكن بد من اجتماعي مع لويس عدة مرات في أماكن توقف السيارت، أو في مكان تناول الطعام.

غير أن مناورات النظام العسكري وخدعه خلال الشهرين بين استسلامي ومحاكمتي بدت باهتة مقارنة مع الانتهاك الفظ للأنظمة العسكرية الذي حدث في المحاكمة ذاتها. فقد كنت أُدرك أن قانون العقوبات العسكري منحاز بشدةٍ، ولكن الظلم الذي رأيته في الأيام الثلاثة لمحاكمتي أمام محكمة عسكرية، ثبت أنه يتجاوز أي شيء كنت قد تصورته.

openkandil.com

obeikandl.com

المحاكمة

في الليلة السابقة لافتتاح محاكمتي، تظاهر عشرون أو ثلاثون شخصاً خارج بوابات فورت ستيوارت، حاملين لافتتين كتب عليهما: «أعيدوهم إلى الوطن» و«أخلوا سبيل كاميلو» في الأسابيع السابقة للمحاكمة، أجرت والدتي وخالتي اتصالات مع مجموعات السلام في سائر أنحاء البلد، وكان أعضاء المجموعات قد ساعدوهما في استئجار منزل بالقرب من القاعدة للأشخاص الذين يحضرون المحاكمة العسكرية.

انتبهت القيادة في فورت ستيوارت للاحتجاج الذي حدث عند البوابة، فكان ردها عليه أنها أمرتني بإعداد قائمة بكل أمتعتي الشخصية وجمع سجلاتي الطبية؛ استعداداً للذهاب إلى السجن، وستدّعي القيادة لاحقاً أن هذا كله إجراء معتاد بالنسبة لأي شخص يواجه محاكمة عسكرية، وهذا إثبات لذنبهم وإثبات أيضاً لمدى مقاربتهم العدالة. وقد شدّدوا أيضاً الأمن في فورت ستيوارت، وحصروا الوصول عبر البوابة الرئيسة على الأشخاص الذين يُسمح لسياراتهم من وزارة الدفاع. أما الأشخاص غير العسكريين الذين يحضرون المحاكمة فقد تم توجيههم إلى البوابة رقم ثلاثة، التي تبعد مسافة كبيرة عن المدخل الرئيس، وهذه البوابة غير معروفة حتى عند كثيرين من الجنود في القاعدة. إن اللافتات الموضوعة على البوابة أُزيلت، ربما في محاولة لتضليل الأشخاص عند محاولة المرور، ومن ثم منعهم من حضور الدعوى القضائية، فوق كل

ذلك، فإن البطاقات التي تسمح للمدنيين بالدخول إلى القاعدة لحضور المحاكمة كانت محدودة.

صباح اليوم التاسع عشر من أيار (مايو) 2004، أي أول أيام المحاكمة، نُقِلتُ إلى دار المحكمة بحراسة مرافقتين عسكريتين من الوحدة الطبية، كانت المرافقتان مكلّفتين باصطحابي في جميع الأوقات طوال الدعوى القضائية. فوجئ الحراس مثلما فوجئت أنا بمستوى الأمن في فورت ستيوارت ذلك اليوم. إن كامل الأبنية المحيطة بدار المحكمة محصورة بحواجز إسمنتية، وعلامات مخروطية لطرق المرور، وشريط أصفر «للمنظمة المحظورة». كان ضباط الشرطة العسكريون والمدنيون يقومون بأعمال الدورية في المنطقة، وكان هناك كلب واحد على الأقل من كلاب الشرطة لشم الرائحة حول البناية.

سبق أن دخلت إلى دار المحكمة مرات عديدة سابقاً، في إحدى المرات لاستجوابي في اتهام وُجِّه لي، وفي مرتين أو ثلاث مرات لحضور محاكمات عسكرية لجنود آخرين، وقد فعلت ذلك بناء على نصيحة لويس؛ لكي أتعرف على إجراءات المحكمة العسكرية. ومع أن دار المحكمة بدت شبيهة ببناية قديمة شُيدت من الخشب، لكنها في داخلها شبيهة بمحكمة مدنية، مع مقاعد للناس مرتبة أمام طاولتين كبيرتين للدفاع وللادعاء. وأمام هذه كان إلى اليسار، مقعد القاضي، وإلى اليمين مقاعد المحلفين. أما كرسي الشاهد فمكانه بين القاضي والدفاع، يواجه مباشرة المحلفين. وتعرف في المحكمة العسكرية باسم هيئة المستشارين.

ومع أن ترتيب دار المحكمة لا يُلفت النظر، فإن عدد الأشخاص العسكريين الحاضرين في المحاكمة كان مختلفاً. فمن الأفراد الأدنى مرتبة إلى

الضباط برتبة عقيد، كان نصف قاعة المحكمة يشغله بكامله جنود يلبسون الزي العسكري. كنت أعرف أنه لم يُعلن سابقاً عن المحاكمة في القاعدة، وكنت أعرف من حضوري محاكمات سابقة، أن دار المحكمة لم يكن مكاناً اجتماعياً مفضلاً لتردّد الجنود إليه، خاصة خلال ساعات الدوام الرسمي. وكان الانطباع الذي تكوّن عندي أن ذلك إجراء آخر عن قصد؛ لإبعاد المدنيين عن «أمور الجيش».

الجانب الآخر لقاعة المحكمة كان مكتظاً بأفراد العائلة، والأصدقاء، والناشطين، ومراسلي الإعلام، وصانعي الأفلام، وباستثناء المصورين التابعين للجيش، كان يتم التدقيق في آلات التصوير عند الباب، إلى جانب تفتيش أجهزة الكومبيوتر المحمولة، وأجهزة التسجيل على الأشرطة، والهواتف الخلوية. ولا يمكن تنفيذ تسجيلات محاضر المحاكمة إلا بواسطة الورق والقلم. أما المقابلات الصحفية المتعلقة بالمحاكمة، فكان يجب إجراؤها في مركز مخصص للإعلاميين، على بعد ميل من مقر المحكمة.

عندما دخلت قاعة المحكمة لمحت في مكان الادعاء النقيب بالبو Balbo، وهو رجل بدين كان قد حضر استدعائي من أجل تهمة موجهة لي، والنقيب ليزا بلوم Lisa Bloom. تابعت النظر في القاعة، فشاهدت والدتي، وزوجها، وخالتي، وخالي، وجدتي لأمي جالسين خلف حاجز خشبي يفصل بين طاولة الدفاع والحضور من الناس. كان وراءَهم ممثلون لجماعة «عائلات العسكريين تتكلم»، وما يُسمى المدون القرنفلي Code-Pink، والمقاتلون السابقون من أجل السلام، وعدد من مجموعات محلية أخرى معادية للحرب. جلست على مقعد مع فريق الدفاع عني، بينهم النقيب بيلي ب.

رولينغ Captain Billy B. Ruhling مستشار الدفاع العسكري، وانتظرت بدء إجراءات المحاكمة.

استمرت المحاكمة العسكرية ثلاثة أيام، وكانت من ثلاث مراحل. بدأ المحامون المدافعون عن المرحلة الأولى من المحاكمة بادعائهم أن العسكريين لا سلطة قضائية لهم لمحاكمتي؛ لأنني جندي غير مواطن وأتممت سنواتي الثماني في الخدمة العسكرية، ولم أتقدم إطلاقاً بطلب للحصول على جنسية الولايات المتحدة. والحجة التي استندوا إليها أن ذلك جعلني غير خاضع للتمديد بتطبيق الأنظمة العسكرية. إضافة إلى ذلك أن غيل Gale جاءَت عبر معاهدة دولية بين الولايات المتحدة وكوستاريكا (وأنا مواطن منها) والمعاهدة تنص على أن مواطني كوستاريكا القاطنين في الولايات المتحدة يتمتعون بإعفاء من سائر أنواع الخدمة العسكرية الإجبارية مهما كان نوعها. واستناداً إلى المعاهدة والقانون المطبق في الجيش، ومعهما سابقة قانونية ورد فيها أن مكتب الحرس الوطني رفض طلباً من حارس وحدة للتمديد إلى جندي آخر ليس مواطناً في ظروف مماثلة تماماً، فقدم الدفاع استدعاء لإلغاء المحاكمة.

كانت حجة الادعاء أن المعاهدة، التي يعود تاريخها إلى عام 1851، تنطبق فقط على أشخاص جرى إدخالهم أو تجنيدهم في العمل العسكري، وليس الذين وقعوا التجنيد طوعياً وتمتعوا «بعوائد وفوائد» الشكل المتّسق. ادعى النقيب بالبو أن تعبير «الخدمة الإجبارية»، إذا قيل بلهجة تدل فقط على الغضب المكبوت، لا تشمل الجنود الذين في مثل وضعي؛ لأن العبارة، إذا شملتهم، فستنطبق ليس فقط على كل القادمين من كوستاريكا، بل

ستطبق كذلك على الأشخاص الأجانب المقيمين الذين قدموا من الصين، وأيرلندا، وإيطاليا، وأسبانيا وعشرة بلدان أخرى[1].

البند الثاني على جدول الأعمال هو طلب من الادعاء أن يمنع الدفاع من وضع الحرب والحكومة الأمريكية في موضع المحاكمة، على أساس أن القرارات المتعلقة بالقوات المسلحة يجب أن تُترك للسلطتين التنفيذية والتشريعية في الحكومة.

قال النقيب محاجّاً: «في القضية الراهنة، يا صاحب المقام الرفيع، أبدى المتهم وفريق الدفاع عنه رغبتهم في إحالة حكومة الولايات المتحدة إلى المحاكمة؛ بسبب أعمالها وقراراتها» أي الدافع إلى «عملية حرية العراق» Operation Iraqi Freedom وقدرة الرئيس الأمريكي على إرسال جنود إلى ذلك الجزء من العالم، والجوانب القانونية والأخلاقية لذلك النزاع».

كانت تلك واحدة من اللحظات القليلة خلال الأيام الثلاثة للمحاكمة العسكرية عندما كنت متفقاً اتفاقاً كاملاً مع النقيب بالبو. كنا نحاول أن نفعل ذلك كله، وبالطريقة التي اتبعناها.

كان هناك التماس آخر قدمته الحكومة، بأن يكون طلبي المؤلف من خمس وخمسين صفحة للحصول على وضع المعترض الواعي، جنباً إلى جنب مع معتقداتي الشخصية، بوصفها أموراً غير ذات علاقة تبقى خارج المحاكمة.

ادعى بالبو أن «البيّنة يمكن بقاؤها مستبعدة، حتى ولو كانت ذات علاقة، وإذا كانت ستميل إلى التشويش، وتشكيل عبء لا ضرورة له، وتأخير في المحاكمة»[2].

كان جلياً أن المحاكمة بكاملها هي في نظر الادعاء تدور أو لا تدور حول وضعي في طائرة إلى العراق في نهاية إجازتي. كان كل شيء آخر غير ذي علاقة. وقد أراد الدفاع، من ناحية أخرى أن يقول محاجاً: إن قراري بعدم العودة كان له ما يسوغه، استناداً إلى ما جابهته وأنا على الأرض في العراق وأن البيّنة تبيّن أن ذلك له علاقة وأنه حيوي. حتى هذا الحد طلبنا إحضار الأستاذ فرانسيس بويل Francis A.Boyle شاهداً، وهو خبير مرموق في القانون الدولي، وكان مسؤولاً عن وضع مسودة قانون الأسلحة البيولوجية، ومقاومة الإرهاب في مجلس مديري منظمة العفو الدولية. تحدث الأستاذ بويل إلى المحاكمة عن طريق الهاتف.

قبل السماح للأستاذ بويل بأن يقول أي شيء، سأل القاضي إن كان لويس يستطيع توضيح ما الذي ستغطيه شهادته؟ أوضح لويس أن الأستاذ سيعرض بيّنة، مفادها أن الاتهام بالهرب لا يمكن أن ينطبق على شخص كان مخولاً أن يترك وحدتهم، وأنني بموجب القانون الدولي، كان مسموحاً لي؛ لأنني تلقيت أمراً، مع بقية أفراد فصيلتي، لتنفيذ قانون غير شرعي، وبعبارة أخرى الإساءة إلى السجناء في قاعدة الأسد الجوية.

بعد التعامل مع عدد من الاعتراضات التي قدمها النقيب بالبو، وافق القاضي العسكري على السماح للأستاذ بأن يقسم اليمين. جلجل صوته بوضوح في قاعة المحكمة من جهاز التكلم:

«إذا أخذنا كلمة الرقيب ميخيا بصدقها، يبدو لي أنه كان قد شكّل رأياً، مفاده أنه لا يريد أن يشارك في جرائم حربية. إن الإساءات الموصوفة هنا التي جرت في قاعدة الأسد تشكل بوضوح جرائم حرب بموجب مواثيق

جنيف لعام 1949 وقانون جرائم الحرب في الولايات المتحدة لعام 1996... وفهمي هو أنه كان أمامك نظام ذو ميزان واسع للإساءة في هذه المنشأة التي تشكل جرائم حرب. وبموجب قوانين الحرب، كان الرقيب ميخيا يملك الحق، إن لم يكن ملتزماً، بالتغيب عن أي مشاركة في القيام في أعمال الحرب، هذا علاوة على قيامه بنفسه أو تحويل أشخاص آخرين من السجناء إلى حيث كانوا عرضة لسوء المعاملة»[3].

خلال شهادة الأستاذ بويل، قدم النقيب بالبو مقاطعات باعتراضات مختلفة، بعضها أقرها القاضي. ولم يسمح للأستاذ أن يأتي على ذكر التقارير الرسمية عن الإساءة إلى السجناء في سجن أبو غريب، وكانت تلك التقارير قد جاءت من الصليب الأحمر، أو من الجنرال أنطونيو تاغوبا General Antonio Taguba لأنه، حسب الادعاء ، لم تكن تلك الأمور مطروحة أمام المحكمة. ولكن دون بحث تلك الادعاءات، كان من المستحيل التوصل إلى الاستنتاج بأن إساءة معاملة الأسرى التي ارتكبتها وحدتي في قاعدة الأسد لم تكن حادثاً معزولاً، بل كانت جزءاً من شيء انتشر خبره على نطاق واسع. لقد جهَّز القاضي حججاً من هذا القبيل ليس فقط لأنها أثبتت أن العسكريين في الولايات المتحدة كانوا متورطين في القيام بجرائم حرب في العراق، مخربين تهمة الهرب، ولكن أيضاً لأن تلك الجرائم انتشرت على نطاق واسع وصارت انتظامية، وأصبحت جرائم ضد البشرية.

بعد إبعاد الأستاذ بويل من قبل المحكمة، طلب لويس السماح للنائب العام السابق الأمريكي رامزي كلارك Ramsey Clark بأن يتحدى قرار المدعي منع الدفاع من إثارة مسائل أوسع تتعلق بالحكومة الأمريكية، ودور

جيشها في العراق. بعد عدد من الاعتراضات، وافق القاضي على توجيه دعوة إلى كلارك.

بدأ السيد كلارك بيانه بتنويهه أمام المحاكمة العسكرية بالشخص جيريمي سيفتس Jeremy Sivits، وهو أحد حراس سجن أبو غريب، وكانت محاكمته بدأت للتو في ذلك الوقت:

«أسمع من الادعاء اليوم، أن العسكريين، بشكل أو بآخر، غير خاضعين للقوانين... أعتقد أن هذه أسوأ رسالة يمكن أن توجهها الولايات المتحدة إلى العالم، ولا أصدق هذه الرسالة دقيقة واحدة.

«الحالات في العراق لها أهمية؛ لأنها ادعاء بشكل مأساوي على أمريكيين في سن الشباب، بزعم أنهم على أقل تقدير يسيئون إلى أشخاص وإلى كرامة السجناء العراقيين وكرامتهم...

«أول ما يفكر فيه معظمنا عندما نفكر في نورمبيرغ والميثاق الملزم في الولايات المتحدة، هو أن الطاعة لأمر صادر عن شخص أعلى مرتبة، ليست دفاعاً عن ارتكاب جريمة. أعتقد أننا كلنا نود أن يكون ذلك صحيحاً؛ لأن السلوك الإجرامي لا يكون كبحه ممكناً إذا كانت الطاعة لأمر هو مسوّغ (لجريمة)».

بعد ذلك توجه السيد كلارك بانتباهه إلى قضيتي:

«أمامكم الآن هذا الجندي الشاب الذي طُلب منه أن يواصل حرمان الجنود من النوم، وقد تعرضوا لهذا النوع من سوء المعاملة. وهذا أمر افتراضي، بمعنى أنه لا يوجد مباشرة أمام المحكمة بيّنة في هذا الوقت،

ولكن، وعلى أساس بيانه بوصفه معترضاً واعياً، نستطيع أن نرى أن فرقته تلقت أمراً مباشراً، لانتهاك التوجيه الميداني 27 - 10... الذي يحظر التعذيب... والمعاملة غير الإنسانية، أو التسبب عمداً في معاناة كبيرة أو التسبب في أذى خطير لجسم الإنسان أو لصحته.

«والآن، أمامكم هذا الوضع الذي لا يصدقه العقل، حيث تسعى الولايات المتحدة إلى إدانة جنود في العراق بزعم انتهاكات لحقوق السجناء، وفي الوقت ذاته مقاضاة جندي شاب سافر نصف المسافة حول العالم؛ لأنه فعل ما كان مخولاً أن يفعل بموجب القانون الدولي، وكان عنده واجب للقيام به بموجب القانون الدولي... لكنه رفض العودة إلى القيام بواجب من شأنه أن يورطه... في جرائم حرب.

«كلمة (تخلى quit) تعريفها في المادة 85 أنها تعني رجلاً يترك leaves أو يخفق في العودة دون إذن. والسلطة هي ميثاق نورمبرغ. إنها معاهدات لاهاي Hague وجنيف...

«إن محاولة استبعاد (طلبه للحصول على وضع المعترض الواعي) ستعني استبعاد بيّنة مهمة، مفادها أن المحكمة لا بد لها من أن تستمع من أجل تحديد تامٍ للقانون الذي ينطبق على هذه الحالة.

«الشيء الذي ينبغي لكم أن تأملوا في حدوثه بالنسبة لمعظم الناس هو أن تبيّن الرسالة أن النظام العسكري في الولايات المتحدة لديه النية الكاملة بالالتزام بمقتضيات القانون الدولي».

رفعت المحاكمة من أجل استراحة مباشرة بعد النقاش الذي ألقاه السيد كلارك. وعندما عادت المحكمة للانعقاد، اشتكى لويس أمام القاضي من

مستوى الأمن المبالغ فيه في القاعدة ذلك اليوم، مدعياً أن هذه المبالغة تؤدي إلى الإساءة والإجحاف بالمحاكمة وبأفراد هيئة المحلفين، وهم جميعاً يعملون في القاعدة وسيكون ذلك إقراراً بأنه ليس عادياً. وقد حدث معي أن الحرس الزائد عددهم عن الحد كان يجري أيضاً استخدامهم لتوجيه رسالة إلى الجنود في فرقة المشاة الثالثة في فورت ستيوارت، الذين كانوا يعدون أنفسهم للعودة إلى الحرب: أي أن ذلك سيكون فكرة سيئة لاتباع خطواتي.

عندئذ دخل لويس في بحث مع المحكمة يتعلق بتحديد من هم الشهود المسموح باستدعائهم لتقديم شهاداتهم. ومن المؤكد أن لدينا قائمة تدعو للإعجاب بأشخاص أرادوا الحضور إلى المحكمة، من ضمنهم أشباح مكلفون بالإشراف على مكان الاحتجاز في قاعدة الأسد، إضافة إليهم مسؤولون كبار في الحكومة من أمثال وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، والجنرال ريكاردو سانشيز القائد العام لقوات الولايات المتحدة في العراق، والميجور جنرال جوفري ميلر، نائب القائد العام لعمليات الاحتجاز. والقاعدة المختصة باستدعاء الشهود للمثول أمام المحكمة هي استكشاف السياسة الرامية إلى استجواب المحتجزين في العراق. وكنا نأمل أن نُظهر كيف أن سياسةً وجواً من الإساءة قد تسربا من أعلى المستويات في حكومة الولايات المتحدة عند معاملة جنود نظاميين مثلي.

سرعان ما اتضح أن الادعاء العام كان يسيطر على كل جانب من جوانب المحاكمة. وبعد أن قال المدعي العام: إنه سينظر في مستوى الأمن المبالغ فيه، أصدر القاضي بسرعة حكماً بأن شهادة معظم شهودنا هي غير ذات علاقة. إن أعلى ضابط عسكري كان مرغماً على الشهادة هو قائد كتيبتي السابقة، العقيد ميرابل، وهو أيضاً في قائمة ممثل الادعاء.

إن شهود الدفاع الآخرين الأساسيين الذين لم يسمح لهم بالحضور، من ضمنهم الرقيب الأول وينغارد Wingard الذي كان قد أبلغ لويس أن استدعائي للذهاب إلى العراق كان نتيجة خلل في الكمبيوتر في معطيات حرس فلوريدا، وكاتي ترنجياليKathy Tringially، التي كانت قد أبلغتني أن تحقيق الكونغرس في قضيتي استنتج أنه ينبغي تسريحي مباشرة من الخدمة العسكرية. هناك عقيد في مكتب الحرس الوطني سبق له أن رفض التماساً من جانب وحدة الحرس لوقف الخسارة أو تمديد وضع جندي غير مواطن في الولايات المتحدة، وضعه مماثل لوضعي، وقد جرى استبعاده أيضاً.

في ختام اليوم الأول للمحاكمة العسكرية استجاب القاضي لمقترحاتنا السابقة للمحاكمة. وقد أبلغنا أنه ما من زعم من مزاعم الإساءة إلى السجناء الموصوفة في طلبي للحصول على وضع المعترض الواعي يمكن شرحه أمام أعضاء هيئة المحلفين، وليس هناك أي برهان لعدم شرعية الحرب، سواء في نطاق القانون العسكري أو الدولي، مما يمكن شرحه للمحلفين، أي ما من ادعاءات بوقوع جرائم حرب أو جرائم ضد البشرية يمكن أن تصل إلى آذان الذين يقررون استحقاقات القضية. وفي الواقع كان الطلب الذي تقدمت به من أجل وضع المعترض الواعي لا بد من استبعاده بالكامل من المحاكمة.

كانت الساعة قد بلغت السادسة بعد الظهر عندما غادرنا قاعة المحكمة. وجميع طلباتنا السابقة للمحاكمة قد رُفضت تقريباً، والشهود الأساسيون استُبعدوا من تقديم شهاداتهم. فوجهنا مباشرة إلى مركز الوسائل الإعلامية، حيث كان عدد من المراسلين الصحفيين المحليين ومن

سائر أنحاء البلد ينتظرون وصولنا. بعد أن أجبت عن بضعة أسئلة، ذهبت لرؤية بعض الأصدقاء والناشطين الذين كانوا قد جاؤوا لإبداء مساندتهم لي، وبعد ذلك توجهت إلى مكان تقديم الطعام لتناول الغداء. بعد ذلك مباشرة سارعت نحو أوليفر بيريز واثنين آخرين من فرقتي في العراق، وهما إستيم وفونيز. اللذين كانا هناك، لتقديم شهاداتهم عند المحاكمة.

في معظم الوقت كان إستيم وفونيز مسرورين لرؤيتي، بالرغم من شعوري بوجود تباعد عاطفي بيننا. ولعل السبب أنهما لم يكونا واثقين أنني ذلك الشخص الذي عرفاه في العراق، أو قد يكون السبب اعتقادهما أنني بالتحول إلى المعترض الواعي قد تحولت ضدهما بشكل من الأشكال: خرافة أن داعية السلام يبصق على وجه الجندي العائد. وقد كان هناك أيضاً استياء واضح أنني لم أعُد إليهما.

قال إستيم: «أظن أيها الرقيب أنك فعلت ما فعلت لأسباب صحيحة، ولكنك سرت في الطريق الخطأ».

أردت أن أشرح كل شيء، وأن أخبرهما أنني بتركهما في العراق كان أصعب ما فعلته في حياتي، ولكنهما كانا شاهدين في محاكمتي، ولم يكونا بعد قدما شهادتيهما، ولذلك يجب أن أكون متنبهاً لكل ما أقول.

قال فونيز وكأنه يتحدث إلى نفسه، وقد ضم شفتيه: «ميخيا، كيف ورطت نفسك في هذا، أيها الرجل؟» بدا أنه يشعر بالتأسف لوضعي.

رددت بابتسامة، محاولاً أن أطمئنه. كنت أعرف أنه ليس عندي ما أندم بشأنه وأعرف أيضاً أنه إذا أرسلوني إلى السجن فلن أحمل في قلبي أي مرارة.

قلت: «والآن أيها الرجال، يجب أن أستعد ليوم غد. يعلم اللّه ما الذي سيحدث، ولكن عند انتهاء كل هذه الأمور آمل أن نتمكن من الاجتماع معاً مرة أخرى، أي كامل أفراد فرقتنا».

قال إستيم: «خيراً إن شاء اللّه أيها الرقيب، احرص على الاعتناء بنفسك».

قلت: «أنا سعيد برؤيتكما ومسرور أنكما بخير». والواقع أنني كنت مسروراً بهما.

صافحني فونيز بيده وحدق بي، قائلا: «اهتم بنفسك يا رجل».

لوّح أوليفر بيده، مودعاً. أنا ابتسمت ولوّحت بيدي نحوه، وصعدت إلى سيارتي التي نقلتني إلى غرفتي. كان ذلك يوماً طويلاً.

بدأ اليوم الثاني للمحاكمة العسكرية عند الساعة الثامنة والنصف صباح اليوم المقبل. كان أول بند في العمل إجراء مقابلات مع أفراد من المحلفين. جميع أعضاء هيئة المحلفين كانت لهم اجتماعات شهرية منظمة مع القائد العام في القاعدة، الجنرال وبستر وهو الجنرال الذي تعود إليه السلطة المطلقة والأعلى على المحاكمة. ولذلك كان تركيز أسئلة لويس على احتمال حدوث انحياز أو إجحاف. وهو سأل الأعضاء: هل يعدونني مذنباً بالهرب لمجرد أنني متهم بذلك، أو بعبارة أخرى: هل ما يزال بالإمكان إثبات أنني بريء بعد اتهامي بالجريمة.

سأل لويس أيضاً الأعضاء: هل يشعرون تحت أي ضغط من القيادة أن يدلوا بأصواتهم بالموافقة على قرار معين من المحكمة، أو هل أبلغهم أي شخص أن من واجبهم إدانتي. هذه الأسئلة كانت بالنسبة لي تبدو سخيفة قبل يوم أو يومين، ولكن بعد أن أعطى القاضي هيئة الدفاع كل

obeikandi.com

الأشياء التي طلبتها، ورفض كل اقتراحاتنا، فهمت ما هي الأمور التي تقلق لويس. في النهاية تم استبعاد اثنين من المحلفين الأعلى مرتبة، وكلاهما برتبة عقيد. أحدهما كان معروفاً بسمعته أنه يبدي ليونة في الإدانة، بينما كان الآخر له سمعته بالتشدد. ولكن خالجني خلال هذا النهج اعتقاد أن كل شخص في المحكمة عمل لخدمة الرئيس ذاته. في حالة «الولايات المتحدة مقابل الرقيب الأول كاميلو ميخيا ـ كاستيلو»، كان كل واحد هناك بمن فيهم أنا شخصياً وأحد محامي الدفاع، إضافة للقاضي، والمحلفين، ومعظم الشهود، ومقترح الاتهام، والادعاء، هؤلاء جميعاً يعملون في خدمة حكومة الولايات المتحدة. ولعل هذا هو السبب في أن القانون الموجود والقضاء العسكري فيه نسبة إدانة بمعدل في 98 المئة.

كان العمل المطروح أمام المحكمة في هذا اليوم الثاني أن يشمل أيضاً مناقشة استحقاقات القضية وتقويمها؛ لكي يقرر المحلفون هل سيجدون أنني مذنب أو بريء. البيّنة التي قدمتها الحكومة كانت مؤلفة أساساً من عمل ورقي يبيّن التاريخ الذي كان مفترضاً أن أترك فيه الولايات المتحدة؛ لأعود إلى العراق. اختصر القاضي القضية أساساً بالسؤال: هل صعدت أم لم أصعد إلى طائرة؟ أما سائر الاعتبارات الأخرى، القانونية، والسياسية والأخلاقية فقد عُدّت غير ذات علاقة.

افتتح النقيب بالبو القضية باسم الادعاء، موجهاً كلامه إلى هيئة المحلفين:

«هذه قضية هارب. إنها قضية قائد فرقة تخلى عن جنوده، عندما كانوا بأمس الحاجة إليه. إنها قضية عن رقيب أول، صف ضابط أدار ظهره إلى كل شيء تمثله مجموعة ضباط الصف».

كان الادعاء يتبنى إستراتيجية ذات شعبتين لإظهاري بصورة أشد ما تبدو سلبية، مع التركيز على خطر الوضع في الرمادي لتبرير العنصر الجنائي في التهمة.

إذا أخذنا في الحسبان القيود التي فرضها القاضي، كان لويس مقيداً بمناقضة الصورة التي رسمها الادعاء لي، وبإظهاري أني كنت في الواقع «جندياً جيداً» من الممكن أن يكون ارتكب غلطة بنية صادقة:

«إنه يشرفني ولي ميزة أن أمثّل الرقيب الأول ميخيا... أعرض عليكم بكل احترام صورته التي أعرضها عليكم التي ستكون مختلفة كثيراً عما قاله لكم للتو النقيب بالبو... صورة قائد فرقة جيد، اعتنى برجاله، وكان معنيّاً برفاهتهم».

أول شاهد استُدعي للادعاء كان النقيب وارفل. إن النقيب بالبو، مستخدماً شهادة قائدي السابق، حاول إظهار الوضع في الرمادي، متقلباً ومتفجراً وأن ثمة حاجة لعودتي .

سأل النقيب بالبو: « ما أنواع الإصابات في سريتك؟».

أجاب النقيب وارفل: «معظم الإصابات ناجمة عن أدوات انفجار عشوائية IED`S. هناك أيضاً عدة إصابات ناجمة عن قنابل صاروخية، وقذائف هاون، وجراح نيران رصاص غير مباشرة.

«وعلى وجه التقريب ما عدد الأشخاص الذين انتشروا معك في سريتك؟». تابع قائدي السابق كلامه: «عندما غادرت فورت ستيوارت كان عندي نحو 131 جندياً في سريتي.

obeikandi.com

تابع بالبو أسئلته، وبدا أنه حازم: «وعندما أُعيد انتشاركم كم عدد الذين عادوا كمجموعة؟

«الذين أعيد انتشارهم خمسة وتسعون جندياً».

«وماذا حدث للآخرين؟ هل كان معظم الإخلاءات الطبية نتيجة الاتصال بالعدو؟».

أجاب وارفل: «أعتقد أن كل واحد منهم، هذا ما حصل معه».

تابع الادعاء: «هل مُنِحت أي مكافآت معينة؟».

«أجاب وارفل بصوت خفيض ولكنه فخور» مشيراً إلى المكافآت التي منحت لجنود أصيبوا بجروح من نيران العدو: «نعم، كان عندي أربعة وعشرون مُنحوا القلوب الأرجوانية في سريتي».

كان أمراً محبطاً أن يراه المرء هناك قَلِقاً، بينما كان شخص آخر تقريباً في سريتي يعرف أن طموحه الشخصي أسهم بشكل ملحوظ في نسبة عدد الإصابات. كذلك فإن قائدي السابق أخفق في التنويه بأن كثيرين من الأشخاص الذين أصيبوا بجراح خطيرة لم يُرسلوا لتلقي العناية الصحيحة، وبدلاً من ذلك جرى الاحتفاظ بهم في العراق؛ لئلا تتدنى سريتي عن مستوى القوة المقاتلة. إن النقيب الذي كان معظم خدمته العسكرية في الحرس الوطني لم تكن عنده خبرة في القتال قبل ذهابه إلى العراق، وبدا أنه حصل على أوسمة يفوق عددها أوسمة أعضاء هيئة المحلفين الذين قاموا بالعمل الفعلي، ومن ضمنهم ضباط لهم سيرة حياة برتبة عقيد.

شدد لويس على ذلك في استجوابه للنقيب.

وجه سؤالاً إلى وارفل، فاجأبه الجميع: «بالمناسبة، هل جُرحت في العراق؟».

أجابه النقيب: «نعم، جُرحت».

من خلال الحديث مع أعضاء آخرين في وحدتي، علمت أن إصابة النقيب بجرح مزعوم أحدثت الكثير من الهزل.

تابع لويس كلامه: «وهل حصلت على القلب الأرجواني؟».

«نعم، كنت مرشحاً للحصول على قلب أرجواني».

لاحظت أن أعضاء هيئة المحلفين كانوا كما يبدو يتابعون هذا النوع من الأسئلة باهتمام خاص.

واصل لويس أسئلته: «من الذي رشحك؟».

كان الجواب: «من خلال كتيبتي».

«أنا أسألك من الذي رشحك للقلب الأرجواني، ياسيدي؟».

سأل وارفل بعصبية، عارفاً ماذا كان السؤال بالضبط: «من تحديداً الذي يملأ العمل الورقي؟».

اعترض النقيب بالبو: «اعتراض، ياصاحب المقام، هل له صلة وثيقة بالموضوع؟».

أجاب العقيد سميث، القاضي في هذه القضية: «الاعتراض مرفوض».

أجاب وارفل، مشيراً بكلامه إلى الضابط التنفيذي في سريتنا، الملازم غرين Green: «أعتقد أنه كان قائد سريتي، وطبيب سريتي والطبيب الجراح في كتيبتي. والقيام بذلك يستغرق تراكماً من العمل الورقي».

obeikandi.com

سأل لويس: «أولئك كانوا أشخاصاً تحت قيادتك، هل هذا صحيح؟» «أعني الذين قاموا بالعمل الورقي؟».

«واحد من الثلاثة المشاركين في العمل هم... تحت قيادتي». «كان النقيب يواجه متاعب في صياغة جملة واحدة».

«ماذا كانت جراحك، يا سيدي؟».

أجاب النقيب، ولعله كان يخشى أن يطلب منه لويس إظهار جراحه في المحكمة: «أُصبت بجراح من شظايا قنبلة يدوية في ذراعي اليمين».

سأله لويس: «وكيف وضع ذراعك اليمين حالياً؟».

قال وارفل: «جيد».

«ألا توجد شظية دخلت في جرحك، هل توجد شظية؟».

«اعتراض أيها السيد القاضي، هذا خارج سياق التوجيه» هذا ما قاله بالبو، دفاعاً عن شاهده النجم».

وافق القاضي على الاعتراض.

«كيف كان ذراعك خلال ساعات بعد هذا الجرح؟..».

«اعتراض! أيها السيد القاضي» بدا النقيب بالبو محتداً، وأما العقيد فقد أظهر ليونة في النهاية. لم يكن أمراً معتاداً أن يفتح القاضي المجال أمام لويس ليفعل أي شيء، وكلما فعل أظهر بالبو الانطباع بأنه تعرض بعمقٍ لخيانة.

كان الشاهد اللاحق هو الاختصاصي أوليفر بيريز الذي استدعاه فريق الدفاع لتقديم شهادته عني بوصفه قائداً. كانت إستراتيجية الدفاع

obeikandl.com

تقضي بعدم إنكار أن الوضع على الأرض في العراق كان خطراً، بل لإظهار أنني قدت فرقتي بأفضل قدرتي في الأوضاع المعاكسة.

بدأ النقيب رولنغ Ruhling، وهو محامي الدفاع العسكري من جانبنا، استجوابه، قائلاً: «كيف كان الرقيب أول ميخيا بصفته قائد فرقة في العراق؟».

أجابه أوليفر: « كان قائداً عظيماً. كان دائم العناية برجاله، وإذا رأى أن هناك مآخذ على تخطيط (مهماتنا) كان يعرضها على من هم أعلى مرتبة، وهذا ما لم يفعله كل شخص...كان يبحث أمور رجاله».

بعد ذلك سُئل: هل يثق بي؟

«اعتماداً على ما رأيت، وبما لي من تجارب، أعدّه صادقاً جداً. وثقت فيه كثيراً طوال حياتي».

سأل النقيب رولينغ: «ما أنواع المهمات التي كان يقودك فيها؟».

«الكمائن، وكل أنواع الدوريات، وحاجز التفتيش، وبعض التنظيفات المنتظمة في المدن، وإقامة مواقع دفاعية في الخارج عند حلول الليل، وأمور منتظمة».

«خلال تلك الأنواع من المهمات، هل واجهت الكثير من المقاومة؟

قال أوليفر: «نعم، واجهناها».

«وكيف كان رد فعله في هذه المواقف؟».

رد أوليفر دون تردد: «كان في رد فعله شجاعاً، وحافظ دائماً على سيطرته على فرقته، ولم يظهر قط أي خوف. كان دائماً مسيطراً على

Obeikandi.com

رجاله على نحو ما يفعل قائد فرقة جيد...لم أجد إطلاقاً أي عجز، أو أي شيء من هذا القبيل».

تابع النقيب ممثل الدفاع: «هل شكك في التخطيط الذي تستخدمه القيادة؟».

«أحياناً فعل ذلك».

«هل كان يتحلى بالشجاعة الأخلاقية لإثارة تلك الاهتمامات؟».

«نعم، فعل ذلك».

سأل رولنغ: «ما هي بعض أنواع السمات الشخصية التي تتوقعها لدى صف ضابط؟».

«يجب أن يملك الثقة لقيادة رجاله. هذا أول ما ينتبه إليه الرجال حول قادتهم...كان ينبغي له العناية برجاله طوال الدرب، أن يملك في ذهنه أن له رسالة طول الوقت، ولكن يجب في الوقت ذاته بقاء رجاله في ذهنه».

تابع النقيب رولنغ كلامه: «إذاً بوجود هذه السمات في الذهن، كما هي حال ضابط الصف المثالي الذي تتحدث عنه، بمقياس واحد إلى عشرة، ويكون رقم واحد أحدهم العنقود المطلق، ويكون رقم عشرة ضابط الصف المثالي، فأين تضع الرقيب ميخيا استناداً إلى تجربتك معه؟».

قال أوليفر حازماً: «لا ريب، بصدقٍ أعطيت رقم عشرة، تسعة أو عشرة».

بعد ذلك دعا النقيب بالبو الشاهد.

بدأ الكلام: «الاختصاصي بيريز».

obeikandl.com

«نعم يا سيدي».

«هل فوجئت بعدم عودة المتهم إلى العراق، ألم تُفاجأ؟».

أجاب أوليفر: «فوجئت يا سيدي».

«......الشيء الذي يتصف بالمسؤولية وكان من واجبه القيام به هو أن يعود ويساندك، أليس هذا صحيحاً؟».

«هذا صحيح يا سيدي».

«هل ترى أن ما فعله مثال جيد في ضابط صف؟».

بعد تأمل قال: أوليفر: «بوصفي ضابط صف لا أعتقد أنه كان مثالاً جيداً، كلا».

تابع المدعي كلامه «...والآن، أيها الاختصاصي بيريز، ذكرت كيف كان للمتهم تأثير المهدئ على رجاله، فهل هذا صحيح؟».

«هذا صحيح».

«وقلت: إنه كان يتمتع بالثقة لقيادة رجاله، أليس هذا صحيحاً؟».

«هذا صحيح».

«لا بد أنه كان عاراً حقيقياً أنه لم يكن عندك ذلك التأثير المهدئ خمسة شهور، أليس هذا صحيحاً؟».

قال أوليفر لنفسه أكثر منه للمحكمة: «هذه ضربة».

وتابع بالبو كلامه، قائلاً: «مع ذلك تريد أن تعطيه رقم عشرة؟

«هذا صحيح».

«لا مزيد من الكلام، يا فضيلة القاضي».

بدأ النقيب بالبو، غاضباً مرة أخرى، على نحو ما كان غاضباً إزاء الكثير من المحاكمة، لم يسبق قط أن رأيت أي شخص يُستغل عاطفياً لإلحاق الأذى بصورة شخص، كما فعل بالبو بإلحاق الأذى بشخصي.

سأل النقيب رولنغ في إعادة توجيه: «لماذا مازلت تعدّه يستحق رقم عشرة، بالرغم من خيبة الأمل؟».

«بصفته ضابط صف لا يزال قادراً على أن يقود رجاله، وحتى هذا اليوم في معركة...وإذا ما عاد لا يزال بإمكانه قيادة رجاله... إني أضع مصير حياتي بين يديه؛ لأنه سيقود رجاله إلى المعركة. ومادام يفعل ذلك... وقد عملت معه في أوضاع متوترة، معارك، ونزاعات. أشياء من هذا القبيل، مازلت أثق فيه، ولذلك سأعطيه المعدل العالي ذاته على غرار ما فعلت».

وجدت صعوبة في وقف انهمار دموعي بعد أن سمعت شهادة أوليفر. ومع أنني أدركت أن ذلك هو القرار الصحيح، والحقيقة القرار الوحيد الذي كان بإمكاني اتخاذه، كان يؤلمني أشد الألم أن أترك فرقتي. إنهم كانوا السبب الأول في أنني كنت على وشك العودة إلى العراق.

كان أوليفر محقاً في أنه كان مستمراً في الثقة بوضع حياته أمانة عندي، ولكني علمت أنني لم أضع مرة أخرى نفسي في وضع قد يضطرني لقيادة فرقة مشاة لخوض معركة. أخلاقياً ما كان بوسعي أن أزج نفسي في حرب.

كان إستيم الجندي من الصف الأول الشاهد المقبل الذي استُدعي للشهادة.

«إنه تحدث إلينا. جاء مادًّا ذراعيه. تحدث إلينا أشبه بأبٍ. عمل من أجلنا، حرص على القيام بكل شيء نحتاجه. كان يفضلنا على نفسه، وهذا ما فعله».

سأل النقيب رولنغ «هل تثق فيه الآن، بينما هو جالس هنا؟».

أجاب إستيم: إنه يثق في، ولكن مع تطور شهادته كان واضحاً أنه أشد كثيراً من أوليفر في انتقاد سلوكي. ولما سئل: هل يحترم رؤيتي لاتخاذ القرار، لم يتردد في التمييز بين رأيه في قيادتي سابقاً، ورأيه بعد أن غادرت العراق.

قال: «نعود إلى وقت مغادرته، القرار الذي اتخذه كان عظيماً في نظري... عندما كان يتخذ قراراً كنت أتبع قراره».

حاول بالبو أن يستفيد إلى أبعد حدٍ من موقف إستيم الانتقادي عن طريق المقارنة بين سلوكه وسلوكي.

سأل بالبو: «لقد فاتك أن ترى أختك بعد تعرضها لحادثة سيارة، أليس كذلك؟».

أجاب إستيم: «صحيح، يا سيدي».

«والمتهم ذهب إلى الوطن قبل ذهابك، أليس كذلك؟».

«نعم، يا سيدي».

obeikandl.com

تمهل بالبو في الكلام لحظة، ثم قال: «الواقع أنك كنت دائماً تبقى وتؤدي واجبك الوطني، أليس كذلك؟».

«كان عليّ أن أفعل ذلك، يا سيدي».

«كان عليك أن تفعل ذلك؛ لأنه واجبك».

رد إستيم: «كان هذا واجبي».

كان إستيم شخصاً ربطتني به علاقة خاصة في العراق. لم أشعر باستياء من شهادة إستيم، ولكن تمنيت لو أمكنني أن أشرح له استحالة الإقدام على نهج آخر، بدلاً من رفض الحرب.

الشهادة الأخيرة اختصوني بها، مع أنه نظراً للقيود التي فرضها القاضي لم يبقَ الكثير لأقوله في دفاعي. عند تلك النقطة، كان القاضي قد منعني من الإشارة إلى أي شيء يمت بصلة إلى جرائم الحرب، أو الجرائم ضد البشرية. لم يكن بإمكاني أن أطرح أسئلة تدور حول إساءة معاملة السجناء في قاعدة الأسد، ولا أسئلة عن تفاصيل طلبي لإقرار وضعي المعترض الواعي، الشيء الوحيد الذي كان يمكنني قوله: إنني سبق أن قدمت طلباً لوضعي المعترض الواعي، وكان رأيي أن المعترضين الواعين يجب ألاّ تصدر إليهم أوامر بتنفيذ مهمات تشكل انتهاكاً لمعتقداتهم.

وهكذا، فإن دفاعنا كان مقتصراً على شرحنا لهيئة المحلفين أنني، بالرغم من قرار المحكمة، فإنني لا أملك الإذن بالبقاء، متغيباً عن وحدتي، وقد اعتقدت صادقاً في ذلك الوقت أنني فعلاً أملك ذلك الإذن. هذه الحجة تُعرف بأنها: «خطأ الأمر الواقع».

إن كل ما يجب على الادعاء أن يبينه، هو أنني لم يكن مسموحاً لي من قبل أي شخص في قيادتي أن أبقى خارج العراق، وأن أوراق إجازتي تقتضي بأن أعود، وأنني جسدياً قادر على الصعود إلى الطائرة. وما عدا هذه الاعتبارات لم يطرح النقيب بالبو أي أسئلة ذات فحوى في أي وقت.

المجادلات الختامية طُرحت في صباح اليوم المقبل. استغل بالبو، الذي كان المتكلم الأول، الفرصة ليرسم صورتي على أنني كاذب أخدم ذاتي وجبان، أحاول الغش في النظام؛ تجنباً للخطر. وحث أعضاء هيئة المحلفين على أن يفعلوا ما انعقدت المحكمة العسكرية بكاملها لإنجازه:

«إن الحكومة تطلب منكم أن تتوصلوا إلى أن المتهم مذنب بتهمة الفرار».

حجة لويس الختامية كانت أكثر شموليةً ووضوحاً من حجة بالبو، لكنه تعرّض لعرقلة؛ لأنه بدأ دفاعه بإقرار أنني وقعت في غلطة، مع أنها غلطة صادقة، وذلك بعدم عودتي إلى العراق. وهو قد حاول قصارى جهده، ضمن القيود التي فرضتها عليه المحكمة، إثارة بعض التفاصيل في الطلب الذي تقدمتُ به للحصول على وضعي المعترض الواعي، بما في ذلك أنني شهدت قتل مدنيين، وأني أخذت المعمودية في العراق. وهو كرّر شهادة زملائي الجنود، وذلك كلّه في محاولة للرد على زعم بالبو بأنني كنت في أساسي شخصاً غير صادق.

عند ذلك أُتيحت للنقيب بالبو فرصة تفنيد بيان لويس، ولكنه لم يفعل أكثر من أن يكرر ادعاءاته السابقة، ومفادها إن «المتهم لم يكن جندياً جيداً» وإنني أخفقت في معظم المسؤولية الأساس للمهمة، التي كانت عبارة عن تظاهر.

بعد اختتام المناقشات أعطى القاضي تعليمات إلى أعضاء هيئة المحلفين بشأن الأسلوب الذي يجب عليهم اتباعه عند القيام بمداولاتهم. صُرِفوا للتداول والعودة بعد نحو ساعتين.

قال القاضي: أيها المتهم والمستشار، أرجو أن تقفا. وتابع القاضي قائلاً: «أيها العقيد نيكول» مخاطباً هذه المرة رئيس المحلفين «يمكنك إعلان نتائج المحكمة».

قرأ العقيد ذو الشعر الشائب الحكم من القسم الذي تشغله هيئة المحلفين، دون أن يتلو الحكم واقفاً:

«أيها الرقيب ميخيا كاستيلو، هذه المحكمة العسكرية تجد أنك، استناداً إلى ملابسات التهمة مذنب».

بعد وقتٍ قصير من قراءة القرار، أُغلقت المحكمة من أجل تناول الغداء. إذا أخذنا في الحسبان القيود التي فُرضت على الدفاع لم يكن وصفي مذنباً مفاجأة لي. ومع ذلك، فقد بقيت حتى النهاية متعلقاً بالأمل باحترام العدالة، وعندما غادرنا قاعة المحكمة شعرت بخيبة أمل مريرة؛ لأن الحكم الذي صدر كان ضدّنا.

المرحلة النهائية للمحاكمة، مرحلة تلاوة الحكم كانت بدايتها بعد الغداء. لقد سعت الحكومة إلى إصدار أقصى عقوبة: سنة في السجن، وتخفيض رتبتي إلى أدنى مرتبة، والحكم عليّ بسوء السلوك. طلب الدفاع عدم المعاقبة إطلاقاً، وبالنسبة لي طلب الدفاع فقط طردي وإرسالي إلى البيت.

إن أول شاهدين استُدعيا للمثول كانا من الادعاء. ولم تكن مفاجأة لي أن أرى رفيقي القديم قائد الفصيلة، الرقيب من الصنف الأول فيرنون وليامز، الذي استُدعي أولاً للادعاء. ومع أنني وإياه لم نكن إطلاقاً عدوين، فإني شككت أكثر من مرة في سلطته داخل العراق، وهذا ما خلق نوعاً من الاحتكاك بيننا. غير أني لم أكن أبداً مستعداً لقبول طريقة وليامز بتشويه الأشياء من موقفه. وعندما سئل عن أدائي قال للمحكمة: إنني كنت جندياً جيداً حتى لحظة عملية الإغلاق، ولكن بعد ذلك،كما قال، تبّدل سلوكي وتدهور إلى حدّ كبير. ونوّه بأن ذلك كان يرتبط تحديداً باطلاعي على الإصابة التي عانى منها ريسيو Recio.

سأله بالبو: «هل كان لدى المتهم ردّ فعلٍ على الإصابة؟».

أجاب وليامز: «نعم، عندما عدت من مهمة في القصر، قال لي الرقيب ديمارست: إن ميخيا يرفض الخروج، ويقول: إنه لن يخرج في دوريات معنا بعد ذلك...فقلت دعني أتحدث معه، فجاء إلى غرفتنا، وإذا ما أتذكره صحيح، كنت أنا والرقيب ديمارست وميخيا داخل الغرفة. بحثنا أساساً لماذا لا يريد الخروج».

تابع ممثل الادعاء كلامه، فسأله: «ماذا قال لك؟».

«قال: إن الوضع خطر جداً. قال: إنه من الجنون بسبب الخطر الشديد أن يُطلب منا الشيء ذاته المرة تلو المرة..». تابع وليامز الكلام، فقال: «شرحت له أننا عندما نفعل أشياء لا نفعلها المرة تلو المرة. ونحن لا نريد أن نفعل الشيء نفسه تكراراً».

أغفل وليامز حقيقة خروجنا بالدورية ذاتها بالضبط، وكان ذلك على وجه الدقة ما فعلناه أربع ليالٍ متتابعة، وكان هذا قراراً أسهم إلى حدّ كبير

في إصابات أربعة أفراد من سريتنا وقطع رأس أحد المدنيين. كنّا نفعل أشياء بتكرار؛ لإثارة المعارك من أجل أن يحصل ضباطنا على مكافآت، وكان هذا سبب قلقي، وهذا ما أوضحته له.

«هذا ليس أوان أن تنهار. وراء الستائر، أجل، ولا بأس. كل شخصٍ يُصاب بأذى، وكل شخص يشعر بالأسى، هذا جيد. إن وليامز الرجل الذي نصحني أن أقول لرؤسائي: إنني أخاف الذهاب إلى المعركة بدلاً من تقديم شكوى رسمية ضدّ قائد كتيبتي وادعى وليامز أن هذا ما قاله لي». وتابع كلامه قائلاً: «لكن أمام جنودك لا يمكنك أن تعطي نفسك صورة متدنية عندما تكون بالغ الخوف من أداء وظيفتك»».

أنهى وليامز شهادته بإبلاغ المحكمة أنه سعى من أجل منحي إجازة للاهتمام بمسائلي الخاصة بالهجرة مع توقع كاملٍ أنني سأعود، وأنه أُصيب بخيبة أمل؛ لأنني لم أفعل ذلك.

أنا شخصياً تذكرت الأشياء بطريقة مختلفة: فهو الذي شجعني على البقاء في الولايات المتحدة، بل إنه عند نقطة قال: «ماذا يريدون أن يفعلوا لك؟ إن بطاقتك الخضراء ستنتهي مدتها، ولا شيء في يد الجهاز العسكري يمكن أن يفعله لك».

الاستجواب الذي أجراه لويس ركّز على رفضي الخروج في الليلة الخامسة من عملية الإقفال.

كان سؤال لويس: «هل سألته؟» ماذا قصدت بقولك بالغ الخطر؟».

«سلبياً، لم أفعل».

obeikandi.com

تابع لويس كلامه: «هل سألوك السؤال ذاته في أربع ليالٍ متتابعة؟».

قاطع الرقيب الصف الأول: «صحيح، ولكن لم يقل تحديداً: لماذا كان الوضع بالغ الخطر، وأنا لم أسأل. وسبب عدم سؤالي؛ لأنني غير مهتم. أنا قائد الفصيلة، وأنا الذي أختار المهمات التي نقوم بها. إذا كانت لي حاجة إلى معلومات، فسأطلب معلومات أو توجيهاً، ولكن في الوقت ذاته لم أسمح لقائد فرقتي أن يقول لي: ما الذي لا يفعله هو، وماذا سأفعل أنا؟ هذا غير مقبول، يا سيدي».

حجج وليامز الحقيقية طفت أخيراً على السطح عند هذه النقطة. إذ لم يكن بإمكانه أن يسمح بأي شك في سلطته، والسبب الحقيقي للتوتر بيننا هو في الحقيقة ما فعلته.

لم أعرف ماذا أتوقع عندما سمعت أن الشاهد المقبل الذي سيمثل باسم الادعاء هو فونيز. كان هو الشخص الذي بدا أنه بذل أقصى جهد لفهم شكوكي ومخاوفي عندما كنا في العراق، ولكني لم أكن إطلاقاً متأكداً من حقيقة فهمه لي.

فتح النقيب بالبو الاستجواب:

«هل تسمح بأن تصف لنا كيف تصرف المتهم بصفته قائد فرقة؟».

تمهل فونيز قليلاً قبل أن يجيب، وانتقى كلماته بعناية.

«يمكن القول: إنه اعتنى بنا جميعاً. إنه شخص جذاب (له كاريزما). كان يعرف وظيفته. إنه من صنف E - 6 (4)، فقد كان له وجود مدة. وكان يعرف ما يجب أن يفعل».

obeikandi.com

سأله بالبو أيضاً: «هل يمكن أن تقول: إنه كان كفئاً من الناحيتين التقنية والتكتيكية؟».

«بمعنىً ما، نعم».

«هل يمكنك أن تكون أكثر دقةً؟».

تابع فونيز ردوده: «أقصد، ما من أحد كامل الصفات. يمكنني أن أخبركم عن بعض الأشياء التي قام بها بصورة جيدة، وأشياء أخرى لم تكن جيدة».

قال بالبو، الذي بدا أنه أكثر شبهاً بمستشار للدفاع: «إذا اعتمدنا مقياساً من واحد إلى عشرة. يوجد شخص ضعيف جداً وعشرة ممتازون».

أجاب فونيز «ربما أعطيه رقم ثمانية، نعم، أقول: ثمانية».

سأل النقيب بالبو: «برأيك ما هي أفضل مهارة عنده؟».

مرة أخرى تمهّل فونيز مفكراً في جوابه، فقال: «الرقيب ميخيا كان يحرص أن يكون كل واحد موضع العناية بأي سبلٍ صغيرة يستطيعها».

تابع بالبو أسئلته: «بما أنه عضو في فرقته، كيف شعرت عندما أدركت أنه ليس عائداً؟».

أجاب بصوت حادٍ فعلاً: «كنت في الواقع أشعر بخيبة أمل. ولكن خيبة أملي الأسوأ كانت لأني شعرت أنه كان أفضل من ذلك: كان أكثر ذكاءً، كما بدا عند إقدامه على تلك الخطوة».

ثم عاد النقيب بالبو إلى الحديث عن عقيدة الرجل المنتمي إلى صف الضباط، التي تقدم وصفاً يبين كيف يجب أن يتصرف القائد الجيد. كان قد استجوبني عن العقيدة، فقلت له: إنني لا أتذكرها جيداً. منذ ذلك الحين استغل عدم حفظي عن ظهر قلب دليلاً ثابتاً على ضعف قيادتي.

قال بالبو، مخاطباً فونيز برتبته الجديدة: «أنت الآن برقم E-5، وأفترض أنك مطلع على عقيدة صف الضباط، هل هذا صحيح؟».

لم يفهم النقيب بالبو أن الجنود المشاة لا يحملون معهم نسخة من العقيدة عند خوض معركة، أو أن عدم حفظي للعقيدة عن ظهر قلب ليس سبباً كافياً لإدانتي.

قال الرقيب فونيز: «ليس عن ظهر قلب. لكن أعرف حالياً لب العقيدة».

تابع النقيب كلامه، متجاهلاً ما قاله فونيز: «بما أنك تعرف سبب وجودنا هنا، وأن المتهم قد أدين بالهرب، فهل تظن أنه يجسّد كل القيم التي تتضمنها عقيدة صف الضباط؟».

قال فونيز بلهجة حادة: «كما قلت من قبل، لا أحفظ العقيدة الخاصة بصف الضباط عن ظهر قلب، ولكني أفترض أنها ربما كذلك، وإن أصفها بطريقة معينة، فنحن مخلصون لها وموالون..». ثم استرسل في الكلام، وبعد ذلك توقف لحظة، فقال: «أعني أنني شعرت طول الوقت أننا نمضي الوقت معاً، وصادقته بطريقتي الخاصة، وأنا في الحقيقة أحترمه وهو كان كأنه شقيقي». تمهل مرة أخرى، ثم قال: صرنا جميعاً أشقاء. كان عندنا كره متبادل للحب، وإن كان بيننا تناقص، فإنه تناقص في الشخصيات. ولكني لا أظن أن المرء يترك...».

قاطعه بالبو، قائلاً: «لأنك مرؤوس له، قلت: إنك تشعر أنه شقيق، ألا تفضّل أن يكون قد عاد؟».

بدا فونيز، وكأنه يمرّ بتجربة نزاع حقيقي خلال شهادته، ولكن بالبو لم يفكر إطلاقاً في إعطائه لحظة للتعبير عن مشاعره بكلمات، بل إنه فقط ركز على غضبه وخيبة أمله للإساءة إلى صورتي.

أجابه فونيز: «نعم، لأنني أظن أن هناك طريقة صحيحة، وهناك طريقة خطأ، أنا شخصٌ من ذلك النوع. هنالك دائماً صواب وخطأ».

«وكيف تصف أعماله؟».

«أعتقد أنها كانت الطريقة الخطأ في التصرف. بعض الخطوات الصحيحة، ولكن في الصورة الكبيرة كانت الخطوة الخطأ».

خلال إعادة التوجيه، حاول النقيب رولنغ أن يكشف عن الأمور المعقدة في موقف فونيز نحوي، ونحو ما فعلته.

بدأ كلامه، قائلاً: «من الصعب الإدلاء بشهادة على هذا النحو، أليس ذلك هو الواقع أيها الرقيب فونيز؟».

أجابه فونيز، متجنباً السؤال الحقيقي: «أنا لا أحب أن أكون في قاعة محكمة يا سيدي».

قال رولينغ، مستوضحاً: «ولكن ألست في الواقع شبيهاً بالرقيب ميخيا؟».

«نعم، إنني أشبهه».

«في الواقع تعتقد أنه شخص جيد، أليس كذلك؟».

اعترف بذلك قائلاً: «نعم إنه إنسان عظيم».

سأله رولنغ، مع أن كلامه كان أقرب إلى كونه بياناً أكثر من أنه سؤال: «هناك شخصٌ ما يمكنك أن تظل تتطلع إليه، بالرغم من أخطائك، شخص، بالرغم من كونه كما قلت: يعمد إلى الخيار الخطأ، فهل يظل احترامك له؟».

«بطبيعة الحال».

«وأنت أعطيت اهتماماً وثيقاً بطريقة التعامل بنفسه في المهمات، وبعد المهمات، ألم تفعل ذلك؟».

أجاب فونيز: «بلى».

« وبعد المهمات كان هو شديد التفكير أليس كذلك؟».

«بلى، يا سيدي».

«كانوا شديدي التيقظ بشأن التفكير فيما إذا كانت هذه المهمة هي الصحيحة للقيام بها، أو عدم القيام بها، وهل كان هؤلاء الناس هم الناس الصواب أم لا؟».

بدا رولينغ، دون أن يكون صريحاً، أنه يشير إلى مشاعري بعد القبض خطأ على المدنيين، أو عندما أسيئ التعامل مع السجناء، أو عند قتل الأبرياء. بدا فونيز أنه يفهم إلى أين كان رولينغ يريد الوصول في كلامه:

«بعد قتالٍ بالرصاص أو بعد غارةٍ، كان الرقيب ميخيا يُطيل التأمل في الذي حدث، على نحو ما يفعل كل واحدٍ منّا. ولكنه كان ينقل تفكيره إلى

مستوى آخر... أفكر في هذه الأشياء مدة خمس دقائق، وبعد ذلك تغادر ذهني. إن ما يفعله الرقيب ميخيا فقط هو أنه يواصل تحليل الوضع، بل أظن أنه يبالغ في التحليل. وبطبيعة الحال، تمرّ بضعة أيام تكون أياماً سيئة، بعض الأيام تكون في الحقيقة أياماً سيئة».

اعتقدت أن فونيز وضع هذا التفكير تماماً في الطريق الصحيح: بعض الأيام التي مررنا بها كانت أياماً سيئة، فعلاً بعض أيامنا كانت أياماً سيئة. لم تكن عندنا على الإطلاق أيام جيدة.

تابع النقيب رولينغ كلامه بلطفٍ، فقال: «بوجهٍ خاص وجّه الكثير إلى الجانب البشري في المهمة، هل هذا صحيح؟».

قال فونيز: «نعم، إلى حدّ كبير».

«وهل كانت تلك أفكاراً ذات مغزى بالنسبة له؟».

أجاب فونيز: «بالتأكيد إلى أبعد حدّ».

«هل تعتقد أنه من النوع الذي لا يود العودة، وكان ذلك نزوة؟».

«كلا».

«أليس أكثر تماسكاً القول: إنه من النوع الذي يمكن أن يكون قد حاول القيام بشيء من البحث حول الخطوات الضرورية لمحاولة الطريق الصحيح، والإقدام عليها قبل أن يتخذ قراراً؟».

شعرت بشيء قليل من عدم الارتياح إلى طريقة النقيب رولينغ في طرح السؤال؛ لأنني كنت أعرف أن قراري يستند إلى الضمير، وأن التحقيق في

المسائل القانونية المعقدة لم تدخل في هذا التحقيق. ولكني كنت أقدّر أنه كان من العسير بالنسبة له أن يسلك أي مسلك آخر في قاعة محكمة، عندما كان اعتبار الناحية الأخلاقية قد استُبعدت مراراً من نظام المحكمة.

أجاب فونيز: «نعم، أعتقد أنه كان بودّه أن يفعل ذلك».

«شكراً لك، لا شيء آخر».

كان فونيز آخر شاهدٍ استُدعي للمثول أمام الادعاء. والآن جاء دور الدفاع. بداية اتصلنا بمستشارينا السابقين من جامعة ميامي، خوزيه رودريغز Jose Rodriguez والدكتورة فكتوريا نورييغا Dr. Victoria Noriega. كنت شاكراً لهما وممتناً لشهادتيهما اللتين رسمتا صورة إيجابية جداً لي بوصفي طالباً وكائناً بشريّاً. تبعهما فرناندو سواريز ديل سولار، الذي كان ابنه، وهو من جنود المارينز، قد قتل في العراق من قبل نيران صديقة سببها قنبلة عنقودية. أمّا فرنسيس بويل أستاذ القانون من جامعة إيلينوي الذي سبق أن أدلى بشهادة عن طريق الهاتف، فجاء شخصياً؛ لكي يشرح قوانين الحرب، حسب وصفها في البيان الميداني رقم 27 - 10، فيما يتعلق بسوء معاملة السجناء، كما ورد في طلبي الحصول على وضع المعترض الواعي الذي كان استخدامه مسموحاً به عند مرحلة صدور الحكم.

آخر شاهد اتصلنا به، قبل أن أكون أنا الشاهد الختامي عن الدفاع، كان الملازم بار Barr، قائد الفصيلة الأولى خلال عملية الإغلاق. ومع أنه لم يوضح النقطة بطريقة صريحة، فقد بدت شهادته، وكأنها تشير إلى أن قيادتنا قد سبق أن عرضتنا للخطر من أجل حصول أعضاء القيادة على ترقيات شخصية.

قال الملازم بار متحدثاً عن عملية الإقفال: «من الناحية الجوهرية كنّا نعدّ أنفسنا للفشل بسبب ذهابنا إلى المكان ذاته في الوقت ذاته».

تابع لويس كلامه «وفي اليوم اللاحق ألم تعالج هذه الاهتمامات مع النقيب وارفل؟».

أكد الملازم بار أنه فعل ذلك تكراراً، ولكن النقيب وارفل بدا، وكأنه لم يهتم بما قاله الملازم. بعد أن جرت المهمة بالطريقة ذاتها تماماً خلال ثلاث ليالٍ متتابعة، اقترب الملازم مرة أخرى في الليلة الرابعة.

قال بار، شارحاً: «قبل المرة الرابعة للخروج، صارت المحادثات بين النقيب وارفل وبيني تزداد سخونة»...كان موقفي أنني لم أفهم عدم استعمالنا ما نملكه من معرفة تكتيكية وإدخال شيء مشترك إلى هذه المعرفة». وقال الملازم متابعاً: «كانت احتمالات فرص تعرضنا لهجوم تزداد، كلما خرجنا للقتال هناك».

تابع لويس كلامه، فسأل: «والآن هل كنت الوحيد في فصيلتك من شعر هذا الشعور؟».

أجاب بار بلهجة تأكيدية «كلا، يا سيدي».

بعد ذلك انتقل إلى إبلاغ المحكمة كيف كان إصراره على تخفيف النقيب وارفل للمهم، حين أساء إلى العلاقة بين الرجلين، إلى حدّ أن النقيب بدأ بتقويض وضع الضابط الملازم العامل عنده علناً خلال اجتماعات القيادة. وبعد أن أثبت تبادل الكلام في الليلة الرابعة أنه عديم الجدوى، قال بار: إنه قَبِل دون معارضة القيام بالمهمة بأي طريقة يمكننا أن نفعل ذلك. بعد

ذلك أخذ يصف الهجوم في تلك الليلة بتفصيلٍ واسعٍ، متوقفاً من حينٍ إلى آخر؛ لكي يهدئ نفسه عند تذكره لما حدث، فبدا له أنه كان طاغياً عليه.

أبلغ المحكمة كيف أنه، بالرغم من بذل أقصى جهوده، تعرّضت فصيلته لضربة شديدة، وكيف أن طبيبه، الاختصاصي مايورغا، خسر نصف يده بسبب النيران المعادية، ولكنه مع ذلك تمكن من الإشراف على معالجة ريسيو الذي كان على وشك الموت. وقد وصف هو كيف أن الرقيب الجريح في فصيلته، ماتيو، تسلق إلى سيارة مدمرة؛ لكي يتمكن من استخدام المدفع الرشاش. بدا واضحاً، خلال تقديم شهادته، أن تخليه عن إصراره السابق على اعتبار المهمة فيها مثالب قاتلة، فأصبح كشيطان مازال يتصيّد الملازم.

استوضح لويس بلطفٍ: «عندما تتطلع إلى الوراء، أيها الملازم بار، هل لديك ما يقلقك بشأن عرضك بقوة مسألة تغيير المهمة؟».

كان جلياً أن الملازم بار انزعج، ولكنه أكد أن هذا هو ما حدث.

«مضى على وجودي في الجيش بضعة أعوام، ومع أنني لا أدعي أني أعرف كل شيء، فليس لذلك أي معنى. كنت أنا والنقيب وارفل في خصامٍ بضع مرات. كانت لديه وظيفة قاسية للقيام بها، على نحو ما نفعل كلنا، وأنا عرضت أسباب القلق بأفضل ما أمكنني. أسوأ شيء أنه ما كان ذلك ليحدث. شعرت بحقارة الأمر؛ لأنني شخصياً كان يجب أن أتعامل مع الأمور بطريقة مختلفة.

ركز بالبو خلال استجوابه على الطريقة التي واصل الملازم بار إتباعها للقيام بمهمة، حتى بعد التعرض للهجوم، كان قد نُقل إلى مهمة أشد

خطراً، وهي مهمة قيادة قوافل من الرمادي إلى قاعدة الأسد. لم يَرِد ذكرٌ لقرار وارفل بطرد الملازم من وظيفته بوصفه قائد الفصيلة الأولى. بدلاً من ذلك قدم بالبو سؤالاً: هل كان الملازم بار راغباً في أن أعمل من أجله، في حالة صدور قرار المحكمة بوصفه مذنباً بالهرب؟

أجاب بار: «كلا، ياسيدي».

أخيراً جاء دوري للمثول من أجل استجوابي. كان لويس قد أوضح لي أن هذه الفرصة النهائية لمخاطبة المحكمة كانت معروفة باسم إعطاء بيانٍ دون حلف اليمين، وأن بالإمكان عدم استجوابي حول ذلك.

قال لي لويس خلال تناولي الغداء معه ومع غيل Gale في اليوم الثاني بعد إعلان حكم المحكمة بأني مذنب: «هذه فرصتك لمخاطبة الأعضاء والقاضي، ياكاميلو».

«بإمكانك أن تتحدث إليهم عن عملك التطوعي في ميامي، وعن مساعدتك للناس الذين دون منازل. ويمكنك أيضاً أن تحدثهم عن وجودك في ثلاث جمعيات شرفية في الجامعة».

كان لويس يبذل قصارى جهده؛ لئلا يظهر شديد القلق حول النتيجة المحتملة لصدور الحكم، ولكنه لم يكن قادراً أن يخفي الاستثمار العاطفي الشديد فيما يمكن أن يحدث لاحقاً.

تابع كلامه، فقال: «يجب أن تحدثهم عن علاقتك مع سامانثا، وعن كل الأشياء التي تفعلونها معاً. قل لهم ما تعانيه ابنتك من جراء عدم وجود والدها معها».

obeikandi.com

فكرت لحظةً في كل ذلك، وأدركت أنني فعلاً لا أشعر بالراحة عند إثارة هذه المسائل. لم أفعل أي شيء خطأ ـ بل على العكس تماماً ـ فاستجداء الرحمة من المحكمة ليس بالشيء الصواب. من الناحية الثانية، شعرت بالتزام نحو فريق الدفاع عني، بحيث أبذل قصارى جهدي؛ لتفادي الذهاب إلى السجن. وعندما حدثتُ لويس عن عدم راحتي تبيّن لي أنه أدرك وجهة نظري فوراً. تبادل هو النظرات مع زوجته، فكانت هي التي تتكلم.

«لقد وجدوا منذ الآن أنك مذنب، ولعلهم قد قرروا فعلاً صدور أقصى حكم عليك. لذلك، ما فائدة التماس الرحمة؟ قُل لهم ما يعتلج في قلبك، ياكاميلو، ولا تحجب عنهم أي شيء».

شعرت بالامتنان لهذه التوجيهات من غيل. وعندما مثلتُ للشهادة لآخر مرة استعرضتُ مختلف الشهود الذين استمعنا إلى أقوالهم، أكدت أن اعتراضي على طريقة عملية الإغلاق كان منظماً، ولم أقل: إنها خطرة، بل إنه لم يكن لها لزوم. كررت القول : إنه لم يكن أمراً مقبولاً تعريض أرواح الجنود والمدنيين للخطر، سعياً لحصول الذين في القيادة على تكريم وأوسمة، ثم اتجهت لمخاطبة هيئة المحلفين مباشرة:

«أُكن احتراماً كبيراً لهذه المحكمة، واحتراماً كبيراً لكم... أقف الآن مداناً، ومذنباً... وأنتم تملكون السلطة لوضعي في السجن عاماً، وطردي بتهمة سوء السلوك. ولكن مع كل الاحترام الذي تستحقونه أنتم والمحكمة، يجب أن أقول لكم من أعماق قلبي: إنني أجلس هنا رجلاً حراً. رجعت إلى ضميري، واتخذت تلك القرارات من أعماق قلبي، إن أعمالي ومعتقداتي في الحرب وبعد الحرب جعلتني رجلاً حراً، وأنا بكل الاحترام، ليس عندي ما يدعو للندم.

سأكون حزيناً أن تكون النهاية لي في السجن. لي ابنة سيكون مؤلماً لي ألاّ أراها. أناس كثيرون يحبونني، من ضمنهم محامون لي. هم أيضاً سيدفعون الثمن. لن أقول: إن الأمر لا يهمني، لكن سأذهب هناك مكرماً؛ لأني أعرف أن ما فعلته هو الصواب.

نعم، لديكم السلطة لإدانتي، وإصدار حكم عليّ، وطردي بتهمة سوء السلوك، فأنا وفق أحكامكم كنت جندياً سيئاً، وتملكون هذا الكم الكبير من السلطة، ولكن (عليكم أن تتذكروا) أنني جزء من الجهاز العسكري... أنا واحد منكم، وأسرتي أيضاً منكم.

نحن جميعاً نُحاكم. ليس أنا وحدي فقط، الجالس هنا، بل كل شخص يرتدي اللباس العسكري، وكل واحد في هذا البلد... تقولون: جرائم حرب، سوء معاملة السجناء، جيش الولايات المتحدة؟! كلا. بضعة جنود دون رتبة، ربما، واحد برتبة رقيب، هم الذين فعلوا ذلك. هم فعلوا ذلك؛ لأنهم لا يملكون الشجاعة لفعل ما فعلته أنا، ولأنهم في حالة ضياع في وضع يصعب خلاله معرفة الفرق بين الصواب والخطأ. لعلهم كانوا يخافون عدم القيام بعمل طلبه منهم أشخاص أعلى مرتبة. لعلهم قرروا أنه أسهل لهم أن يفعلوا ما يفعله كل شخص آخر. ولذلك، فإن الأمر الأسهل إبداء الرأي في هؤلاء الناس وتقديمهم للمحاكمة وتوجيه اللوم إليهم... أنا لا أقول: إنهم بغير مسؤولية. إنهم يتحملون بعض المسؤولية، تماماً كما أتحمل أنا بعض المسؤولية عن الأشياء التي فعلتها في العراق، بطبيعة الحال أنا أفعل ذلك. ولكن إذا توجهنا للنظر إلى أنفسنا بصفتنا عسكريين، وإذا أردنا أن نحافظ على كبريائنا وشرفنا بوصفنا عسكريين، فلا بد لنا من البدء من القمة....

«القرار عائد لكم، وليس فقط بصفتكم أعضاء في هذه الهيئة».

قال القاضي، وهو ينظر إلي: «حسناً، عليك أن تكف عن توبيخ أعضاء هذه الهيئة. وإذا كنت بحاجة إلى أن تكون موضع التركيز، فبإمكانك أن تفعل ذلك، ولكن يجب أن تكف عن توجيه ملاحظات إلى الأعضاء مباشرة».

نهض لويس واقفاً، فقال: « باحترام أعترض، أيها السيد القاضي».

أجاب القاضي: «المستشارون لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك، والمتهم لا يمكنه ذلك أيضاً».

أجبته: «أفهم، يا فضيلة القاضي. نحن جميعاً نواجه محاكمة؛ لأن الأمر يتطلب قيادة بارزة، ويتطلب شجاعة أخلاقية للقيام بما نعتقد أنه الصواب، حتى ولو أن الثمن شخصي، وبما أني لست محامياً، لذلك لم أعرف مدى ذلك الثمن، ولكنني كنت أعرف أن من واجبي عرض قضيتي في المحكمة، وكنت أعرف العواقب، وأنا أعرف أن الكثير من الآثام، وربما العديد من السنوات في السجن موجودة على الطاولة. ولكني اعتقدت اعتقاداً راسخاً بما فعلته، وأني بكل احترام أذكر لكم أنني لم أرتكب أي جريمة بمجيئي هنا؛ لأنه ليس من السهولة بمكان أحياناً توفير القيادة، ومهما بدا ذلك ملتوياً، أعتقد الآن وأنا جالس على هذا الكرسي، أنني أوقر تلك القيادة، فأشعر الآن أني حر وليس عندي المزيد من الكلام، يا فضيلة القاضي».

عندما نزلت عن منصة الشهود، وقف أشخاص عديدون من الحضور وبدؤوا الإشادة، أمكنني أن أرى خالتي وخالي اللذين كانا يدمعان. وعندما

تطلعت إلى والدتي رأيت أنها لا تبكي. أعرف أنها كانت متألمة، ولكنها كانت مصممة على البقاء صلبة قوية. وقف لويس وغيل لإعادتي.

قال القاضي مخاطباً الحضور بحزم: «لا بأس. اجلسوا».

ما من أحد أبدى انتباهاً له، فاضطر لإعادة كلامه.

صرخ القاضي، رافعاً صوته فوق الضجيج: «جلوس وهدوء».

ما حدث هو أن قاعة المحكمة هدأت تماماً، وطلب القاضي أن يستمع إلى المناقشات الختامية. اعتلى أولاً للادعاء المنصة، وكان بالبويتابع حملته لتشويه سمعتي. ولكنه الآن كان مضطراً على أقل تقدير للسماح بإمكانية القول: إنني كنت قائداً جيداً.

قال وقد تعكّر طبعه: «إذا كنت تعتقد أن الرقيب الأول ميخيا كان قائد فرقة عظيماً...فهذا سبب أكبر للحاجة إلى بقائه، وإذا شعر بأنه ركيزة للفضيلة في مكان أصعب بطريقة مختلفة، وإذا كان عنده إحساس أفضل بالفرق بين الصواب والخطأ، وإذا شعر أن جنوده كانوا في خطر، وإذا شعر أنهم كانوا يفتقرون إلى قيادة، فإنه يجب عليه البقاء وليس الهرب... لم يتحمل المسؤولية عندما أدلى ببيانه». ثم حدق في هيئة المحلفين مع تجهم واستياءٍ ظهر على وجهه.

«انه يشعر بعدم إقدامه على فعل أي شيء خطأ. وهو لا يشعر بالندم على أي شيء. إنه يقف أمامكم وقفة تحدٍّ، وأسوأ من كل شيء، يعرف أنه تخلى عن رجاله. لم تكن عنده اللباقة مرة واحدة ليعترف أنه آسف. وبناء على ذلك، تطلب الحكومة من هذه الهيئة أن توصي بالعقوبة القصوى».

بدأ لويس نقاشه ببلاغته المعتادة وطريقته اللطيفة دون غضب ودون رفع صوته، مستنداً إلى الحكمة والكلمات الدقيقة.

«السادة أعضاء الهيئة، يشرفني أن أمثل الرقيب الأول ميخيا في قضية تصل إلى لبّ جيش الولايات المتحدة وقيمه الأساسية. أمامي الآن كتاب عنوانه: (ضابط القوات المسلحة) وهو من منشورات وزارة الدفاع».

رفع لويس الكتاب بيديه؛ لإظهاره للمحكمة.

«إنه لا يؤذي إطلاقاً أن نعود إلى المبادئ المؤسِّسة لجيشنا، وفي الكتاب هنا فقرة معينة شديدة العلاقة بما يجري حالياً في قاعة المحكمة هذه، وفي أنحاء العالم، إذا ما واصل الجيش إصدار الأوامر للناس فإنه سيفعل أشياء، كالتي صدر الأمر إلى الرقيب الأول ميخيا أن يفعلها».

بعد أن رفض القاضي اعتراض بالبو على الفقرة، قرأ لويس من الكتاب:

«ضمن مدرسة الفكر العسكري عندنا، لا نعدّ السلطة الأعلى نفسها مبرأة من الخطأ، سواء في القتال أو خارج القتال. وفي أي وضع عندما تصبح غالبية الأمريكيين المدربين عسكرياً غير ملتزمين بالواجب الوظيفي، يكون هذا سبباً كافياً لكي تعيد السلطة العليا النظر في أحكامها، وقواعد السلوك ومناهج العمل».

أغلق لويس الكتاب، بعد أن قرأ الفقرة.

قال، معلقاً: «يا له من مفهوم محيّر للنظام العسكري! ولذلك فإن السلطة الأعلى في النظام العسكري الأمريكي لا تعدّ نفسها منزهة عن الخطأ، فأمامنا هنا جيش مفكر، أشخاص مطلوب منهم أن يفكروا، لا أن يكتفوا بالعمل، والرقيب الأول ميخيا أظهر لنا أنه شخص يفكر».

عاد لويس بعد ذلك إلى عملية الإقفال وأبلغ هيئة المحلفين أن ما حدث في الليلة الخامسة للمهمة أن عدداً من الأشخاص الذين يفكرون، وأنا واحد منهم، قد حملوا القيادة على إعادة النظر في أحكامها ومناهج عملها في القتال. وقد أبلغتهم أنني، في تصريحي دون قسم، وبمفهوم أوسع كثيراً، كنت قد طلبت منهم أن يعيدوا النظر في منهاج عملهم.

تابع لويس كلامه، في إشارة نحوي: «لعله هو الوحيد في هذا الوقت، ولكني بكل احترام أقول لكم: إنَّ هناك ربما أكثر من واحد مثله – ربما إنهم مئات، أو آلاف، أو عشرات الآلاف في المستقبل، إذا لم تُعد سلطة أعلى النظر في أحكامها وقواعد نظامها ومناهج عملها.

بكل احترام أُبدي لكم أن الخيار المناسب هنا، في هذه المحاكمة التاريخية، ليست عقوبة إطلاقاً، والسماح للرقيب الأول ميخيا أن يتابع حياته، والاستماع إليه بوصفه معترضاً واعياً، والسير إلى الأمام. هذا ما أطلب باسم زبوني وباسمي، وأقترح عليكم باحترام أن ذلك هو الأفضل كثيراً بالنسبة لما يحدث في هذه القضية، ليس فقط بالنسبة لزبوني، بل لجيش الولايات المتحدة بشكل عام».

إنه بذلك انتهت مناقشته الختامية. جلس لويس على مقعده، عندها قدم القاضي لهيئة المحلفين إيجازاً عن الأسلوب السليم للتوصل إلى حكم من المحكمة، فتركوا القاعة لإنجاز مداولتهم. وبالرغم من حجم الأدلة والشهادات التي أمامهم، عادوا إلى المحكمة في غضون عشرين دقيقة فقط. دعا القاضي المحكمة العسكرية للعودة إلى النظام، وخاطب رئيس هيئة المحلفين:

«هل استقر رأيكم على حكم في هذه القضية؟».

أجاب المقدم نيكول: «نعم يا فضيلة القاضي».

قدم مساعد مأمور التنفيذ صفحة من الورق، تتضمن صيغة الحكم إلى القاضي الذي تفحصها باقتضاب، دون إظهاره أي رد فعل. طلب القاضي من مساعد مأمور التنفيذ أن يعيد الصفحة المتضمنة الحكم إلى رئيس هيئة المحلفين، وقال وهو ينظر نحو طاولتنا:

«أرجو من المتهم والمستشار الوقوف».

قال القائد: «الكولونيل نيكول، بإمكانك إعلان حكم المحكمة».

قال الكولونيل: «أيها الرقيب ميخيا كاستيلو، قضت هذه المحكمة العسكرية بخفض مرتبتك إلى درجة E - 1، وأن تتنازل عن 795 دولاراً كل شهر مدة اثني عشر شهراً. وأن تُحتجز اثني عشر شهراً، وأن تُفصل من الخدمة بتهمة سوء السلوك».

عندما حان الوقت لمرافقتي من قبل الحراسة إلى خارج قاعة المحكمة لنقلي إلى السجن، طلبت لحظة؛ لكي أودّع أسرتي. عانقت زوج أمي، وخالي، وخالتي، وجدتي لأمي، ثم تحولت نحو والدتي الحبيبة. عندما رأيتها تذكرت من أين كان مصدر استمداد قوتي المعنوية. هي التي نشأتني على طرح الأسئلة دائماً، وأن أفعل دائماً الشيء الصواب، بغض النظر عن العواقب، فلم تظهر على وجهها علامات هزيمة. قالت لي: إنها تحبني وقبّلتني قبلة الوداع.

عندما خرجت من قاعدة المحكمة لم أكن حزيناً، ولم أشعر بمرارة، ولم أكن خائفاً، فبدلاً من ذلك شعرت بحصولي على القوة في ذلك اليوم الجميل.

عندما نظرت إلى الوراء، أمكنني أن أرى أي رحلة طويلة كانت للوصول إلى فهم حياتي التي تبدو اليوم واضحة تمام الوضوح. الآن أدرك أن رفضي المشاركة في حرب لا يمكن الدفاع عنه أخلاقياً، فقد كان رفضاً من الواجب أن أعتمده منذ البداية. ولكن رؤية الأشياء في منظور أوسع كان يتطلب مني الذهاب إلى الحرب، وأن أدرك أنني كنت في أعماق نفسي، معترضاً واعياً.

يمكن الادعاء أن حرباً معينة هي حرب لها ما يبررها سياسياً، أو أنها ستحظى بتأييد المجتمع الدولي ومباركة القانون الدولي. لكن هذه الحجج لم تنقل إلى الناس إطلاقاً الصور، والأصوات، والروائح، أو أي شيء يعطي عن بُعدٍ صورة الرعب الكامل للحرب. إن التهرب من تلك الحجج هو الضرر الذي لا تراجع فيه، والذي تفرضه الحرب دائماً على البشرية، وعلى كل شيء جدير أن يحبه الناس على الكرة الأرضية.

في نهاية الأمر، الحرب هي تدمير الحياة.

وحتى قبل إرسالي إلى العراق كنت قد اقتنعت بالأكاذيب المتداولة عن وجود أسلحة دمار شامل، وأننا كنا نقاتل ضد الإرهاب العالمي، وحتى لو حدث أن كانت تلك الأكاذيب تبيّن أنها صحيحة، فما من شك في فؤادي، اليوم، أنني مازلت أكره كل حرب وأقاومها.

مرت أوقات في العراق أخفقت خلالها في رؤية الأشياء بالطريقة التي كان يُفترض بي بوصفي جنديّاً أن أراها. كنت أعرف أن الأماكن التي نسميها أهدافاً كانت في الحقيقة منازل، وساحات عامة، أو أسواقاً، عندما كنت أعرف أن الذين نسميهم مقاتلين أعداء، أو إرهابيين، أو موالين إلى صدام، إنما كانوا في الحقيقة أبناء وبنات، وأصحاباً، أي كائنات بشرية. في تلك المناسبات، عندما دمرتُ الحياة البشرية بإخفاقي في رفضي الأوامر الصادرة إليّ، تنكرت لنفسي، ولجنودي، وللشعب العراقي، والبشرية جمعاء.

كان ينبغي علي أن أقاوم الأوامر التي تلقيتها، وكان يجب أن أقاتل من أجل كرامة الحياة وصيانتها. ولكني لم أفعل؛ لأني كنت شديد الخوف، ولأنني كنت حتى دون القيود والأصفاد، سجيناً، سجين خوفي الخاص، كنت أعرف الدرب الصحيح الذي يجب أن أسلكه، ولكني لم أشعر أنني حر لأفعل ما كنت أعرف في قلبي أن ذلك هو الشيء الصحيح.

أعرف الآن بالضبط ما هو الشيء الذي منحني اكتساب القوة لدى مغادرتي المحاكمة. ومع أنه كانت الأصفاد في يديّ عند نزولي على الدرج لمغادرة قاعة المحكمة للوصول إلى سيارة الشرطة، فقد كانت تلك اللحظة التي اكتسبت عندها حريتي. آنذاك فهمت أن الحرية ليست شيئاً جسدياً، بل حالة في العقل والقلب. وعلمت في ذلك اليوم أنه لا توجد حرية أكبر من حرية أن يتبع الإنسان ضميره. في ذلك اليوم كنت حراً، أكثر بكثير مما كنت حراً في الماضي.

ملاحظات

1- سِجلّ محاكمة الرقيب الأول ميخيا ـ كاستيلو، كاميلو، المجلد الثاني من خمسة، ص 67.

2- المرجع السابق، ص 98 - 97.

3- المرجع السابق، ص 110.

4- E-6 هو درجة الراتب الذي يقابل مرتبة رقيب أول في جيش الولايات المتحدة.

obeikandi.com

مذكرة رئيس التحرير

الحكم بسجن الرقيب الأول ميخيا بدأ مباشرة بعد انتهاء المحاكمة بتاريخ 21 أيار(مايو) 2004، ولدى صدور الحكم جرت تسميته «سجين الضمير» من قبل العفو الدولي. ذكرياته عن الزمن الذي أمضاه في السجن إيجابية إلى أبعد حد. والواقع، من عدة وجوه، كان زمنه في السجن علاجياً. لقد اختار أن يضع نفسه في وضع يمكنه فيه أن يستعيد كل لقطات الصور المهمة في حياته: ليس قتل الناس، ولا إذلالهم، ولا سجن الناس الأبرياء، ولا الإساءة إلى السجناء. لقد كان أيضاً في النهاية في وضع يسمح له باتخاذ قراراته الخاصة إزاء كيفية تمضية وقته. كان عنده الوقت للقراءة، والكتابة والقيام بعدة أعمال، فبعد أن كان في القتال الفعلي، ثم بعد أن صار هارباً قبل الذهاب إلى السجن، مرَّ وقت طويل منذ أن تمكن من تخفيف حذره بالكامل.

قراءات ميخيا تنوعت واتسعت، بدءاً من الكتاب المقدس والكتابات الفلسفية لكل من سقراط، وكامو، وسارتر، والروايات الشعبية مثل: (شيفرة دافنشي The Davinci Code وكتب الملاحظات، وزعزعة السلام، وقضية الأب روي بورجوا Father Roy Bourgeoa التي كانت الكتاب الأرسخ في الذهن الذي قرأه في السجن. قدم الكتاب إعارة لمن حوله، وهذا أحدث صرخة من البيرية الخضراء Green Beret وحوّل سجيناً آخر ـ أفضل صديق له في السجن ـ إلى مهاجر مؤقت ناشط في مجال الحقوق. أما كتابات ميخيا، فقد تراوحت بين رسائل إلى جريدة السجن وقصة

فكاهية في مجلة شهر التراث الأسبانية Hispanic Heritage Month. وكان قادراً أن ينشّط بعض المحادثات السياسية والتفكير في السجن.

وبحسب قول ميخيا: إن أسوأ لحظة مرّ بها في نحو تسعة شهور أمضاها في السجن، كانت عندما جاءت ابنته سامانثا لزيارته. ولأنه رآها، ثم راقب مغادرتها دونه في نهاية الزيارة، جعله يشعر أنه سجين حقيقي، أشبه بانتزاع شيء جوهري من حياته. مع ذلك، وحتى في تلك اللحظة لم يشعر بالندم ولا أعاد النظر في قراراته. إنه يعتقد أن آلاف رسائل التأييد التي تلقاها، وهو في السجن كانت جزءاً من سبب بقائه ثابتاً في عزيمته. ومن المؤكد لم تكن كل رسالة جاءَته كانت إيجابية، ولكن غالبية الرسائل فعلت فعلها كتذكير له أن ملايين الناس من سائر أنحاء العالم كانوا يعلمون أن حرب العراق كانت حرباً إجرامية. والآن فإن معظم الناس في أمريكا معادون للحرب، ولكن لم تكن الحالة هكذا في عام 2004. أما في أمكنة أخرى من العالم، فعرف الناس منذ البداية أن الحرب غير أخلاقية وغير عادلة، وكانوا ينتقدون بعمق طريقة معالجة الولايات المتحدة للحرب ولقضيتها، فعرف موقفهم حيالها.

في يوم إطلاق سراحه، يوم 15 شباط (فبراير) 2005 وجه ميخيا علناً الشكر إلى «الناس جميعهم وسائر المنظمات وجميع الذين ساندوا عائلته، وساندوه طوال هذا الزمن الأصعب في حياته وحياة أسرته» وفي حين أنه كان سعيداً بالإفراج عنه مبكراً؛ لقاء حسن سلوكه، فقد غادر السجن ذلك اليوم بعواطف ممتزجة. لقد صادق كثيرين في السجن، وصار معتاداً على برنامج وأمور متكررة. وعلى الرغم من ابتهاجه بالعودة لينضم إلى أسرته، فلم يكن تواقاً إلى فعل أي شيء يفوق تمضية الوقت

معهم، كان يعلم أنه لابد له من الابتعاد عنهم مراراً، وشعر بأن واجبه الأخلاقي يتطلب منه الخروج للتحدث في سائر أنحاء البلد ضد الحرب.

قفز ميخيا إلى النشاط الفاعل مباشرة، فتحدث في مدينة أوكلاهوما فور إطلاق سراحه. ولدى عودته إلى ميامي تحدث أمام جماعة مناقشة عامة اسمها ميديا بنيامين الرمز القرنفلي Medea Benjamin of Code Pink، وقد واصلت هذه الجماعة العمل من حين إلى آخر. ومن هناك انطلقت الأمور، وشرع يتحدث في أنحاء متعددة من البلد. وفي وقت مبكر انضم إلى المنظمة المعادية للحرب، وهي منظمة المقاومين القدماء للحرب في العراق، وقد تحدث إليهم أولاً في اجتماع حاشد في مدينة فايتفيل، في كارولاينا الشمالية، وموقعها خارج قلعة براغ Fort Bragg. وصار أيضاً فاعلاً بالعمل مع جماعة «المحاربين القدامى أنصار السلام، وجماعة أعضاء في منظمة توفر تقديم المشورة للمحاربين القدامي في العراق، إذ يمكنهم التحدث، ويشاركون في النشاط السياسي.

لا يسافر ميخيا كثيراً هذه الأيام، بل يملأ كامل وقته بالعمل في ميامي، ويتطلب برنامجه أن يتخرج في الكلية في شهر أيار (مايو) 2007. ومع أنه لا يزال يبدي اهتماماً بالعمل لنيل شهادة الدكتوراه، فإنه يأمل الآن أن يدرس العلوم السياسية بدلاً من علم النفس. الأمر الأهم أنه يمضي الكثير من الوقت مع أسرته كل يوم.

بعد نحو عامين بعد الخروج من السجن، فالأمور في حياة ميخيا لم تجد حلولاً كاملة. ولعلها لن تجد حلاً إطلاقاً. إن القرار النهائي بشأن طلبه وضع المعترض الواعي، الذي قدمه قبل أكثر من عامين، فمازال

obeikandi.com

ينتظر البت فيه، وكذلك الأمر بالنسبة لتسريحه من الجندية بتهمة سوء السلوك، وكان قد تقدم بالتماس بشأنه. مع ذلك، فإنه يشعر براحة البال إزاء ما فعل سابقاً، وما اجتازه من أمور. لقد أصبح الشخص والأب الذي كان يأمله في أزقة الرمادي. وهذا يكفي حالياً.

obeikandl.com

اعترافات بالجميل

أولاً، وفي المقدمة أشكر الشخصين الأكثر أهمية في حياتي: والدتي ـ مارتزا Maritza التي نشأتني لأن أكون لا مطيعاً ولا ملتزماً بالأوامر، بل أن أستفسر دائماً، وأن أفعل ما هو صواب، وابنتي سامانثا التي منحتني غاية، وكانت القوة الدافعة لتمردي. وأشكر جميع أسرتي؛ لقاء دعمهم الكامل لكل خطوة على هذا الطريق الطويل، وخاصة خالتي نورما ـ الصديقة وموضع الثقة في الظلام والنور ـ وجدتي أنتونيا، وزوج أمي خوليو، وخالي ألكس Alex، وشقيقي ووالدي، وكلاهما يحمل اسم كارلوس.

والشكر الخاص لكل من لويس فونت وغيل غليزر، اللذين شجعاني لاتخاذ موقف، ودافعا عني كما لو كنت ابناً لهما. والشكر كذلك إلى تود أنساين، ورامزي كلارك، وجول لويل، وفرانسيس بويل، وإلى الذين قدموا لي النصح في جامعة ميامي، وإلى أسرتي الجديدة، أسرة راندا The Randas، وجميع الناس الرائعين في دير السلام، والشكر إلى شارلي ونانسي، والكثير من الحب والتقدير لجميع النساء في جماعة الشفرة القرنفلية، وإلى حبيبتي صوفي وصديقيّ العزيزين كريستيان وكيم؛ لما خصوني به من وقت ثمين ونصحٍ.

لقد آمن كولن روبنسون، رئيس التحرير وصديقي بهذه المذكرات، حتى قبل أن أؤمن أنا بها، وهو تحمّل الكثير من نوبات الغضب طوال عملية تحرير المذكرات: الكثير من الفضل والشكر لك، ياصديقي. والشكر إلى صديقي

أندي روبنسون لتحقيق الاتصال بيني وبين كولن ونيوبرس، ولمساعدته لي في العنوان. وإلى اليزابيث سيدلين برنشتاين أقول: إن إرشادك الكريم والمطمئن وفَّر لي السلام في أثناء كتابة المسودة. الشكر لجميع العاملين في نيوبرس، وخاصة إيلين أدلر وميشايلا دانييل على عملكما الشاق وأخذكما المسودة إلى المنزل والعمل في عطلات الأسابيع، لجعل هذا الكتاب كتاباً أفضل. والشكر إلى وكيلي الأدبي، فرانسيس غولدن؛ لأنه كان أفضل وكيل يمكن أي كاتب أن يجد مثله؛ لحبه لي،، وأنا أحبك أيضاً.

«الطريق بدءاً من الرمادي» أساسه طريق حقيقي، طريق يحدّق فيه أشخاص كثيرون دون اتخاذهم أبداً خطوة إلى الأمام. خلال مدة طويلة حدّقت أنا أيضاً في طريقي الخاص، مشلولاً وغير قادر أن أتحرك أو حتى إن أقول كلمة. ومع أن الرحلة كانت مظلمة ومروّعة أحياناً، أحسست دائماً بشكل ما أنني لست وحيداً، وتابعت البحث عن سلامي. أود أن أعترف بالجميل للذين ساروا معي، عن معرفة أو غير ذلك، والذين منحوني القوة لأتابع السير ضمن أعضاء منظمة السلم والعدالة. جنودي وشعب العراق وحتى الذين أطلقوا الرصاص عليّ. هذه هي قصتي.

خاتمة

بقلم: كريس هدجز ـ Chris Hedges

هناك نوعان من الشجاعة، الشجاعة الطبيعية والشجاعة الأخلاقية. شاهدت الشجاعة الطبيعية في ساحة المعركة خلال عقدين من السنين، إذ كنت آنذاك مراسلاً عن الحرب في أميريكا اللاتينية، وأفريقيا، والشرق الأوسط، والبلقان. ولكني قلّما شاهدت الشجاعة الأخلاقية. إن الشجاعة الأخلاقية أصعب؛ فهي تتطلب من المتحمِّل أن يسير مبتعداً عن التوافق الحار للزمالة، وأن يستنكر خرافة الحرب؛ لأنها مزورة، وأن يسميها مشروعاً للموت وعدم الأخلاقية، وأن يدين نفسه، والذين حوله، بصفتهم قتلى. إنها تتطلب أن يصبح المتحمّل منبوذاً. نحن لا نحب أساطيرنا، الأساطير التي نرويها عن أنفسنا، التي نتحداها. نحب أن نشعر بتمكيننا بالقوة بواسطة قوتنا، وبواسطة تخيُّل نبلنا وطيبتنا. نحن لا نريد أن نسمع أو نرى أيّ شيء يجري عمله باسمنا. ولذلك فإن الذين يستدعون الشجاعة الأخلاقية ـ مثل كاميلو ميخيا ـ لإدانة بربرية الحرب وعقم احتلال العراق ورفض الاشتراك في فُسوقه إنما يقفون بيننا على شاكلة أشبه بالنقاط التهكمية للضوء في بحر من الظلام.

هنالك آلات عسكرية وحالات بيروقراطية في الدولة، التي تسعى لجعلنا نطيع، وتسعى أيضاً لإسكات الذين يعودون من الحرب، راغبين في قول الحقيقة. ولذلك يحسن بك أن تقرأ هذا الكتاب بوصفه حكاية تحذيريّة، ومنبهاً حادّاً إلى أن الحرب عمل ذبحٍ صناعي، وأن جوهرها

هو الموت بوصفه يشوه جميع الذين ينخرطون فيها، وأن كبار السن في الحرب يُضَحُّون دائماً بالأصغر سناً، وأن الساخرين الكلبيين يرسلون المثاليين إلى الموت، وأن السياسيين يبيعون الجنود ذاتهم الذين يجذبونهم إلى المعركة. والحرب هي دائماً، ونهائياً، تتعلق بالخيانة. فأولئك الذين في موقع السلطة، ومن ضمنهم كبار الضباط الطامحون الذين أرسلوا ميخيا وفرقته للمشاركة في القتال، وذلك فقط لتحسين سِيَرهم الذاتية، وهؤلاء لم يحاربوا في سبيل الله والبلد، بل من أجل الربح والطموح. والذين يدفعون الثمن في الحرب، أي الجندي العادي أو جندي مارينز فإنهم عادة تتجعد أجسادهم ومصيرهم إن تم نبذهم عند عودتهم إلى الوطن، ويُتركون للكفاح مع كابوس ما فعلوه وما فعله الآخرون لهم.

ميخيا هو ابن للثوريين في نيكاراغوا الذين ساعدوا على الإطاحة بدكتاتورية أناستاسيو سوموزا Anastasio Somoza. فإنَّ والده، وهو أحد الموسيقيين والناشطين الأكثر شهرة في نيكاراغوا كان مختبئاً خلال زمن الديكتاتورية. وقد سُمي ميخيا باسم بطلين ثوريين من أميركا اللاتينية: كاميلو توريس Camilo Torres وهو كاهن كاثوليكي من كولومبيا مات خلال القتال، وأرنستو تشي غيفارا،قائد الثورة الكوبية. إن إرث ميخيا، إضافة إلى ذكائه وشعوره بالمحبه، كانت مصدر قوة له عندما حان الوقت للتشكيك في السلطة وتحدّي المسؤولين العسكريين في العراق. إن حظوظه وحظوظ أسرته ارتفعت وسقطت مع ارتفاع وسقوط التيارات السياسية التي واجهت وطنه في أميركا الوسطى، ولكن ما لم يضعف إطلاقاً هو ضميره وإدراكه، اللذان انتقلا إليه من والديه، إن الطاعة العمياء لأي قضية أو لأي مصدر للسلطة ـ حتى الحركة الساندينستة اليسارية ـ هي شكل من أشكال العبودية.

عندما بلغ ميخيا سن الثامنة عشرة من عمره كان هو ووالدته يعيشان فقيرين في ميامي. كان راتب أمه التي كانت تعمل في صرافة النقود في سوبر ماركت لا يكفي لتغطية أجرة المنزل وإطعام العائلة. فلمّا صار ميخيا في سن اليفاعة حصل على عملٍ في مطعم للوجبات السريعة، حيث كان يكنس مكان وقوف السيارات، ويُنزل الكراسي عن الطاولات، وينظف أماكن الاستحمام كل صباحٍ، قبل أن يعمل ست ساعات في المطبخ. كان يحصل على استراحة مدتها ساعتان قبل أن يذهب إلى المدرسة الليلية للدراسة من أجل الحصول على الشهادة المدرسية العليا. كانت أيامه تبدأ عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً، وتنتهي عند الساعة العاشرة ليلاً. وبعد أن حصل على شهادته المدرسية العليا بدأ يحضر دروس الكلية الأهلية، ولكنه واجه نفاد ماله، وهو مثل كثيرين من الشباب والشابات الذين لم يحصلوا في أميركا إطلاقاً على أعمالٍ لها قيمتها، فصار الجيش هو أمله الأخير.

فقد كتب: «إن الشخص المسؤول عن التجنيد لم يكن مضطراً فعلياً للقيام بعمل شاق لجعلي أوقع عقداً غدّاراً. فالجيش كان يعرض استقراراً مالياً وتعليمياً في الكلية، وهاتان منفعتان كان يبدو من العسير إيجادهما في أي مكان آخر». ولكن ذلك العقد تضمن فقرة تتطلب من كل شخص ينضم إلى توقيع العقود موافقاً على الالتزام بالبقاء في العمل العسكري ثمانية أعوام، حتى ولو كانت هذه المدة فقط القيام بالعمل الفعلي، كما كان ميخيا مدة ثلاثة أعوام. إن التزامه بثمانية أعوام في العمل العسكري كان على وشك أن ينتهي في شهر أيار (مايو) عام 2003، عندما أعلن جورج بوش الحرب، مع أن ميزته وثروته جنباه الصعوبات التي تعرّض لها

أناس، مثل ميخيا. في شهر كانون الثاني (يناير) ذلك العام جرى تجنيد ميخيا دعماً لعملية «حرية العراق». إن التزامه بالجيش جرى تمديدها حتى العام 2031 وبعد شهرين ونصف الشهر كان قد وصل إلى العراق.

الجانب القبيح للعنصرية والشوفينية الأميركية ظهر في لحظة وصول وحدته إلى الشرق الأوسط. رفاقه الجنود سخروا على الفور من المراحيض على الطريقة العربية؛ لأنه كان عليهم «أن يقضوا حاجتهم كالكلاب». وكان الجنود الذين حوله يعاملون العراقيين الذين لا يعرفون لغتهم، وثقافتهم غريبة عنهم معاملة أفضل قليلاً من معاملة الحيوانات. وأصبحت كلمة «حجي» بسرعة إهانة تشير إلى العراقيين، على غرار إلى حد كبير كلمة Gook التي استُخدمت لتحقير الفيتناميين أو الرأس العفن «Rag Head» التي تستعمل لتحقير الذين في أفغانستان. وسرعان ما بدأ الذين حوله يسخرون من «طعام الحجي» و«مساكن الحجي» و«موسيقا الحجي».

إن السجناء الذين تملكتهم الحيرة، كان يجري القبض عليهم في غاراتٍ لا فائدة منها ولا تفرقة فيها، إذ كانوا يعرُّون من ملابسهم فيقفون مرعوبين وتأخذهم الحيرة ساعاتٍ في الشمس الحارقة، حيث يتعرضون لدفقٍ مستمر من العبارات اللفظية والجسدية القذرة.

هذه المشاهد من سوء معاملتهم، التي كانت بدايتها فوراً بعد الغزو الأميركي كانت أكثر قليلاً من الأعمال الجماعية السادية. كان ميخيا يراقب دون أن يجرؤ على التدخل، ومع ذلك كان يشعر بالقرف من معاملة المدنيين العراقيين. كان يرى أن سوء تعامل السلطة القاسية كان سبباً في بعد العراقيين عنهم، ثم تسبب في كراهية قوات الاحتلال. وعندما

قامت وحدات من الجيش بالإغارة على المساكن التي فجرها الجنود فوق عائلات مرعوبة احتشدت هذه الوحدات في الزوايا، فهدَّد الجنود بأسلحتهم، وتناولوا الطعام وأخذوا أشياء دون أي إذن أصحابها.

كانت عائلات عراقية تُطلق عليها النيران بصورة اعتيادية على كل من يقترب كثيراً من نقاط التفتيش، بما في ذلك حادثة قطع رأس رجل أب غير مسلّح كان يقود سيارة بواسطة مدفع رشاش من عيار خمسين، وحدث ذلك أمام ابنه الصغير، ومع ذلك، كما يقول ميخيا: «هذا النوع من قتل المدنيين لم يعد يثير الكثير من الاهتمام، بل لم يعد يثير أي ملاحظة». كان الجنود يطلقون النار لإحداث ثقوب في أوعية تتضمن وقوداً، كانت تُباع إلى جانب الطريق، ومن ثم كان الجنود يرمون قنابل محرقة في أحواضٍ؛ لجعلها تشتعل ناراً. وقد قال أحد الجنود: إنه كان أمراً مسلياً إطلاق الرصاص. بعض الجنود كانوا يطلقون النار على أولادٍ صغار يرمون حجارة. وعندما انفجرت عبوة عشوائية بدأ الجنود يطلقون الرصاص بجنون على أحياء مكتظة بالسكان، مخلفين ضحايا أبريا، وهؤلاء الضحايا صاروا، بلغة الحرب القاسية «أضراراً جانبية».

إن سخافة الاحتلال ووحشية كانا سبب أعمال القتال من جانب المناضلين إلى حد أن ميخيا وفرقته وجدوا أنفسهم يعيشون في بحر من العداء. في إحدى النقاط كانت الوحدة محاطة بجمع غاضب يحتج على الاحتلال. وقد أطلق ميخيا وفرقته النار على عراقي يحمل قنبلة يدوية، فامتلأ جسد الرجل بالرصاص. بعد ذلك أوقف ميخيا استخدام سلاحه، وقرر أنه كان قد أطلق إحدى عشرة رصاصة على الشاب. إن العدو المراوغ، الذي قلما كان يراه الجنود الأمريكيون أخذت قنابله تَعُدُّ قائمة بالموتى،

وهذا ما جعل ميخيا ومن حوله يحوّلون كل عراقي إلى عدو. هاجمت الوحدات دون مبالاة الأحياء المجاورة المزدحمة بمدافع رشاشة ثقيلة من نوع برافو 240 - M وقاذفات قنابل من نوع 4 - AT وMark19 التي تنفث قنابل. كان العالم يدور دون سيطرة وصار احتلال العراق عملاً وحشياً لا نهاية له.

سرعان ما فقد الجنود الأمريكيون بوصلتهم الأخلاقية. لقد سخروا بِرُفَات الموتى العراقيين. ففي إحدى الحوادث روى ميخيا كيف كان الجنود يضحكون عند سقوط جثمان عراقي من مؤخرة شاحنة.

إن أحد الجنود الذي كان من أفراد فرقة ميخيا في الفصيلة الثالثة يقول، وقد وضع ذراعه حول الجثمان: «التقِط صورةً لي مع هذا ابن العاهرة».

سقط الكفن من حول الجثمان، كاشفاً للمشاهدين شاباً صغيراً لا يلبس سوى سرواله. كانت رصاصة قد أحدثت ثقباً في صدره.

ضحك الجنود قائلين: «اللعنة، لقد فعلوا بك اللواطة، أليس كذلك؟» مخاطبين الميت.

يقول ميخيا: إن هذا المشهد رآه أشقّاء الرجل الميت وأبناء عمه.

إحدى اللحظات الحادة المؤثرة وردت سيرتها في الكتاب عندما تقبّل المعمودية ميخيا ورفاقه الجنود في مياه نهر الفرات الذين عمّدهم قسيس عسكري، ولكن المعمودية لا تكفي لإزالة لعنة العنف والدم، ومن ثم أصبح مرض ميخيا هو مرض الحرب، فعندما غمره الغضب أحد الأيام عند نقطة إغلاق الطريق رفع ميخيا بندقيته الهجومية من نوع 16 - M لإطلاق الرصاص على عراقي جريح في سيارة إسعاف؛ لأنه خاف أن تكون في

السيارة قنبلة. مَنَعه من فعل ذلك بفضل تدخُّل جندي آخر. لكن الحادث كان حداً فاصلاً بالنسبة إلى ميخيا، الذي شعر بالغثيان بسبب تحوّله إلى ما أصبح عليه آنذاك، وإلى حاله التي وصل إليها بسبب الحرب، وبسبب ما يجري فعله في العراق. عند تلك النقطة اتخذ قراراً أنقذه بوصفه كائناً بشريّاً، فقد قرر أن يمتنع بعد ذلك الوقت عن إطلاق النار على العراقيين. إنه سيتحول إلى معترض صاحب ضمير. أراد أن يتحمل سخرية رفاقه الجنود، بدلاً من أن يصبح شريكاً في مذهب المقاتل، ويتخلى عن ضميره.

بدا أن قلة من كبار الضباط يزعجهم القتل؛ لذا فمعظمهم ابتعدوا قدر الإمكان عن القتال، مرسلين الجنود في مهمات عقيمة؛ سعياً للحصول على أوسمة المشاة المقاتلين، وفي رأي ميخيا أن هذا التصرف جوهري من أجل تحقيق مزيد من التقدم في مرتباتهم بوصفهم ضباطاً.

إن هذا التصرف يعني أن «عدداً قليلاً من الضباط ذوي المرتبات العالية انخرطوا في القتال، بينما الضباط الأدنى مرتبة خافوا من معارضتهم عندما يكونون مخطئين». فالأوسمة ـ التي تحمل شعار البندقية القديمة musket مع المطرقة موضوعاً في أعلى إكليل من السنديان ـ تمنح في نهاية الأمر إلى القادة الذين جاؤوا بخياطين عراقيين عن طريق البحر لخياطة الأوسمة وتثبيتها على الجيب الأيسر لصدورهم في ألبسة القتال في الصحراء.

إن ميخيا، الذي كان يمضي إجازة في فلوريدا، ذهب أخيراً في إجازة دون إذنٍ، إذ سلّم نفسه إلى السلطات العسكرية، بعد ذلك بخمسة شهور للمثول أمام محكمة عسكرية.

openkandil.com

قال العقيد المسؤول عند تلاوة الحكم: «أيها الرقيب ميخيا ـ كاستيلو، حكمت المحكمة العسكرية بتخفيض راتبك إلى E-1، والتخلي عن راتبك الشهري مدة اثني عشر شهراً، وأن تظل سجيناً اثني عشر شهراً، وأن يتم تسريحك من الخدمة بتهمة سوء السلوك».

عندما رافقته الحراسة عند إخراجه من قاعة المحكمة، والأصفاد في يديه لدخول السجن عانق والدته، مدركاً أن هذا التحدي من جانبه أكسبه حريته.

obeikandl.com